



# الإغريق

تأليف

ه. د. كيتو

ترجمة

د. محمد صقر خفاجة

راجع

عبد الرازق يسري

دار الفكر العربي



# الإعراب

تأليف  
ه. د. كيثو

راجعه  
عبد الرزاق يسري

ترجمه  
الدكتور محمد صقر خفاجه

مركز النشر والنشر  
وزارة المعارف  
١٩٦٢

هذه ترجمة كتاب :

**The Greeks**

تأليف :

**H. D. F. Kitto**

# بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

## مقدمة

مطلوب من القاريء حالياً أن يقبل ما يأتي على أنه بيان معقول عن الحقيقة : ذلك أن شعباً لم يكن كثير العدد ، ولا عظيم القوة ، ولا رافع التنظيم أخذ يظهر شيئاً فشيئاً في جزء من العالم كان متحضراً ، بل كان عظيم الحضارة خلال عدة قرون ، وكانت لديه فكرة جديدة كل الجدة عن القصد من الحياة الإنسانية، كما أنه بين لأول مرة المراد من العقل البشري . وسأوفي هذا البيان حقه كما أرجو أن أدلل على صحته . ومن الممكن أن نبدأ استيفاءنا الآن بأن نلاحظ أن الأغريق أنفسهم كانوا يشعرون بطريقة بسيطة وطبيعية جداً بأنهم مختلفون عن أي شعب آخر عرفوه . فلقد كان الأغريق عادة في العهد الكلاسي (1) Classical على الأقل يقسمون العائلة البشرية إلى هيلينيين وبرابرة . أما الأغريق الذي كان يعيش قبل العصر الكلاسي مثل « هومر » فلم يكن يتحدث عن البرابرة بهذا الأسلوب ، لا لأنه كان أكثر أدباً من ذريته ، بل لأن هذا الاختلاف لم تكن قد وضحت معاملة بعد .

فالموضوع في الحقيقة لم يكن للأدب دخل فيه على الإطلاق . فكلمة « برابروس » الأغريقية لا تعني « بربريا » بالمعنى الحديث ، فهي ليست لفظة مقت أو احتقار . ولا تطلق على الآلهي الذين يسكنون الكهوف وبأكلون اللحم النيء . ولكنها تعني فقط أولئك الذين يحدنون أصواتاً شبه « بربر » بدلاً من أن يتكلموا اليونانية . فإذا أنت لم تتكلم الأغريقية

---

(1) سنستعمل كلمة « كلاسي » للدلالة على الفترة التي تمتد من منتصف القرن السابع قبل الميلاد تقريباً إلى فتوح الإسكندر في النصف الأخير من القرن الرابع .

كنت و بربريا . سواء كنت تنتمى إلى قبيلة همجية من قبائل تراقية أو كنت تسكن مدن الشرق المنرفة أو مصر التي كان يعرف الأغريق جيداً انها بلاد عريقة كانت متحضرة قبل أن توجد بلاد الأغريق بقرون كثيرة . ولفظة « برباروس » لم تكن تتضمن بالضرورة معنى الاحتقار . فكثير من الأغريق كانوا معجبين بقانون الفرس الأخلاقي وبحكمة المصريين . وقبلنا نسى الأغريق الدين المادى والفكرى والفنى الذى كان عليهم لشعوب الشرق . ومع ذلك فقد كانوا يعتبرون هذه الشعوب « برابرة » أى أجنبية ، ويضعونهم فى طبقة واحدة مع أهل سكوثيا وتراقيا وآهthalm ( وأن لم يخلطوا بينهم ) . فهل كان ذلك مجرد أن تلك الشعوب لم تكن تتكلم اللغة الأخرىقية ؟ لا ، إذ أن عدم تحدثهم بالأخرىيقة كان حقيقة تدل على اختلاف أبعد من ذلك ، فهو تدل على أنهم لم يكونوا يعيشون أو يفكرون كالأغريق ، أى أن كل موقفهم تجاه الحياة كان يبدو مختلفاً . والأغريق مهما كان إعجابه أو حسده للبربرى كبيراً لسبب أو لآخر ، فإنه لم يكن يملك إلا أن يدرك هذا الاختلاف .

ويمكننا أن نلاحظ ، ونحن فى معرض الحديث ، أن جنساً آخر (دون أن ندخل أنفسنا فى الاعتبار) هو جنس العبريين قد أوجد هذا التمييز الشديد بينه وبين الغرباء . فهذان جنسان كان يدرك كل منهما إدراكاً تاماً أنه مختلف عن جيرانه ، وقد كان أحدهما يعيش بعيداً عن الآخر بعداً ليس بالكبير وإن كان كل منهما يحمل الآخر جحلاً تاماً فى أكثر الأحيان ، ولا تأثير له عليه حتى بداية الفترة التى تلت فتوح الإسكندر ، عندما أثر التفكير الأخرىقى فى التفكير العبرى إلى حد كبير ، كما يتضح من سفر داود . ومع ذلك فقد كان اندماج ما يعتبر أهم خصائص هاتين الثقافتين أى جدية الدين عند العبريين فى التفكير المنطقى والإنسانى عند الأغريق هو ما قبض له أن يكون فيما بعد أساس

الثقافة الأوروبية ألا وهي الديانة المسيحية . غير أن كلمتي « أمة » (١) و « برابرة » كانتا تختلفان كل الاختلاف ، فأحدهما مدلول خاص عن الجنس والدين والأخرى تمس الجنس بطريقة عرضية وليس لها أدنى علاقة بالدين ، فما الذي دعا الأغريق إذن إلى هذا التقسيم الواضح وهل كان هناك ما يبرره ؟ .

قد يكون من الأجوبة على ذلك ، جواب واف صحيح ، لغواه أنه بينما كانت مدنيت الشرق التي سبقت مدينة الأغريق ذات كفاية بالغة في أغلب الأحيان في الأمور العملية ، وكانت أحياناً لا تقف في فئها عن الأغريق ، إلا أنها كانت جذباء من الوجهة العقلية . فقد مارس ملايين الناس الحياة وخبروها قبل الأغريق فإذا فعلوا بها ؟ لاشيء . لقد ماتت خبرة كل جيل بآبائهم ( إلا في بعض الأمور العماية المحضة ) لا كما تموت أوراق الشجر في الغابة ، لأنها تكسب الأرض خصباً على الأقل . إن آداب أى شعب هي التي تحفظ خبرته وتنميها وتستخلصها . لقد ابتدع العبرانيون قبل الأغريق الشعر الديني والفزل وخطب الأنبياء ، غير أن الأغريق هم الذين ابتكروا الأدب بكل صورته الأخرى المعروفة ( فيما عدا القصة ) (٢) وأوصلوها إلى حد السكال ، والفرق بين التاريخ الذي سجله البرابرة وبين تاريخ ثوكوديديس Thucydides هو الفرق بين طفل ورجل لا يكتفى بأن يفهم بل يجعل ما يفهمه في متناول الآخرين . فشعر الملاحم والتاريخ والمسرحية والفلسفة بكل فروعها بما في ذلك ما وراء الطبيعة

(١) لفظة الأمم . Gentiles أطلقت على غير اليهود في الكتاب المقدس « المترجم »

(٢) لقد عرف اليونان القصة فألفوا مجموعة في العصر اليوناني الروماني ، وأشهر هذه القصص الرعوية قصة دافنيس وخلوا كتبها القاضى لونيوس في القرن الثاني الميلادي . أنظر ترجمتنا العربية لهذه القصة « المراجع » .

والاقتصاد والرياضيات وكثير من العلوم الطبيعية كلها تبدأ بالآغريق .

ومع ذلك لو أننا استطعنا أن نسأل أحد قدماء الآغريق عما يمتاز به عن البربرى فإنه ، على ما أظن ، ما كان يجعل انتصارات العقل الآغريق هذه في مقدمتها حتى مع علمه بأنه قد بدأ أكثر الأشياء بطريقة أذكى منه ( فهذا ديموستينيز مثلاً يقول وهو يلوم مواطنيه على سياستهم الضعيفة تجاه فيليب المقدونى . ) أنتم لستم أفضل من البربرى وهو يحاول أن يلاكم ، اضربه في موضع تجديده تنطلق نحو هذا الموضع ثم اضربه في موضع آخر فإن يديه تنطلق ( إليه كذلك ) ولعله ما كان يفكر أولاً في المعابد ولا القنايل ولا المسرحيات التى تستحق كل إعجابنا ، بل لعله كان يقول بل لقد قال بالفعل « أن البرابرة عبيد أما نحن الهيلينيين فرجال أحرار » .

وما الذى كان يقصده بحرية الآغريق وعبودية الأجانب ؟ يجب علينا الحرص على ألا نفرها بلغة سياسية فقط ولو أن التأويل السياسى من الأهمية بمكان . فهى من الوجهة السياسية لم تكن تعنى بالضرورة أنه كان يحكم نفسه إذ أنه فى أكثر الأحيان لم يكن كذلك ، ولسكنها تعنى أنه مهما كان حكم دولته فإنها كانت تحترم حقوقه ، فشئون الدولة كانت شئناً عامة . ولم تكن أمراً خاصاً بحاكم مستبد . فقد كان الآغريق يحكمهم القانون وهو قانون معروف يراعى العدالة ، فإن كانت حكومته ديمقراطية كاملة فقد كان يحظى بنصيبه فى الحكم . وقد كانت الديمقراطية كما كان يفهمها الآغريق نظاماً للحكم لا يعرفه العالم الحديث ولا يمكن أن يعرفه ؛ وإن لم تكن ديمقراطية فقد كان هو على الأقل عضواً مشتركاً فيها لا أحد الرعايا ، وكانت قواعد الحكم معروفة . أما الحكم الاستبدادى فإن الآغريق كان يعتقد من أعماق نفسه . أما عندما كان ينظر إلى بلاد الشرق التى كانت أشد زاء وأرقى حضارة ، فكان يرى ما يأتى بالضبط : حكم القصر

حكم ملك مطلق ، لا كما كان يحكم ملك الأغريق القديم طبقاً للقانون أو طبقاً لقانون مستمد من السماء ، بل طبقاً لإرادته الخاصة فقط دون أن يكون مسئولاً أمام الآلهة ، لأن الملك نفسه كان إلهاً ، ومن كان من رعايا هذا السيد فقد كان عبداً .

إن لفظة ( اليوثيريا eleutheria ) التي تعتبر كلمة حرية ، مجرد ترجمة مبثورة لها كانت تعنى أكثر من ذلك بكثير ولو أن ذلك كان قدراً كبيراً . إن العبودية والاستبداد شيان يعين النفس لأنهما على حد قول ( هومر Homer ) « إن ( زيوس Zeus ) يتزع من الرجل نصف رجولته إذا أصبح عبداً في يوم من الأيام ، فكان الأغريق يرى أن عادة الخضوع الشرقية ليست ( أليوثرون ) فقد كانت في نظره إساءة إلى الكرامة الإنسانية . لقد كان الأغريق رجلاً مرفوع الرأس حتى وهو يصلي للآلهة ، مع أنه كان كفيده من الناس يعرف جيداً الفرق بين ما هو بشري وما هو آلهي ، ورغم أنه كان يعلم أنه ليس ياله إلا أنه كان رجلاً على الأقل . وكان يعلم أن الآلهة سرعان ما تبطلش دون شفقة بالرجل الذي يتأله ، وأن النواضع والاحترام هما أشد ما يستحسنونه من الصفات البشرية ، ومع ذلك فقد كان يعلم أن الإله والإنسان نبنا من نفس الآرومة .

« إن الآلهة والناس من جنس واحد ، فكلانا نستمد أنفاسنا من أم (١) واحدة ومع ذلك فشتان ما بين قوتنا ، فنحن لا شيء ، أما هم فالسماة الصلدة مقرهم الوطيد ثابتة إلى الأبد .

هذا ما يقوله ( بندار Pindar ) في عبارة سامية يخطيء دارسو الأدب الأغريق أحياناً في ترجمتها وهم الذين ينبغي أن تكون معرفتهم أفضل



فيجعلون معناها ، أن للآلهة جنساً وللناس جنساً آخر ، ولكن فكرة بندار هنا تدور بأكملها حول عزة الإنسان وضعفه وهي المصدر النهائي لهذه النخمة التراجيدية التي تسرى خلال الأدب الأغريقي الكلاسي كله . وقد كان هذا الإدراك لعزة الإنسان بصفته إنساناً هو الذي أعطى الكلمة التي نرجمها ترجمة مبتورة بلفظة « حرية » هذه الأهمية وتلك القوة .

على أن هناك ما هو أكثر من ذلك ، فقد كان هناك « برابرة » غير أولئك الذين عاشوا في ظلال الاستبداد الشرق . إذ كان هناك مثلاً شعوب الشمال التي كانت تعيش معيشة قبلية وهم الذين لم يكن الأغريق أنفسهم قد طال العهد على خلاصهم من ربقتهم . فما هو الفرق العظيم الذي كان بين هؤلاء وبين الأغريق فيما عدا ثقافة الأغريق المنفردة ؟ .

لقد كان الفرق هو أن الأغريق اتخذوا لهم شكلاً من أشكال الحكم نرجمه نحن بطريقة مبسرة تعوزها الدقة بلفظي « دولة المدينة » لأن أية لغة حديثة لا يمكن أن تنقل إلينا بطريقة أفضل ، وهذا النظام هو الذي استحدث غرائز الإنسان السامية وإمكاناته كما أنه أشبعها . وسيكون لدينا الكثير الذي نقوله عن « دولة المدينة » . أما هنا فيكفي أن نلاحظ أن « دولة المدينة » وهي التي كانت في أصلها مجتمعاً محلياً للأمن المشترك أصبحت مركزاً لحياة الإنسان الخلقية والعقلية والجمالية والاجتماعية والعملية تنميتها وتزيد في ثرائها بطريقة لم يحققها أى نوع من المجتمعات من قبل ولا من بعد . لقد كانت هناك أشكال أخرى مستقرة ، كما يقولون ، للمجتمع السياسي ، أما دولة المدينة فقد كانت الوسيلة التي حاول بها الأغريق أن يجعل حياة المجتمع والفرد كليهما أسمى قدرأ مما كانا عليه من قبل . ومن المؤكد أن ما كان يصح أن يضعه الأغريق في طليعة مكتشفات أهل وطنه أنهم اكتشفوا أحسن أسلوب من أساليب العيش ، وهذا

ما كان يراه أرسطو على كل حال ، لأن قوله المأثور الذى يترجم عادة بعبارة « الإنسان حيوان سياسى » ، معناه « أن الإنسان حيوان يمتاز بسكنائه دولة المدينة » . فأنت إن لم تكن كذلك كنت أقل من الإنسان فى أحسن حالاته وأخصصها به ، أما البرابرة فلم يكونوا كذلك ، وهذا هو الفرق العظيم .

وعند قباضى بوضع هذا البحث عن قوم يمكن أن نقول عنهم كل هذا القدر قد سمحت لنفسى بتمتعة فكرية هى أن أكتب عن الأمور التى تهمنى والتى أشتاق إليها بدلا من أن أحاول بطريقة منظمة قد يكون فيها شيء من التسرع أن أحيط بالمبدآن كله ، كما أنى قد توقفت دفعة واحدة عند الإسكندر الأكبر أى عند نهايه « دولة المدينة » . لا لأنى أرى أن بلاد الأغريق لم تكن هامة فى القرون القليلة التالية ، بل لأنى على العكس من ذلك أراها من شدة الأهمية بحيث لا ينبغى جمعها فى فصل واحد يكون القصد منه مجرد تأدية الواجب ، لأن هذا ما يحدث فى أغلب الأحيان . وإذا تلطفت الآلهة بى فإنى سأعالج موضوع بلاد الأغريق فى العهد الهيلينى وتحت حكم الرومان فى مجلد ثان .

ولقد تركت الأغريق يتكلمون عن أنفسهم كلما استطعت إلى ذلك سبيلا وإنى لأرجو أن تكون الصورة التى بدت واضحة موفقة إلى حد معقول ، ولم أحاول أن أصور الأشياء فى صورة المثل العليا رغم أنى أعالج أمر عظماء الناس دون صغارهم وأمر الفلاسفة دون الصعاليك ، إذ أن الإنسان يشاهد أحسن المناظر من فوق قمم الجبال ، والصعاليك هم هم فى كل مكان ولو أن الصعلوك الأغريقى قلما كان سخيفاً لثما .

## تكوين الشعب الأغريق

يحكى لنا ( كسينوفون Xenophon ) قصة باقية على الزمن يمكس أن نذكرها هنا لأنها خالدة وهي خاصة بمحدث وقع أثناء زحف العشرة آلاف جندي نحو البحر الأسود وسط جبال أرميا الرهية . كان هؤلاء الجود من المرتقة الذين جندهم ( قورش Cyrus ) الأصغر لمساعدته على عزل أخيه من أبيه عن العرش الفارسي ( وإن لم يح قورش لهم بذلك ) لأنه كان يعلم حق العلم أنه لم يكن هناك جيش أغريقى يقبل طامعاً أن يتعد عن البحر مسيرة ثلاثة أشهر ، ولكنه مع ذلك أخذهم إلى أرض الجزيرة عن طريق الخداع واللق . وقد هزم الأغريق المنظمون والمسلحون تسليحاً جيداً الجيش الفارسي بسهولة ، غير أن قورش لقي مصرعه فأصبح الموقف مربكاً للجميع . فقد أتيح للفرس على حين غرة جيش مدرب لم يكن في وسعهم أن يفيدوا مه ، وكان الأغريق على مسيرة ثلاثة أشهر من وطنهم دون قائد ودون من يدفع لهم رواتبهم وبدون أى هدف ، فقد كانوا فرقة دولية غير رسمية لا يديون بالولاء إلا لأنفسهم ، وقد كان من الجائر أن يمن جنودهم وتسوء حالهم فيتحولون إلى شرادم من اللصوص ويتفرقون شذر مذر ، كما كان يمكن إدماجهم في الجيش الفارسي والإمبراطورية العارسية .

ولكن لم يحدث شيء من ذلك بل قرروا العودة لوطنهم دون أن يسيروا بطول آسيا الصغرى وهي التي كانوا قد شاهدوا منها ما فيه الكفاية كل الكفاية ولذلك صمموا على الاتجاه شمالاً أملأ في الوصول إلى البحر الأسود ، واحتاروا قائداً لهم كسينوفون نفسه وهو من ملاك الأرض الزراعية

في أنبا ، وقد كان قائداً كما كان رئيساً لاجتماعاتهم .

ذلك أنهم كانوا يقررون سياستهم وهم مشتركون معاً وقد ظل هؤلاء الأغريق الذين تركوا في حالة اضطراب متحدين أسوعاً بعد أسبوع ، واخترقوا تلك الجبال المجهولة بهذا النظام الذي راضوا أنفسهم عليه والذي كثيراً ما أظهروه ، وكانوا بصالحون الأهالي كلما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً وبحارونهم إذا أخفقوا في طلب الصلح .

وقد هلك البعض منهم لا الكثير ، وكنبت لهم الحياة لأنهم كانوا قوة منظمة . وقد حدث ذات يوم كما جاء في قصة كسيوفون التي لا تضفي على هذا الزحف صفة البطولة أبداً ، أنه كان بقود حرس المؤخرة بينما كان جود المقدمة يصعدون أحد الممرات ، حتى إذا بلغوا القمة أخذوا يصيحون أيضاً وهكذا دواليك فصيلة بعد أخرى ، فكان الكل يصيحون ويشيرون إلى الشمال بتأثر شديد ، وأخيراً استطاعت المؤخرة التي شاع بينها القلق أن تسمع ما كان يهتف به الجميع . وهو ثلاثا ، ثلاثا . وهذا انتهى الكابوس الطويل . لأن ثلاثا في الاغريقية معناها البحر ، فقد كان يلتمع الماء المملح عن بعد ، وحيثما وجد الماء المالح كانت اللغة الاغريقية مفهومة والطريق إلى الوطن مفتوحاً ، أو كما قال أحد العشرة آلاف جندي : يمكننا أن نتمم رحلتنا ونحن نرقد على طهورنا مثل أودوسيوس .

وقد أعدت رواية هذه القصة من وجهة اتباعاً لمبدأ هيرودوتوس الممتاز القائل بأن القصة الجيدة لا يمكن القارئ الحصيف إلا أن يرحب بها . ومن جهة ثانية تقديراً للحقيقة العجيبة التي تقول إن كلمة ثلاثا ، أي الماء المالح ليست كلمة اغريقية المأخوذة على ما يبدو . ولكي نزيد الحث دقة نقول إن اللغة الاغريقية هي واحدة من عائلة اللغات الهندية الأوروبية مثل اللاتينية والسنسكريتية والسكتية والنيوتوية ، أي اللغات التي حملتها الهجرات من

مكان ما في وسط أوروبا متجهة نحو الجنوب الشرقي إلى فارس والهند ، حتى أن « راج » الهندية قريبة من كلمة « ركس » اللاتينية وكلمة « روا » الفرنسية كما اتجهت حوياً إلى شبه جزيرة البلقان وإيطاليا وغرباً حتى إيرلنده . ومع ذلك فإن الكلمة الاغريقية التي تعبر عن شيء أغريق صميم مثل البحر ليست هدية أوروبية فأين يا ترى وجدها الاغريق ؟

إن رواية شبيهة بتلك التي ذكرها كسينوفون يمكن أن تفسر لنا الموضوع ولو أن أقدم مرجع لها هو مؤلف هذا الكتاب . فقد كانت عصاة ممن يتكلمون الاغريقية تشق طريقها نحو الجنوب قبل زحف العشرة آلاف جدي بعشرة قرون أو خمسة عشر قرناً بعيداً عن جبال البلقان ووادي استروما أو فردار بحثاً عن وطن أفضل ، فرأوا أمامهم على حين غرة مقداراً هائلاً من الماء وهو أكثر مما كانوا يدرأوه هم أو أسلافهم من قبل ، لمحاولوا لشدة دهشتهم أن يسألوا الأهالي عنه فقال الأهالي وقد تملكهم شيء من الخيرة « أنه نلاسا بالطبع » . وهكذا بقيت كلمة « نلاسا » بعد أن اندثرت كل الكلمات في هذه اللغة تقريباً .

إن من الطيش النافع بطبيعة الحال أن ننبأ أي نظرية عن أصل أي شعب على كلمة واحدة فقد تكون الكلمات الأجنبية التي تقضى على الكلمات الوطنية بسهولة عظيمة مقنوسة ، غير أن في الحضارة الاغريقية التي بلغت أشدها في القرن الخامس قبل الميلاد وما يليه توجد مميزات يمكن تفسيرها بأكثر سهولة لو كانت هذه الحضارة وليده حضارتين تسبقانها مباشرة وهناك من الأدلة ما يشد أنها كانت كذلك في الواقع

دعنا نسمع في قليل من الكلمات الأخرى . هي اللغة الاغريقية

بوعان من الكلمات التي ليست أعريقية الأصل ( مثل نلأسا ) وهي تنتهى بالمقطع . أسوس ، أو داسوس ، وهي في الغالب أسماء أهكة مثل هالبكر داسوس مسقط رأس هيرودوتوس Herodotus كما أن هناك كلمات تنتهى بالمقطع . إنثوس ، مثل هياسنثوس وكورنثوس Corinthos ولا بيرنثوس وكلها مألوقة لنا ، فهل هي آتية من الخارج ؟ وهل كانت كورنثا في أصلها مستعمرة أجنبية ؟ من الجائر ذلك ، غير أن لدى بشر العجب أكثر من كورنثا هو أن أثينا ليست إسما أعريقياً ، وكذلك الإلهة أثينا Athena . أن العاطفة على الأقل فضلاً عن تعاليدنا الموروثة لنثور على العسكرة القتالة إن أثينا مدينة بأسمها لأجنب اقحموا أنفسهم على الاغريق ، لأن الآثيين كانوا أحد الشعبين الاغريقيين الذين ادعيا أنها بنتا من الأرض ، والشعب الآخر هو الأركاديون Arcadians الذين استقروا في اركاديا قبل مولد القمر .

هناك ما يدعو إلى النظر إلى الروايات الموروثة باحترام كما سرى عن قريب ، كما أن هناك على الأقل بعض الصحة والاحتمال في الأساطير الأركادية والآثينية ، لأن اركاديا هي قلب البيلوبونيز Peloponnese الجبلية وهي صعدة الغزو ( مذبا وجد الأتراك فيما بعد ) كما أن اثينا Aika أرض الآثيين ذات تربة رقيقة لا تجتذب الغاشقين والمهاجرين . أثينا إذن ليست أعريقية ، وهناك ما يدعو إلى الظن بأنها هي وسكانها أقدم من الاغريق كذلك وأن كان هذا أمراً مختلماً .

وهناك اسطورة أثينية قد توصلنا الأمر بعض الشيء . من احسن القصص الآثية المعروفة قصة تقول إن المامسة اشتدت دت مرة بين الزره أثينا والإله بوسيدون Poseidon لامتلاك الأكروبوليس Acropolis ، وخرجت أثينا نضب كبير عبر أن الإله كان له ما عنده أيضاً هناك . وهكذا بدو أن بوسيدون كان إلهاً أعريقياً ، وأعلنا لو قلنا أنه كان إلهاً

هيليبا لكان ذلك أقل مدعاة للارتباك ، أما أثينا فلم تكن هيلينية إن  
تفسير مثل هذه الأساطير ليس بالشيء المؤكد ولكن مما يعربا بقوله أن  
رى في هذه الأسطورة ذكرى الاصطدام في أتيكا بين شعب هيبى واحد  
وبين عابدى أثينا من السكان الوطنيين وهو اصطدام كانت له نتيجة سلبية  
هى امتصاص السكان الوافدين .

وقد كان الأغريق المآخرون أنفسهم يعتقدون في وجود سكان أصليين  
عبر هيلينيين كانوا يسمونهم البلاسجيين Pelasgiens وقد ظلت بقاياهم نقية  
في العصور الكلاسيكية وكانوا يتكلمون لغتهم الخاصة . وقد أهتم هيرودوتوس  
الذى كان مولعاً بكل ما وقع تحت بصره ، بأصل الأغريق . وهو يؤكد أن  
من بين فرعى الأغريق الرئيسيين المتأخرين وهما الأيونيون والدوريون كان  
الأيونيون من أصل بلاجي . وهو يسمي الدوريين Dorians بالفعل هيلينيين  
لكي يميزهم عن الأيونيين Ionians ، ثم يستطرد ليقول : لا يمكننى أن أقرر  
بصفة مؤكدة أى لغة كان يستعملها البلاجيون ولكن إن كان لى أن أحرر  
شيئاً من هؤلاء البلاسجيون الذين لا يزالون موجودين فإنهم يتكلمون لغة  
بربرية وهو لا يقصد بكلمة « بربرية » أكثر من « غير هيلينية » .

وهذا ينفق إلى حد كاف مع ما حرراه عن الأثينيين ، إذ أنهم ادعوا  
أنهم قادة الأغريق الأيونيين ومركز نشاطهم وأنهم من السكان الأصليين .

فإذا أمكننا أن نثق فيما تناقلته الروايات الموروثة تكون الصورة التى  
نستخلصها كالاتى : كان يسكن أتيكا والبليوبونير جنس غير هيلينى من  
السكان الوطنيين ثم هاجرت شعوب تتكلم اللغة الاغريقية في وقت  
لا يمكن تحديده هجرة تدريجية جداً دون ريب من أقصى الشمال إلى هذا  
الإقليم وحرصت لعنها على السكان وهذا شبيه جداً بما فعله السكسون في  
إنجلترا ولم يكن هذا بالغزو المفاجيء الملى بالكوارث فإن السجلات

الآثرية لا تظهر وجود أى ثمة معاجلة فى الثقافة قبل عرو الدورين سنة ١١٠٠ . وقد ظلت ه الجيوب ، البلاسية التى أطلت من تأثير هؤلاء الوافدين تتكلم لغة لم يستطع هيرودوتوس أن يفهمها

قلت إن تاريخ هذه الهجرات لا يمكن تحديده ومع ذلك من الممكن أن نقرر لها حداً أدنى . فن المؤكد جداً أن هؤلاء الاغريق الدورين الذين عاشوا حوالى سنة ١١٠٠ لم يكونوا أول من أدخل اللسان الاغريقى فى بلاد الاغريق . لأن الاغريق الاخيرين الذين نعرف شيئاً عنهم وزن يكن غير كاف قد سبقوهم بقرنين على الأقل . وقد ظلت أجيال من الإنجليز نعرف بعض هؤلاء أكثر مما نعرف أسلافها من الأجبرت والأجريت والإيفريك لأن أجا ممنون Agamemnon وميلاروس Menelaus أبى اتريوس Atreus كانا أخيين مثل آخيليس وغيره من الأبطال الذين كان مقلراً أن يكتب عنهم هومر بعد ذلك بثلاثة عام أو نحو ذلك .

من كان هؤلاء الاخيون إذن أول المتكلمين بالاغريقية فى بلاد الاغريق ؟

ليس هناك ما يضطرنا إلى هذا الاعتقاد إذ لا يوجد فعلاً ما يحتملنا على الظن بأن أية لغة خلاف الاغريقية كانت سائدة فى بلاد الاغريق إلا الروايات المتوارثة لأن ما يمكن إدراكه عقلاً أن الأسماء غير الهيلانية مثل أنيسا كلمات دحيطة رغم أن ذلك قد لا يكون محتملاً جداً .

ولكن هل هناك من سب يدعونا إلى تصديق هذه الروايات المتوارثة؟ لقد أصر هالمورخون منذ مائة سنة فقد كتب جروت Grote مثلاً ، أن الأساطير قد اندعها الاغريق من خيالهم الذى لا يصب معيه لملأوا الحقة الفارعة فى ما صيهم المحبول وأن من الحق الاعتقاد بأن ملكاً اسمه مينوس Minos قد عاش حقاً



في جريرة كريت أو أن حرب طرواده نشبت فعلا على أن إنكار هذا الاحتمال هو حق شبيه بسالعه . وقد عالج قبل ذلك مؤرخ أغريق نوكونديس الروايات المتوارثة بطريقة تحالف ذلك كل المخالف باعتبارها تسجيلات تاريخية من نوع خاص يصح نقدها كما تصح الاستفادة منها بالطريقة الصحيحة .

فوصفه للحرب طرواده ، وهو الذي ذكره في الفصول الأولى من تاريخه ، مثل حسن على معالجة المادة التاريخية بطريقة صحيحة . فلم يكن يخطر لثوكيديديس قط أنه لا يعالج مادة تاريخية ، فهو يكتب عن مينوس ملك كريت الأسطوري ، أن مينوس هو أقدم حاكم نعرف عنه أنه كان يملك أسطولا ويحكم أغلب ما نعتبره الآن مباحا أغريقية ، فقد كان يحكم جزر كوكلاديس وكان أول مستعمر لأغلبها ، فكان يعين أولاده حكاما عليها ، وأغاب الظن أنه طهر البحر من القراصنة بما كان في وسعه ليطمن إلى المحصور على إراداته .

وكان ثوكيديديس كأعجب الاغريق يعتقد في صحة الروايات المتوارثة صوماً ، أما الكتاب الحديثون فقد أنكروها . ولم تكن قد نشرت من تاريخ جروت الذي يستحق الإعجاب طبعات كثيرة حين ذهب شيمان إلى موكبای وطرواده وكشف عن شيء يشبه مدبني هومر بشكل غير معروف . ثم ذهب بعد ذلك سير آرثر إيفانز إلى كريت وكشف بالفعل عن الملك مينوس وجزيرته التي كانت تتكون منها إمبراطوريته . وقد أصبح على الأقل من الواضح إلى حد بعيد أنه منذ أوائل الألف الثالثة قبل الميلاد إلى حوالي سنة ١٤٠٠ ق . م وهي مدة تماثل المدة الممتدة من سقوط روما إلى يومنا هذا ، كانت كريت ولاسيما مدينة كوسوس مركزاً للحضارة مزدهرة انتشرت في عالم بحر ايجه شيئاً فشيئاً في كافة الاتجاهات ، وبما أن

كوسوس لم تكن محصنة فلا بد أن سادتها كانوا يسيطرون على البحار كما قال ثوكديديس باصط .

هذا هو المثل البارز على إمكان الاعتماد بصحة عامة على الروايات المتوارثة في العالم الإغريقي . وليس من الصعب أن نجد أشباه ذلك في جهات أخرى . وقد تأيدت الأساطير أحياناً إلى درجة لا يكاد يصدقها العقل . وقصة المينوتور Minotaur شاهدة على ذلك ، فقد كانت هناك قصة كان ثوكديدس على درجة من التزمّت حتى أنه لم يذكرها تحدثنا بأن الإيبين كانوا ملزمين بدفع جزية سنوية هي سبعة شبان وسبع فتيات عذارى إلى وحش غيف هو المينوتور كان يعيش في قصر التيه في كنوسوس Cnossos إلى أن أطلق سراحهم أكبر أبناء الملك وهو الأمير ثيسوس Theseus الذي قتل المينوتور بمونة أريادنى Ariadne وكرة الخيط التي أعطتها له لترشده إلى طريق الخروج من قصر التيه . هذه هي الأسطورة وهاك بعض الحقائق : أما بشأن الاسم ، مينوتوروس ، فمن الواضح أن نصفه الأول هو « مينوس » والنصف الثانى « توروس » ، معناه « الثور » باللغة الإغريقية . وواضح جداً ، مما رجحه إيفانز في كوسوس من تصاوير الأفاريز والتأثيل وأشباهاها ، أن هؤلاء الكريتيين كانوا بعدون الثور . وعلى ذلك فإن كان هاك شيء قديم يشبه قصر التيه فهو رسم أرضية القصر الفسيف الذى كشفه إيفانز . وهناك فضلاً عن ذلك أدلة متوفرة على أن هؤلاء الكريتيين الذين عاصروا مينوس كانوا يستعملون بلطة ذات رأسين من النوع الذى كان يسميه الأعريق المتأخرون ، لابريس Labrys باعتبارها رمزاً للألوهية أو للسلطة وأخيراً لقد وقعت اتیکا Atica بالنأ كيد تحت نفوذ كريت ثقافياً ومن الجائر جداً سياسياً أيضاً . من المحتمل جداً ، بناء على ذلك أنحكام كوسوس كانوا حقاً بأحدون رهائن الأسر الآيبية السبلة صماً لحسن سلوكها كما كان يفعل الأتراك بعد ذلك بقرون كثيرة . أما ثيسوس فيلوح أنه

ورد خطأ لأنه من قتره تالية . ولم يثبت أحد حتى الآن صحة وجود أريادنى  
الخبالية أو مجد الخيط . أما فيما عدا ذلك فبلوح أن هذه الأسطورة جديرة  
بالتصديق .

وكذلك الحال بالنسبة لطرواده فمن بين المدن التسع التي شيد بعضها  
هوى بعض فى ذلك الموضع ، قد دمر الحريق طروادة السادسة حوالى  
تاريخ حرب طرواده الذى توارث الناس ذكره ( ١١٩٤ - ١١٨٤ ) ومن  
بين نموت هومر الخالدة لطرواده قوله : ذات الطريق الواسع ، وقد كان  
لطرواده السادسة طريق واسع يحيط بالمدينة من داخل الأسوار مباشرة ،  
وقد بنى هذه الأسوار إلهان وواحد من البشر ، فالقطاع الذى بناه هذا  
الآخر كان أضعف من غيره كما كان من الممكن اقتحامه وقد كانت أسوار  
طرواده السادسة أضعف فى نقطة واحدة منها فى غيرها ( وهى التى كان  
الوصول إليها أصعب ) وهذا يتفق مع وصف هومر .

وكذلك كان الحال بالنسبة لكثير من أنساب اليونان . فأغلب أبطال  
هومر كانوا يستطيعون تتبع أنسابهم حتى ثلاثة أجيال ثم يتصل نسبهم إليه .  
وقد قبل فى تحليل ذلك دون مراعاة الاحترام الواجب إن المعنى هو : والله  
وحده يعلم من كان أبوه ، غير أن الإنسان يستطيع أن يكون أكثر احتراماً  
بقول بدلاً من ذلك إنه يشير إلى دعوى مؤسس الأسرة الحاكمة فى رعاية  
الإله له ، فيكون المعنى : ما لكم الجديد بفضل رعاية الإله . ومن جهة  
أخرى نجد أن هذه الأنساب تنتهى بعد حرب طرواده بمجبلين وهو ما يصل  
بنا إلى تاريخ العرو الدورى حوالى سنة ١١٠٠ وهو الذى توارث  
الباس ذكره . وفى ذلك الوقت كانت قد دمرت كل المدن القائمة فى القسم  
الأكر من البلاد كما دلت على ذلك أعمال التنقيب ثم أن أطول سلاسل  
النسب المعروفة كانت هى الخاصة بالبيوت المالكة مابىكا وأرجوس ،  
وهذا يعود بنا إلى حوالى ١٧٠٠ ق م ، وقد سبق لنا أن رأينا أن الاثنينيين

أدعوا أهم أقدم السكال وهو ما قد يبدو صحيحاً بعض الشيء ، ولكن لا مرا . هناك هذه النقطة . لقد كانت أثينا وأرجوس Argos تمتازان من بين المدن الأخرى في العصر الكلاسي بأن معبود كل منهما الرئيسي لم يكن إلهاً بل إلهة وهما أثينا وهيرا الأرحوسية Hera . ولقد اكتشفت في كريت صور كثيرة لطقوس العبادة وهي تدل دلالة كافية على أن القوم هناك كانوا يعبدون آلهة أما إن كان هناك إله فهو ثانوي . ومن الواضح أنها كانت إلهة من إلهات الطبيعة التي ترمز إلى خصوبة الأرض بينما كانت الآلهة الهلينية من المذكور بصفة خاصة وهذا على الأقل يدعو إلى الظن بأن هاتين الطائفتين من الناس ، أى الإثنيين وأهل أرجوس من كان لهم أطول ساسنة من الأنساب كانتا تعبدان إلهات ، وكانت لطائفة منهما وربما للطائفتين أسماء غير هيلينية . وزبوس ( باللاتينية : ديوس ، Deus أى إله ) هيليني قح ، وكانت له رفيقة هيلينية غامضة جداً تدعى ديون Dione إسمها قريب من إسمه . أما في الأساطير الأغريقية فقد كانت رفيقته هي هيرا الأرحوسية . ويؤكد لنا نشيد هومري أن هيرالم تكن رابعة في الزواج منه ولم يكن ذلك دون سبب معقول كما قد وضح لنا . وفي هذا تعديل واضح عن اندماج شعبين لهما ثقافتان ولغتان مختلفتان في الظاهر ويجوز بهاء على ذلك أنهما من جنسين مختلفين .

ولذلك فإننا نرى أن الروايات القديمة التي تدعى أنها تاريخية لا ينبغي بأي حال نبدها . وقد كان هيرودوتوس ذلك الساحر النهم والناقد الفاحص يعتبر الأعريق الأيوبيين شعاً برياً تحول إلى هيليني ، ولا ريب يستطيع أن تثبت أنه مصعب . وإذا صح ذلك فيسعى علينا بالتأكد أن تتوقع أن تكون هذه العملية قد حدثت بالتدريج ، إذ أن العزو الدوري وحده هو الذي اتحد مظهر العزو العام

وقد تعرضت لمناقشتنا الموجرة لنقطة أخرى هي الآلهة والإلهات . فهناك

نوع من الثماني في الشعائر الدينية لبلاد الأغريق الكلاسيكية وهذا ما يدعو إلى العجب بالنسبة لمثل هذا الشعب العنصري ، وأن يكن من الممكن فهمها بسهولة عظيمة جداً ، متى اقترصنا أن الثقافة الأغريقية وليدة ثقافتين مختلفتين . فالبايثون Pantheon الأوليمبي بآلهته الاثني عشر وعلى رأسهم زيوس يبدو من بعيد راسخا بشكل بالغ التأثير ، ولكن هذا الرسوخ يتلاشى إذا أمعنا النظر فيه إذ يتكشف الأمر عن أن الآلهة لم تكن لها أسماء أغريقية كما رأينا وبلوح جداً أن حجر الزاوية في البناء بأكمله وهو زواج زيوس بهيرا كان زواجا في الأسرة الحاكمة ، أضف إلى ذلك أن مبدانا بأكمله من مبادئ العبادة والعقيدة كان اتصاله بأوليمبس اتصالا عرسيا ، والعبادات الأوليمبية الحقيقية كانت قائمة على أفكار عن إله يحمي القبيلة أو الدولة أو الأسرة ويضع الضيف أو السائن تحت رعايته . وقد كان الآله في الحقيقة متصلا اتصالا وثيقا بالسكان الاجتماعي كما كان لها من آلهة الطبيعة ولم يمتد ذلك قط ، بمعنى أنه كان يفسر بعض قوى الطبيعة . فزيوس كان يرسل المطر والبرق ، وكان هوسيدون يثير البحر ويرزله الأرض وقد أدمجت أثينا تماما داخل هذا النظام فأصبحت هي بنت زيوس والحارسة المساحة للمدينة ومناخها المحكمة الإجتماعية ، غير أن بومنها تذكرنا بأصلها أي باعتبارها ربة من ربات الطبيعة لاربة من ربات القبيلة فقد كانت الطقوس المؤسسة على قوى الطبيعة الغامضة المانحة للحياة موجودة في بلاد الأغريق جنبا إلى جنب مع العبادات الأوليمبية ، كما كانت تقف منها موقف المعارض على خط مستقيم ، فثلا كانت ديانات الأسرار تستهوي الفرد أما العبادات الأوليمبية فقد كانت خاصة بالجماعة ، وكانت الأولى تتسع لكل فرد سواء كان حرا أو عبداً ، أما العبادات الأوليمبية فإنها لم تكن تقلل إلا أعضاء المجتمع وكانت الأولى تنشر بتعاليم العث والميلاد من جديد والخلود أما العبادات الأوليمبية فلم تكن تنشر شيء بل كانت مختصة بكرم أعضاء المجتمع الخالدين الذين لا نتركهم

الابصار فكانت مداهما الدينية محدقة [اختلافاً كلياً] ومن الصحيح تقريباً أن نقول إن فكرة الآلهة فكرة أوريه وأن فكرة الإلهة فكرة خاصة بالبحر المتوسط ، فالالهات ميراثنا المباشر من أتباع ميسوس في كريت .

وقد آن لنا الآن أن نقول شيئاً عن هذه الحصاره التي دامت ردحا طويلا من الزمن وهي التي كان يذكرها الأغريق في العصور التاريخية ذكرى بعيدة غامضة كما كانت شيئا خياليا بالنسبة لاجدادنا . فإذا شئنا تحديد زمنها نراها تبدأ في العصر الحجري الحديث حوالى سنة ٤٠٠٠ ق . م وقد أدركت العصر البرونزى حوالى سنة ٢٨٠٠ ، وأزدهرت عند ذلك حيث تناوبت عليها فترات ازدهار عظيم وفترات ركود نسبي إلى أن نهت كوسوس نهائياً واندثرت حوالى سنة ١٤٠٠ . وقد بدأت هذه الحصاره من الوجهة الجغرافية في كوسوس ثم انتشرت إلى أماكن أخرى في كريت ومنها تدريجياً إلى جزر بحر إيجه وإلى أجزاء كثيرة لا من جنوب ووسط بلاد الأغريق لحسب بل من سواحل آسيا الصغرى وجنوب فلسطين أيضا . وقد أخذت مواضع معينة في القسم الرئيسى من بلاد الأغريق تنافس كريت نفسها منذ سنة ١٦٠٠ باعتبارها مراكز للحصاره ثم صارت ورثتها بعد أن اندثرت كوسوس . وتعتبر موكناي Mycenae المركز الرئيسى من بين هؤلاء . ومنها كان الفرع المتأخر من الثقافة القديمة المنسوبة إلى مينوس أو إلى جزر بحر إيجه (ولو أنه الفرع الذى كان أول ما أعيد إكتشافه) وهو معروف بإسم الحصاره الموكينية . أما الإلياذه فترجع إلى مرحلة متأخرة من هذه الحصاره وما يذكره الناس عنها ناقص .

ومن المحال أن نقول الكثيرها عن هذه الحصاره غير أن عدم وجود تحصينات يثبت أنها كانت تعتمد من الوجهة السياسية على القوة البحرية وتشهد القصور الفسيحة بثراتها ، ويوحى رسم القصر الموجود في كوسوس

وهو متناه في التعقيد بأنه مركز للإدارة أكثر منه حصا ويمكن أن يقرر  
ويحرر مطلقون أن أهل كريت القدماء كانوا خاصعين لحكومة من حكومات  
القصر . فمن المحال أن يجد أى شكل من أشكال الحكم الشعبى يناسب مع  
تلك الآثار . فالأصص المطلية والأفاريز المصورة والتماثيل والآثار المادية  
الأخرى تدل على أن هذه الحضارة كانت بالغة الرشاقة والقوة والمرح  
والرفاهية المادية ، وكثيرا ما نشير إلى كلمة العالم الفرنسى الذى كان يتأمل  
في صور سيدات كريت الموجودة على أحد الأفاريز إذ قال ، ولكن هؤلاء  
السيدات باريصات ! . وإذا نظرنا إلى لون من ألوان الثقافة الإنسانية  
يختلف عن هذا بعض الاختلاف نجد أن نظام تصريف المياه هالك قد  
امتدحه الناس بأنه ، انجاييزى صميم . وتدل الأواني الفخارية الكبيرة  
والصغيرة التى تنتمى إلى أزهى عصور هذه الحضارة على مهارة صناعية رائعة  
وفهم للرسم الزخرفى ، وقد نجد عليها فعلا رسوما تافهة متراصة تملأ  
الزخارف فيها ما ينبغى أن يظل فراغا ، غير أنها من جهة أخرى تنفع من  
الفراع فى ثقة وإطمئنان تذكرنا بالفن الصينى وهو فى أوج عظمته وهى تترك  
لدينا على العموم إطبعا عن ثقافة أرستقراطية مرحة يحتل فيها الصبد  
ولاستشارة الثيران بواسطة الكلاب والفنون البهلوانية مكان الصدارة . غير  
انه من المفروض أن نواحي أخرى من حضارة هؤلاء الميسوبين كان لها  
من الأهمية ما لفهم أو أكثر . ففي الكتب المؤلفة عن الحضارات القديمة  
يخصص للكلام عن الفن عادة مجال أكبر مما ينبغى لسبيين : أولها أن تصوير  
معبد أو لوحة زيتية تصويراً شمسياً أبسر من تصوير مذهب أخلاقى أو فلسفة  
ساسة وثانيهما أن كثيراً من الشعوب كانت عاجزة عن الأنصاح والبيان  
إلا عن طريق فيها والأعريق واليهود هم فى الحقيقة أول الشعوب القديمة  
التي لم تكن كذلك

وكذلك الحال بالنسبة للميسوبين فهم يحاطوا خطأ ما مشراً ولا يحاطوا

أى شىء سواه إلا بطريقه غير مباشرة بطريق الإستنتاج ، وأثارهم وفيرة ولا تختمل اشك أو التساؤل ، غير إما لا تعلم ماذا كانت أفكارهم عن الحياة وكيف كانوا يواجهون مشاكلهم . والواقع أنهم كانوا يعرفون فى الكتنا ، ولديها شىء بما كسوه ، ولكنهم لا يستطيع أن يقرأه ، فمن مضطرون أن تأمل فى نجاح شخص ما ذات يوم فى حل طلاسمه وترجمتها ، فقد يخبرنا مثلا عن السبب فى غضب موظف كبير من مرؤوسه أو عن ثمن اللحم البقرى فى القرن السابع عشر قبل ميلاد المسيح .

ومع أننا لا نعرف شيئا عن أفكارهم وتجاربهم إلا عن طريق الإستنتاج فإننا نعلم شيئا عن أسلافهم . فقد تركوا رسوما لهم تدل دلالة واضحة على أنهم كانوا من سكان البحر الأبيض المتوسط الذين يرجع أصلهم إلى شمال أفريقيا من ذوى القوام النحيل واللون الأسمر والشعر الأسود . وكان هذا الشعب قد إنتقل من مرحلة العصر الحجري القديم عندما جاء بعضهم إلى جزيرة كريت حين كانت خالية من السكان ، فهل اسمر البعض الآخر فى الزحف والإقامة فى أجزاء من بلاد الأناضول ؟ هذا ما لا نعرفه . .

إن أحدث فن كريتى يؤدى مباشرة إلى الثقافة الموكينية الخاصة بالقسم الرئيسى من البلاد دون توقف ولو أن هناك ملامح جديدة أضيفت إليه . فالنصميم النموذجى للقصر كان مختلفا فلم يكن القصر أقرب لأن يكون حصنا محصنا ( وهو ما قد تفسره أحوال القسم الرئيسى من البلاد الكثيرة الإضطراب ) بل يلوح أن العرف كانت مكشوفة بدرجة أقل من المنظر كما لو كانت تنتمى إلى طراز أصله من مراح أشد قسوة ، فضلا عن أنه طراز حقق بعد طوره تاسقا لا يماثل شيئا من المماراة الكريية . وهناك فرق آخر هو ظهور إهتمام أكبر بصورة الإنسان . عند طلاء أصص الرمر ، وقد كان الصائون الكريتيون يستخدمون صفة أساسية بمادح من الخطوط



والرسوم ( سواء كانت مأخوذة من الطبيعة أو طبقا لطراز سائد ) مسمدة من حياة الحيوان والنبات . أما الصانون الموكييون فقد استمروا في الرسوم ذات الخطوط ولكنهم أكثروا من إستخدام صورة الإنسان كما في مناظر المواقب وسباق العربات .

من كان هؤلاء القوم الذين أنشأوا الثقافة الموكينية ؟ هل هم الفنانون والصناع الذين تركوا كريت وهي مضمحلة وأقاموا في وطن جديد بين هيلينيين جفاة وابتدعوا لهم فنا ؟ أم كان هناك ( وهو ما يبدو أكثر احتمالا ) شعب أكثره غير أغريقي ؟ كان قد تأثر بالفن الكريتي بدرجة بالغة أو لعله كان يمت بصفة القربى إلى شعب كريت ولكنه وقع تحت سيطرة ارسقراطية اغريقية مغرمة بركوب العربات قدمت حديثا إلى البلاد ؟ وهل من الجائز إن صح الفرض الأخير أن هيرودوتوس كان مصيبا وإن غالبية الموكينيين كانوا أيونيين من تحولوا إلى هيلينيين أو لم يتحولوا ؟ قد تصبح الإجابة على هذه الأسئلة ممكنة يوما ما . وفي نفس الوقت ينبغي علينا أن نكون من الحكمة بحيث لا نجعل الصورة التي نحاول أن نرسمها منظملة أكثر مما ينبغي مهما كانت هذه الصورة ، إذ أنه لاشك في أن الهجرات العارضة والغزوات المحلية كانت قد استمرت فترة طويلة ويجب أن نفسح مكانا في هذه الصورة للأخمين ذوي الشعر الأشقر ( Xanthoi ) الذين ذكرهم هومر حتى يكونوا متميزين بوصفهم عن ذوي الشعر الأسود الذين كانوا يتحكمونهم . فالملوك من أساء ريوس وهم الذين ذكرهم هومر كانوا ارسقراطية شسه إقطاعية تسطر سيطرة السادة المستعدين على رعاية لاحتول لهم من كانوا يلعبون دورا صغيرا جدا سواء في القتال أو في السياسة . وارسقراطية البورمان التي فرصت نفسها على إنجلترا في عهد السكسون مثل واضح على ذلك . فالقصر الذي بناه أريوس في موكيساي وأوصى به لاسه أجامموس كان

حصا أكثر منه قصراً وكان مركزاً لشبكة من الطرق الاستراتيجية التي كانت تسمح بالوصول إلى أجزاء مختلفة من البيلوبونيز وسط بلاد الأغرير كما كانت هناك حصون أخرى من نفس النوع في هذه الأصقاع . وقد أثبتت أسلحة الآحيين الحديدية أنها أفضل من أسلحة الملوكيين البرونزية ، ولكن الثقافة الملوكينية كانت هي الأفضل بوجه عام . وما دامت هذه وجهة نظرنا فمن الشائق أن نلاحظ أحد الأخطاء الباشئة عن عدم دقة الروايات القديمة التي استند إليها هومر بعد ذلك بثلاثة قرون أو أربعة ، فإنها تصور في بعض النواحي العصر الملوكيني بأمانة تسترعى الانتفات لا سيما بالنسبة لجغرافيته السياسية ، فعندما قام هومر بالكتابة ، ولعل ذلك حوالي سنة ٨٥٠ ، كان الفتح الدوري الذي حدث حوالي سنة ١١٠٠ قد غير خريطة بلاد الأغرير كل التغير إذ كانت موكيائى نفسها مثلاً قد صارت مكاناً لا أهمية له ، كما تحول الساحل الآسيوى وهو موطن هومر وصار أعريقاً . ومع ذلك فإن الألياذة تحتفظ بأمانة تامة بصورة بلاد الأغرير كما كانت في القرن الثالث عشر ، وليس فيها أى شئ عن أيونيا الموجودة في آسيا إذ ذاك وهي التي كان يعرفها هومر نفسه . أما الخطأ الذي يسترعى اهتمامنا فهو أن الفن وأدوات الترف التي وصفها هومر كن منسوبة إلى الفينيقيين ، أما أن صانعها الفية كانت وطنية محلية فقد كانت حقيقة منسية تماماً ، ولا بد أنها كانت تبدو أمراً لا يمكن تصديقه . والآخيون كانوا عراة جفاة ليس لهم فن وكذلك الدوربون الذين جاؤا على أثرهم كانوا أدهى منهم ، إذ تمكن مقارنتهم رجل ورث أرضاً ولكنه أصاع عليها كل رأس ماله .

وهناك مرقعات أخرى تشير إلى نفس الاتجاه ، فالملوى عند هومر كانوا يحرقون غير أن إعادة الوطنية وهي العادة الكلاسية المنتهجة فعلاً كانت هي المذهب ، كما أن هومر ديانة آهة اسمها الأولمبيين ،

وبس هالك أى أثر لربة الأرض الخاصة تكريت أو بحزر بحر إيجة كما أن هو مر يكثر من ذكر الصد ولكل لا يحد عنه أية إشارة إلى إثارة الكلاب لثيران مع أنها بارزة كل انبرور في الصر الموكبى . وهكذا بسطع الإنسان أن يواص ذكر هذه المعارف . لقد كان هو مر يراعى الدقة في سرد للروايات القديمة كما كان يعدها ، غير أنها كانت تروى عن طبقة من الغزاة كان يفصلهم فاصل ضخم عن حياة رعاياهم الذين كانوا أرقى منهم حضارة ، ولو أن هؤلاء الغزاة لم يقضوا فجأة على هذه الحياة المنحصرة بل ولم يحدثوا فيها تغييراً خفياً .

متى جاء الآخيون ؟ ربما تضمن وضع السؤال على هذه الصورة تبسيطاً يجاوز الحد . لقد دمر مغبيرون أتوا بكل تأكيد من وراء البحر كموسوس حوالى سنة ١٤٠٠ . وتذكر كتابات المصريين المعاصرة أن جماعة الآخيو اشى ( Akha wosh ) قد أشاعوا الاضطراب في جزر البحر كما أغاروا على الشواطىء المصرية . وإسمهم قريب إلى حد كبير من الآخيين ( Akhaiwoi ) الهومييريين وهو ما يجعل من الاثنين شيئاً واحداً مؤكداً . وبعد ذلك بقليل نسمع من مصادر حديثة عن مغبيرون في آسيا يقودهم رجل بشير اسمه الشبهة في أنه مثل أتريوس . ولقد كان والد أجاممنون يسمى أتريوس ، ولا حاجة بنا إلى محاولة إثبات أنهما رجل واحد . فأتريوس الذى نعرفه كان ملك موكبى وهو ابن بيلوس Pe ops الذى أضفى اسمه على البيلوبونيز ( جزيرة البيلوبس ) وقد لا يكون محتملاً جداً أن هذا الشخص كان يطارد الحبشيين في آسيا الصغرى . وبيلوس هو اسم أعريق معاء ( ذو الوجه الأحمر ) وقد جاء من ليديا في آسيا الصغرى ولذلك فرعاً كان أتريوس الآخر من نفس العائلة

كل هذا يوحى بوجود اضطرابات واسعة في أواخر القرن الخامس عشر والقرن الرابع عشر برعها قوم إسمهم الآخيون . فإذا كان من الممكن

أن يعتمد على تواريخ الأنساب وإما نجد أن بيلوس عبر بحر إيجة وتروح من الأسرة المالكة بأليس قرب أوبينيا في النصف الأول من القرن الثالث عشر . لأن حصده الأكبر أجامموس قاد الآحيين المنحدرين إلى طرواده في وقت مبكر في أوائل القرن الثاني عشر ( وتشير الروايات القديمة إلى حدوث ذلك سنة ١١٩٤ ) . وفضلا عن ذلك فقد قامت أسرات حاكمة أخية أخرى في القرن الثالث عشر بالذات إن كان لنا أن نتق في تواريخ الأنساب .

غير أنها سقطت جميعا وانتهى العصر الموكبني الآخذ في الاضمحلال في آخر القرن الثاني عشر . وقد جاء غزاة آخرون هم الدوربيون من الشمال الأوسط لبلاد الأغريق ولكنهم لم يكونوا في هذه المرة مغامرين منتصرين يستولون على ممالك صغيرة أو ينبهونها بل كانوا سيلا مدمرا من الناس قضاوا قضاء مفاجئ على حضارة طويلة وبدأوا عصرا مظلما بلغ ثلاثة قرون من الفوضى أخذت بعدها بلاد الأغريق الكلاسيكية في الظهور . وقد اتخذ الإيونيون ( فيما عدا الآثينيين ) ملجأ لهم عبر البحر . وقد اقتصر اسم « آخيا » على السهل الضيق المحاذي للساحل الجنوبي لخليج كورنثا . وقد اندمج الآحيون ذوو الشعر البني كما اندمج الدوربيون أيضا ذوو الشعر البني ، إذا صح أن لون شعرهم كان كذلك ، مع الجنس ذي الشعر الداكن الذي تخرجه بلاد الأغريق . وهذا يشبه إلى حد بعيد ما حدث للكليين Celis ذوي الشعر الأشقر الذين أصبحوا فرنسيين ذوي شعور داكنة .

قبل مائة عام كان هذا العصر المظلم دامس اظلام لولا شعلة هومر الوهاجة المفاخرة التي لا يمكن نعليلها ، وكان العصر الكلاسيكي الذي تلاه هو أول اردهار رائع معبر للحضارة والفن في أوروبا ، إذ حوت قبلا وطأة الظلام لاسا يستطيع أن يسبح من حلاله فصوص الخراف وصانع المعادن .

وقد تقدم بالفعل هذا الفن الأخير وشجعه ادخال الحديد في الصناعة ، وطلاء الصغار ، ومع أنه فقد رشاقة العصر السابق وحرية وابتكاره إلا أنه أمتح في القرن التاسع (١) الأصص الآثنية الفاحرة وهي مريّة نهادر هندسية مثل أقدم المحار الميسرى ، ولو أننا نجد كذلك موضوعاً يعلب على الفن لم يكن شائعاً في كريت وهو الصورة الإنسانية . فجند مواضيع مثل المحاربين وعرباتهم ومناظر جوائزهم ورجالاً يجذفون في سفينة حربية وصوراً لأشخاص مرسومة طبقة للطراز السائد ، وفيها خطوط رقيقة تشير إلى الاذرع والأرجل وبقعة مستديرة تشير إلى الرأس ومثلث يشير إلى الجذع ، وأسلوبها الفني بدائي ولكنه مودق جداً في الرسم العام ، ويدل ( كما في حالة الأصص الموكبية ) على شغفهم بالإنسان واهتمامهم به وبأدواته الزخرفية اهتماماً يعتبر من خصائصهم .

لقد كانت نظرنا نظرة عامة ولم تكن بحكم الضرورة شاملة ولكنها أوضحت نقطة هامة هي أن فن الإغريق الكلاسيكي لم يكن خلقاً جديداً أكل الجدة بل كان نهضة ، ومع ذلك فقد كانت نهضة في أحوال مختلفة جداً ولها طابع مختلف جداً . فقد أدخلت بعض الإضافات على الفن السابق كما أدى الاضطراب الذي فرغنا من وصفه إلى امتزاج ، إلى وجود شعب جديد له مواهب كلا أبيه ، وقد ألححت ، وربما في شيء من التسرع ، إلى أن لدينا على ذلك دلائل تظهر في الاهتمام الذي أبداه الرسامون الموكينيون أولاً ثم الآثينيون بعدهم بمختلف أوجه النشاط الإنساني . وهذا الاهتمام بالإنسان هو بالفعل أحد الخصائص المسيطرة على الفكر الإغريقي ، ولكن لا مانع من نظرة أعمق أن عظمة الفن الإغريقي ، ودعماً يستعمل الكلمة بأوسع معنى لها ، أساسها أنه يوفق توفيقاً تاماً بين مداس كثيراً ما كانا متعارضين فهو يوفق من

(١) من نص : اللصوص دونه ديكالو dip os دد ١١١

جهة بين الحكم والوضوح والجد والرصانة الجوهرية وبين الصراحة والخيال والعاطفة من جهة أخرى . والعن الاغريق الكلاسي بأ كمله ينقسم هذه الصفة العسكرية التي تنجلي إلى حد بعيد فيما في تركه من يقين ومطق . إن مذهب استخدام التفكير المطلق في الفن يدل على روع من الأجداد والأعمال ، ولكن الفن الاغريق سواء في ذلك البارثون أو أية مسرحية بقلم ايسخولوس Aeschylus أو أية محاوراة أفلاطونية أو قطعة فنية من الفخار أو الصورة الزيتية التي عليها أو أية نبذة صمعة التجميل من أو كود بديس ، فيه مع كل التفكير المطلق نشاط غامر وعاطفة فياضة يرجع السبب الحقيقي فيها إلى وجود رقابة ذكية عليها .

ولو أننا قارنا من بلاد الاغريق الكلاسي بالفن المينوي أو من جزر بحر أيجه لوجدنا بينهما اختلافا عظيم الدلالة . فن أفضل الفن المينوي فيه كل الصعات التي يمكن أن توجد في الفن فيما عدا هذه النعمة العسكرية المنطقية الطاعية . فن الصعب أن نتصور وجود مهندسين من الاغريق يطالعونا ببناء في تصميمه الهندسي فوضي واضطراب مثلما نجد في قصر كنوسوس ، ولو كان ذلك بمحض الصدفة أو حتى تحت التهديد بعقوبة الأعدام . لقد كسب الفن الاغريق جانبا من أعظم انتصاراته في أشق الفنون وأعظمها جدية ألا وهو نحت التماثيل الكبيرة ، ولا يمكن أن يكون من المصادفات أننا لم نمث في وقتنا الحالي على أي تماثيل مينوي فيما عدا قطع فنية صغيرة . صحيح بطبيعة الحال أن كل فن جدير بهذا الاسم يجب أن يكون جديا وقائما على التفكير . ورغم ذلك من الممكن أن نسمي هاتين الصفتين بمعنى من المعاني للفن الاغريق لالفن المينوي ، كما أننا نستخدم صفة فخيم وصام وحساس ورشيق ومرح بالنسبة للفن المينوي ، غير أننا لا نسمعه بالتفكير المطلق

وإذا شئنا أن نرجع إلى أصل أسلوب التفكير المطلق الذي يسرى في من

الأعريق الكلاسي فعدنا أن نتجه إلى الهلنستيين . ولن تكون ذلك ما دون دليل . ذلك أنهم عندما رلوا من الجبال الشمالية لم يأتوا معهم بص ، وإنما ابدى جاءوا به كان ( لغة ) «المعول» ونحن نجد في اللغة الأغريقية — في تركيبها نفسه — ذلك الوضوح والتحكم في التركيب الذي نشاهده قبل كل شيء في فن الأعريق الكلاسي ، ولا نجد في الفن الذي سبقه ، فاللغة الأغريقية أولاً مثلها كمثل اللغة اللاتينية التي تمت لها صلة اقرب في تغيير نهايات كلماتها تبعاً للأفراد والجمع والتذكير والتأنيث ، كما أن ترتيب الكلمات في اجل عظيم الاتقان والدقة ، وكما استطاع الإنسان أن يرجع إلى عبود أقدم في تاريخ اللغة وجد التغييرات التي تطرأ على أواخر الكلمات أكثر اتقاناً ووجود ترتيب الكلمات في اجل أدق بطرق شتى ، فترتيب الكلمات في اجل أكثر تغيراً وأقل جوداً في اللغة الأغريقية منه في اللاتينية وسرعان ما يكشف طاب الاداب الكلاسيه ذلك لشدة انتباهه أو حزنه تبعاً لمزاجه . وعلى ذلك فن طبيعة اللغة الأغريقية التعبير بدقة متناهية لاعتن العلاقة التي توجد بين الأفكار لحسب بل عن العلاقة التي بين ظلال المعاني والعواطف كذلك ، غير أن ما هو أقرب لموضوعنا الحالي هو إحدى نتائج ذلك إن لم تكن هي السبب فيه بالفعل ألا وهي الأسلوب البلاغي . ففي اللغتين الأغريقية واللاتينية إذا تصادف أن كان الأسلوب مركباً وفيه فكرة رئيسية أو أكثر مصحوبة بأى عدد من الأفكار التفسيرية أو الوصفية ، فإن من الممكن ذكر ذلك بوضوح تام في جملة واحدة بل هذا ما يحدث في العادة ومعنى هذا أن كلتا اللغتين يمتازان بهندسة في تركيبهما غير أن بينهما اختلافاً له دلالة ، فالرومان يبدو أنهم اكتسبوا الأسلوب البلاغي بمحض التصميم والشجاعة أما الأعريق ، فقد فطروا عليه . وليس في اللغة الأغريقية طرق أكثر لحسب للانتقال بسهولة إلى الحمل المرعية . مثلاً يوجد للمعل الأعريق العادى عشرة من أسماء الفاعل والمفعول ( إن

كان إحصائياً لها صحيحاً ) على حين أن الأفعال الانثبية العادية لها ثلاثة فقط - بل إن اللغة الأفرقية مشحونة بكلمات صغيرة كحروف العطف وأدوات الوصل تستعمل أرواجاً كما تستعمل جماعات ، وتحتصر مهمتها في أن تجعل المعنى واضحاً ، فهي على حد قول القائل معالم للطريق . ولا بد أن تكون قد مرت بالقارئ التجربة المنعجة الآتية : وهي قراءة جملة الإنجليزية بصوت عال ثم خفضه عند نقطة معينة اعتقاداً منه أن الجملة على وشك الانتهاء ، ولكنه في اللحظة الحرجة لا يجد نقطة الوقف بل شولة فقط ، مما يرغمه على أن يستعيد قراءة كلمة أو كلمتين ويرفع صوته من جديد ويستمر في القراءة ؛ غير أن هذا لا يمكن أن يحدث في اللغة الأفرقية لأن الكاتب الأفرقي يكون قد وضع في البداية كلمة مثل « تي » ، أو « أ » ، أو « أ » مضطراً لكتابتها وهي تشير إلى أن الجملة تشتمل على الأقل على قسمين متماثلين بحيث أن الثاني وما يليه إضافة بسيطة للأول ، أو مثل كلمة « من » men ، وهي تعني نفس ما ذكرناه إلا أن القسم الثاني وما يليه ليس في هذه المرة استمراراً للقسم الأول بل عكسه . وهذا طبعاً ممكن في اللغة الإنجليزية فالجملة الإنجليزية يمكن أن تبدأ بقولك « بينما نجد من جهة أن ... »

ولكن اللغة الأغرريقية تؤدي ذلك بحكم العطرة دائماً وبطريقة أسهل بكثير . وليس لدينا فعلاً أى نماذج من المحادثات الأغرريقية القديمة غير أن هناك نصاً وردت عند كتاب المسرحيات وأدلاطون Pato يجتهد فيها الكاتب في تصوير تأثير الحديث المرتجل ، وليس من المصادر أن نجد لها أسلوباً بلاعياً متقناً لدرجة معقولة ، وحتى إذا لم يجده فأنا نجد دائماً في عمله تركباً واضحاً وصريحاً تاماً وحالياً من العموص كما لو كان المسكلم رأى تصميمها هندسياً لمكرته وبالتالي وعلى وجه السرعة حملته قبل أن يبدأ في صياغتها بالكلمات . أن طسعة اللغة الأغرريقية هي أن تكون مصوطة دقيقة واضحة .



فعدم الدقة والافتقار إلى الوضوح في التعبير وهما اللذان تحذر (١) إليهما اللغة الإنجليزية أحياناً وتحلص منهما اللغة الألمانية أحياناً ، أمران عربان تماماً عن اللغة الأخرقية . ولست أريد أن أقول إن من المحال أن يكون الحديث هراء في الأخرقية ، فهذا ممكن جداً ، غير أن حقيقة كونه هراء تبدو واضحة في الحال . وليس عيب اللغة الأخرقية هو الغموض وقلة الوضوح بل هو لون من ألوان الوضوح الزائف في الأمانة الشديدة عن فروق لا وجود لها .

أن عقل أى شعب قد يفصح عنه تركيب لغته بطريقة مباشرة أكثر من أى شيء آخر من صنع يده ، ولكننا نجد في كل عمل أخرقى هذا الفهم الراسخ للفكرة والتعبير عنها بشكل واضح موجز ، كما نجد مع هذا الوضوح ومتانة البناء والجد والرصانة حساسية مرهفة ورشاقة لا تنفد . وهذا هو سر ما يسمى بالمعجزة الأخرقية . وأنا لنجد تعليل ذلك أو تعليل جزء هام منه في انصهار الحضارات معاً أن لم يكن في اندماج الشعوب كذلك .

---

(١) عدمه أقول اللغة الإنجليزية ، لا أقصد لغة الإداريين والسياسيين أصحاب شأن الذين يكتسبون خطابات من حرية « لتيسر » . أن عدم الدقة يمكن أن تكون الصفة الرئيسية لهذه اللغة لولا تظاهرها المنعقد بالصدق وحسن التصيد للاستثمارات السخيفة

## البلاد

ربما كان هذا هو المكان الذى علي أن ندرس فيه جغرافية بلاد  
الأغريق دراسة موجزة . فإلى طبيعة البلاد التى اجتذبت هذه الجماعات  
المتتالية من أهل الشمال الجفافة كما اجتذبت أحيانا جماعات من أهل الشرق  
وماذا فعلت من أجلهم ؟

سجمل معرفة التضاريس العامة لبلاد الأغريق ميسورة للمقارئ . إنها  
بلاد ذات جبال من الحجر الجيرى ، ووديان ضيقة وخليجان طويلة وأنهار  
قليلة وجزر كثيرة ، هى القمم التى بقيت من سلاسل الجبال الغارقة كما توحى  
بذلك على الفور أية نظرة إلى الخريطة . وهناك قبل من السهول التى ليست  
بواسعة ولكنها هامة للغاية بالنسبة لاقتصاديات البلاد وتاريخها ، وبعضها  
سهول ساحلية مثل سهل أخيا الضيق الخصب الذى يسير بمحاذاة الساحل الجنوبي  
للخليج . وهناك خليجان أخرى بالداخل مثل سهل لا كيدايمون Laedaemon  
(إسبرطة) الذى تكاد الجبال تحجزه كله عن البحر ومثل سهل تساليا  
Thessa y وبويوتيا أما سهل بويوتيا Boeot فهو كثير العشب (١) بصفة خاصة  
وذو جوار مليد بالقيوم . وقد اعتاد الإثينيون وهم أذكى من جيرانهم أن يدعرو  
هؤلاء بالخنزير البويوتى .

وببلاد الأغريق تمتاز بالتنوع العظيم فى كل من طروف إقليم البحر

---

(١) اسم بويوتيا من أصل « بويوتيا » وهو كثير العشب (١) بصفة خاصة  
صالحه للاعطاء .

المتوسط وأقليم مادون الألب تعود عن بعضها لبعض أمبلا قليلة ، و سطح البلاد يتفاوت ما بين سهول حصنة ومناطق جبلية وعرة . وكما من مجتمع من التجارة والتجار والمغامرين كان جيرانهم في داخله البلاد من المشتغلين بالزراعة الذين ما يكادون يعرفون البحر والتجارة بناتاهم من المحافظين المتمسكين بالتقاليد كالقمح والماشية . أن المناقضات في بلاد الأغر يقى وقدأ هذا قد تكون مذهلة ، ففي أثينا ويريه تجدأ وكنت تجد قبل الحرب مدينة أوروبية كبيرة حديثة فيها الترام وسيارات الركوب وسيارات الأجرة والطائرات التي تصل كل بضع ساعات والميناء الذي يزهو بالسفن الذاهبة إلى كل مكان إلى إيجينا Aegina عبر الخليج أو إلى الساحل الشرقى أو الغربى أو التي تخترق القنال أو المتجهة إلى الإسكندرية أو إلى ثور أوربا الرئيسية أو إلى الأمريكتين . ولكنك تستطيع أن تشق طريقك في ساعات قليلة إلى أجزاء من بلاد الأغر يق الوسطى أو البلوبونيز حيث الطارق لمسافة أمبال عبارة عن دروب للفرسان . أما العربية الوحيدة ذات العجلات فهي عربة اليد ذات العجلة الواحدة . وقد ذهبت في كلامانا إلى مطلع عصرى كبير للدقيق كان ينقل القمح إليه مباشرة بواسطة تفريغ الهواء من عتابر البضائع في السفن التي حماته . وقبل ذلك يومين وعلى بعد أقل من عشرين ميلا كنت قد رأيت دراس القمح على طريقة العبد القديم ، بواسطة الخيل والبغال التي تجرى حول جرن دائرى في ركن من أركان الحقل ، كما رأيت ذراية تجرى في نفس البقعة بواسطة الريح التي لا تقف عن الهبوب أبداً . وربما لم تكن المناقضات عظيمة جداً هكذا في العصور القديمة ولكنها كانت مع ذلك تلفت النظر ، فالسوع بواجها في كل مكان وهو حقيقة لها معنى كبير

وعا كان له أهمية عظيمة عوائقها الأعر يقية أن أكثر الدويلات كان لكل منها رفعة صقة من سهل حصب ومرعى جلى وسفوح معطاءة بالعادات وقم جمال قاحله كما كان لها عمر إلى البحر في حالات كثيرة لم تكن هناك

رمسجهم ( الصاعية ) أو ولتشير أو أى مجتمع له أسلوب واحد في الحياة فكانت الوحدة أقل حتى مما كانت في إنجلترا في العصور الوسطى ، والدويلات التي تعتقد إنها كانت تجارية أو صاعية أكثر من غيرها مثل كورنثا وأثينا كانت زراعية على الأقل كما كانت تجارية . إن ازدهار الحياة المدنية في أثينا في القرن الخامس يجعلنا ننسى سهولة رائدة أن أكثر المواطنين الإثنيين كانوا فلاحين قبل كل شيء . ويتضح من كوميديات أريستوفانيس Aristophanes أن أثينا ظلت مدينة ريفية إلى حد بعيد كما أن ثوكوديديس يقول بكل جلاء إن أصحاب الأرض في أثينا كانوا مقيمين بها حتى دفعتهم الحرب الييلوبونيزية إلى الانتقال إلى المدينة طلباً للأمن . ولقد كانت الغزوات الاسبرطية هي التي حولتهم إلى سكان للندن .

وإذا صدق هذا على أثينا فإنه يصدق أكثر على الدويلات الاغريقية الأخرى فقد كانت المدينة والريف مترابطين فيما عدا الأجراء البعيدة مثل اركاديا Arcadia وبلاد الاغريق ائفريقية التي لم يسكن بها مدن بالمرّة . وعندما نمت واتسعت حياة المدن كانت تشعر دائماً بما وراءها من الريف والجلال والبحر كما كانت الحياة الريفية على علم بعادات المدن ، وقد شجع هذا على اتخاذ نظرة سليمة مترنة ولم تعرف بلاد الاغريق الكلاسيكية بتاتا الركود والاستسلام للذين يتصف بهما العقل في سهول الاستبس كما عرفت قليلا جداً من حماقات غوغاء المدن التي تقسم بقصر النظر .

ولما كان هناك مثل هذا التنوع في تربة الدويلات الاغريقية ومناخها فقد كانت ممكنة اكتفاء ذاتياً بشكل معقول ، وكانت تستطيع أن تستيع حياة مترنة ومجتمع متحد . وقد تعلينا في السنين الأخيرة أن نستعمل كلمة أوتاركي أو أوتاركي Autarky بالأغريقية ومعناها الاكتفاء الذاتي ، غير أن ذلك كان في مناسبات أشد كآمة من الوقت الحالي ، وقد كان هذا الاكتفاء عند الاغريق جرماً جوهرياً من فكرة الدولة كما سنرى فيما بعد

وقد مكنته أحوال بلاد الأغرريق الطبيعية من تحقيق ذلك وقد كانت  
هاك نتيجة أخرى هامة للتووع الدائم في هذا العالم الأغرريق الصغير ، فع  
أن أكثر الدوليات كانت تستطيع أن تكون مكتملة اكتفاء ذاتياً بشكل  
معقول بفضل اختلاف نسب الارباع عن سطح البحر فقد كان لكثير  
منها محاصيلها الخاصة مثل زيتون أتیکا وورغام ميلوس Melos ونبذ جزيرة  
بيارثوس Peparethus ، وقد شجع هذا على نشاط التجارة وعلى الاتصال  
المستمر . وقد كانت المواصلات البحرية فضلا عن ذلك آمنة كما كانت سهلة  
إلا في الشتاء . ويمكننا كذلك أن نضع موضع الاعتبار حقيقة أخرى ذات  
أهمية حاسمة وهي أن بلاد الإغرريق تواجه الجنوب الشرقي بوجه عام .  
فالجبال تسير في هذا الاتجاه ولذلك فالوديان والثغور تواجهه . وسلاسل  
الجزر التي تعتبر استمراراً لسلاسل الجبال ترشد المسافرين في سفينة صغيرة  
دون أية بوصلة إلى آسيا ومصر في أمان تام وهما موطناً لمدينيات أقدم  
وأعرق . وقد ترتب على ذلك أن بلاد الأغرريق كانت في عصر ما قبل  
التاريخ مفتوحة بشكل مبر للتجار وغيرهم من كريت ثم من فينيقيا بعد  
ذلك ، بينما أخذت الطرق البحرية في العصور التاريخية تنقل اهلينيون الذين  
كانوا هم أنفسهم قد عشقوا البحر وبرعوا فيه إلى بلاد أقدم من بلادهم .  
ومقارنتها بإيطاليا يتجلى الاختلاف وتنضح هذه النقطة : إن جبال الأبين  
تقع بالقرب من الساحل الشرق وتتجه الأنهار والوديان لذلك نحو الغرب  
وتقع السهول الخصبة والثغور على الساحل الغربي . وفي شرق إيطاليا  
تقع التضاريس الساحلية وهي أعد ما تكون عن السماح لأحد بالاتجاه  
إليها . ولذلك جاءت الحصار متأخرة إلى إيطاليا ، والعود الميسر  
لم يكن عطياً بها . وعندما أنشأ الأغرريق مستعمرات لهم هاك اتخذوا  
طريقهم حول الساحل الجنوبي ثم شمالاً نحو العرب . والاحلافات  
العظيمة من حضارة الأغرريق والرومان لا بد أنها ترجع بدرجة عظيمة

إلى الحقيقة القائلة إن اللاتين على عكس الهيلين لم يجدوا انقفاة القدبة الخاصة بحبب شرق البحر الأبيض المتوسط وطيدة في شبه الجزيرة الهندى فحواه . فقد كانت جبال الألبين تكون حائراً لا يسهل اجتراقه وهالك وجه آخر من أوجه النضاد يتبادر إلى الدهن وهو الموجود بين مجموعة جزر بحراجه وجزر الهيريديس . فالاختلاف في المناخ والخصوبة بين الإثنين واضح وضوحاً كافياً غير أن هناك أيضاً ما يأتي : أن محاصيل إحدى جزر الهيريديس تشبه إلى حد بعيد محاصيل أية جزيرة أخرى بها كما تشبه محاصيل الجزء الرئيسى من البلاد أيضاً . فكانت التجارة بناء على ذلك ضئيلة حينما كانت الظروف بدائية . ولم تكن هناك أوجه اختلاف حادة تعمل على توسيع آفاق العقل . وفضلاً عن ذلك فإن الطرق البحرية كانت تؤدي لا إلى فينيقيا أو مصر بل إلى الجزء الرئيسى من البلاد الذى لم يكن يختلف عنها إلا اختلافاً يسيراً أو إلى شمال الأطلنطي وفيه إما أن يفرق الإنسان أو يعود من رحلته كما بدأ دون أن يزداد علماً وحكمة .

ويعتبر المناخ عاملاً آخر له أهميته وهو ملائم جداً على العموم وثابت منظم . وتعتبر بلاد الأغرقي في الحقيقة إحدى البلاد التى لها مناخ خاص لا التى بها مجرد أحوال جووية . فالشقاء قارص على الجبال ، أما فيما عداها فهو معتدل مشمس . والصيف فيها يبتدىء مبكراً وحاراً ولكن حرارته ليست منهكة للقوى إلا في السهول لأن الجو جاف ، كما أن التغير اليومي في نسيم البر والبحر يلطف الحرارة ولا يكاد المطر يعرف في الصيف .

أما أواخر الشتاء والحريف فهما فصلان مطيران . وبين الكتابات الطبية الأتريقية المنسوبة إلى ابتراط رسالة قصيرة عنوانها : الأهوية والمياه والأماكر ، . وهى تعطى فكرة كئيبة عن المناخ الأتريقي . فالكتاب المجهول يحررنا أنه إذا كان تعرض أى مكان للعوامل الجوية جويياً شريعياً إلى حوبى عربى بحيث يكون مكشوقاً أمام الرياح الساخنة ومحجوباً عن الشمال ، فإن المياه تكون ساحة في الصيف باردة في الشتاء

ومعثرة بالأملاح لأنها تكون قريبة من السطح . أما السكان فيهم معرضون للإصابات المماوية وبالتالي إلى ماعب سوء الهضم ، وهم لذلك مقلون في تناول الطعام والشراب . أما النساء فقسوء صحتهن ويتعرضن للإجهاض ويصابن الأطلمال بالنتسجات والربو والشلل ويتعرض الرجال للدوسنطاريا والإسهال وحى البرداء والحيات المزمنة والأجزيما والبواسير . وبعد سن الخمسين تصيبهم الأخلط النازلة من الرأس بالشلل . ومع ذلك فقلما يصابون بالالتهاب البلورى وذات الرئة وقليل من الأمراض الأخرى . فإذا كان اتجاه المكان الذى أنت فيه شماليا كانت شكاوك من عكس تلك الأوجاع كما أن الماء يكون عسراً قسوء صحتك وتكون نحيفاً قوياً وتأكل كثيراً وتشرب قليلاً ، إذ أن من الهال أن تكون أكلوا ومدمناً على الشراب فى نفس الوقت ، وكذلك تكون عرضة للالتهاب البلورى وانتزعات الباطنية . وتكون الولادة عسرة . أما تربية الأطلمال فيبدو أنها من رابع المنجيات . وأحسن الأمكنة ما كان شرقى الاتجاه أما الغربى فهو أسوأها جميعاً .

هذه صورة ليست بهيجية ولكن الكتب الطبية مفرعة على الدوام . وعلى كل حال فن الواضح أن هذا الكاتب تحت قبعته نخله ، فهو ليس بأحسن مثال للعالم الأغريق .

دعنا نأخذ دليلاً من نوع مختلف . هاك أسماء أشخاص من قرن حديث أذكرها اعتباطاً : هايدن وموزار وبتوفن وجبته وشوبرت ومندلسون وورد زورث وكولريدج وكيتس وشيللى . وهذه الأسماء من قرن أغريق تصلح للمقارنة : أيسخولوس وسوفوكليس Sophocles وپوريديديس Euripides وأريستو فانيس Aristophanes وسقراط Socrates وأفلاطون وأيسوكراتيس socrates وجورجياس Gorgias وپروتاجوراس Protagoras وكسيوفون . إن تاريخ وفاة أفراد القائمة الأولى على التوالى هو : ٧٧ ، ٣٥ ، ٥٧ ، ٨٣ ، ٣١ ، ٢٨ ، ٨٠ ، ٦٢ ، ٢٦ ، ٣٠ وهو فى القائمة الثانية ٧١ ، ٩١ ، ٧٨ ، على

الأقل ٦٠، ٧٠، ٨٧، ٩٨، ٩٥ ( ٩ ) وحوالى ٧٠، ٧٦ . لقد مات شبل عرقاً بطبيعة الحال ولكن ( يندو ) أن وفاة أحليس وبوريديس كانت مصادفة ، وقد أعدم سقراط ومات بروتا جوراس حين تحطمت السفينة التي ركبها وكان شعراء المساسي الثلاثة عاملين في ذورة عبقرتهم عند وفاتهم ( وهو مالا بقوله أحد عن ورد زورث ) ، وقد أدرك الموت أفلاطون وهو يكتب القوانين ، وإذا تمعن أى إنسان مهم بالموضوع في كتاب « حياة الفلاسفة » الذى ألفه ديوجينيس لارتبوس وهو كتاب ممنوع جداً فإنه يندهش من الصورة العامة التي وردت به عن طول العمر . ومن الواضح أن بعض التواريخ خرافية فمن يصدق أحد أن أمبيدوكليس عاش حقاً إلى سن ١٥٠ ، خير أنه لا يكاد يكون شخصية تاريخية بأى حال . وليس هناك من داع للشك في دقة أكثر الأرقام المذكورة . فمن الواضح جداً أن بلاد الأغريق كانت ملائمة لا لطول العمر بحسب بل للنشاط المتواصل أيضاً . وإلى جانب سوفوكليس الذى كان يؤلف كتابه الرائع أوديب الكولوى Oedpus Cooneus وهو في سن ٩٠ يمكن أن نضع صورة « أجيسلاوس » Agessaus ملك أسبرطة وهو مشترك في الحرب في الميدان في سن الثمانين بصفة جدية لا قائم بإدارة المعارك بحسب . ويبدو أن الشينوخة المحتكة بالحوية كانت شائعة في بلاد الأغريق أكثر مما هي في أى بلد حديث حتى العصور الحديثة على الأقل . ولا شك أن طريقة الحياة الصحيحة والغذاء كان لهما علاقة كبيرة بذلك . وبلاد الأغريق فقيرة عالياً ولكنها كانت أغنى من ذلك بلا ريب في العصر القديم فقد كانت تمد عدداً أكبر من السكان بالطعام وإن كان ذلك دون ترف أو إسراف . ويستطيع سائق العمال الأغريق أن يداوم المسير أياماً على رعيه من الخبز وقليل من الزيتون . وقد كان سلفه الذى عاش في العصور الكلاسية مقصداً مثله تماماً ، فقد كان طعامه المعتاد من الشعير والزيتون وقليل من البند ، والسمك صغته طعاماً حسن المذاق ، واللحم في أيام الأعياد



الهامة ، وكما قال ريمرن Zimmer : لقد كانت وجبة العشاء الرئيسية في أثينا تتكون من لونين من الطعام أولهما نوع من الثريد وثانيهما نوع من الثريد . لقد كان طعامهم شحيحاً ولو أن حملات الشراب كانت تتجمله بصورة مناسبة ، ولكنه مع حياة الأعريقى العادى النشيطة خارج البيت قد أنتج جسماً قوياً من الناس .

لماذا كانت بلاد الأعريق فقيرة هكذا ؟ إن أردنا أن نحظى بالإجابة الرصينة على الأقل على هذا السؤال يمكننا أن نلتمس إلى وصف أثينا الذى كتبه أفلاطون في كريتياس (Crass) وهو وصف شيق جداً يقول فيه : إنها مجرد هيكل لما كانت عليه في الماضى ، لأنها تبرز من الجزء الرئيسى من البلاد إلى البحر مسافة كبيرة مثل الصخرة العالية ، وهذا بالفعل معنى لاسم « أثينا » ، « والبحر من حولها عميق كله » وأثناء هذه التسعة آلاف من السنين (١) هبت كثير من العواصف العنيفة ، غير أن التربة التى جرفتها من الأقاليم العالية لم تكون أى سهل رسوبى يستحق الذكر كما حدث لجهات أخرى ، ولكنها تلاشت في كل مكان وضاعت في قاع البحر . ولو أننا قارنا مابقى منها الآن كذلك الذى يوجد في الجزر الصغيرة بما كان موجوداً عندئذ لرأينا أنه أشبه بعظام الجسد الذى أنهكه السقم فقد زالت التربة الخصبة نازكة هيكل الأرض فحسب ، أما قبل أن تزول التربة فقد كانت هناك تلال عالية بدلا من الجبال العارية والسهل الذى يطلق عليه الآن اسم فيلبوس (Phellous) (٢) كانت تغطيه تربة سميكه خصبة وكانت هناك غابات عظيمة فوق الجبال لازلنا نرى الدلائل على وجودها . أما الآن فهناك جبال لا يقات منها إلا السهل ، ولكن لم تمض مدة طويلة على العهد الذى كانت تقطع منها الأحشاب لعمد سقوف أعظم المشآت ، وما رالت أحشاب

(١) يجب الاستدراك في أحدها معدها . الخرى هو كان أفلاطون . معرما نوع من الموس ارياصى .

(٢) مع . ( اصرى ) .

هذه السقوف سليمة متينة . وقد كانت هناك فصلا عن ذلك أشجار عالية مزروعة بكثرة ، كما كانت الجبال مرعى لقطعان لا تحصى ولا تعد .

وهذا هو أسبب الازدياد في وجود الفرق المدهل بين الطعام الهوميري وطعام الإغريق الكلاسيين . ففي كل مئتين أو ثلاثمائة بيت من الشعر عند هومر كان الأبطال يأكلون ثوراً . أما أكلهم السمك فكان يدل على الحرمان الشديد . على حين أن أكل السمك في العصور الكلاسيكية كان يعتبر من دلائل الترف ، أما أكل اللحوم فقد كان مجهولاً .

انقد ذكر أفلاطون العواصف . فالساحل الأغريق له نواحيه الدرامية المثيرة . فقد كان زيوس إله السماء سريع الغضب وكان يوسبندون الذي يرب الأرض هزاً سواء بواسطة الأمواج أو الزلازل مخلوقاً مخيفاً . ويصف هزبود ثاني شعراء الأغريق الأقدمين في الخلود كيف أوقع هرقل كيكبوس (Cycnus) العملاق فيقول أنه وقع كما تقع شجرة البلوط أو الصخرة الناتئة حينما تقصمها صاعقة زيوس ذات الدخان . وقد رأى مؤلف الكتاب طرفاً من أعمال زيوس المهتاج ، فقد كنت أشق طريق مصعداً في أحد وديان أركاديا الذي كثر بهند بدرجة تكاد لا تحتمل . فوصلت لجأة إلى قطعة من الأرض تمتد إثني عشر فداناً على وجه التقريب كانت تنثر عليها صخور مستديرة كبيرة أو صغيرة بحيث لم يكن يرى منها سطح الأرض . فكانت تبدو كأنها شاطئ البحر الصخري . وكان في وسطها منزل مدفون إلى منتصفه في الحطام . وقد كانت هناك مزرعة قبل ذلك يومين ، غير أن عاصفة هبت عليها من فوق جبل تروتوفانو Tournovanو على بعد أميال كانت هذه تنحيتها . ولاريب أنها تحولت بعد ذلك نعامين إلى مزرعة مرة ثانية ، فإن العلاج الأغريقى المجد يعرف طريقة العلاج الوحيد ضد زيوس .

ولم يكن هزبود نفسه عظيم الحب لمساح الجوه التي ولد فيها . ولما كما قد أعطبها صاحب بلاد الأعريق شبتاً كبيراً من الأهمية حتى الآن ومن من العدل

أن نسمع من جهة أخرى إلى من يعتز حجة ممتازة في الموضوع مثله . لقد كان هزبود Hesiod يكره حر الصيف المرهق كما كان يكره الشتاء . . . شهر لينايون بأيامه المشتومة التي تنهراً جلد الماشية حين يغطي الصقيع سطح الأرض ، وهو الذي يظهر بهجن الناس كلها هت من الشمال الشرقى في تراقيا أنفاس الرياح على البحر الواسع وأثارت ثائرتة وأخذت الأرض والغابة تهبران بصوت مرتفع . وكمن شجرة من أشجار البلوط ذات الورق الأخضر الكثيف العالي أو من أشجار الصنوبر العاتية في أودية الجبل قد جعلها هبوب الريح تهوى إلى الأرض التي تفيض بالخير . وتدوى الغابة التي لا تحصى أشجارها دويّاً عالياً كما ترتعد الحيوانات البرية وتضع أذيالها بين أرجلها ، حتى الحيوانات وهي التي يكسو الشعر جلودها . أجل إن الريح بأنفاسها الباردة تنفذ حتى في هؤلاء . رغم أن الشعر الأشعث يغطي صدورهما . فهي تنفذ من خلال جلد الثور السميك لأنه لا يوقها كما تنفذ في الجدى ذى الشعر الخفيف . ولكن صولة بورياس Boreas لا تستطيع بأية وسيلة أن تنفذ في الخراف بسبب صوفها الغزير ، ولكنها تحنى ظهر الرجل الشيخ . . وكان هزبود يكره أربعاً من الرياح اثنتى أما الأربع الأخرى لجنس الآلهة هو الذي كان يرسلها ، وهي نقمة عظمى على الجنس البشرى الذي قدر عليه الموت ، ولكنها رياح عارضة تهب على البحر من حين لحين وتحتاج البحر الذي يخيم عليه الضباب . إنها نقمة كبرى على البشر الذين كتب عليهم الموت فهي تثير العواصف المشتومة المتنوعة التي تهب في مختلف الأوقات وتشقى السفن وتهلك الملاحين ولا يبعد الذين يجابهون هذه الرياح فوق البحر من دفاع ضد هذا اللاء . كما أن العواصف التي تهب فوق الأرض العسيحة المعطاة . الأرهاق تدمر أعمال الناس الصالحة وتملاها بالتراب وتشيع فيها الاضطراب المحزن .

ولكن هزبود كان ولاحاً من أسكرا Askra عاصمة بويوتيا وهي مكان كتيب بالقرب من هيكون Heicon كما أنه كربه في الشتاء وصعب في الصيف

إد لم يكن حساً يوماً ما . وما ينبغي أن يكتب الإنسان هكذا عن وطه حتى ولو كان أبوه قد نزع إليه من آسيا الصغرى وذكر لهريود مالا يحصى من المرات بلاريب كم كانت الحياة في آسيا أفضل

ونحن على ثقة من أنه لو كان قد قابله أحد الآثيين لقان له أنه يستحق مثل هذه الحياة في بوبوتيا . أما في أثينا فقد كانوا يقيمون في الهواء الطلق أول مهرجان دراسي في العام في فبراير حين كان ينتهى الفصل المطير ولو أن موسم ركوب البحر لا يكون عندئذ قد بدأ . وقد كان لذلك هذا المهرجان عائداً بسيطاً إذا قورن بمهرجان « ديونوسيا المدينة » الفخم في أوائل أبريل حين كانوا ينتظرون وفود الزوار من كل مدينة في بلاد الأغريق . ومن الواضح أن أثينا كانت تتم بماخ أفضل من ذلك الذي وصفه هريود ، ولكننا سبق أن قلنا إن بلاد الأغريق هي أساساً بلاد المتناقضات .

إن من الواجب علينا ألا نترك موضوع ماخ بلاد الأغريق دون أن نعنى بتأثيره على الحياة الأغريقية ولا سيما على الحياة الآثينية .

فهو أولاً قد ساعد الأغريق على أن يكتبوا بقليل جداً من المعدات ، فالإنسان يستطيع في بلاد الأغريق أن يحيا حياة جادة نشطة على طعام أقل بكثير مما هو ضروري في الأجواء التي تعتبر أفسى من جو بلاده . كما أن هناك حقيقة عظيمة هي أن الرجل الأغريق كان يمكنه أن يقضى أكثر ساعات فراغه خارج البيت ، بل هذا ما كان يعمل به بالفعل . وهذا يعنى وحده أنه كان لديه فراغ أكثر . فهو لم يكن في حاجة للعمل لشراء الأرائك والفرش الحجرى . ولعل السبب في أساسا معشر الإنجليز قد استكروا عبارة « الراحة الإنجليزية » يرجع إلى أننا لا نكسأ أن نعم بالراحة والدفء إلا ونحن في البوت . والسبب عموماً يعرفون الصراع الذي كان يتمتع به الأغريق إلى وجود الرقيق ، ولا شك أن للرقيق (١) صلة بذلك غير أنها لم تكن في أهمية

(١) أنظر منه في الفصل السابع

الحقيقة التي تقرر أن الأغريق كل يستغنى عن ثلاثة أرماع الأشياء التي نشقى نحن من أجلها .

وهكذا كان يستطيع الأعريقي الذي يعيش في المدينة أو القرية والذي كان يقضي خارج البيت الفراغ الذي اكتسبه إلى حد بعيد بالاستغناء عن أشياء نراها نحن ضرورية أو نطلبها كذلك — أن يشهد ذكاه وبرقى آدابه عن طريق الاتصال المستمر بزملائه ، وقبيل من الناس يحبون أن يعاشروا الناس مثل هذه المعاشرة الكاملة . وقد كان الكلام بالنسبة للأغريقي هو أنفاس الحياة وهو لا يزال كذلك بالفعل لولا أن اشتغاله الخطير بقراءة الصحف قد أفسده نوعاً ما . فأى مجتمع عدا مجتمع أثينا كان يستطيع أن يجرح لنا شخصية مثل سقراط — ذلك الرجل الذي غير مجرى التفكير البشري دون أن يكتب كلمة واحدة أو يدعو إلى مذهب بل بمجرد حديثه في طرقات بلدة لم يغادرها قط إلا مرتين إلى ميدان القتال ؟ وفي أى مجتمع آخر يشعر الإنسان مثل هذا الشعور بهذا الفارق الضئيل بين المتعلمين وغير المتعلمين وبين أهل الذوق والرعا ؟ لقد كان الأثيني كما كان كثير من الأغريق ينلقون التربية والتعليم الحقيقي في أماكن الاجتماع في أوقات الحديث وهم في السوق أو في الرواق أو في الملعب أو في المجتمع السياسي أو في المسرح أو عند النلاوات العامة فهو مرأى في المواكب الدينية والاحتفالات . ولعل أكبر نعمة أنعم بها مباح آتيكا عليها هو أن مجتمعاتها العظمى كان يمكن أن تعقد في الهواء الطلق . ومهما كانت غرائز الأغريقي ديمقراطية فما كان من الممكن أن تسمى الديمقراطية الأثينية أو تتطور المسرحيات الأثينية تبعاً لذلك لو أن السقوف والجدران كانت ضرورية للاجتماع . وفي مثل ظروفها الخاصة بالمسكن وأماكن الخلوة وأحور الدحول يجب أن تكون حياة الأثرياء أو فريامكانيات من حياة الفقراء كما يجب أن يكون لستائة عضو فقط حق تناول مهمة شئون الأمة . أما في أثينا

فكان من الممكن أن تكون كل هذه الأشياء صالحة للجميع لأنها كانت مكشوفة للشمس والهواء . إن تعديل الثقافة الآثنية بأنها وليدة المساح الآثنية فقط يعتبر تعليلاً صحيحاً ولو أنه تغلب عصرى ومع ذلك فمن الممكن أن يثبت بالدليل أنها ما كانت تنمو هكذا في مساح مختلف

من الممكن جداً أن نختم نظرتنا إلى الظروف الطبيعية التي عاش فيها الأغريق وهي النظرة التي استطردنا فيها من موضوع إلى آخر ، ببعض الملاحظات عن موارد البلاد الطبيعية وطبيعة اقتصادها في ظروفها البدائية .

إن أربعة أخماس بلاد الأغريق قاحلة اليوم ، أما في العصور القديمة كما سبق أن رأينا ، فقد كانت منحدرات الجبال تكسوها الغابات الكثيفة وهي مصدر غنى للخشب والصيد الكبير والصغير . ومن حقنا أن نستنتج أن سقوط الأمطار كان أشد وأن مصائبه كانت أقل وأدلك كانت هناك مراعى أكثر وأحسن مما هناك اليوم . ويبدو واضحاً من الأدلة المتاحة لنا وبخاصة هومر وهزويود أن بلاد الأغريق كانت مكتفية ذاتياً بالفعل بالنسبة للسلع الأولية . وفضلاً عن المحاصيل الزراعية فقد كان هناك حجر البناء بكثرة كما كان هناك صاصل جيد الصانعى القدور . وقد كان الزيتون محصولاً هاماً إذ ذاك كما هو الآن . فكان يمدهم بالزيت للظهور وإشعال المصابيح وبما كان يقابل الصابون في الزمن القديم . وكان الكرم يزرع بكثرة أيضاً .

لقد كانت بلاد الأغريق فقيرة في المعادن ، فكان الذهب والفضة والرصاص والحاس كلها موجودة ولكن في غير كثرة طائلة . ولم يكن هناك حديد بالمرة . وفضلاً عن ذلك لم يكن هناك فخم حجري وأطر أن المؤرخين الاجتماعيين لم يدرسوا دراسة كافية الحقيقة البسيطة القائلة إن أية حصار قديمة لم يكن لديها فخم حجري . إن العسل بديل يعنى عن السكر ولابد الوافر له أثر يعوض على الأقل عن عدم وجود الشاى

والقهوة ، ويمكن الإنسان أن يستغنى عن النع بفرض أنه لا يعرف أن النع موجود ، وليس ما الذى يمكن أن يحل محل الفحم الحجري ؟ الجواب هو أن الفحم الحجري باعتباره مجرد مصدر للدفع والور يمكن استبداله بشمس البحر الأبيض وبالحطب . ويصلح الفحم الباقى للظهور بصورة ممتازة . ولكن لم يكن هناك بديل مرض عن الفحم الحجري باعتباره مصدراً للقوة إلا حل الأرقاء ، وهو من الوجهة الميكانيكية تبديد فى استخدام القوة كما أنه مضر لنير ذلك من الأسباب .

ويمكننا أن نعرف شيئاً من هومر وهزiod عن الحياة الاقتصادية فى هذا العصر المظلم . فن الواضح أن الزراعة كانت تمارس بذكاء عظيم . وقد كانت زراعة الكرم بصفة خاصة مفهومة حق الفهم ولو لم تكن بالأمم الهين . ويعطينا هومر فى الأوديسا خلال وصفه لمدينة الفياكانيين Phaeacians صورة لسائين وحدائق اعنى بها كل العناية وهى خصبة جداً وحسنة التنسيق فيقول :

إنك ترى قرب المشى غابة جميلة من أشجار الخور مقدسة للآلهة أينا Athena وفى وسطها ينبوع يفيض ماءً وتحيطها المراعى من جميع الجهات . وهناك منزله أبى الملوك كما أنه يمتلك حديقة الخضر على مرمى البصر من المدينة . اجلس هناك وانتظر قليلاً حتى ندخل البلدة ونصل إلى بيت أبى وعندما تظن أننا قضينا من الوقت ما فيه الكفاية أدخل المدينة وأسأل عن قصر أبى الملك الكيوس Alcous فن السهل التعرف عليه فأبى غلام صغير يستطيع أن يريك إياه ، لأن بيوت من عداه من الناس ليست من طراز يشبه قصر الملك الكيوس ، فإذا مررت من الماء إلى داخل المائى فامش بسرعة فى البهو الكبير حتى تصل إلى أمى التى تجلس بصفة عامة فى الور إلى جانب نار المدفأة وتسح الخيوط المصنوعة باللون الأرجوانى ، ويرى لها صورة سهبة وهى متكئة فى مقعدها إلى أحد الأعمدة ووصيفاتها جالسات

حلما وعرش أبى قريب منها وهو يجاس هداك يحتسى الحر كنه إله (١) .  
هكذا كانت إرشادات الأميرة لأودوسيوس الذى تحطمت سميته  
حتى إذا وصل إلى القصر كان هذا ما شاهده

كان هناك سنان واسع خارج الماء مساحته أربعة أمدة وهو يمتد إلى  
الآبواب الخارجية وله سور من الشجيرات على كلا الجانبين . وكانت فيه  
أشجار بأسقة خضراء كأشجار الكثرى والرمان والتفاح المثقلة بأثمار اللامعة  
الملساء والذين الحلو المذاق والزيتون الوفير . وأثماره لا تنقطع ولا تمتنع  
في الصيف ولا في الشتاء على السواء . وهى توجد في كل فصول السنة وليس  
هاك وقت لا تعاون فيه أنفاس الرياح الغربية أكام الزهر وأثمار الباضجة  
هنا وهناك حتى بلغت الشجرة تلو الأخرى من أشجار الكثرى والتفاح  
والذين والعقود تلو الآخر من عاقيد العنب أوج الكمال . وكان في البستان  
ذاته كرم مشمر وكانت في جزء منه قطعة دافئة من الأرض المستوية يحفف  
فيها بعض العنب في الشمس بينما يجمع البعض الآخر ويوطأ تحت الأقدام .  
وتدلى من الصفوف الأمامية عناقيد لم تنضج بعد أخذت تخرج أزهارها  
أو تبدى أول لون بنفسجي خفيف . ووراء أبعد صف نسقت أحواض  
الحضرم من مختلف الأنواع فأصبحت تكون رقعة يانعة من اللون الأخضر  
المتصل ويسقى الحديقة ينبوعان تخرج من أحدهما الجداول لكل أجزاء  
الحديقة بينما يجرى الآخر في الجانب المقابل تحت الباب الخارجى للفناء  
بعد أن يزود مرمى الأهالى بالماء متجهاً إلى البيت نفسه (٢) .

هاك ظل من أرض الأساطير والحيات يطوف بأرص الفياكبانس  
على أن هو مر مهما بالغ في رسم صورة البستان من الواضح أنها صورة شيء

(١) من الأوديسا — سيد ٦ .

(٢) من الأوديسا — سيد ٦ .



رآه . ونحن نسمع عن كرمه أخرى في آخر كتاب من الأوديسا ولكن لا يكتبها  
أى سحر هناك فعدا قتل أودوسوس Odysseus (العشاق أو الأدعياء)  
حرج يبحث عن أبيه الشيخ الذى هاجر من المدينه بانسا .

وفى هوساثر فى طريقه نحو الخديقة العظيمة لم يعثر بالمصادفة على  
دوليس Doolis أو أحد من العبيد أو أبناء دوليس الذين كان قد تقدمهم  
هذا الشيخ الكبير بنج الأحجار اللازمة لجدار الكرم . وهكذا وجد أباه  
وحيدا على أرض الكرمه يحفر الأرض حول أحد البساتين وكان يلبس  
رداء قذرا مرقعا مزرىا وزوجا من أغطية القدم الجلدية المخيطة المربوطة  
حول ساقيه لتقيهما الحدوش كما كان يلبس قفازات لنقى يديه من الأشواك .  
وكيما يزيد العنين بلة ويؤكد شقوته كان يلبس نوق رأسه قبة من جلد  
الماعز (١) .

إننا ننقل فى الأوديسا بين العظماء ونرى الملوك يعيشون فى ممتلكاتهم  
ولو أن ملك إيثاكا Ithaca كان أقرب شهما بأمر إقطاعى منه بملك فهو يعين  
العمال الأجراء والأرقاء ولكنه لا يترفع عن أن يعمل فى الأرض بنفسه .  
فإن لاريس Laertes يعرف كيف يحفر حول الكرم وأودوسوس نفسه  
يفخر بأنه يستطيع أن يشق خطأ مستقيما بالمحراث مثل أى رجل آخر .  
ونحن نقابل عند هزبود المزارع الصغير الذى يفلح الأرض بنفسه مع  
أولاده أو مع أحد العبيد إن استطاع الحصول عليه كما يفلحها أحيانا مع  
الأجراء . واتقد كانت قطعة الأرض التى يملكها سواء كانت صغيرة  
أو كبيرة مكشبة اكشفاء ذاتيا وكان التدبير المنزلى هو القاعدة فقد رأينا  
« أريشيا » ملكة الصاكناس تنسج على صوم البار على حين أن « نيلوى »  
Peneope ، ملكة إيثاكا ربما كانت أشهر بالسجلات ومعها الملاة الكبيرة  
التي كانت تعلق صبا والنيل ما سمعته بالهار .

وكان يصم بيت الكسوس الرفيع العباد خمسين حادمة يطحن بعضهم قمحاً لونه كلون انتماح الذهب في طاحون اليد وتسحق بعضهم على المسح أو يحلس لعزل الجيوبط وأيديهن تتحرك بسرعة مثل أوراق الحور العالية بينما يقطر ريت الربيون الناعم من الأفتشة التي صممت خيوبطها أثناء النسيج صمماً وثيقاً والتي انتموا من صنعها (١).

أما من كانت حياتهم أقل شأناً من الكينوس فقد كانت جميع ثيابهم وكافة الأفتشة المستعملة في مازلهم من صنع نساء الأسرة. وربما كان ذلك بمساعدة إحدى الخادومات إن كانت الأسرة ميسورة الحال نوعاً ما، بينما كانت أكثر أدوات المزرعة تصنع في نفس المزرعة.

ونحن نسمع عن صناعتين فقط من صناعات التخصص يشتغل بهما صانع المعادن والخزاف وهما « من الصناع demourgoi ، أى من الذين يشتغلون لصالح الشعب فلا يستهلكون نتاج جهودهم » و « الديمبورجوس » هو الصانع وهو « الخالق » عند أفلاطون ومنها كلمة « ديمبورج » الواردة في قصيدة شيلي المسماة « بروميثيوس وقد فككت قيوده ». ومن الشائق أن نلاحظ أن هاتين الصناعتين هما وحدهما اللتان لهما في الإغريقية مثالان من الآلهة هما هيفايستوس Hephaestus أو ( فنسكان ) صانع المعادن و بروميثيوس Prometheus وهو أيضاً إله من آلهة النار ولكنه في عبادة أنبيكا إله الخزافين. ولم يكن هناك إله لصناعة الأحذية أو للزراعة أو للبناء. ومن الواضح أن كل إنسان يعرف كيف يصنع هذه الأشياء، أما بالنسبة للصناعة المعدنية المتقنة أو لصناعة قطعة رشيقة من الخرف فقد كان الأمر مختلفاً كل الاختلاف. « لعمري كيف تصنع ؟ » لا بد أن إلهاً قد صنعها « وقد صنع هيفايستوس الذي ورد ذكره في قصة آريس Ares وأفروديتا Aphrodite الشائنة الممتعة التي حكهاها هومر في الشيد الثامن من

الأوديسا شكة من الحديد المطروق حميفة كسيح العسكوت ودقيقة حتى لم يكن يستطيع رؤيتها الآلهة المجمعون ثم ادعى أنه مسافر إلى ليموس Lemnos فقال لها آريس : تعالى يا حبيبى فقد ذهب روجك إلى ليموس لزيارة أصدقائه البرابرة من السستيانيين ، فجاءه أفروديتا ولكن الشكة ترات وأطبقت عليهما بشدة وهما راقدان حتى لم يستطع أحد منهما تحريك أى طرف من أطرافه . ونادى هيفايستوس وهو فى ثورة غضبه الآلهة الآخرين الذين جاءوا ليروا ما أصابه من سوء ، فلما رأوا حبة هيفايستوس البارعة لم يتمالكوا أنفسهم من الضحك . فالتفت أبوللون بن زيوس إلى هرميس وقال : ه هرميس يا ابن زيوس ، هل كان الأمر يستحق ذلك ؟ فقال القاتل الجبار لغرض فى نفسه ، : نعم إلى أود أن أستبدل مكانه بمكانى فى هذه اللحظة .

غير أن الصلة بين هذا وبين الاقتصاد الإغريق القديم قد تكون بعيدة إلى حد ما .

ولم يكن الإغريق تجاراً فى تلك العهود القديمة ، فأدوات الترف التى كانت توجد بوفرة فى بيوت الأغنياء كانت تأتي من الشرق فى سفن فينيقية تحمل الرقيق إليهم كذلك ، ومنهم يومايوس Eumaeus راعى خنازير أودوسيوس المخلص إذ كان أبوه ملكاً فى Suria ، سوريا (١) ، البعيدة عن صقلية ، وكان للملك جارية من صيدا كان قد اشتراها من قراصنة جزيرة تافوس (٢) الأشرار الذين كانوا قد خطفوها عنوة ، وفى ذات يوم جاءت إلى سوريا سفينة فينيقية تحمل سلعاً من الكماليات فعازل أحد تجارها فتاة صيدا هذه وسمع قصتها واقترح عليها أن تعود معهم لأنه كان يعرف أن أويها

(١) بحسب حرر لسكوكلاوس فى عراشه .

(٢) جزيرة تافوس ، تسمى اليوم ميجانيز Meganiz ، وقع دولة ساحل أكراتيد عرب بلاد اليونان .

على قيد الحياة وأنها كانا من الأثرياء . فوافقت الفتاة بالطبع وحسب  
الخطوة باقتراحها أن تحمل معها ابن الملك وهو ولد صغير ذكى كان في رعايتها  
إذ كان يمكن بيعه بشئ حسن هو افق الفيسق على ذلك وطلت السفينة ستة  
في سوريا وهم يبيعون الكاليات ويترودون بصائع أحري من الماشية والجلود  
والمعدن الخام والندد وهي الصادرات العادية ، فلما استعدوا للأبحار خرج  
الفريق الثيم إلى بيت الملك عقداً من العنبر ، وبينما كانت الملكة وغيرها  
من السيدات يفحصه ويساومن في ثمنه تسلك الجارية التي من صيدا بالطفل  
في الشوارع المظلمة ولم ينكشف الأمر حتى كانوا جميعاً في عرض البحر ،  
وقد نالت الفتاة جزاءها لأنها وقعت في عنبر البضائع جثة هائدة ثم رفعت  
منه إلى سطح السفينة وألقيت في البحر . وقد أبحرت السفينة إلى إيثاكا  
حيث بيع الطفل إلى لأرتيس Laertes والد أوديسوس الذي رباه هو وانتكيا  
Article = كما لو كان ولدهما حتى كبر فأعطى رداء وعباءة جميلة وجعل  
مشرفاً على المزرعة من قبل الملك . كان هذا جانباً من تجارة البحر الأبيض  
المتوسط لا في هذا العصر المظلم لحسب بل في كل عصر آخر لم تكن فيه  
حكومة قوية تستطيع المحافظة على الأمن في الشواطئ ومراقبة البحار .

وقد كانت التجارة الدولية إذ ذاك في أبهى فبديقة ، وقد ظل الفينيقيون  
محافظين بها في أجزاء معينة من البحر الأبيض المتوسط حتى نهاية القرن  
الثالث قبل الميلاد لأن قرطاجة كانت مستعمرة فينيقية ومن هنا جاء اسم  
الحروب الفينيقية ( التي خاضتها قرطاجة ) وقد نجح القرطاجيون في إبعاد  
التجار الإغريق عن المثلث الذي يتكون من طرف مصقبة الغربى ومضيق  
جل طارق والطرف الشرقى للبرانس . ولكن لمعد إلى العصر القديم حين  
كان الإغريق مشغولين بالفعل بالتجارة الساحلية . إن هزود في قصيدة  
والأعمال والأيام ، يشكّل إعطاء معلومات عن فصول السنة التي تستطيع  
فيها أن تبدأ الملاحة وتلك التي يجب عليك أن تكف فيها عن ذلك إن كنت

من الحق والجمع بحيث تحب ركوب البحر ، فقد كان رأى هريود هو أن الملاحة وجمع الثروة عن طريق التجارة ليس أمراً طبيعياً ، لأن هريود كان فلاحاً معتاداً على نظام الطبيعة الربيث وطرقها الطبيعية وعلى الثروة الحقيقية التي يمكن استخلاصها من الطبيعة . أما الثروة التي تجمع من التجارة فقد كانت أمراً مشكوكاً فيه وتلازمها الأخطار من كل الأنواع : « ابتعد عن البحر المارب » ، هذه كانت نصيحة هريود ، ومع ذلك فإننا نجد في الأوديسا — ربما في شكلها الأول — صورة مدينة من الواضح أنها إغريقية وهي ميناء حمس .

إن مدينتنا محوطة بقلاع ذات أسوار عالية ولها ميناء ممتاز على كلا جانبيها ويصل إليها الناس بواسطة طريق مرصوف عال ترفع السفن إليه ، ولكل صاحب سفينة مراق لسفينته . وهنا مكان اجتماع الناس مشيد على كل جانب من معبد بوسيدون Poseidon الجليل بكنل من الحجر المأخوذ من المحاجر وهي مثبتة في الأرض إلى عمق كبير . وكذلك يعني البحارة هنا بحال السفن السوداء وقلاعها وبثبوتها بجاذبها لأن فيا كيانس لا يستخدمون القوس والنشاب بل يذلون نشاطهم على ساريات السفن ومجاذبها ويحبون أن يبحروا في السفينة الرشيقة عبر البحار التي انتثر عليها الزبد (١) .

من الواضح أن هومر Homer كان قد رأى مثل هذه المدينة الإغريقية ، غير أننا نستطيع أن نستنتج أنه لم تكن هناك مدن كثيرة مثلاً وإلا لما فكر في أن يصف هذه المدينة بمثل هذه الدقة التي تسترعى الملاحظة ، كما أن فن الملاحة كما كان يمارسه فيا كيانس شلى الأزل ما كان يمكن أن يكون عموماً يمثل هذا السحر ، فربما نقرأ في مدة « أنهم يتقون في السه السريعة إلى تحملهم عبر البحار الواسعة لأن بوسيدون قد جعلهم شجعاً ملاحياً وسفهم هذه سريعة كالطير أو كالعكر » ، نجد في مدة أخرى ملكهم

يقول : لأن ما كيانس ليس لهم بحارة بمسكون الدفة أو بمجاديف تدفع السبعة كالى في السمن الأخرى . إن سمسا تعرف بالسليقة ماذا يحول في دهن تجارتها وتشير عليهم بعمله . وهي تعرف كل مدينة وكل أرض حصه وهي تجرى وسط الضباب والسحاب في البحر اللامائي دون أن تخاف التلف أو يحول بخاطرهما أن تتحطم : ١ .

لقد كان هومر إغريقياً من الأيونيين فهل من السنخف أن نفترض أن إحدى المدن الأيونية التي برزت غيرها في الجرأة قد سبقت غيرها بمراحل في فن بناء السفن والملاحة وتركبتها مندهشة ؟ أن الأوديسة تزخر بذكر البحر إذ كان العهد العظيم للاستعمار الإغريق قد اقترب ولكن مازال عليها أن تنتظر مجيء هزيبود الفلاح العنيد وتقويمه عن أعمال السنة ونصيحته . اذهب إلى البحر إن كنت مضطراً على أن يكون ذلك من منتصف يونيو إلى سبتمبر فقط ولو أنك تكون أحمق حتى إذ ذاك ، وهي تذكرنا بأن هناك أكثر من نوع واحد من الإغريق وأن التعميم بالنسبة لهم أمر خطير .

## هوميروس

إن أول الشعراء الأوريين وأعظمهم يستحق أن سكرس له فصلا بالتأكيد سواء كان ذلك من أجل هوميروس ذاته الذي نستطيع أن نرى فيه كل الصفات التي يمتاز بها الفن الإغريقي أو بسبب التأثير الذي كان لقصائده على أجيال متعددة من الإغريق .

إنني أعترم أن أذكر أقل ما يمكن عن المشكلة الهوميرية المشهورة : من هو هوميروس ؟ وما مقدار ما كتبه من الإلياذة والأوديسا ؟ ويمكننا أن نرى مبلغ غموض ما توارثه الإغريق من روايات Helanicus عن حقيقته من أن هيلانيكوس وهو أحد الكتاب الأيونيين القدماء كان ينسب هوميروس إلى القرن الثاني عشر ، بينما قال هيرودوتوس بأنه عاش في القرن التاسع أي أنه جاء قبل زمانه بأربع مائة عام على الأكثر ، ولاشك أن هيرودوتوس كان مصيباً بشكل جوهري . لقد افترض هيلانيكوس دون أن تأخذه في ذلك أية ريبة أن الشاعر الذي وصف القتال في طرواده ، مثل هذا الوضوح لا بد أنه قد رآه ، غير أن السؤال الهام ليس : من كان هوميروس ؟ بل ماذا كان عمله ؟ لقد سميت الإلياذة والأوديسا بالإنجيل الإغريقي . وقد ظلت هاتان القصيدتان قروناً أساس التربية والتعليم الإغريقي ، سواء منه التعليم الرسمي أو ذلك الذي تقوم عليه حياة المواطن العادي الثقافية . فكان المحترفون الذين يتقنون من بلد إلى آخر يتلون مقتضات من هوميروس مصحوة بالشرح والتعليق ويرسم لنا أفلاطون صورة واضحة وإن تكن خبيثة بعض الشيء عن أحد هؤلاء المحترفين في محاوره « أيون » ، يقول ، لا بد أنه شيء رائع يا أيون أن تتنقل هكذا من مكان لآخر وتجنذب حولك جمهوراً كبيراً

من الناس أيسر دعت وتعلمهم يسمعون إلى كل كلمة يقولها شوق واهتمام وأب مرتد أحسن ثباتك . ووحى تم استدال هذا الإنجيل بإنجيل آخر كان ذكر اقتباس من هومر هو الطريقة الطبيعية لحسم أية مشكلة في الأخلاق أو السلوك كما كان الاقتباس من هومر في أية مراسلات دبلوماسية كالإقتباس من كتاب دومزدي ( Domesday ) الذى كان يحتاج بأحكامه لتأييد أى مطلب إقليمي . وقد نشأ عن ذلك نوع من التسك بالمبادئ التقليدية . فهومر هو مستودع الحكمة والعلم بأكمله . ويسخر أفلاطون من ذلك حين يجعل أبون يدعى أنه مادام خيراً بهومر فهو خير بكل شيء . وهكذا يمكن أن نجعله إحدى المدن قائداً لها كذلك لأنه يعرف بطبيعة الحال فن القيادة من هومر . والذى يعتبر أخطر من ذلك شأنه هو أن هومر استأثر بأذهان الإغريق وخباهم وسيطر عليها جيلاً بعد جيل ، سواء كانوا من الفنانين أو المفكرين أو من عامة الناس ، فاتجه الرسامون والشعراء إلى هومر يستلهمونه ويستمدون منه موضوعاتهم الواقعية . وقد قبل أن أسيبلوس تواضع فوصف إنتاجه بأنه « فئات مادبة هومر » مع أن الدراما الأوربية لا تعرف شخصية أعظم من أسيبلوس . وأخيراً لقد كان ميراث الإغريق المشترك من هومر بعد اللغة الإغريقية ذاتها هو الذى أعطى الإغريق أعظم اعتقاد في أنهم شعب واحد رغم الاختلافات والسخائم التى فرقهم . ومن الواضح أننا يجب أن نعرف شيئاً عن هومر الذى يعتبر أول من عبر بوضوح عن الفكر الأوربي . وقد أومض لجأة كأنه علم في رأسه نار وسط هذا العصر المظلم .

إن أول الإياد لا يعتبر تعريفاً صئلاً بهومر ، وهما نحن أولاء نعملها في أسلوب من النثر النسيط المشهد الرائع الذى تبدأ به الإلياذة : إنها فقره كان لاند للرجل الإغريق انعادي أن يحفظها عن ظهر قلب حفظاً يكاد يكون كاملاً إن لم يكن كاملاً بالفعل . وهى التى اعتاد رجال الحرب من أمثال بريكليس



Pericles والإسكندر ، والشعراء والحقانون والرسميون والعلاسة والمعلماء  
ولساسة وانتجار وملوك الأرض في الأرباب والصناع أن يطعوه في أدهامهم  
مدد الطعولة : —

أنشدى ياربة الشعر غضة أجيليس Achilles بن بليوس Peleus تلك  
الفضبة المدمرة التي جلبت ألواناً من الحزن تعد بالألوف وأطاحت بأرواح  
أبطال صناديد كثيرين إلى عالم الأموات وتركّت أجسادهم طعمة للكلاب  
والجوارح فتحققت إرادة زيوس . أبدى حيث بدأ النزاع بين أجا منون  
ملك الناس وأخيليس العظيم .

من هذا الإله الذي أوقع بينهما العداوة ؟ إنه أبولون Apollo بن زيوس  
وليتو Leto الذي استشاط غضباً من الملك وأرسل وباء فانتكا على الجيش  
فأخذ الناس يخرّون صرعى لأن أجا منون بن أتريوس Atreus كان قد عامل  
كاهنه بازدراء عندما جاء إلى سفن الأخيين السريعة ليدفع فدية ابنته وأحضر  
مالاً يقدر من المال لشرائها واستردادها وكان يحمل على يديه وهو ق عصاه  
المذهبة إكليل أبولون وقد توسل إلى الأخيين جميعاً كما توسل قبل كل شيء  
إلى قائديهم ولدى أتريوس قائلاً :

« يا بني أتريوس ويا أيها الأخيون الآخرون المدججون بأحسن السلاح  
عسى أن يهبكم الآلهة الذين يسكنون جبل أوليمبوس فتح مدينة بريام Priam  
وأحد أسلحها والعودة إلى أوطانكم مهنورين . أطلقوا لي سراح ابنتي  
حسب وهما كالثمن وأطهروا احترامكم لاس زيوس أبولون بعيد الرماية ! »

عد ذلك هتف الآخيون جميعاً : أحل ! احترموا الكاهن وأقبلوا  
هدايا العاحرة . لقد هتفوا جميعاً ما عدا أجا منون الذي لم يرقه ذلك فطرد  
خريسيس Chryses باردراء وقال له بعلظة : لا تدعى باسمي أراك الآن

أو في أي وقت تتسكع إلى جانب سمما الجوفاء وإلا فلن تجد لك نصيراً  
في صولجانك أو إكليلك المقدس . إني لن أطلق سراح ابنك فستدركها  
الشيخوخة في بيتي بارجرس التي تعدد بعداً شاسعاً عن بلادها دون أن تنال  
بعينك . إنها ستروح وتعدو إلى المذبح كما تأتيني في فراشي . ابتعد ولا ترد  
الجواب وإلا فلن تذهب آمناً معافاً .

هذا ما قاله نخاف الشيخ الكبير وأطاع وسار حزياً بعداء شاطئ البحر  
المتلاطم . بهذه الطريقة يبدأ أقدم عمل أدبي أوربي منخاطر بالحوادث فيه  
عن قريب . فلنقطع الترجمة لنقرر نقطة هامة .

إن دخول هومر في موضوعه مباشرة أو دخوله في جوهر الموضوع  
*en medias res* كما قال هوراس يعتبر من النقد الهومري الذي جرت به  
العادة ، ويؤخذ كدليل على عبقرية هومر الأدبية وهو بالطبع هكذا .  
ولكن ربما استطعنا أن نسير في البحث أكثر قليلاً . إن هذا النقد يطوى  
على شيء أكثر من حقيقة أن هومر لا يؤلف ملحمة طويلة كثيرة الاستطراد  
عن حرب طرواده التي استغرقت عشر سنوات كاملة بل يكتفي بحجاب واحد  
منها . وأن شعوره المرهف بحسن السمك ينسق فيه بحيث يستطيع أن يختم  
قصيدته وموضوعه حتى دون أن يشير إلى طرواده . وهذا التحكم الفطري  
في السبك جدير بالملاحظة فعلاً غير أن أصله أجدر بها فهو ليس بالإلهام  
السعيد ولا هو مجرد مقدرة فنية . إن أصله أعمق من ذلك فهو يرجع إلى عادة  
عقلية تعتبر عادة هيلينية وليست هوميرية فقط . فمن الواضح أن هومر  
كان يستطيع أن يحدد موضوعه بهذه الطريقة ثم يعالجه بطريقة أشبه  
بالتاريخية حيث يؤلف قصيدة فيها من الدكاء والسرعة والرشاقة ما تشاء  
وأن تكن في جوهرها إجبارية تمثيلية . وهذا ما لم يفعله هومر أو أي

شاعر من شعراء الإغريق انكلاسيين (١) . والإلياذة لا تصف حلقة من حلقات الحرب وتلون الوصف بأفكار غارة عن هذه اللاحقة أو تلك من بواحي الحياة بل على البقيض من ذلك قد أخذ الشاعر موضوعه أي هذا الجانب من الحرب كأنه قدر من مادة عام اعترم أن يحمل منه بناء جديداً كله من تصميمه . وهو لن يكتب عن الحرب بل ولا عن جزء منها وإنما عن الموضوع الذي قرره بوضوح في بيوت الشعر الحمسة الأولى . والذي يحدد شكل القصيدة ليس أمراً خارجياً مثل الحرب وإنما إدراكه الخلقى بالأسى بأن عراقا بين رجلين قد جلب لكثيرين غيرهما (٢) العذاب والموت والعار وهكذا . تحققت خطة زيوس ، وما معنى هذا ؟ هل معناه أن زيوس قد بر هذا كله بصفة خاصة لأسباب خاصة به لا يمكن النفاذ إليها ؟ إن الأولى بنا أن نقول العكس أي أنه جزء من خطة عامة وليس بحادث مستقل أي ليس بشيء كان حدوثه بمجرد الصدفة في هذه المناسبة ، بل هو شيء صادر من طبيعة الأشياء ذاتها ، فهو ليس خاصاً ولكنه عام ، وليس لنا أن نقرر ما إذا كان الذي دفع هومر إلى هذا الإدراك هو تفكيره في هذه الحلقة من حلقات الحرب أو أن خبرته بالحياة هي التي أدت به إلى هذا الإدراك الذي رأى إذ ذاك أنه يمكن التعبير عنه بوساطة قصة إخبليس .

فالامر الهام هو أن هذا موضوعه وأن مثل هذا السبب له مثل هذه النتيجة وأن الإلياذة تستمد وحدتها الجوهرية التي تسرى فيها من هذا الموضوع الذي أدركه إدراكاً جلياً وليس من مجرد احكام الصناعة الأدبية ، رغم

(١) من استخدم هذه عبارة موجهة كسا بنوف وليس هناك من شك في أنه كان هناك كثير من شعراء الإغريق مثل هذا أرسطوفانس Aristophanes مثلاً كل دائم بحرية منه . أما ما لبس ذلك فهو من أحسنه بعد أخباره بصفة نقاداً كعادته في العهد الإسكندري وما بعده .

(٢) انظر منه في موضوع تأليف مسرحية أحماد من الشبيه به

طول المدمحة الدالغ ورعم الإصافات (١) التي ريدت عليها فلما بعد وعلى ذلك  
فلو أما تظاهروا بالعالم لحظة لما كان صحيحاً تماماً أن يقول أن هومر ياعنه له  
انسوات التسع الأولى من الحرب دخل في صميم موضوعه مباشرة ، بل على  
العكس إنه بدأ موضوعه من أوله وقال هذا بكل وضوح :

إن الألوف من الرجال البواسل قد قتلوا واطنخوا بالعار بسبب عراك  
وإذا لم ير القاريء سبب العراك فإن إدراكه لفكرة هومر يعتبر ناقصاً  
جداً . لقد تركا الكاهن خريسيس يسير حزيناً في طريقه بجانب شاطئ  
البحر وقد أخذ يدعو أبولون أن يلتقم له .

هكذا أخذ يدعو فويسمه أبوللون ونزل من قمة أوليمبوس وهو  
مغضب محقق وقوسه يندى فوق كتفه وكذلك جعلته المحكمة الغطاء وكان  
كلما تحرك أخذت السهام تقعقع فوق كتفه فقد اشتد غضبه . لقد جاء  
وهو عابس كالليل ثم جلس على بعد من السفن وأطلق أحد السهام . كانت  
الضجة التي صدرت من قوسه الفضي رهيبية . وقد أخذ يهاجم قطيع الجبوان  
والكلاب المريعة أولاً ثم صوب حرابه المؤملة إلى الناس واستمر في إطلاقها  
حتى أوقدت أكوام كثيرة من الخشب لإحراق جيش الأموات .

وقد ظلت سهام الحرب تسقط تسمة أيام على الجبش فدعا أخيليس  
العظيم الناس إلى مجلس الشورى في اليوم العاشر وقد أوحى إليه بذلك  
الآلهة هيرا ذات الأذرع البيضاء لأنها كانت تحس بالقلق على الإغريق وهي  
تراهم يموتون .

(١) وحده الأوديب أوضح من ذلك بكثير وهي نفس الطعنة بالرمح وبس الأمر بقاء  
هو أن مادة مرسة ترتباً بارعا في رغم أن تصحيح هذه القصة هو تصحيح قانون و احقيقه  
من النقطة المحققة هي أن عقدة القصة درست هكذا لكي تؤكد هذه الفكرة وهي أن محنة  
لقاوس صدمه مراده ، لكنه ويجب أن تعاقب .

وبما انتظم عهدهم وهم أحباب السرح وقال : يا ابن آريوس  
إني أعتقد أنا سر عم - إن نحووا من الموت - على العودة إلى وطننا مادامت  
الحرب والوفاء كلاهما قد أحدا في تفكير صغورا معشر الآحين في نفس  
الوقت . هدموا بنا إلى عراف أو كاهن ، أو قارى الرؤا لسأله ، فإن  
زيوس هو الذى يرسل الأحلام ، فعمله يخبرنا عن مبعث غضب فوبوس  
أبوللون . فإن كان يرانا قد أخطأنا بسبب نذر أو قران فرطنا فيه فربما  
نجانا من الوفاء مقابل دخان الحلال والماعز التى نضحي بها .

هكذا تكلم أخيليس ثم جلس فقام من بينهم كالخاس Calchas أبرع  
عراف . إذ كان يعرف ما هم عليه وما كان وما سيكون ، فهو الذى سبق  
له أن أرشد السفن الآخيه إلى إيليون بفضل العلم السرى الذى لقيه إياه  
فوبوس أبوللون ولذلك تكلم عن حسن قصد وقال :

و أخيليس يا حبيب زيوس قد أمرنى أن أقهر غضب الاله أبوللون  
الذى يرمينا من بعيد ؛ ولذلك سأنتكم ؛ ولكن عليك أن تجعل بينى وبينك  
ميثاقاً وتقسم ميثاقاً بأنك ستسارع إلى مساعدتى بالقول والعمل لأنى أعتقد  
أن رجلا سيفضبه قولى ، رجلا له سيطرة عظمى على كل الإغريق كما أن  
الآخين بطبعونه كذلك . فحينما يذهب ملك من رجل فقير فإنه يكون أقوى  
منه بما لا يقاس فهو إن كظم غيظه الآن فإنه يحتفظ به فى قلبه ليعذه فى  
وقت آخر . قل لى ما إذا كنت متحمنى .

فتمهد أخيليس بحماية كالخاس Calchas حتى ولو كان الأمير اسى  
أشار إليه هو أجايمون نفسه . وبعد ذلك أعلن كالخاس أن أبوللون  
عاص من أحل المعاملة التى لقيها كاهنه من أجايمون كما صرح بأن الوفاء  
لن يتوهب حتى تعاد الفتاة لأبها دون أية فدية بل ومعهما قران مكون من  
قطيع من الماشية هكذا تكلم ثم جلس وبعد ذلك قام فيهم البطل أجايمون

س أتريوس صاحب السيطرة الواسعة وهو عاصب وقلبه الأسود بطامح  
 بالحقد كما كانت عيابه كاللار المتأجحة ووجه القول إلى كالتاس أولاً فطر  
 إليه نظرة بغيض بالشر وهو يقول : أنت لم تحترني عن شيء سار قط  
 يا عراف السوء ، إنك تعرج دائماً بالنفث بالشر . فإنك لم تقل ولم تفعل شيئاً  
 طيباً قط . وأنت الآن تتحدث إلى الإغريق عما يحول بفكر الإله كأنما  
 أرسل بعيد الرماية هذه المحن عليهم كيلا آخذ ثمناً مغرباً بدلاً من ابنة  
 خريسيديس فإنني أود أن أحصل على تلك الفتاة في يتي لأني أجدها أفضل  
 من زوجتي كليمنسترا Cylemnestra التي اقترنت بها .

إن كليمنسترا لا تضارعها في الحسن سواء كان حسن الوجه أو القوام  
 أو الذكاء أو العمل البدوي . ومع كل ذلك فسأعيدها إن كان هذا هو  
 الأفضل . فإنني أفضل أن يمش الجبش على أن يموت . ولكن أعطوني  
 جائزة أخرى من جوائز الشجاعة لئلا أكون الإغريق الوحيد الذي لم ينل  
 جائزة ، فإن هذا لا يليق وأتم جميعاً ترون أني فقدت جائزتي .

بعد ذلك أجابه اخيليس العدا العظيم : يا ابن أتريوس المشهور ،  
 يا أشد الناس طمعاً ، قل لي بربك كيف يعطيك الأخيون البواسل جائزة ؟  
 إنما جميعاً نعلم أن ليس لدينا مستودع مشترك للثروة فكل الغنائم التي أخذناها  
 من المدن قد وزعت بيننا ولا يصح استردادها من الجبش . أما أنت فعليك  
 أن تسلم هذه الفتاة من أجل الإله ونحن معشر الأخيين سنرد إليك الثمن مضاعفاً  
 ثلاث مرات أو أربع إن سمح لنا زيوس أن نأخذ أسلاب مدسة طروادة .

فرد عليه أجاممخون الشديد المراس بقوله : آخيليس يا شديداً بالإله  
 إنك وإن تكس محارباً عظيماً فلا تحاول أن تحدعي هكذا . إنك لن تمتاز على  
 ولن تنال موافقتي . أتريد مني أن أستكين وقد انتعرت مني جائزتي لكي  
 تحمط أتب محاربيك ؟ أطلب مني أن أعبد هذه الصاة ؟ إذن دع الأخيين

اسواس يعطونى حائرة تشرح صدرى فتكون مكافاة قيمة بدلا منها ،  
فإذا لم تعطونى إياها فساأخذها بعسى — ساأخذ جائرتك أو الحائرة التى مع  
أجاكس أو أوديسيوس وسأذهب بعسى وأخذها . ويستطيع من أذهب  
إليه أن يغضب إن شاء ، ولكن يمكن أن أفكر فى هذا فى وقت آخر ،  
أما الآن فإننا سترسل سفينة سوداء فى البحر العظيم وسندعو لها الملاحين  
ونضع فيها الثيران كما نضع على ظهرها خريسيبس الجبلية ، وسنمهد بقيادتها  
إلى رجل له سلطة ونفوذ مثل أجاكس أو إيدومنيوس أو أوديسيوس  
العظيم أو أنت يا ابن بليوس بأكثر الناس إثارة للرعب لى تقدموا  
القربان وتهذبوا من حدة هميد الرماية .

فهبس اخيليس العداء السريع وقال له : يا شديد الجشع ويا من لا تفعل  
أبدأ أكيف يرضى الاخيون أن يعطوا أو امرك لهم بالزحف أو بقتال الناس  
فى الحرب ؟ إن مجئى إلى هنا للحرب لم يكن أهل طرواده هم السبب فيه فلم  
يكن يبنى وبينهم أى نزاع . هم لم يطاردوا أبقارى أو خبيل قط ، ولم ينهبوا  
المحاصيل من حقولى الغنية التى تمتلئ بالغذاء فى فثيا (Phthia) ، فإن يبسا  
جبالا كثيرة ممتدة الظلال ببحراً واسعاً هادراً ، بل تبغناك يا من لا ضمير لك  
لنؤز من أهل طرواة بالجهد لملاوس ولك أيها الكلب . إنك لا تتدبر ذلك  
وأنت الآن تهددنى بالهجوم إلى وأخذ جائرتى . لقد كالت كفاحاً مريراً  
من أجلها وقد قدمها إلى الاخيون . فعندما يأخذ الاخيون أسلاب مدينة  
قد اشتد الدفاع عنها فإن الجائرة التى أخذها لا تكون مثل جائرتك عند  
ذاك ، فإن ذراعى بكافح فى غمار الحرب أكثر من ذراعك ، حتى إذا حان  
وقت توزيع الجوائز فإنك تأخذ أكثرها ، أما أنا فأذهب إلى سعى مكثوداً  
من الحرب . وقد حصنت على القليل ولكنى سأسافر إلى فثيا . إنه لأفضل  
كثيراً لى أن أعود إلى بلدى فى سعى التى تمتاز بمقدمها الحاد . إلى قليل

الرجعة في أن أجمع العائث والثروة من أجلك ثم تطردى ركلا بقدمك بعد ذلك .

فرد أجامموني ملك الباس عليه بقوله : اهرب هرباً بفرارك إن كان هذا ما تريد فإني لن أرجوك أن تبقى من أجل . إن عندي غيرك من يهلونى ، وفوق الجميع زيوس الذى يذبر كل شئ . إنى أبذلك أكثر من كافة الملوك الذين يرعاهم زيوس . إنك تحب الكفاح والنزاع والحرب ومع أنك رجل قوى فإني أظن هذه القوة هبة من عند الإله . أذهب إلى بلدك بسفنك ورجالك . لجعل لنفسك ما تشاء من الأهمية والسلطة بين محاريك المنتشرين . أنت لا قيمة لك عندي كما إنى أحترم غضبك . ولكنى أستطيع أن أقول لك ما يأتى : إن فوبيوس أبوللون سيأخذ منى خربسيس وسأجعلها ترحل في سفينتى مع رجالى ، ولكنى سأذهب بنفسى إلى قسطاطك وأخذ جائزتك وهى برسيس Brisis الجميلة ، وسنترف عندئذ أن مقامى أعلى من مقامك ولن يجرؤ شخص آخر على أن يقف منى على قدم المساواة .

هكذا تكلم أجامموني غير أن كلامه كان فوق ما يحتمله أخيليس ، وقد تمزقت نياط قلبه في صدره المغطى بالشعر الأشعث ، وتردد بين أن يستل سيفه المرفف من جواره ويبعد عنه الآخرين جميعاً ثم يقتل ابن أثريوس ، وبين أن يضع حداً لغضبه ويهدى من نفسه . وبينما كانت تجول هذه الأفكار في ذهنه أخذ يستل سيفه الكبير من حمده . ولكن أثينا Athena نزات من السماء فقد أرسلتها الإلهة هيرا ذات الأدرع البيضاء بسبب الحب والقلق اللذين كانتا تكدانه له . فوقفت من حلفه وأمسكت ابن بليوس من شعره إلى بحيث طهرت له وحده فلم يرها أحد سواه فهت أخيليس ، وكانت عيابه تقدحان بالشرر وحاطها بهذا الأسلوب الرقيق . لمادا جئت يا أمة زيوس حامل البرع ؟ أحتث لنشاهدى عرصة أجامموني بـ أثريوس الدتنة ؟



ولكى أقولها بصراحة وأعتقد أن هذا ما سيحدث . إن عروره سيكلفه حياته يوماً ما .

ولكى تنهى الترجمة . هول إن أثينا أجبرته أنها جاءت تطلب إليه أن يهدى من غضبه وتبلغه أنها سيقدمان لأخيليس يوماً ما في مقابل هذه الإساءة ثلاثة أو أربعة أضعاف ما يأخذه منه أجاممون .

وقد أطاع أخيليس بالطبع . لأن هذا أفضل ، كما قال باختصار . وعادت أثينا إلى أوليمبوس أما أخيليس فقد انفجر غيظه في أجاممون وبدأ كلامه بقوله : أيها السكير الذى له وجه كلب وقلب غزال ! .

قد ترجمت هذا القدر الكبير لأسباب عديدة أحدها أن يكون لدينا نص يرجع إليه في المستقبل وثانيها لى يأخذ القارىء فكرة عن وضوحه كله . لقد تكلمنا وسنتكلم ثانية عن الطابع الفكرى للفن الإغريق وقد كان يحس لذلك أن نرى القارىء بطريقة فعالة جداً أن هذا لا يدل مطلقاً على التجريد أو الأفعال . إن العراك بينهما يرى بكل جلاء فلا عجب أن اعتقد هيلانكوس Helanicos أن هومر كان معاصراً للحرب طروادة . كما أن المظاهر ليست هى التى ترى وحدها بهذا الوضوح . إن العمل الفنى لهذه النبذة كما يجبرنا هومر هو وصف العراك الذى جلب على الإغريق مثل هذا البلاء الكبير ، طبقاً لما يدعو هومر « خطة زيوس » وما ندعو نحن « النتيجة الحتمية التى تطورت إليها الحوادث » ، والسبب هو عجرفة أجاممون الدينية وعصب إخيليس المدمر فهذا أمر واضح كل الوضوح

ليس ما يقدمه لنا هومر هما صفتان مجردتان في حالة صراع ، محض نرى رجلين يتعاركان عراكاً عيباً ، وليس هناك ما هو أكثر واقعية وأقل تجريداً من ذلك . وكما يحدث في الحياة ، أن هناك ما يمكن أن يقال تأييداً

لكل من الطرفين إلا أن كلا الرجلين يشتطان أكثر مما يسعى إن المراك  
يستخدم لأن كل رجل منهما تصادف أن كان من الصف الذي هو مه  
هذا الأمر قد اسعرق لحظه ولكنه أطاح بأرواح أبطال كثيرين إلى عالم  
الأموات وترك أجسادهم طعمة للكلاب والجوارح . فنهضت حملة  
ريوس .

هذه القدرة على رؤية الحوادث المباشر بهذا الجلاء ، والخوف في نفس  
الوقت من القانون العام الذي يمثله هذا الحادث ، كلاهما إغريقيان يتميزان  
بالتابع الإغريقي وإن لم يكونا من خصائص الإغريق وحدهم . لنا نرى جانباً  
من نظام العالم كله في حادث واحد . ومع ذلك فعلاجة هذا الحادث تجتمع فيها  
كل البراعة التي في أروع خبر صحفي . ولا يحتاج هومر إلى طمس معالم  
صورته الواضحة بتعميم التعليقات لأن كل تعليقه قد سبق له أن قدمها في  
التصميم الهندسي لبنائه الشاح كله .

هناك شيء آخر . إن من الملاحظ في هذه البذرة وفي الفن الإغريقي كله  
عدم وجود مناظر وراء الصورة . فمن لا يرى أسوار طروادة السامقة  
ولا نهر سكامندر وهو يتلألأ من بعيد ولا أين عقد اجتماع الإغريق هذا .  
أكان في فسطاط أو على سطح تل أو على الشاطئ بجانب السفن الجوفاء ؟  
وكا أن اهتمامنا كله بالنسبة لموضوع تصوير الاصل الإغريقية يتركز في  
صور الناس ، فإنه في حالة المأساة الإغريقية يتركز في صور الناس كذلك ،  
فليس هناك أي وجود لنور الشمس ولا للعواصف المريعة التي يتميز بها  
هي شيكسبير وإذا تكلمت إحدى الشخصيات عما حو لها من الماطر الطبيعية  
فذلك لتؤكد أنها في عزلة تامة عن باقي زملائها . ولو كان في وسعنا أن  
نقول أن الإغريق لم يكونوا يحسون بالطبيعة ثم يقف عند هذا الحد لكان  
الأمر سهلاً ميسوراً ولكن لا نستطيع . فلو اقتصرنا على هومر لوجدنا أن  
أي إنسان لا يحس بالطبيعة ما كان يستطيع أن يستخدم مثل هذه الثروة من

التشبيهات الطبيعية وكلها دقيقة التفاصيل . وهي تشبيهات مأخوذة من الحيوان والطير والبحر والسماء والعواصف والصور التوضيحية الصغيرة التي تسترجع إلى الذهن ذكريات الزحار والموجودة في مخطوطات انقرون الوسطى ، وليس هالك أى جدال في أن الإغريق كان يدرك جمال الطبيعة وتنوعها ، فضلا عن ذلك فليست المناظر التي وراء الصورة الهوميرية هي التي لا وجود لها على العموم ، إذ أن الإلباذة تبدأ كما رأينا دون أدنى إشارة إلى المكان الذي تقع فيه الحوادث ، فلا بد أننا في مكان ما عند طرواده ، ولكن أين ؟ إن هومر لم يبلغ به الاهتمام حداً يجعله يخبرنا عن ذلك ، وهو لا يدطينا تلك التفاصيل التي لا يكاد يستطيع كاتب حديث أن يحذفها ، كالشخصيات الأخرى التي تقف من المشهد موقفاً سلبياً كزعماء الإغريق الآخرين وكالجيش فهو لا يصف إلا الشخصيات الجوهرية .

غير أن القارئ الحديث لا يفتقد فقط المناظر التي وراء الصور الهوميرية التي يتوقع أن يراها بل إنه يجد غيرها مما لا يستطيع في أول الأمر أن يفهمه وهو الخاص بالعمل الإلهي . فحين لا نرى أسوار طرواده ولكننا نرى بالفعل مجالس تعقد في أوليمبس وآلهة يذهب كل منهم على انفراد ليتدخل في القتال أو في المناقشة كما في هذه النبذة ، فلا عجب إن كان الانطباع الذي يتركه ذلك في الذهن هو أن الشخصيات الدشرية القائمة بالعمل ماهي إلا قطع تحركها على رقعة الشطرنج طائفة من آلهة غير مسئولين هم أهواء متقلبة . غير أن من الصعب التوفيق بين هذا وصورة المسئولين ذوي الإرادة الحرة من الناس ، وهي التي تؤكد هومر مشقة تصويرها لنا ، فأجامموني وأحيليبيس رجلا قد بلغا أشدهما فعلا . وهما يعاملان على أهمهما قد بلغا مبلغ الرجال ، غير أن هذا الرشد والصوح مما يحيرنا أحيانا نظراً للهمجة الدائبة التي كثيراً ما نقابلها في الصورة الهوميرية للحياة ومع ذلك فإن الأمر يسير طقفاً لتدبير إلهي يبدو كأنه تدبير صبانى ، كما يرى في رول أنثيا من

أونيوس في السده لى من أندسا وشده لشعر الجهدس وتقدمها مشوره  
 النافعة له وعلى هذا المور يجد الحالا فى قصور المأساة المتأخرة ولو أن  
 الأمر يسير بطريقة تبدو أقل جمالا ووصوحاً بكثير ، يد بلوح أن الآلهة  
 تتحكم فى أعمال الناس وهديمهم عن طريق انعرايين والأحلام وما إلى ذلك  
 حتى عندما يقدم الشاعر هؤلاء الناس على أنهم مصنفون تمام الاستقلال  
 ومسئولون عما يعملون .

إن موضوع ما وراء الصورة الهوميرية موضوع مربك إذن . ومع أن  
 هذا ليس موضعاً للتحقيق فى الديانة الإغريقية وإن علينا أن نقدم للقارىء  
 إيضاحاً مؤقتاً . ليس هو مر بطبيعة الحال معرفة منظمة بالله فلم تكن قد  
 وجدت بالفعل أية فكرة عن موضوع التفكير المنظم ، وفصلاً عن ذلك  
 فإنه يتصرف بطريقة تقليدية ، إذ لابد أن كتاباً كثيرين من كتاب الملاحم  
 الشعرية قد وجدوا قبل هومر ، بمعنى أن من الممكن أن تكون القصائد  
 التقليدية والقصائد الجديدة موجودة جماً إلى جنب ، فى أحد المواضع  
 يقرر زيوس ضرورة معاقبة الإغريق ، ولذلك يستطيع أهل طرواده ردهم  
 إلى سفنهم ، وفى موضع آخر ينزل إله أو الهة وسط ضجة الزراع لينفذ  
 حيباً فى حطار شديد وقد يحدث هذا على غير رغبة من زيوس . وعلى  
 العكس من ذلك قد تصادف ندة كذلك التى وردت فى مقدمة الأوديسا  
 التى جعل الشاعر فيها زيوس يقول : ما أحق الناس اكم يلومون الآلهة  
 بغير حق . لقد قدر عليهم أن يقاسوا الآلام ولكسهم يحدون على أنفسهم  
 شقاء أكثر وأشد مما هو مقدر عليهم نظراً لجليلهم ثم يعودون يلومون الآلهة ،  
 ومعنى هذا بلعننا الحذشة . الحياة شاقة على كل حال غير أن دوسا وأخطأ ما  
 هى التى تجعلها أشق مما يرم . وليس من السهل اتوفق بين حكمة هذه  
 العبارة العنيفة الخطيرة وبين تغلب أهواء الآلهة الذى نخذه فى السد  
 الآخرى ، وأشق من ذلك اتوفق بينها وبين عدم الاحترام الذى يبعث

السرور وهو الذى لقباه فى قصة أريس وأفروديتا .

ويلوح كل هذا محيراً إلى حد ما . أن المرح بين القديم والجديد مرشح بعوره اسطاطم يفسر لنا شيئاً ما . أما بالدرجة لما عداه فقد يساعد القارىء أن يصكر فى الآلة على أنها محاولة أولية لتعليل حدوث الأشياء لاسيما ما يبدو غير عادى منها . فكما رأينا فى الفصل السابق كانت مهارة صانع المعادن فوق مهارة الرجل العادى . وبما أنها غير عادى فإنها ترجع إلى أصل إلهى . ولذلك كان لابد أن يكون هناك إله للدار . ونحن نعلم من النبذة التى اقتبسناها من الإلياذة أن اخيليس كانت له قوة خارقة للعادة ، وهى كما يقول أجامموني هبة من إله . وهذا التفسير يحمل معه استنتاجاً فلسفياً جاداً وإن كنا لا نشط فى الاستنتاج . فما يعطيه إله يمكن أن يأخذه إله آخر . كما أن هناك قوتين تنصارعان فى عقل اخيليس هما الغضب الأعمى وضبط النفس المبني على الحكمة . وعلى حين أننا قد نقول « بجهود فوق طاقة البشر من مجهودات ضبط النفس .. » ، إذا بالإغريق يقول « بمعونة أحد الآلهة .. » ، كما أن الشاعر الإغريق أو مصور الأصص قد يصور أثينا بمظهرها الجسدى وهى تنصح اخيليس ، وليس الفرق بين الحالتين كبيراً . إن الحقيقة التى تقرر أن اخيليس يستمد قوته من إله أو يتخذ قراراً حكماً بمساعدة أثينا لا تنقص قيد شعرة من عظمة اخيليس . فالآلهة لا يحابون العاديين من الناس . وهذا الذى يحابونه بالفعل ليس رجلاً عادياً . فعلينا ألا نظن أن الآلهة قد التقطت أى مخلوق ضعيف وأمدته بالقوة .

هذه إذن هى المناظر التى وراء الصورة الهوميرية وهى التى تجعلنا نرى الناس والحوادث بارزة لا فى الملاحم الإغريقية وحدها بل فى أغلب أنواع الفن الإغريق الكلاسي الأخرى كذلك . ولقد انحط الفن بعد ذلك طبعاً إلى حمار أسطورى ، وهو تطور جاء بعد العهد الكلاسي ولكنه جلب لب روما واستوى القرن الثامن عشر ، مما ترتب عليه أن صار لراما على القارىء الحديث قل أن يحصل على مطر مباشر لهومر أو للأعمال

الأدبية الكلاسيكية الإغريقية التي جاءت بعده ، أن يطرح جانباً وسراً معبأ من الحرف انصاحروما إلى ذلك من القطع الصبة الرشقة . أما عند الإغريق فإن ما وراء الصورة لم يكن يعتبر من قبل الحرفة بل كاد يكون نوعاً من أصول من المطور لا بالنسبة للكاتب بل بالنسبة للمعنى . فهو يجعلنا نرى الحادث المعين الذي نراقبه لا على أنه عمل مستقل عرضي هريد بل نراه على العكس من ذلك في علاقته بالإطار الخلقى الفلسفي للعالم . ولأنى أرى لزماً على أن أكرر أن هذا الإطار ليس بالذى يفسره هومر عن وعى وإدراك — إذ أنه لم يكن له نظام فلسفي تام ، ومع ذلك فهو يرى أن هناك وحدة في الأشياء وأن الحوادث لها أسبابها ونتائجها وأن هناك قوانين حلقية .

هذا هو الإطار العام الذى نرى أن العمل الخاص يدخل فيه ، فالأمور الإلهية التى تطوى عندها المنحمة تدل في نهاية الأمر على أن الحوادث الخاصة فريدة في بابها كما أنها عامة في نفس الوقت .

إذن فالإغريق الذين طهروا ألف ستة يتجهون هومر لتثقيف صغارهم ولمنعة الكبار وتعليمهم لم يتجهوا لمجرد تحف وآثار يجعلونها أو لقصص تاريخية وطنية من قصص البطولة أو لروايات عن الجنيات ، وإنما اتجهوا لقصائد من الشعر كانت تنصف بكل الصفات التى جعلت الحضارة الإغريقية ما كانت عليه . لقد درسنا مقطوعة أدبية واحدة بشيء من التفصيل ، ولعلنا نكون قد رأينا جانباً من تلك القدرة الفكرية الفطرية التى تنظم القصيدة كلها في قوة أو جانباً من الرصانة الجوهرية التى تسرى فيها وكذلك جانباً من البصر المافذ الذى يرى بوساطته هومر حاجته ، وجاداً من الموضوع والإيجاز اللذين عن طريقهما يجعلنا نراها أيضاً . غير أن هومر ولكل حلقاته العظاما صفة أخرى لم نكلم عنها إلى الآن ، صفة يجب ألا ندع كل هذا الكلام عن قوة التفكير والخلق الرصين يحجبها عما هذه الصفة هى إنسانية هلدع هومر نفسه بسطها فهو كما أقدر مى .

القتال محمدم في السهل الواقع أسفل طرواده والبطال الإغريق دومدس Domeses بشر من الدمار بين أهل طرواده ما يجعل هكتور Hector يرك مدان القتال لكي يطلب من نساء المدينة أن يصلين لأبناء طالين مساعدتها ضد هذا الرجل الرهيب . وعندما يدخل هكتور من بوابة سكابا تحيط به فوراً زوجات وبنات مشتاقات لمعرفة أخبار رجالهن الذين في ساحة الحرب ، ولكنه يطلب إليهن جميعاً أن يصلين للآلهة ، كما أنه يبالغ الكثيرات منهن ما يحزنهن . وبينما هو سائر في طريقه إلى قصر أبيه الملك بريام تراه الملك هيكوبا وتسأله بعبارة من عبارات البطولة حقاً ، لماذا تركت القتال المستمر وجئت يا بني ؟ إن الأخيين نذر الشر يضيقون علينا الحناق تضيقاً شديداً ولعلك تنوى أن تصل لزيوس . انتظر قليلاً فسأتيك بنبيذ حلو حتى تبدأ بتقديعه لزيوس ثم اشرب منه قليلاً لأن النبيذ يقوى الرجل المتعب وأنت متعب من دفاعك عن أهلك وعشيرتك ، ١١

ولكن هكتور يرفض قائلاً : إن النبيذ قد يجعلني أنسى واجبي كما أنه لا يليق بي أن أقدم قرباناً من النبيذ المقدس ويداي مغطيتان بالدماء ، ويطلب من أمه أن تقدم لأبنا أجهل ثوب يحتويه القصر فتقدمه بالفعل ، ويخبرنا هو من المصدر الذي حصلت عليه منه إذ اشترته من التجار الفينيقيين الآتين من صيدا . وعندما يرى هكتور باريس Paris يرده بقسوة إلى الميدان . وكان باريس قد جرح قبل ذلك وظل يقضى وقتاً ممتعاً مع هيلينا ، فقال هكتور : ليت الأرض تملعه ، ورأى هيلينا Helen التي أخذت تلوم نفسها كل اللوم قائلة : هلم فأجلس معي رهة لأن عدم استحيائي وطيش باريس يقع عليهما على عاتقك أكثر مما يقع على أحد سواك ، غير أن هكتور لم يكن يحب اللقاء ورفاقه في القتال في حاجة إليه وهم منشوقون إلى عودته ولذلك قال : يجب على أن أذهب إلى بيتي وأرى حدى وروحتي العزيزة

وطعني لأنى لا أعلم إن كنت سأعود إليهم مرة ثانية أو إن كان الآلهة  
سجعلوني أخيراً تحب وطأة أبدى الآخيين .

غير أن أندروماخا Andromache لم تكن هناك إذ كانت قد سمحت أن  
أهل طروادة ردوا على أسقاجهم فخرجت تجري كالمحمومة إلى أسوار المدينة  
لترقب الحالة وقد أطاح القلق بلها ووراءها المرضعة ومعها الطفل ، وهناك  
وجدها هيكتور فأمسكت بيده قائلة :

« إن قوتك هي التى ستقضى عليك يا هيكتور وأنت لا تشفق على طمعتك  
أو زوجتك البائسة التى ستصبح أرملتك عن قريب ، فسهاجك الآخيون  
ويصرعونك . وإذا فقدتك فالأولى بي أن أموت فتن أجد من راحة لي  
إلا الحزن فليس لي أب أو أم فقد قتل اخيليس أبى إيتيون Eetion ومع ذلك  
(هنا أثر من الكبرياء) فقد أبى اخيليس أن يأخذ سلاحه الذى دفن مع جثته .  
وقد كان لي سبعة إخوة في بيتنا ولكن اخيليس السريع العدو قتلهم عن آخرهم ،  
وقد ماتت أمى ملكة بلا كوس في بيت أبى . إنك الآن يا هيكتور بمثابة أبى وأمى  
وأخى كما أنك زوجى العذراء . فعال وترقى لي الآن وأمكت على هذه الأسوار  
ولا تترك ولدك يتيماً وتتركى أرملة من بعدك ، ولما كانت امرأة ذكية ترقب  
الأشياء من خلال دموعها ، إنها قالت وضع رجالا عند هذه الشجرة حيث يقوم  
الإغريق بالهجوم ، فأجابها هيكتور ذو الخوذة اللامعة سأنظر في هذا الأمر  
بإيمان باسديق ولكنى سأشمر بحمل عظيم أمام رجال طروادة ونسائهن أطويلات  
الليالي إذا ظلمت أنفسكم كالحيان بعيداً عن القتال ، كما أبى لا أجد للدين مكاناً  
في قلبى فقد تعلمت أن أكون شجاعاً على الدوام وأن أحارب في طلعة رجال  
طروادة فأحرر مجداً عظيماً لي ولأنى . إى لأعلم حداً وأوقى بأن اليوم الذى  
تهلك فيه مدينة طروادة المقدسة وهلك هو بريام ورجال بريام الأثرياء  
لأت ، غير أبى لست حزناً على أهل طروادة أو على هكوما نفسها أو على  
الملك بريام أو على إخوانى العديدين السلام الذين سيقتلهم العدو وسبوا ربهم



التراب بقدر ما أحرر عليك إديس خطمك أحد الآحيين المفسرين بالبرور  
ودموعك تسيل مديراً وأسفى أيام حريتك قد تمعشين عـدـدـاك في  
أرجوس وتشنطين عبي الدول في بيت امرأة أخرى وقد تحملين الماء لأمراه  
من مسبا أو من هو بر يا وأنت حزبه القلب ولكلك سررحين تحت الأرعام  
الشديد . وقد يقول من يراك وأنت باكية إذ ذاك كانت هذه زوجة  
هيكثور أنبل محارب بين أهل طروادة ممن كانوا بروضون الجباد ، حين كانوا  
يحاربون حول إلبليون ، هذا ماسيقولونه وما سيثيركوا من الحزن في نفسك  
وأنت تكافحين العودية بعد أن يكون الموت قد حرملك من مثل هذا الروح ،  
ولكن لبنى أكون ميتاً والتراب مراكم فوق قبري قبل أن أسمع صرخاتك  
أو تبلفني أنباء القسوة التي ستعرضين لها .

هكذا تكلم هيكثور الذي كان يتألق بريقه ، وقد مد ذراعيه إلى إبيه ولكن  
الطفل صرح وجفل إلى صدر مرضته ذات النطاق المحكم لأنه فزع من مظهر  
أبيه العزيز المتسربن بالبروز ومن خصلة شعر الخيل التي رأها تهتز بشدة  
من أعلى خوذته . ففهمه أبوه ضاحكاً وكذلك أمه النبيلة . وسرعان ما خلع  
هيكثور ذو البريق المتألق خوذته من فوق رأسه ووضعها على الأرض ، حتى  
إذا قبل إبيه العزيز وهذه بين ذراعيه تضرع إلى زيوس وإلى باقي الآلهة  
قائلاً : « ليتك تستجيب بزيوس أنت وباقي الآلهة لي فتجعل هذا الولد  
مثلي ، جداً كل التجد بين أهل طروادة ، وليته يكون ذا بأس شديد ويكون  
حكماً في إلبليون ، حكماً عظيماً ، وليت الناس تقول وهو عائد من الحرب  
« إنه أفضل من أبيه بكثير وليته يهلك الأعداء ويرفع منهم أسلحتهم وليت  
أمه تفرح به »

هذه المقطوعة تأتي صوّاً أعلى من الطفل الهومييري داتها ، إذ أن اندى يدعوه  
إلى أعمال الطولة ليس شعوره بالواجب كأنهم يحى أى شعوره ، لو احب نحو  
الأحرز ، بل هو على العكس من ذلك شعوره بنحو نفسه ، فهو يكافح في سبيل

« درجہ کلمہ » المصیبة . are e وإن کانت تعی فی الإغریقہ ، الامتیار  
أو لتعوق ، (١) ہالہی بتسارع من أحله أجامعون واحبلس لیس من أحل فتاہ  
بل ہما یندازعان من أجل جائزہ «ہی الاعتراف العام ، بالامتیار ، وسوف  
یکون لراماً علیہا أن یقول الکثیر عن الامتیار ، لانہ یسری فی صمیم الحیاة  
الإغریقہ .

وعلى كل حال فإن مثل هذا المظهر في اللغة الإغريقية يتطلب من المدارس  
التي يكون قد وعاه عن طهر قلب أن يبدأ أولاً بتفسير الألفاظ المختلفة  
في المخطوطات ويدقق في تحرى الفروق البسيطة في معاني الكلمات  
وفي التعقيدات النحوية ثم هو لا يستطيع أن يثق في قدرته على ترجمتها ترجمة  
سليمة . وليس هذا المنظر بأي حال هو الوحيد من هذا النوع في الألياذه ،  
كما أن هذه الإنسانية التي لا يحدها زمان ليست بقاصرة على أروع المناظر  
كما ستبينه ملاحظة خفيفة أو إثنان : تمنع في هذه النذرة القصيرة (٢) :  
« فتركهم ديوميديس رائدين رقدة الموت وراح بطارد أباس وبولوتيدوس  
Poly dos ولدى يرودامس Eurvdamas الشيخ الذي كان يستطيع أن يعبر  
الرؤا فقتلما ديوميديس بقوته الرائدة ثم راح بطلب إكسانثوس Xanthos  
وثون Thoon ولدى فايوبس Phaenops «فقتل فايونوس شيخوخة حزينة  
إذ أنه لم يترك له أولاداً آخرين يرثون أملاكه «قد قتلما ديوميديس كليهما  
وسلما حلوا الحياة فلم يرجعا إليه من ميدان القتال بل انقسم الغرباء ميراثهم .  
تمنع في بيت من الشعر ورد عن ديوميديس بعد ذلك بقليل (٣) . فحين  
يرى البطل الصغير جلوكس Glaukس الدمار الذي ينشره ديوميديس بين

(١) من الصعب أن ترجم كلمة are e «هي لامتة» والنبوي لأنها كانت تعني عند هوميروس  
كلمة «صاعقة» «الكريمة» «هي عمل الإنسان وحلاكل معنى» «كلمة» (شعاعة) «ومروءة»  
وقصده .

(٢) الإلياذه - بند ٥ ص ١٤٩

(٣) الإلياذه - بند ٦ ص ١٢٧ .

أهل طروادة يصمم على أن يحاربه ، ويسأله ديوميديس دماً لأموات العروسية عن هويته فأتى له ، لم تقع عيسى عليك قل ذلك في حرب تنهرف الرجال وأنت تفهم جميعاً في الشجاعة إذ تستطيع أن تقف هناك مستظراً ربحي الطويل . والآن تأتي الحقيقة البالية ذات المهزى الكبير ، فقد كان من الطبيعي جداً أن يقول ديوميديس « نعماً لحظ أولئك الرجال الذين يتصدون لقوتي ، ولكنه يقول بدلاً من ذلك ، نعماً لحظ أولئك الذين يتصدى أولادهم لقوتي . إن مناظر القتال توصف بما يشبه اللذة فبطل الساعة يقتحم ما في طريقه بفتنة ويرتك وراءه قائمة بقتلاه - والشاعر يخبرنا بدقة أن اختراق الرمح المميت جسد المحارب الموزوم بل إنه يخبرنا في كثير جداً من الأحيان من أين خرج الرمح ثانية . والغالب ينسب لنفسه مجداً يعيش بعده ، غير أن هومر له فكرة عن حياة الناس بمناها الأوسع ، فهو لا ينسب أولئك الذين يكون مجد شخص آخر سداً في حزمهم ، كما أنه لا يجمعهم إقحاماً .

ومن الخطأ وصف الإلياذة بأنها مأساة لأنها ( كما كثر الأشياء الإغريقية ) تعتبر بالوسط ما كان يراد منها أن تكون . وهي ملحمة شعرية بكل الاستطراد والتوسع والصراحة التي للملحمة الشعرية . ومع ذلك فهي تراجمية للغاية وهي في هذا أيضاً إغريقية جداً . فالانجاء إلى التفكير التراجمي كان عادياً عند الإغريق . وقبل أن نحاول تفسير ذلك مستخدمين في إيضاحها هومر الذي يستوعب كل شيء قد يكون من المستحسن أن ننسب نقطة أو نقطتين . فأولاً ليس السبب في هذا الانجاء التراجمي أن الإغريق كانوا يرون الحببة شيئاً نافعاً فقد وصفوا لك اللذة الظاهرة التي يصف بها هومر مناظر القتال . وهو يصف كل ما عدا ذلك بغير الخاسة الدقيقة . فقد كان يرى كل شيء شوقاً واهتماماً شديدين ، سواء كان يصف أوديسيوس وهو ينسى سمه أو كان يصف أطلاً يعدون في المعسكر طعاماً مشعاً جداً يتناولونه في العشاء وقد يعدون على أثر تناول وجبة الطعام . أما أن الحياة

كانت وادياً لدموع ليس لأى شيء أهمية فيه فبك فمكة لم يعسقها إلا قليل جداً من الإغريق ، فقد كانت هم أشد رغبة في العمل واشتد بكل أنواعه الجسمية والعقلية والعاطفة ، وكانوا يجدون سروراً لا نهاية له أبداً في عمل الأشياء وفي مشاهدة انعكاسه التي تعمل بها الأشياء ، ونكد كل صفحة من هو مر تشهد بذلك . ومن المؤكد أن ذلك الفيض التراجيدي الذي يسرى في ثياب الإلياذة لا يرجع إلى أى إحساس بأن الحياة عديمة الأهمية إذ أنه كان شعوراً تراجيدياً وليس شعوراً بالكآبة والغم .

وعليها ثابته ألا تنصور أن الميل إلى المأساة كان معناه كراهية الملهة ، وما من شك في أن الإلياذة ليس بها إلا القليل من الملاحى كما أنه ليس هناك ما يرفه عما في المأساة الأثينية المتأخرة إلا النزر اليسير من الكوميديا ، وأن يكن قد سبق لنا أن نعرفنا على قصة كوميديا مشهورة في الأوديسة . وينبغي علينا ألا ننسى أن المرحلة الأثينية إن كان فيها أريستوفانس وإيسخولوس الذي كان له شهرة كبيرة في العالم القديم بصفته مؤلفاً للمسرحية الساتورية الساحرة (١) فقد كان لها كذلك ما يقابلها وما يسمى بالملاحم المضحكة التي بقيت لنا منها ملحمة الضفادع والفئران . فالأجاء التراجيدي الذي ينطوي عليه التفكير الإغريق لا علاقة له بالكآبة إذ أن الإغريق كان يحب الضحك كما كان يحب الحياة . ومنشأ هذا على ما أرى هما هاتان الصفتان العظيمتان اللتان كما نتقصاهما في هو مر وهما التفكير المطلق والإنسانية . وقد مكنت الصفة الأولى منهما الإغريق كما حاولت أن أبين ذلك من رؤية الإطار الخارجى العظيم الذى يجب أن يعصى داخل نطاقه الحياة البشرية ، وهو الإطار الذى عبر عنه هو مر بأنه إرادة الآلهة

(١) مسرحية Satyrn drama ، سميت هكذا لأن أعضاء عورتها كانوا  
 جمهور من عصفور - بوروى وبع لاله البحر ووسوس . وكانت تعالج موضوعات مومنة  
 في قالب مسكاه

وتديرهم من جهة وأنه الضرورة الخيالية العامة التي يجب أن يحصعها حتى الآلهة من جهة أخرى . فالأعمال لا بد لها من نتائج والأعمال الناشئة من سوء التدبير لا بد لها من نتائج متعنة . والآلهة عند الإغريق ليسوا حيرين بالضرورة وإذا صبح أحد ما يعصمهم فإياهم يبطشون به دون هوادة . وكما يقول أخيليس لبريham المحطم أن الآلهة تعطى نعمتين في مقابل كل نعمة واحدة . ولا يخفف من حدة هذا التقدير الواضح للشهد الإنساني أى أمل باسم في حياة أخرى أفضل من هذه الحياة أو أى اعتقاد في النقم . أما بالنسبة للحياة الآخرة فقد كان أمام الإغريق عند هومر أن ينتظر حياة خيالية مظلمة في هاديس وكما قال أخيليس : « إنى أفضل أن أكون عبداً على الأرض من أن أكون مدبكا في هاديس » . وقد كان الأمل الوحيد في الخلود هو أن تظل شجرة الإنسان باقية في الغناء أما التقدم فقد كان محالاً لأن طبيعة الآلهة لا تتغير . أما أن تتغير طبيعة الناس فهذه فكرة ظلت مدة طويلة لا تخطر بال أحد وحتى لو أنها خضرت له فقد كان الآلهة يعطون نعمتين في مقابل كل نعمة ، فالحياة كانت باقية على ما هي عليه في كل أمورها الجوهرية .

ويستطيع الإنسان أن يتصور مثل هذه أسطورة التي خلعت بشكل ملحوظ من الأوهام البراقة وقد نمت حتى صارت ديانة جوفاء تؤدي به إلى الاعتقاد في قضاء وقدر لا أمل فيهما وقد استسلم لها الناس ، غير أنها كانت مقترنة بهذه اللذة التي تكاد تكون عارمة في الحياة وهذه النشوة في روائع أعمال البشر وفي الشخصية الإنسانية . لقد كان الإغريق بعيداً عن التفكير في أن الإنسان كم مهمل في نظر الآلهة ، إلى حد أنه كان يجد من انصروري عليه أن يذكر نفسه دائماً بأن الإنسان ليس له وأن مثل هذا التفكير ليس من القوى في شيء . ولم يحدث بعد ذلك قط أن نجد مثل هذه الثقة العائقة في الإنسانية إلى أن جاء الوقت الذي أسكرت الروح الإغريقية فيه إبطالياً

في عهد الهبة ، وهي نعمة في الحس لم تنصد في إبطاء أثناء الهبة بالواضع  
الذي فرضه على الإغريق نظرتة الدبة العظيمة

أما النعمة التراجيدية التي سمعها في الولادة وفي أكثر الأدب الإغريق  
فقد نشأت من الصراع بين هاتين القوتين وهي القوة العارمة في الحياة  
والخوف الواضح من أن نطاق الحياة الخارجى لا يتغير :

« إن حياة الناس مثل حياة أوراق الشجر سواء سواء ، فالرياح تعصف  
بأوراق الشجر على الأرض ولكن الغابة القوية تبث غيرها وهي التي تنمو  
في فصل الربيع ، فسرعان ما يأتي جبل من الناس وسرعان ما يذهب غيره .  
وابست هذه الفكرة أو هذه الصورة خاصة ، هومر ، أما الألم اللاذع  
لخاص به ومرجعه إلى مناسبة وروده فحين لا نجد في نظيره العبرى الرائع :  
أما الإنسان فأيامه كالخشب . أنه يكون بانعاً مثل زهرة الحقل فإذا  
مرت بها الرياح عصفت بها فلا يعرف مكانها بعد ذلك .

إن النعمة هنا هي نعمة الذلة والاستسلام للإنسان لا يريد أن يكون  
عشياً إذا قورن بالله أما الصورة الهومييرية فتستمد لوناً مختلفاً جداً من  
ملاساتها المفعمة بالكماح وروائع أعمال البطولة . فالإنسان فريد في بابه  
ومع ذلك فرغم معدته السامى ورغم تنوع الرائع الذي فيه يجب عليه أن  
يطيع نفس القوانين التي تخضع لها أوراق الشجر التي لا تحصى والتي لا يمكن  
اتخاذها بينها ولا مجال لاحتجاج تمليه الروح الرومانسية . إذ كيف نتج على  
أول قارن من قوانين الوجود ؟ كما أنه لا مجال للرصاص والاستسلام للدين  
يحدثهما مثلاً بين الصيبيين الذين يعسرون الفرد مجرد أصل لدرية في طور  
التكوين أو محصولاً من أوراق شجرة واحدة في الغابة ، أما في الصورة  
الهومييرية فبما بدلا عن ذلك نجد هذا الصراع العاطفى الذي يعتبر نعمة من  
الروح التراجيدية .

وعكسا أن ذكر أمثله أخرى كثيرة من هومر وخاصة من الإلباده عبر

أن واحداً منها يكفى فإنه يشرح هذه الروح من وجهة نظر أخرى . ومن مما يدل على قيود الحياة بل ومساقتها أن أكثر الأشياء التي تسحق أن نحصل عليها لا يمكننا الحصول عليها في أكثر الأحيان إلا بتعريض الحياة نفسها للخطر . فالطفل قد لا يستطيع أن يدل على شعاعته ويهور بالمجد إلا بموته الذى يبعث الحزن في أقربائه . والحال نجده مخفوفاً بالخطر والموت . وهك فاصل يتخلل وصف هومر لقتال العيب الذى دار حول أسوار طروادة والذى كان يشاهده بريام وغيره من المسنين من فوق الأسوار :

وهكذا جلس أمراء طروادة على البرج ورأوا هيلينا وهى قادمة فقال بعضهم لبعض بصوت رقيق وألغاط لها دلالتها ، إن أهل طروادة وكذلك الآخرين المسلحين بأحسن السلاح يستحقون لوماً قليلاً على الويل الذى يقاسونه هذه المدة الطويلة بمثل هذه الشدة من أجل تلك الحساء التى كانوا ربة من الربات ، ومع ذلك وورغم أنها جميلة فلتركس سفينة إلى وطنها ولا تترك لها ولأولادها الخسرات ، هكذا كان كلامهم ، ولكن بريام ، ادى هيلينا قائلاً : « تعال أيتها الإلهة العزيزة واجلسى إلى جوارى وانظرى إلى من كان زوجك وإلى أهلِكَ وأصدقائك الآخرين . إلى لا ألوهمك فالآلهة هم الذين كانوا السبب في ذلك وهم الذين جعلوا لنا الحرب والدموع ،

والآلهة ، فلا دفع لدموية سمات طانة بل الاعتراف بأن مثل هذه الأشياء جرم مما هو مقدر على الضرر ، فالله كالله لا بد أن نشده ولو كان انش هو الدموع والدمار ألا تقع هذه المكروه من أسطورة حرب طروادة في الصميم ، إن احببنا بطل هذه الأسطورة ود مر كمال انموسية الإغريقية قد جعل له الآلهة الحق في اختيار ما يلى بالضغط : إهم مسحوا إماماه طويله مع صفة الشأن أو محداً مع الموت المسكر . إن أول من وضع هذه

الأسطورة قد عر فيها لا عن خلاصه الفكر الإغريقى حسب بل عن التاريخ الإغريقى كذلك .

لقد أخصت فى الكتابة عن الإلياذة لأنها تحتوى من جهة على قدر كبير من الروح الإغريقية الجوهرية ومن جهة أخرى سكى أطمع انقارىء على ما كان يلتقف به الإغريق مدى قرون . أما الأدويصة فيجب أن نضحي بها ولو أنها كانت جزءاً من هذه الثقافة مساوياً للإلياذة وضرورياً لتكملتها من أوجه كثيرة ، فهى كما قال لونغبوس Longinus قصيدة عن الخلق أكثر مما هى عن العاطفة ، وهى تزخر بحب الإغريق للغامرات والقصص الغريبة ، وهى كالإلياذة قصيدة كان من الممكن أن تكون حقيقية حافلة بالقصص القديمة لولا أنها تشتمل بدلا عن ذلك على وحدة ذكية فيسة تصدر لا محالة عن فكرة مركزية واحدة هى ، فى هذه الحالة ، الاعتقاد فى عدالة نهائية . فهل كذب القصيدتين شاعر واحد ؟ وهل ألف كلا منهما شاعر واحد فعلا ؟ ومتى عاش هذا الشاعر أو هؤلاء الشعراء ؟ هذه هى المسألة الهوميرية التى ظل العلماء قرناً ونصف قرن يافشونها ، ولا ينتظر منى القارىء أن أفصل فيها هنا . وقد كان للإغريق الذين عاشوا فى العصور التالية طائفة من الملاحم عن حرب طروادة منها اثنان كانت لهما روعة فائقة كما كانتا تنسبان إلى هومر ، وقد ظل الناس يتقبلون هذه النسبة دون أن يأخذهم فيها ريب حتى المصور الحديثة حين أظهر البحث الدقيق كل أنواع التضارب فى الحقائق والأسلوب واللغة سواء فيما بين الملحميتين بعضهما وبعض أو فيما بين بعض أجزاء كل منهما وبعض الآخر . وكانت نتيجة ذلك المباشرة هى الاطمئنان إلى تقسيم القصيدتين تقسيماً دقيقاً لا سيما الإلياذة إلى أناشيد تمت إلى فرات مختلفة سمىها القواد تسمية ماسية هى الصفات ، وهم الذين لم يبروها



أحياناً تمام المعرفة من السماء القوي والتكوين الجيولوجي . وقد أنجرت دراسة شعر الملاحم عدد الأحاسيس الأخرى ودراسة الطرق التي استعملها الشعراء المشتعلون في محيط الروايات المأثورة إلى حد بعيد في إعاده الثقة بوجود الوحدة الجوهرية في كل قصيدة . بمعنى أن الذي لدينا في كل حالة ليست قصيدة قصصية من تأليف هومر ، حقيقى أضف إليها الشعراء الذين جاؤا بعده دون تمييز كثير أو قليل ، وإنما هي قصيدة اختمرت كوحدة في عقل هومر ، متأخر نسبياً اجتمعت فيها وأدخ فيها كثيراً من الروايات القديمة ، ولو أنه من المؤكد أن الإلياذة الحالية تحتوي بالتأكيده على بعض الأناشيد التي لم تكن من نظم هومر . أما معرفة ما إذا كان نفس الشاعر هو الذي نظم القصيدتين فهذه نقطة تختلف بشأنها الآراء ، ومن المحتمل أن تظل دائماً كذلك . والعرق عظيم في روح كل منهما وفي الطريقة التي تناول المؤلف بها كلا منهما . وقد لاحظ ذلك لونيغوس أدق العقاد القدماء فقال : إن مثل هومر في الأدوية كمثل الشمس الفاربية تبقى عظمتها دون شدتها . وقد تكون شمس الإثنيتين واحدة . غير أن الرجل الذي تعمق دراسة هومر إلى حد ترجمة إحدى قصيدتيه له الحق في أن يبدى رأيه ، وعلى ذلك فمن الشائق ملاحظة أن أحد المترجمين الإنجليز بين الحديشين وهو لورنس ، يؤكد أن الشاعرين مختلفان إلى حد أنه لا يفكر في بحث هذا الاحتمال . بينما يقول ديو ، إن شعور قرائه بالثقة في أنهم بين يدي رجل واحد قد يكون شديداً بشعورهم إذا انتقلوا إلى قراءة مسرحية ديكاميد . بعد الفراغ من الملك جون ( لشيكسبير ) .

ستترك المسألة الهوميرية عدد هذا الحد لأنها وإن كانت حلالة بالنسبة لعلماء إلا أن الواجب ألا نسمح لها بأن تعجب عباد هومر . وإنه لمن انشاق وإن يكن من الغمط التفكير فيما كان يحدث لنا لو أن كل مصلحاً وثورنا وواضعي خططنا وسياسيينا ومعلمي حياتنا عامة كانوا قد تشعروا

مراء هو مر من شامهم إلى شيوخهم مثل الإغريق . لعلمهم كانوا يدركون  
أمة في اليوم السعيد الذي تكون فيه في كل بيت تلاحه لاجال في بيت  
واحد ، وتكون فيه نعمة متاحة لنا جميعاً لعمل للصالح العام (مهما يكن)  
ويكون فيه الرجل العادي ، ( كائناً من كان ) هائزاً وإن لم يكن متحسناً  
فسيظل الناس يحيثون وينهبون كأحيال أوراق الشجر في الغابة وسيظل  
الإنسان ضعيفاً والآلهة أقوياء فلا يعرف ماذا يضمرون ، وستبقى صفات  
الإنسان أهم من أفضل أعماله ، وسيظل العنف والنزور يؤديان إلى الدمار  
الذي يصيب البريء كما يصيب المذنب . لقد كان من حسن حظ الإغريق  
أن وجد بينهم هومر وكانوا ثقلاء حين أهدوا منه ما أفادوه .

## البوليس ( دولة المدينة )

• بوليس . polis ، هي المصطلح الإغريقية التي ترجمها بعبارة « دولة المدينة » ، وهي ترجمة رديئة لأن ال « بوليس » العادية لم تكن كثيرة الشعب بالمدينة كما أنها كانت أكثر من الدولة بكثير . ولكن الترجمة كالسياسة هي فن الشيء الممكن وطالما ليس لدينا هذا الذي سماه الإغريق ال « بوليس » فلن يكون لدينا كلمة تقابلها . ونحن من الآن فصاعداً سنتجنب عبارة « دولة المدينة » ، لأنها مضللة وسنستعمل الكلمة الإغريقية بدلاً عنها . وسنبحث في هذا الفصل أولاً عن كيفية نشأة هذا النظام السياسي ثم نحاول أن نعيد بناء كلمة « بوليس » ، ونستخلص معناها الحقيقي بملاحظتنا وهي قائمة بالعمل . وقد يكون هذا عملاً طويلاً ، غير أننا سنفيد في نفس الوقت بتحسين معلوماتنا عن الإغريق . فحين إن لم نأخذ فكرة واضحة عما كانت عليه « البوليس » وعما كانت تعنيه بالنسبة للإغريق يستحيل علينا أن نفهم التاريخ الإغريق والعقل الإغريق أو أجداد الإغريق حق الفهم .

وأول سؤال لنا إذن هو ماذا كانت ابوليس ؟ إننا نرى في الإلياذة نظاماً سياسياً يبدو مألوفاً لنا ومن الممكن أن ندعوه طبقةً لأذواقنا إما نوعاً راقباً أو نوعاً منحصلاً من القبيلة . وفي هذا النظام نرى ملوكاً مثل إيجيليس يحكمون رعابائهم وكذلك الملك العظيم أجاممنون ملك الناس وهو أشبه بأمر من أمراء الإقطاع . فهو ملزم ، سواء كان هذا الالتزام راجعاً إلى الحق أو إلى العادة بأن يستشير الملوك والرؤساء الآخرين في الأمور التي تتعلق بالصالح العام . فهناك مجلس يعقدونه بانتظام ويحمل الرئيس أسمى صاوغاته الصوغان وهو رمز السلطة وهذا المجلس يمكن التعرف على أنه من الخصائص الأوربية

لا الترفية كما أن أحامون ليس ناله مستند يحكم ولا معقب لحكمه . وكملك  
هناك دلائل على وجود مجلس رمزي للشعب يستشار في المسائل الهامة  
ولون هو مرو وهو شاعر متأق كما أنه ليس مؤرخ دسورى على كل حال ،  
بقول عنه القليل هذه باختصار هي الرواية المألوفة أو المتوارثة عن بلاد  
الإغريق قبل العزو . وعندما يرتفع الستار مرة ثانية بعد العصر المظلم ، نرى  
صورة مختلفة كل الاختلاف . فلم يعد يوجد في موكناي Mycenae أجاممنون  
يحكم رقعة واسعة من الأرض ويسطر عليها ، أما في كريت التي كان يحكمها  
قديماً إيدومنيوس باعتباره ملكها الوحيد فإننا نجد أن بها أكثر من خمسين دولة  
بدلاً من دولة واحدة . أما موضوع اختفاء الملوك فإنه أمر هين ولكن المهم  
هو أن الممالك قد ذهبت كذلك . وما هو صحيح عن كريت بجده صحيحاً عن  
بلاد الإغريق ، فايونيا والجزر والبلوبونيز فيما عدا أركاديا ووسط بلاد  
الإغريق فيما عدا الأجزاء الغربية وجنوب إيطاليا وصقلية عندما كانا  
إغريقين — كانت كلها منقسمة إلى عدد هائل من الوحدات السياسية التي  
تحكم نفسها والمستقلة عن غيرها كل الاستقلال .

إن حجم « البوليس » من المهم أن نذكره . حين يتناول القارى الحديث  
ترجمة لجمهورية أفلاطون أو لسياسة أرسطو يلاحظ أن أفلاطون يقرر أن  
مدينته المثالية تضم ٥٠٠٠ مواطن ، كما أن أرسطو يقرر أن كل مواطن  
ينبغي أن يكون في إمكانه معرفة جميع المواطنين الآخرين بمجرد النظر . وقد  
يتسم القارى هذه التصورات الفلسفية ولكن أفلاطون وأرسطو ليسا  
خياليين أن أفلاطون بنص « الوائس » طغياً للقياس الهيبى العادى ،  
بل انه يعنى فى الحقيقة أن كثيراً منها كان بها أقل من ٥٠٠٠ مواطن  
وبقول أرسطو بطريقة المسلية ، إذ أن أرسطو يبدو أحياناً كالخير ، أن  
« البوليس » ذات العشرة مواطن تعتبر مستحيلة لأنها لا يمكن أن تكون  
« مكتنفة اكتفاء ذاتياً » وأن « البوليس » ذات المائة ألف مواطن تعتبر شادة

ومشيرة للسحريه لأنها لا تستطيع أن تحكم نفسها حكماً حياً وعليها الانتصوير  
أن هؤلاء المواطنين كانوا طقة من السادة الذين يملكون آلافاً من العبيد  
وينتخبون فيهم ، إذ أن الإغريق العادى فى تلك العصور القديمة كان مراعاً  
فإن كان يملك عبداً فقد كان ذلك يدل على أنه مقتدر . أما أرسطو فإنه  
يتكلم عن مائة ألف مواطن . فإن افترضنا لكل مواطن زوجة وأربعة  
أولاد ثم أضفنا بعدئذ عدداً وافراً من الرقيق والأجانب المقيمين فإننا نصل  
إلى عدد يقارب المليون وهو عدد سكان برصبيهم . إن دولة متقلة  
مزدحمة بالسكان مثل برصبيهم تعتبر عدد أرسطو نكتة مكشوفة . ويمكننا  
أن تنتقل من الفلاسفة إلى رجل عملى هو هيبوداماس Hippodamas الذى  
خطط بيريه طبقاً لأحدث أسلوب أمريكى ، فقد قال إن عدد المواطنين  
الثالى هو عشرة آلاف مواطن ، ومعنى هذا عدد كلى يبلغ حوالى ١٠٠.٠٠٠  
من السكان .

ولم يكن هناك فى الحقيقة إلا ثلاثة من « البوليس » فى كل منها أكثر  
من ٢٠.٠٠٠ من السكان وهى (سرقوسة) واكر اجاس Acragas (جرجنى)  
فى صقلية ، وأثينا . وقد كان عدد سكان أثينا ٣٥٠.٠٠٠ تقريباً عند نشوب  
حرب البيلوبونيز ، نصفهم أثينيون (رجالاً ونساء وأطفالاً) وعشرهم من  
الأجانب المقيمين بها والباقي من الرقيق . أما اسبرطة أو لاكيدايمون فقد  
كان عدد المواطنين بها أقل ولو أن مساحتها كانت أكبر من غيرها . إذ أن  
الإسبرطيين كانوا قد فتحوا مسيبيا Messenia وضموها إليهم فامتلكوا  
بذلك ٣٢٠٠ ميلاً مربعاً من الأرض . وقد كانت هذه مساحة هائلة طفقاً  
للقاييس الإغريقية تقتضى من المسافر المحد يومين حتى يقطعها . وكانت  
مساحة مدينة كورنتا التجارية الهامة ٣٣٠ ميلاً مربعاً أى ما يساوى حجم  
مدينة هينجدن شير . وكانت جزيرة « كيوس » Ceos وهى فى حجم مدينة  
« بيوت » مقسمة إلى أربعة من « البوليس » وبذلك كان فيها أربعة حبوش

وأربع حكومات ورعا كان بها أربعة تقاويم للرمس وأربع عملات محله من الفقد ومثدا من بطم المقاييس ، ولو أن احتمال وجود هذين الأخيرين أول من سواه . أما موكيائ فقد استكشفت في العصور التاريخية حتى صارت بقية من عاصمة أجامموني وإن طلت مستقلة . وقد أرسلت جيشاً لمساعد قضية الإغريق ضد الفرس في حرب بلاتايا Plataea وكان هذا الجيش يتكون من ثمانين رجلاً وهو صغير حتى طبقاً للمقاييس الإغريقية . وإن كنا لم نسمع أن أبة نكتة قد قبلت عن جيش تحتوبه عربية .

إن من الصعب علينا أن نفكر طبقاً لهذه المقاييس فنحن الذين تعودنا على وجود دول مثل الولايات المتحدة الأمريكية واتحاد الجمهوريات السوفيتية الاشتراكية وهما من الكبر بحيث أننا نشير إليهما بالحروف الأولى من أسمائهما — نعتبر الدولة التي تتكون من عشرة ملايين دولة صغيرة .

وعندما بصير القارىء الذي يسهل توجيهه منعوداً على هذه المقاييس فإنه لن يقع في الخطأ المبتدل الذي ينشأ من الخلط بين الحجم والأهمية . فنحن نسمع أحياناً الكاتب الحديث وهو ينكلم برهو واحتقار عن هذه الدولات الإغريقية النافذة التي لم تكن تنفض لها منازعات ، حقاً إن بلاتايا وسيكون Sicyon وإيجينا Aegina وباقي الدولات نافذة إذا قورنت بالدول الحديثة . كما أن الأرض نفسها نافذة إذا هي قورنت بالمشتري ، ولكن مهلاً فإن جو المشتري مكون بصفة رئيسية من النواشدر وهما كل العرق . ومن لا يحب أن يستشق النواشدر كما أن الإغريق ما كانوا يحسون كثيراً أن يستشقوا جو الدولة الحديثة الواسعة . ولقد عرفوا دولة من هذا القبيل هي الإمبراطورية الفارسية التي اعتبروها مناسبة جداً للبرارة . فالاختلاف في المقاييس ، عندما يبلغ حداً كبيراً من الكبر ، يدل على اختلاف في النوع .

ولكن قبل أن تناول بالدرس طبيعة « البوليس » راعا أحب القارىء أن يعرف كيف تحول ذلك النمط الصحيح بسبباً الذى كان موجوداً فى بلاد الإغريق قبل العصر الدورى إلى نمط مكون من مجموعة مختلفة من القطع الصغيرة وهذا هو ما يريد أن يعرفه المتبحر فى الأدب الكلاسى أيضاً ، غير أننا لا توجد عندنا سجلات ولذلك فكل ما نستطيع أن نعمله هو أن نقترح من الأسباب ما يمكن قوله . فهناك أسباب تاريخية وجغرافية واقتصادية متى أوضحناها إيضاحاً مناسباً فربما استنتجنا أن أهم سبب من بينها كان بكل بساطة أن هذه هى الطريقة التى فضل الإغريق أن يعيشوا بمقتضاها .

إن مجيء الدورى لم يكن هجوماً قامت به أمة منطمة على أمة أخرى . فالذين غزاهم الدورىون كان لهم فعلاً نظامهم ولو أنه كان ضعيفاً منحللاً . وبعض الغزاة وهم الطائفة الرئيسية التى فتحت لا كيدايمون لابد أنها كانت قوة مترابطة . أما من عداهم فكانوا جماعات صغيرة من المعتدين الذين أفادوا من الاضطراب العام فى الاستيلاء على الأرض الصالحة حيثما وجدوها . والدليل على ذلك أننا نجد أعضاء من نفس العشيرة فى دول مختلفة . وهذا بندار Pindar مثلاً من مواطنى طيبة كان من عائلة إيجيداي Aegidae القديمة . إلا أنه كانت هناك إيجيداي أيضاً فى إيجينه واسبرطة وكل منهما « بوليس » مستقلة تماماً ، وكان بندار يخاطبهم على أنهم أقاربه . وقد انقسمت هذه العشيرة بالذات تبعاً لذلك أثناء الغزو . وهذا أمر طبعى جداً فى بلاد كبلاد الإغريق .

وفى مثل هذه الفترة من فترات عدم الاستقرار كان سكان أى واد أو جزيرة مصطربين أن يحاربوا دوماً عن حقوقهم عند أى إنداد مجامع . لذلك كان من الضرورى أن يوجد هناك حصص على يكون فى العادة فوق قمة بل فى حرمه من السهل يمكن الدفاع عنها ، وكانوا يقومون تحصين هذا

• الاكروبوليس ، أو المدينة العلية وتحدوها ممرات الملك كما أنها كانت مكاناً طيباً للاجتماع ومركزاً للمعابد .

هكذا كانت بداية المدينة أن الذي علينا أن نعمله هو أن نمنع نمو المدينة ولقاء مثل هذا الحبيب الصغير من الناس وحدة سياسية مستقلة . أما الأمر الأول فتعليله بسيط فنبداً به . ذلك أن النمو الاقتصادي الطبيعي كان يحتم وجود سوق مركزي ، وقد رأينا أن النظام الاقتصادي الذي يدل عليه كلام هزبود وهو مركان هو الاقتصاد المنزلي المحدود . قطعة الأرض سواء كانت صغيرة أو كبيرة كانت تنج كل ما كان لازماً على وجه التقريب . أما ما لم تكن تستطيع إنتاجه فإلهم كانوا يستفنون عنه . فلما أصبحت الأمور أكثر استقراراً صار من الممكن وجود اقتصاد أكثر تخصصاً نوعاً ما وأمكن إنتاج سلع للبيع أكثر من ذي قبل ومن هنا كان ينشأ أحد الأسواق .

وبعد هذه النقطة نستطيع أن نستند إلى العادات الاجتماعية عند الإغريق القدماء والمحدثين وهم الذين يميلون كل الميل إلى معاشرته الناس . إن المزارع الإنجليزي يحب أن يبني بيته على الأرض التي يملكها ولا يذهب إلى المدينة إلا مضطراً . ويجب أن يقضى وقت فراغه القصير في التفكير في أمر طريف ألا وهو النظر إلى الباب الخارجي . أما الإغريق فإنه يفضل أن يعيش في المدينة أو في القرية وأن يخرج إلى عمله وأن يقضى وقت الفراغ الذي يتوفر له أكثر من سواء وهو يتحدث في المدينة أو في القرية . ولهذا يصح السوق سوقاً للهدايا ويقع بطبيعة الحال في سفح الاكروبوليس ، كما يصح مركزاً لحياة الناس الاجتماعية ، وسرى عن قرب ملح ما كان لذلك من الأهمية .

ولكن لماذا لم تنمو هذه المدن حتى تصبح وحدات أكبر ، هذا هو السؤال الهام .



أما من الوجهة الاقتصادية فإن العوائق الطبيعية التي تكثر وجودها جداً في بلاد الإغريق قد جعلت نقل البضائع عسيراً إلا عن طريق البحر الذي لم يصح ركوبه أما حتى ذلك الوقت وبالإضافة إلى ذلك فإن النوع الذي سبق أن تكلمنا عنه جعل من الممكن أن يسكن هناك مساحة صغيرة متمتعة بكفاية ذاتية معقولة بالنسبة لشعب كالإغريق له في الحياة مثل هذه المطالب المادية الصغيرة . هاتان الحقيقتان كلتاهما تؤدي إلى نفس الاتجاه . فلم تكن تعتمد بعض الجهات في بلاد الإغريق اعتماداً اقتصادياً عظيماً على البعض الآخر ، ولم يكن التجاذب المتبادل بين أجزاء البلاد المختلفة من الشدة بحيث يقاوم رغبة الإغريق في أن يبعثوا في مجتمعات صغيرة .

أما من الوجهة الجغرافية فإن البعض بصرح أحياً بأن نظام « البوليس » المستقلة فرضته على بلاد الإغريق طبيعة البلاد . . وهذه نظرية جذابة لا سيما للذين يحبون أن يجدوا تفسيراً واحداً لها لآلية ظاهرة ، غير أنه لا يبدو أنها صحيحة ، ومن الجدل بطبيعة الحال أن كثرة انقسام البلاد من الوجهة الطبيعية قد ساعد على ما ذكرناه . فلم يكن ممكناً أن يقوم هذا النظام في مصر وهي بلاد تعتمد اعتماداً كلياً على مراقبة فيضان النيل مراقبة مناسبة ولذلك يجب أن تكون بها حكومة مركزية ، ولكن هناك بلاد كأسكتلنده مثلاً مقسمة إلى أجزاء مثل بلاد الإغريق ومع ذلك لم يقيم فيها نظام « البوليس » وعلى العكس من ذلك كانت توجد في بلاد الإغريق كثيرات من « البوليس » المتجاورة مثل كورنث وسبكون اللتين طلتا مستقلةين كلاهما عن الأخرى مع أنه لم يكن بينهما أي فاصل طبيعي يمكن أن يصابق رايك اسراحة الحديث مضايقة حضيرة . وبالإضافة إلى ذلك كانت أكثر بلاد الإغريق جبالاً هي بلدات المناطق التي لم يقيم فيها للبوليس ، فائمة أبداً أو حتى انصوري المناخرة مثل أركاديا Arcadia وإينوليا Aetolia اللتين كان هما ما تشبه نظام الكاتونات في المقاطعات

المستقلة ، سيما ردهرت ، البوليس ، في تلك الأحرار التي كانت المواصلات  
سها سهلة سدياً . وهكذا نجد أن لا رلنا محث عن العلس .

لقد ساعدت الجعراويا والاقتصاد على قيام هذا النظام غير أن انعطيل  
الحقيقي لقضاه يعود إلى خلق الإغريق الذي يصح أن يفسره لنا أصحاب  
المذهب الجبري الذين لديهم انقعة اللازمة لهم المحيط بكل شيء . ولما كان  
البحث في هذا الموضوع سبستغرق بعض الوقت فإنه يحسن بنا أولاً أن نجلو  
نقطة تاريخية هامة هي كيف أمكن أن يستمر مثل هذا النظام الضعيف في  
الوجود أكثر من عشرين دقيقة .

إن مخريات التاريخ كثيرة مريرة غير أننا يجب ألا ننسى أن ننسب للآفة  
العصل على الأقل في تهيئة أسباب الاستئثار بشرق البحر المتوسط للإغريق  
وخدمهم تقريباً مدة كافية لعمل ما يكاد يكون تجربة من تجارب العمل لاختبار  
المدى والظروف التي تستطيع فيها الطبيعة البشرية أن تحاق حضارة وتحافظ  
عليها . فالإمبراطورية الأخمينية في آسيا كانت قد انهارت من قبل ، ولم يكن الاعتداء  
من حصائص المملكة الأخمينية ، بينما كانت الإمبراطورية الفارسية التي هزمت  
لبديا في النهاية م تراب في دور التكوين في الأجزاء الجبلية المنعزلة من القارة .  
وكانت مصر في حالة اصمحلان . أما مقدونيا التي كان مقدراً لها أن تقضى  
على نظام دالبوليس ، فقد كانت في حالة من العجز شبه بربرية لازمتها مدة  
طويلة ، ولم يكن أحد قد سمع بعد عن روما أو أية دولة ذات شأن في إيطاليا .  
حقاً لقد كان هناك الميديقيون ومستعمرتهم الغربية قرطاجة ولكنهم  
كأنوا تجاراً أولاً وأخراً . ولهذا فإن ترك هذا الشعب الإغريق الذي  
الشبيط ح آ في أب عيش عده فروو في ظل نظام تلوح عليه سمة الخفاقة  
في الظاهر كان أمراً ملائماً لعنقره ومساعداً لها على التو بدلا من أن تمنعه  
كتلة ضخمة لإمبراطورية واسعة مقصى على عمود الروحي وتجعله ما صار  
إليه بعد ذلك حساً مكوناً من أمراء المعيين وأنهاريين . ولقد كان من الواضح

أن شخصاً ما سيبنى. ذات يوم دولة مركزية قوية في شرق البحر الأبيض المتوسط تحلف قوة الملك ميوس البحرية القديمة ، فهل سيكون يانزى إغريقية أو شرقية أو غير ذلك ؟ سيكون هذا السؤال موضوع فصل آت بعد ذلك ، غير أننا لن نهم تاريخ الإغريق إلا إذا أدركنا ما كانت تعسه « البوليس » للإغريق . وعندما نذكر ذلك سنفهم أيضاً لماذا أنشأها الإغريق وتوسعوا فيها وحاولوا بمثل ذلك العماد أن يحافظوا عليها دعنا إذن نفحص الكلمة وهي في دور العمل .

كان معناها أولاً ما أصبح يسمى فيما بعد « الأكر وبوليس » أى حصن المجتمع ومركز حياته الاجتماعية ، أما المدينة التي كانت تنشأ حوله دائماً فقد كان يطلق عليها اسم آخر هو « آستو Astu » غير أن كلمة « بوليس » سرعان ما أخذت تعنى إما الحصن وإما القوم الذين استعدموا هذا الحصن ، إن جاز لنا أن نقول ذلك . ولهذا فنحن نقرأ في ثوكوديديس « أن إبيدامنوس Epidamnus » هو « بوليس » على يمين المسافر بمرأ في خليج اليونان ، وائس هذا مثل قولك أن بريستول مدينة تقع إلى الغرب وأنت مسافر في قناة بريستول لأن بريستول ليست دولة مستقلة يمكن أن تقوم الحرب بينها وبين جلوستر بل هي مدينة لها إدارة محلية فقط ، أما كلام ثوكوديديس فعناه أن هنالك مدينة اسمها إبيدامنوس . وإن كان من الجائز أن تكون صغيرة جداً ، وهي المركز السياسى للإبيدامنيين الذين يعيشون في رقعة الأرض التي مركزها لا « عاصمتها » هو هذه المدينة . وهم إبيدامنيون سواء عاشوا في المدينة أو في إحدى قرى هذه الرقعة من الأرض .

وفد يكون لرقعة الأرض وللمدينة أسماء مختلفة في بعض الأحيان ، وهكذا رى أن أتيكا هي رقعة الأرض التي يقطنها الآثينيون وهي تشمل أثينا أى « البوليس » المعنى الضيق ويريهو قرى عديدة ، ولكن مجموع الأهالى كانوا آثينيين لا آتيكيين والمواطن منها عاش في أى جزء من أتيكا فهو آثينى .

بهذا المعنى تكون « البوليس » هي الدولة عندما وفي مسرحية سوفوكليس Sophocles المسماة « أنتحورا » Antigone يتقدم كريون Creon ليعزل أول تصريح له صفته مدكاً فيقول « سادق » أما بالنسبة « للبوليس » فقد أخرجتها الآلهة سالمة من العاصفة وأرسلتها على بر الأمان . « هذه هي الصورة المألوفة » لسفينة الدولة » ونحن نظن أننا نعرف جليلة الأمر ولكنه يقول في المسرحية بعد ذلك ما ينبغي طعماً أن ترجمه بقولنا « لقد تم إعلان اعتلاء الملك للعرش » وإن كان هو يقول في الحقيقة « لقد أعلنت « للبوليس » عن اعتلائه للعرش » أي للشعب لا « للدولة » ثم يتشاجر الملك في المسرحية بعد ذلك مع ابنه شجاراً عنيفاً وبصرخ قائلاً « ماذا ! هل هناك أحد سواي يحكم في هذه الأرض ؟ فيجيبه هايمون Haemon : « هذه ليست « بوليس » يحكمها رجل واحد فقط » ، فبوضوح الجواب جانباً هاماً آخر من فكرة « البوليس » كلها وهو أنها مجتمع وأن شئونها تخص الجميع . أما موضوع الحكم الفعلي فكان من الجائز أن يوكل إلى ملك يتصرف باسم الجميع طبقاً للعادات التقليدية أو إلى رؤساء عائلات نبيلة معينة أو إلى مجلس من المواطنين الجائزين لقدر معين من الممتلكات أو إلى المواطنين جميعاً . كل هذه وكثير من التعديلات التي أدخلت عليها كانت أشكالاً طبيعية للحكم تمتاز جميعاً عند الإغريق عن الملكية الشرقية التي كان الملك فيها غير مسئول فهو لا يحمل سلطاته أمانة تفضلاً من الله إذ أنه هو نفسه كان إلهاً . ومتى كانت هناك حكومة غير مسئولة كان ذلك يعني أنه لم تكن هناك « بوليس » . فهايمون يهتم أمانه بأنه يتكلم كأنه حاكم مستبد (١) « Tyrannos » يعدل على هم « البوليس » لا « الدولة » :

(١) لى أصل استخدام لفظ Tyrannos الإغريقي لهذه الكلمة الشرقية ( ظاهر ) فهو المقام لإحدى الكلمة ( دكتاتور ) و « يحمل » ضرورة معنى كلمة مستبد

فلستمر في إيضاح معنى الكلمة إن الجوقة ( المحموسة ) في مسرحية  
أريستوفانيس المسماة « أهل أحرمنا » حينما أعجبت سلوك الطفل توجهت  
إلى الجمهور برجالها هاك ترجمه الحرفه « هل ترون أيها « لوليس »  
بأنهم ؟ » وقد نترجم الكلمات الأخيرة أحياناً هكذا « بمن تردحم بكم  
المدنية » وهي عبارة ذات جرس أفضل ولكنها تخفى نقطة جوهرية هي  
أن حجم « البوليس » جعل في إمكان الفرد أن يلجأ إلى كل مواطنيه  
شخصياً ، وهذا ما كان يفعله بالطبع حينما كان يرى أن فرداً آخر من أفراد  
« البوليس » قد آذاه ، فقد كان مفروضاً عند عامة الإغريق أن « البوليس »  
تستمد أصلها من الرغبة في العدالة إذ أن الأفراد لا يترمون القانون  
أما « لوليس » فإنها تنهم برفع المظالم لا عن طريق جهاز متقن من أجهزة  
عدالة الدولة لأن مثل هذا الجهاز لا يمكن إدارته إلا بواسطة الأفراد  
وهم الذين قد تعوزهم العدالة كالمسئ الأصلي . إن الطرف الذي وقع عليه  
الظلم يتأكد من نبله العدالة إذا أمكنه أن يصرح بمطلبه « لوليس »  
بأكمله والكلمة هنا على ذلك تعني « الناس » وهو ما يميزها تمييزاً فعبارة  
عن « الدولة » .

وكذلك سترينا بوكاستا Orestes المنسكة المحرونة في مسرحية « أوديب  
Oedipus » شيئاً آخر من مدى ما تعنيه هذه الكلمة . لقد تسائل الناس عما إذا  
كان زوجها أوديب هو الرجل الملعون الذي قتل الملك السابق لا بوس  
فصاحت بوكاستا « لا . لا . لا » هذا غير ممكن فقد قال العبدان « بصراحة »  
هم الذين هاجموهم لا لصاً واحداً وهو لا يمكن أن يترافع في كلمته الآن  
وقد سمعته « لوليس » لا أن وحدي فالكلمة مسعملة هادون أن تفتقر  
بالسياسة بآه هي « إن جار لنا أن نقول ذلك » بعده عن محيط العمل  
الرسمي ومعناها « جميع الناس » وهذا المعنى ليس « رر الاستعجال عن  
الدوم وإن تكن موحوداً

ثم أن ديموسثينيس Demosthenes الخصب تحدث عن رجل ، يتجسب المدسة ، إذا لحماً إلى الترجمة الحرفية التي قد تؤدي بغير الخرص إلى انطى بأنه كان يعيش فيما يشبه إقليم البحيرات أو ، برلى ، وذكر عبارة ويتجسب البوليس ، لا تقصد الكلام عن محل سكناه ، هي تعنى أنه م يكن يشترك فى الحياة العامة ولهذا كان يتصف برع من الشذوذ لأنه لم تكن تهمه شذون المجتمع .

قد عرفنا الآن ما يكفى عن كلمة ، بوليس ، لكي نتحقق من عدم إمكان ترجمة مثل الجملة العادية الآتية :

« إن واجب كل إنسان أن يعاون ، البوليس ، . إذ لا يمكننا أن نقول ، أن يعاون الدولة . فإن ذلك لا يبعث فىنا الحفاة لأن الدولة لاد المجتمع . هي التي تأخذ ما نصف دخلاً ، والمجتمع عندما من السكر والتنوع بحيث لا يمكننا الإحاطة به إلا نظرياً . إن كلمات « قريى ، و « نقابى ، و « طبقى ، هي ذوات موجودة لها معنى ندرکه فى الحل ، أما عبارة « يشغل من أجز المجتمع ، مع أنها إحساس جدير بالإعجاب إلا أنه بالنسبة لأكثرنا غامض ضعيف . فما الذى كانت تعرفه أكثر أجزاء ريطانيا العظمى عن ، المناطق المنكوبة ، فى سنوات ما قبل الحرب ؟ وإلى أى مدى بهم أصحاب السوك وعمل المناجم والمزارع بعضهم بعضاً ؟ أما كل إغريق فقد كان يعرف « البوليس ، فإنها كانت قائمة بأكلنا أمام عينه فصار يستطيع أن يرى الحقوق التي تمتد ، بالعذاء أو لا تمتدها به إن أصاب المحاصى التلف ، كما يستطيع أن يرى كيف تداخبت الزراعة والتجارة والصناعة بعضها فى بعض . وكان يعرف الحدود التي كانت فيها قوة أو ضعفه . وإن كان بعض المنذمرين يدرون أقلآ فقد كان من الصعب عليهم مداراة هذه حقيقة . كان أسهل حتى الإغريق إذن ، أن يدركوا « البوليس ، كلها وانعلاقه بين أحرارها وطراً لصغر نطاق الأشياء عديم ، ولهذا عبارة « إن واجب كل إنسان أن يعاون

الوليس . لم تكن تعبيراً عن شعور رقيق بل عن أسط وألم أنواع الإدراك السليم (١) فقد كان للشئون العامة وجود ملموس — ومساس بالأفراد أكثر مما يمكن أن يكون لها عندنا

وإليك مثالا على هذه القطعة يعسا على الفهم . كانت الديمقراطية الآتينية تفرض الضرائب على الأغنياء بمثل الغيرة الزهية التي تفرضها بها الديمقراطية البريطانية ، إلا أنها كانت تفعل ذلك بطريقة اللطف ، مجرد أن الدولة كانت صغيرة جداً ولأن معرفة المواطنين بعضهم لبعض كانت وثيقة جداً . فالمفروض أن دافع الضريبة الإضافية عندنا يدفع مثل دافع ضريبة الدخل . ولكنه يكتب التشيك الخاص به معتقداً أنه يذهب إلى « بالوعة المجارى » . أما في أئينا نحن كانت ثروته تزيد عن مبلغ معين كان عليه أن يؤدي « واجبات عامة ، معينة أو عبارة أخرى يؤدي أعمالاً للشعب ، فكان عليه مثلاً أن يقوم بتهيز سفينة حربية لمدة سنة ( وله الحق في قيادتها إن شاء ) أو أن يمول إنتاج مسرحيات تعرض في المهرجان أو أن يجهز موكباً دينياً بما يلزمه . وقد كان هذا عبثاً ثقيلاً لا يرحب به أحد دون شك وإن كان من الممكن أن يجد فيه بعض النسائية على الأقل أو بعض الفخر ، فقد كان المرء يحظى بالسرور والشرف إن أخرج « ثلاثية » من المسرحيات لإخراجاً جديراً بالإعجاب أمام إخوانه المواطنين . وهكذا نجد في حالات أخرى لا تحصى ان حجم « الوليس » قد جعل ما نعتبره نحن معاني مجردة ليس إلا أو واجبات متعبة أشباه ملموسة حية . وقد كان هذا بطبيعة الحال سلاحاً ذا حدين . إذ أن القائد عبر المكفء أو السىء الخط مثلاً كان هدفاً لا لغضب لا يضر لأنه مورع على الشعب بل كان هدفاً للاتهام المباشر فلربما حاكمه وطلب إعدامه مجلس كان هو قد ساق كثيراً من أعضائه السابقين للموت

(١) ولم تكن تلك على ذلك طبعاً بل الإمبريق كانوا يترجمون حاد « الإدراك » حاداً أكثر ما .

وحصة بريكليس انما يئيبه التي دوسها أو أعاد إيشاءها نو كوديريس تو صح  
مساس الشؤون العامة بحياة الأفراد وتصف شيئاً إلى فكر تما عن «الوليس» .  
فتركوديريس يحزننا أنه كان يدعات بعض المواطنين في الحرب وهو أمر  
كثيراً ما كان يحدث . فقد كان على رجل تختاره «البوليس» أن يلقي  
خطاباً لتأييده . والذي يقوم بتعبين مثل هذا الرجل في أيامنا هذه هو رئيس  
الوزراء أو المجمع الأدبي البريطاني أو الإذاعة البريطانية . ولكن جرت  
العادة في أئينا أن يختار المجلس رجلاً قد اعتاد أن يخطب كثيراً فيه . وفي  
هذه المناسبة خاصة يخطب بريكليس من فوق منصة عالية لكي يصل صوته  
إلى أكبر عدد ممكن ، فلتسمع في عبارتين استخدمهما بريكليس في هذه  
الخطبة .

إنه يقارن «الوليس» الأثيني بالإسبرطى وبشير باهتمام إلى أن  
الإسبرطيين لا يسمحون بدخول الزوار الغرباء عندهم إلا وهم كارهون ،  
«بينما نحن نجعل «بوايسا» للجميع . «فالبوليس» هنا ليست هي الوحدة  
السياسية ، وليس الأمر أمر إعطاء الأجانب جندية البلاد وهو ما كان يفعله  
الإغريق نادراً لمجرد أن البوليس كانت اتحاداً وبقى الترابط . فالذي يقصده  
هنا بريكليس هو أننا نفتح الباب على مصراعيه لبتاني الجميع ثقافتنا العامة .  
كما يتضح ذلك من الكلمات التالية وإن تكن صعبة الترجمة « كما أننا  
لا نحرمهم من أي تعميم أو أية حيلة عامة » وهي كلمات لا يكاد يكون لها  
معنى حتى نثير أن الدراما سواء منها المأساة والمهابة أو إنشاد الفرق للأناشيد  
الدينية أو القراءات العامة من هو مر أو الألعاب كانت كلها ضرورية للحياة  
السياسية كما كانت تعتبر أجزاء عادية من هذه الحياة . هذا ما كان يحول  
مذهن بريكليس وهو يتحدث عن التعليم والحفلات وفتح الوليس على  
مصراعيها للجميع .



غير أن علينا أن نتابع البحث أكثر من ذلك . إن قراءة الخطة تدل على أن ريبكليس في مدحه للبوليس الآتية إنما يمدح ما هو أكثر من الدولة والأمة والشعب . إنه يمدح أسلوباً من أساليب الحياة ، وهو لا يقصد أقل من ذلك عندما يسمى أثينا بعد الذي ذكرناه بـ « بوليس » و « مدرسة اليونان » . وما وجه الغرابة في ذلك ؟ ألسنا نمدح أسلوب الحياة الإنجليزية ؟ حقاً إن فكرة كون الدولة عليها أن تحاول جديداً تحسين أسلوب الحياة تبعث في أكثرنا الرعب . لقد كان الإغريق يهكرون في البوليس على أنها فعال خلاق يدرّب عقول المواطنين وخصالهم أما نحن فمكبر فيها على أنها جهاز يعطي الأمن والراحة . إن تدريب الناس على الفضيلة الذي تركته الدولة في العصور الوسطى بين يدي الكنيسة والذي جعلته « البوليس » شغلها الشاغل تركته الدولة الحديثة لمن لا يعلمه إلا الله .

« بالبوليس » إذن التي كان معها « القلعة » في الأصل قد يبلغ بها الأمر أن تعني حياة مجتمع من الناس بأكمله بما في ذلك حياته السياسية والثقافية والحلقية بين والاقتصادية كذلك . وإلا فكيف نفهم غير ذلك من جملة أخرى وردت في نفس الخطة وهي « إن حاصلات العالم كله تأتينا نظراً لاتساع بوليسنا » فلا بد أن معنى الكلمة « ثروتنا القومية » .

وقد كان الدين أيضاً مرتبطاً بالبوليس وإن لم يكن ذلك يعني كل شكل من أشكال الدين (١) فقد كان الإغريق يعبدون آلهة أوليمبوس بالفعل في كل مكان . فإن لم يكن لكل « بوليس » آلهتها الخاصة فقد كان لها على الأقل نظمها الخاصة بعبادة هذه الآلهة وعلى ذلك فقد كانت أثينا ربة « البيت الحاسي » تعد في أسرطة عبر أن أثينا لم تكن قط بالدسة للأسرطيين ما كانت عند الآثينيين وهي « أثينا بوليس » أي أثينا حامية المدينة .

وهكذا كانت هيرا في أيديارته يحدها النساء على الخصوص باعتبارها ربة المدافاة والبيت ، أما في أرجوس فقد كانت هيرا الإغريقية أسمى معبودات الشعب .

ونحن نجد بين هذه الآلهة معبودات قبلية مثل جيهوفا موجودة في مستويين في وقت واحد إن جاز لنا أن نقول ذلك ، أى بصفتها آلهة لكل « بوليس » على حده وباعتبارها آلهة الجنس الإغريق بأكمله . ولكن إلى جانب هذه الآلهة الأولمبية كان لكل « بوليس » معبوداتها المحلية الصغيرة كالأبطال وعرائس البحر والجبال . وكان كل منها يمد طبقاً لطقوسه العريقة في القدم والتي ما يكاد يتصور أحد وجودها خارج المكان المعين الذي كانت تمارس فيه الطقوس . ولذلك فرغم نظام الآلهة الأولمبية الذي ينتظم بلاد الإغريق جميعاً وبالرغم من الروح الفلسفية التي جعلت الآلهة القبلية المجردة مستحيلة بالنسبة للإغريق فإن قولنا إن « البوليس » وحدة دينية وسياسية مستقلة يمكن أن يكون صحيحاً بوجه من الوجوه . لقد كان في إمكان شعراء المتأسي على الأقل أن يفيدوا من الاعتقاد القديم بأن الآلهة تهجر المدينة التي تكون على وشك السقوط في يد العدو فقد كان الآلهة شركاء في رفاهة المدينة ولكن لا تدركهم الأبصار .

ويمكننا أن نرى بأجلى مظهر كيف كان التفكير الديني والتفكير السياسي مرتبطين أو ثاق الارتباط في « الأوريستيا Orestia » ، التي كتبها أيسخولوس فقد كانت هذه تدور حول فكرة العدالة ، فهي تستغل من الموصى إلى النظام ومن البراع إلى الصلح ، وهي تتحرك في مستويين في نفس الوقت أحدهما إنساني والآخر إلهي وفي مسرحية أجامموني نرى أحد قوانين العالم الأخلاقية وهو أن الجريمة لا بد أن تستنفع العقاب ، ينحقق بأعظم الطرق البدائية الممكنة فالجريمة تستدعي جريمة أخرى تأثر لها وهكذا دواليك

في سلسلة ليس لها سايه في اظاهر ولكنها تخطي دائماً نأيدي زيوس وتصل هذه السلسلة من الجرائم إلى دروتها في « حوروروى Choephora » عندما ينتقم أوريسستيس Oresies لآيه بقتل أمه ، وهو يفعل ذلك على كرهه منه لأن ابوللون بن زيوس الذي ينكلم أوريسستيس بلسانه يأمره بذلك . لماذا ؟ لأن كليتمسترا بقتلها الملك وهو زوجها في نفس الوقت قد ارتكبت جريمة إن لم تعاف عليها فإنها تحطم كيان المجتمع ذاته . إن الدفاع عن النظام بهم الآلهة الأولمبيين فهم آلهة « البوليس » بصفة خاصة ولكن قتل أوريسستيس لأمه يسى . أبلغ إساءة إلى أعزى الفرائز الإنسانية ولذلك تطارده معبودات أخرى دون هوادة عن ربات الانتقام . وليس لربات الانتقام اهتمام بالنظام الاجتماعى ولكنهن لا يستطعن السماح بهذه الإساءة البالغة إلى قدسية رابطة الدم التى تقوم وظيفتهن على حمايتها . وفي مسرحية اليوبىبيديس Eumenides يقوم صراع رهيب بين ربات الانتقام العريقات في القدم والآلهة الأولمبيين الذين يصغرونهن بشأن أوريسستيس العنيس .

والحل هو أن تأتى أثينا بقرار جديد من زيوس من شأنه التخفيف ، وهو أن تقوم هيئة محلفين من المواطنين الاثينيين بمحاكمة أوريسستيس على الأكروبوليس حيث هرب أوريسستيس طلباً للحماية . فكان هذا أول اجتماع لمجلس الأريوباجوس Areopagus المخصص بالمحاكمات . وتساوت أصوات المحلفين بالنسبة للطرفين فبرئت ساحة أوريسستيس من باب الرأفة . أما ربات الانتقام اللاتى حرمن من فريستهن المشروعة عن طريق التحايل فقد هددن بتحريب أثينا . ولكن أثيب أعرضن ألبديتحتد أثينا وطناً لمن دون أن تلغى وظيفتهن القديمة ( كما كن يعتقدن في أول الأمر ) بل رادت إلهامهن فقد تقرر منذ ذلك الوقت أن يعاقبن أعمال العنف داخل نطاق « البوليس » وليس في محيط العائلة فقط .

وهكذا صارت البوليس عند أيسخولوس بعد أن بلغت تمام نموها وسيلة

لتعبيد القانون دون إحداث شيء من العوضى ، إذ تحل العدالة محل الانقسام الخاص وبذلك يتم التوفيق بين مطالب السلطة والعرائر العنصرية ، وتحنم سلسلة المسرحيات الثلاث المتتاليات بمشهد رائع عظيم التأثير . فيه تستبدل ربات الانتماء امهيات اردنيس السوداء بأحرى حمراء إذ لم يعد ربات للانتقام بل ربات للخير Eumenides كما لم يعدن حصيات لزبوس بل صرن أعواناً له طامعات مكرمات مدافعات عن نظامه الاجتماعي الذي بلغ حد الكمال ضد أعمال العنف الحيواني ، وبدأن يخرجن من المسرح القائم عند سفح الأكروبوليس أمام أعين المواطنين الآثينيين المجنمين فيه بقودهن المواطنون القائمون على حفظ النظام إلى يدين الجديد في الجانب الآخر من الأكروبوليس ، وهكذا حلت طائفة من أعدى مسائل الإنسان الخلقية والاجتماعية وكانت وسيلة التصافي هي « البوليس » .

كان على المواطنين أيضاً أن يخرجوا من المسرح في ذلك اليوم من بواكير ربيع سنة ٤٥٨ ق . م . من نفس الأبواب التي خرجت منها ربات الخير ولكن في أية حالة عاطفية ؟ من المؤكد أن مثل هذه التجربة لم تقع لأى جمهور منذ ذلك الحين الذى أدركت فيه « البوليس » الآثينية ذروة مجدها عن ثقة واحكامشان ، لقد كان في هذه الثلاثية نشوة روحية إذ رأى الآثينيون « البوليس » الخاصة بهم تبدو كنموذج للعدالة والنظام أولما كان يسميه الإغريق العالم Cosmos ، فالبوليس التي رأوها كانت أو من الممكن أن تكون ذروة كل شيء . لقد رأوا ربهم يمسها نرأس أول محكمة قضائية ، وهذه فكرة ناعته على السكينة والطمأنينة كما كانت تنصم أكثر من ذلك فالديمقراطية الباهضة قد قبلت منذ وقت قريب من سلطات محكمة الأريو باجوس القديمة كما أن المصلح السياسى قد استأله أعداؤه السياسيون ،

ثم ماذا كان حال ربات الخير بركات اسلاف الرهيمات اللاتي تحولن إلى ذلك بعد أن كن ربات انتقام وصغتهن الأحد شأراً دم الأقات المسحوق ؟ لقد كان هناك إندار كما كانت هناك بشوة فرح في فكرة أن « البوليس » يسكنها الأرباب وأفراد الشعب على السواء ، فكانت بها آئينة من بين الأرباب الأوعيين الذين أشروا على تكوين المجتمع المنظم كما كانت بها المعبودات الأقرب إلى البدائية وهن اللاتي أغرتن آئيننا بقبول هذا الأسلوب من أساليب الحياة المنحصرة واللاتي سرعان ما كن يعاقبن كل من هدد استقرار البلاد بعمل من أعمال العنف الداخلية .

كان مفكير إيسخولوس الديني منشعباً إلى هذا الحد بفكرة « البوليس » ولم يكن هذا حال إيسخولوس وحده بل حال الكثيرين من مفكري الإغريق الآخرين كذلك لا سيما سقراط وأفلاطون وأرسطو . فقد ذكر أرسطو عبارة نرجسها نحن ترجمة تعورها الدقة إلى أقصى حد « بقولنا إن الإنسان حيوان سياسي » أما حقيقة ما قاله أرسطو فهو « إن الإنسان مخلوق يعيش في « بوليس » كما أن « تصدى أرسطو لإنسانيته في كتابه السياسية هو أن « البوليس » هي الإطار الوحيد الذي يستطع الإنسان داخله أن يحقق طاقاته الروحية والخلقية والفكرية على أكمل وجه .

هذا بعض ما تتضمنه هذه الكلمة من معان وسقائل مريداً منها فيما بعد ، إذ أرى تعددت أن أذكر القليل عن معناها السياسي المحض وذلك لأؤكد الحقيقة القائلة إنها أكثر بكثير من أن تكون نوعاً من أنواع التنظيم السياسي . لقد كان « انوليس » مجتمعاً حراً مؤسساً على صلة الرحم الحقيقية أو المفروضة ، بمعنى أنه كان عائلة كبيرة يتحول فيها أكبر قدر ممكن من الحياة إلى حياة عائلية ، ومع ما لعل سارتناه العائلية التي كانت مراتها أشد لأنها كانت مبارعات عائلية .

هذا هو ما يفسر لنا لادبوليس ، حسب بل كذلك الكثير مما صممه الإغريق ، وفكر فيه ويوضح لنا أنه كان اشتراكاً بصفة جوهرية أما في كسب قوته فقد كان فرداً بصفة أساسية وكان في إشباع حياته شبعاً بصفة جوهرية . فالدين واللعن والألعاب وما قسيتها كل شيء كانت كلها ضرورات للحياة لا يمكن قضاؤها إلا عن طريق « البوليس » ، لا عن طريق تطوع جمعيات مكونة من أشخاص ذوي مشارب متشابهة كما هي الحال عندنا أو عن طريق متعبدين ينشدون رضا الأفراد ( وهذا يفسر لنا إلى حد ما الفرق بين الدراما الإغريقية والسبنا الحديثة ) ، ثم إن الإغريق كان يريد أن يقوم بدوره في إدارة شؤون المجتمع . وعندما ندرك مبلغ ما تمتع به الإغريق من ضروب النشاط الشائقة والمثيرة والضرورية للحياة عن طريق « البوليس » وأن هذه الضروب كانت تمارس في الهواء الطلق على مرأى من نفس الأكرهوبوليس كما كانت تحبط بكل فرد في الدولة نفس الحلقة من الجبال ونفس البحر — عند ذلك يصبح في ميسورتنا أن نفهم التاريخ الإغريق وأن نفهم أنه رغم ما كان يقتضيه الإدراك السليم لم يستطع الإغريق أن يحمل نفسه على أن تضحي « بالبوليس » وبما فيها من حياة واضحة جليلة شاملة في سبيل وحدة أوسع وإن تكسر أقل أمتاعاً له . وربما جاز لنا أن ندون محاوره خيالية بين إغريق قديم وعضو حديث في الأثنينيوم (١) .

فالعصر بأسف على ما كان يبدو عند الإغريق من الافتقار إلى الشعور السياسي ، فيسأله الإغريق « كم هالك من الأندية في لندن ؟ » ، فيقول العضو وهو يحرق « نحو خمسمائة » ، فيجيبه الإغريق « لو تصافرت هذه الأندية جميعاً فكم تكون حامة العمارة التي بنوها إهم ليحصلون إذ ذاك على ناد في سعة حديقته هايدبارك ، فيجيبه العضو « ولكن هذا لن يكون نادياً ،

وعندها يقول الإغريق ، صحيح جداً وكذلك لن تكون ، البوليس ، التي  
في اتساع مدبتكم ، بوليساً ، .

وبعد فإن أوروبا الحديثة رغم ثقافتها المشتركة ومصالحها المتبادلة وسهولة  
مواصلاتها تجد من الصعب أن تقبل فكرة الحد من السيادة القومية ولو أن  
ذلك يزيد من طمأنينة الحياة دون أن يزيد بشكل ملحوظ من كآبتها ،  
لقد كان من الجائز أن يكسب الإغريق أكثر بحمل البوليس أقل رواء  
ولكن كم كانت تردد خسارته بذلك . إن الذي جعل أخيليس عظيماً لم  
يكن هو الإدراك السليم بل صفات أخرى .

## بلاد الإغريق الكلاسية . العصر القديم

إن الخريطة الحديثة لبحر المتوسط والمياه المحاورة ملبنة بالأسماء الإغريقية ، فبسابتبول والإسكندرية وبغاري وبطبيعة الحال أبولونيا التي تجاورها والتي لا تعرف صفاتها الصحيح لأن عادة أبولون غير قوية في شارع الصحافة — وسرقوسة ، ونابل وموناكو . كل هذه الأسماء ، ومئات غيرها إغريقية الأصل ولو أن كثيراً منها حرفت إلى حد كبير بعد أن لا كتبها الأسن الأجنبية طوال القرون ، وكثير منها لا يرجع إلى العهد الكلاسي القديم أما الإسكندرية فإنها تخلد ذكرى مؤسسها الإسكندر الأكبر الذي سنختم به هذا العهد . وسابستبول هي اللفظة الإغريقية التي تعني مدينة أوغسطس . فهي إذن مؤسسة منذ زمن الإمبراطورية الرومانية ، وبغاري هي بيرينكا اللفظة الإغريقية المقدونية لبرينكا Phrenke أي « جلابة النصر » وهو اسم إحدى ملكات أسرة البطالمة المقدونية التي حكمت مصر منذ عهد الإسكندر ( ٣٢٠ ق . م ) حتى كلوباترا التي خلعت لب قصر وشكسبر وشو . ومع ذلك فإن عدداً كبيراً جداً من هذه الأسماء يرجع إلى الفترة التي ندرسها الآن أي إلى القرن الثامن والسابع والسادس ق . م . وقد بدأت مرسيليا حياتها باسم ماسيلا وقد أسس الإغريق ماسيلا Massilia حوالي سنة ٦٠٠ . وهذا الساحل يعتبر في الحقيقة منحفاً للأسماء الإغريقية . وقد أحدث موناكو اسمها من معد هرقل مونويكوس Heracles Monokos . أي هرقل الذي يعثر وحده ، وليس كان اسمها بيكابيا أي المصورة وعقب أصلها أتيبوليس أي المدينة المقاتلة . واجدى أصلها أجاثي Agathê أي المكان الطيب كما أن حوب عرب إيطاليا ملو بالأسماء الإغريقية



مثلاً نابي أصبارا بابوليس إلى المدينة الجديدة ويخرجو أصلها ريجيون أي الشرق وسجيت كذلك بالخدمة بوجود المصير

ولم يكن الشعب الأبي هو من يعرف شيئاً تقريباً عن غرب البحر المتوسط أو عن البحر الأسود . فقد كانت المعلومات عن هذه المناطق غامضة ومملوءة بالخرافات وكانت إيثاكا الواقعة بعيداً على الساحل الغربي من بلاد الإغريق تشير إلى حدود معرفته جهة الغرب ولا يبدو أنه كان متأكداً جداً حتى من إيثاكا . ومع ذلك ففي خلال ثلثمائة سنة على الأكثر بعد أن مدناً إغريقية قد استقرت لا حول بحر إيجه فقط بل كذلك في الأجزاء الأكثر اعتدالاً من البحر الأسود بما فيها القرم وعلى طول الساحل الليبي وفي جنوب وعرب إيطاليا وصقلية وعلى الساحل الجنوبي من فرنسا والساحل الشرق من أسبانيا . ولقد أصبحت صقلية والأجزاء المجاورة لها في إيطاليا تعرف بالفعل باسم بلاد الإغريق الكبرى ، ومن هذه لا من بلاد الإغريق الرئيسية استمدت روما أولاً الحضارة الإغريقية .

ولم يكن هذا بأول توسع عظيم لبلاد الإغريق كما لم يكن آخر توسع لها . فقد رأيا كيف زحف الأيونيون ( وغيرهم ) نحو الشرق عبر بحر إيجه عندما جاء الدوريون ، ثم استقر الإغريق بعد ذلك بقرون في كل أملاك الإسكندر الجديدة — كما استقر بالفعل اليونانيون في أمريكا في القرن الماضي بأعداد كبيرة ، لدرجة أن المال الذي كانوا يرسلونه إلى وطنهم كان يكون جزءاً هاماً في الاقتصاد الأهلي . ولقد كان الإغريق عادة شعباً سريع التكاثري سيما طبيعة البلاد تعرض حداً معيناً جداً على عدد السكان ، وهذا صحيح صلا حتى يومنا هذا في بلاد البحر المتوسط .

وما يلعبنا عن أسباب حركة الاستعمار الكبرى التي بدأت حوالي سنة ٧٥٠ واستمرت نحو مائتي سنة وعن خط سيرها صئيل للغاية ويبدو مؤكداً أن ازدياد عدد السكان هو سببه الرئيسي إلى حد معقول ، ولو أن عوامل

أخرى مثل الاضطراب السياسى والكوارث الآتية من الخارج لعبت دورها دور ريب . مثلاً عندما غزا قورش الأكبر أ. ر. س. في سنة ٥٤٥ قبل مسكان مدينى تبوس وفوكابا Phocaea الهجرة الجماعية على أن يعيشوا خاضعين لهارس . فاستقر سكان الجزيرة الأولى على ساحل ترافيا وأسسوا أهديرا ولكن سكان الجزيرة الثانية واصلوا السير وصمموا على الذهاب إلى كورسيكا فأغرقوا كتلة كبيرة من الحديد فى مينائهم ( طبقاً للقصة الجبلية التى ذكرها هيرودوتوس ) وأقسموا ألا يعودوا حتى يطفئ الحديد ، غير أن كثيرين منهم بعد أن بدأوا رحلتهم بوقت لبس بالطويل غلبهم الخنين إلى بلدهم فعادوا إليها ، أما باقىهم فقد استمروا حتى انقسموا إلى مستعمرتهم التى كانت موجودة فى الاليا Aelia فى كورسيكا ( وهى التى صارت اليربا Aleria فيما بعد ولا تزال موجودة كقرية صغيرة بهذا الاسم ) .

ويبدو أن هناك شيئاً واحداً مؤكداً جداً عن المستعمرات الأولى على الأقل ، فإنها لم تنشأ لأسباب تجارية ، ففى لم تكن « مراكز تجارية » ، فكل ما نعرفه عنها يوحى بأن « الأرض » هى وحدها التى كان يبحث عنها المستعمرون ، لأن الفلاح الإغريق الذى يشتغل فى رقعة صغيرة جداً من الأرض كان يحيا حياة مزعزعة إذ أن توالى تقسيم قطعة الأرض المملوكة للعائلة سرعان ما كان يصل إلى النقطة التى تصبح فيها الزراعة المجدية مستحيلة ، وسرى وشيكا عندما نتكلم عن أنباء أن هناك عادة مخالفة لأحكام الضمير وهى أن الممتلكات الكبيرة من الأرض تمتلح الممتلكات الصغيرة . والدعوة إلى إعادة توزيع الأرض كثيراً ما كانت تسمع فى بلاد الإغريق . وقد كان الاستعمار صمام الأمان . وقد كان العلاج الذى أصيب بالعقر مستعداً لتقسيم قطعة الأرض المتضائلة الموهونه التى كان يمتلكها فى وطنه فى مقابل نصيب من الأرض الحالية فيما وراء البحار — وهكذا يمكنه أن يبدأ الكفاح من جديد فيما أن تمنح بالرخاء هو ودريته فصيحون ملاك الأرض السلاء فى

« الواسع ، الجديدة أو مشلون ويصحبون على استعداد مرة أخرى للاستثمار أو للثروة .

ومع أن هدف الاستثمار الأول كان هو الأرض لا التجارة إلا أنه شجع التجارة والصناعة كليهما لدرجة أن بعض المستعمرات أنشئت فيما بعد رغبة في التجارة دون الزراعة ، وكانت البلاد الجديدة تنجح أحياناً محاصيل تختلف عن محاصيل أرض بلادهم ، كما وطدت المستعمرات صلة الإغريق بالبرابرة الذين كانت عندهم أشياء شائعة للبيع . . وأصبح من الممكن الاستفادة من بعض طرق التجارة القديمة كطريق العنبر الآتي من البطريق وذلك بالاقتراب من حيث تبدأ ، وهكذا أصبح تبادل السلع أنشط ، وجلبت الاتصالات الجديدة أفكاراً جديدة ووسائل فنية جديدة ، فارتفع لواء الحضارة المادية تدريجياً بطريقة ليس فيها ظهور ملحوظ ، فكانت كورنثا مثلاً وهي مدينة ذات موقع ملائم جداً للتجارة تشتغل ببناء السفن وصنع الأدوات البرونزية وترقية الأسلوب الطبيعي في حلاء الآنية الفخارية بشكل لم تكن رأته بلاد الإغريق خلال عدة قرون ، على حين أن القرى الأركادية التي لم تكن تبعد عنها ثلاثين ميلاً ظلت غير متأثرة بتأناً بهذه الأشياء الجديدة . أما المدن الأخرى التي شاركت في نمو التجارة والصناعة هذافى إيجينا وخالكيس Chios في يوبويا Euboea وميليتوس M elus في إيونيا . وقد اشتركت خالكيس في أول حرب إغريقية في العصور التاريخية وهي حرب مع جارتها أرتريا لامتلاك سهل لبلاتين المجاور ، وقد تدخلت دول أخرى كثيرة مع كل من الجانبين مع أنه لم يكن لها مصلحة ظاهرة في رقعة الأرض المتنازع عليها ومن المحتمل أن المنافسات التجارية كانت تلعب دورها كذلك .

والكم طرفاً من الجانب السياسى للاستثمار ، فكلمة مستعمرة مصلة ولكن كالعادة هي أحسن ما يمكن استعماله . أن المعنى الحرفى لكلمة

أبوينكا Apoinka الإغريقية هو وطن بعيد ، فالأبوينكا لم تكن نعى مطلقاً  
 أى امداد للمدينة الأصلية أى تنعية لها واعتماد عليها فقد كانت منشأة  
 جديدة مستقلة إن المدينة الأصلية كانت تطعم فوج المهاجرين وفى كثير  
 من الأحيان كان يدعى أعضاء من المدن الأخرى للاشتراك فيه ، إذ كانت  
 المدينة الأصلية تختار من بين أفرادها قائداً رسمياً كان عليه أن يشرف على  
 توزيع الأراضي الجديدة على المستعمرين ، وكان يحمل اسمه تكريماً له بصفته  
 « المؤسس » . وقد جرت عادة أن تستشار عرافة دلفوى Delphi قبل محاولة  
 إنشاء أية مستعمرة جديدة ، ولم يكن هذا مجرد تأمين دينى ضد الأخطار المجهولة  
 فإن دلفى كانت قد بدت مركز الصدارة بين الأماكن الإغريقية المقدسة .  
 ولما كان المستفرون يستشيرون العرافة باستمرار من كل جزء من العالم  
 الإغريق ومن البرابرة أحياناً بالفعل فقد اكتسب كهنة دلفوى مقداراً  
 كبيراً من المعلومات عن مختلف الأمور (فضلاً عن القوذف السياسى الهائل)  
 فقد كان الإغريق ينهونه إلى دلفوى ليرجوا أن يبال البركة وحدها من الكهنة  
 إن جاز لنا أن نقول ذلك بل كان يطلب النصيحة المعتمدة على الخبرة من  
 مكتب البحوث الاستعمارية .

وعندما كانت تنشأ المستعمرة كانت العلاقات التى تربطها بالمدينة  
 الأصلية دينية وعاطفية محضة ، وكانت البار التى تشتمل فى مدقاتها العامة توجد  
 من نار مجلوبة من المدينة الأصلية وكان المواطنون القادمون من المدينة  
 يتمتعون عادة بعض الامتيازات بمعاملة لهم متى زاروا المستعمرة . فإذا تمحضت  
 المستعمرة عن مستعمرة أخرى كان يراعى أن يطلب من المدينة الأصلية  
 أن تعين مؤسساً للمستعمرة الجديدة . ولم يكن يوحى بهما أى ارتباط  
 سياسى بالمرة كما كان يمكن اعتبار الحرب التى تقع بين مدينة وإحدى  
 مستعمراتها ( كالحرب التى نشبت بين كورنثا وكورنثا Corcora وهى التى  
 ورد ذكرها فى الجزء الأول من كتاب ثوكوديدس ) غير طريفة وغير لائقة وإن

لم تعتبر نورة واحصالا ، ولهذا فإن تدفق الإغريق من بلاد الإغريق الأصلية ومن أوييا ، مع أنه حل معه القود الإغريقى لكل جـ ، من البحر المتوسط إلا حيث كانت قم طاحه أو الاتروسكيون يقصون عثرة في الطريق ، لم يؤد إلى إنشاء إمبراطورية أو دولة إغريقية ، غير أنه كان يعنى فقط أن عدد البوليس ، الإغريقية قد زاد زيادة هائلة وأن مواطني المدن الأصلية ومنازعاتها قد أخذت تتكرر في غيرها أيضاً .

وربما تسأل القارىء ، ودمثة واسنياء عما إذا كنا سطلب إليه أن يتبع تاريخ يضع مئات من الدول المستقيمة في وقت واحد ، وجوابنا على ذلك لا ، أولاً لأن التاريخ السباسى يجب أن يوضع في مكانه عند الكتابة عن شعب ما ، فهو قد يكون مجرد هيكل أو أسلوب من أساليب التعبير عن أخلاق الشعب ، وهو سواء كان خيراً أو شراً أحد مآثر الشعب وأن لم يمتنع على قصته الكاملة ، وثانياً لأننا لانعرف شيئاً مطلقاً عن أكثر هذه الدول كما أننا في هذه الأيام نسجل الحقائق خدمة للتاريخ بحماسة فيها من مراعاة الضمير ما يجعل كتابة التاريخ مستحيلة . وبلاد الإغريق تضع مؤرخها على العكس في مركز غير ملائم . إن فكرة تدوين الحوادث المعاصرة للإنسان فيما عدا قوائم أسماء القضاة والكهنة لم تكن تخاطر بالبان قبل القرن الخامس ، وعندما ظهرت فعلاً نجد أننا قد حصلنا لا على مجرد سجل للحوادث بل على تفسير لها كذلك في نفس الوقت . ولكن حتى بجلالاتنا عن القرن الخامس نادرة جداً . أما بالنسبة للفترة التي سقت فيبدو من المعقول لنا حدأ أن نسطر بطريقة عامة جداً في ثلاثة اتجاهات الواحد منها بعد الآخر . فلننظر أولاً إلى أوييا ثم إلى أسرطه ثم إلى آثيا ، أما في العترب المتأخرة فسوف نركز اهتمامنا على آثيا ، أكثر من غيرها .

## أيونيا

ظل الناس مدة طويلة يعتقدون أن الحصار الإغريفة بدأت صيق من العهد المظلم بين الإغريق الأيونيين أولاً وأن الأيونيين هم الذين بدأوا بتادون البحار ويؤسسون المستعمرات ويرقون الفنون ويعيشون تلك الحياة الكاملة الحرة التي أصبحت من خصائص الإغريق . هي أيونيا استمرت الثقافة المسيوية القديمة باقية تنسكاً ، وفي أيونيا كان الانهيار المباشر بحضارات الشرق العريق ، أما الآن فقد أصبح هذا الرأي عرضة للتحدي الشديد ( ولا سيما من جانب د . م . كوك — صحيفة الدراسات الهيبلية ١٩٤٦ ) . ومن المسلم به أن الأدلة قليلة وليست مؤكدة غير أنه يبدو من الواضح بدرجة معقولة أن بلاد الإغريق الأوربية هي التي تزعمت الاستعمار وأن أول تأثير للشرق كان على الأجزاء الرهبسية من بلاد الإغريق على الأقل كما كان على الأيونيين ، فهو مر وهو أول شاعر عظيم كان أيونيا غير أن أول هضة لطلاء الأصغر كانت في أنيكا .

وبالرغم من ذلك فإن ما نعرفه عن أيونيا في هذه الفترة القديمة يوحى لعقولنا بأنها كانت أكثر « عصرية » مما نعرف عن ثقافة أجزاء البلاد الرئيسية . ولا جدال في أن الحركة الفكرية العظيمة التي سنفاقشها فيما بعد بدأت في أيونيا . وربما يرجع هذا الشعور « بالعصرية » فعلاً إلى تأثير كل من الخلق والطبع الأيوني أكثر مما يرجع إلى أن الحضارة كانت أكثر تقدماً بها . ذلك لأن الأيوني كان أسهل إلى العودية من الإغريق الأوربي

وعد أورد هيرودوتوس قصة لطيفة عن الأيونيين ليس من الضروري أن تكون صحيحة إذ أن هيرودوتوس لما كان كاريياً من هليكار « سوس أي حاراً للأيونيين ، لهذا كانت عواطفه ضدهم تعافاً للقانون العام لتجبر أن وعلى الرغم من ذلك من الواضح أنه كان يتوقع أن تحظى هذه القصة بالصدق

بين الأعرج والآخريين ذلك أن قورش C، العظيم ملك الفرس عرا  
الأيونيين، حوالي سنة ٥٥٠ ولكنهم ناروا علمه بعد سنة ٥٠٠ تقابل فتحهم  
أسطول أيوني عند جزيرة ليد Lade أصغيره . وألقى قائد الفصيلة الذي كان  
من فوكيا ( عني حد فون هيرودوتوس ) خطبة لا تعوزه الثقة قال فيها  
« أيها السادة لقد تأزمت الأمور فإما أن نصبح أحراراً أو نكون عبيداً  
بل ونكون عبيداً أبقيين حينذاك ، والآن إذا كنتم تريدون أن تتحملوا  
الشدائد مؤقتاً فإنه يمكنكم أن تهزموا العدو وتنالوا حريتكم ولكن إذا  
أصرتم على الكسل وعدم النظام فربى أخاف أن تدفعوا ثمناً غالباً لثورتكم  
فاستمعوا إلى واثموني على أنفسكم لأنى أتعهد لكم بالفوز ما لم تقف الآلهة  
معهم . فبدأ سمع الأيونيون ذلك وصعوا أنفسهم تحت رعاية ديونسيوس  
كما يقو هيرودوتوس فأبحر بالسفن سهاراً وأخذ يدرب رجاله بماذيف  
على المناورات وحتم على الجنود من البحارة أن يرتدوا دروعهم الثقيلة مع  
أن شمس بلاد الإغريق لالهة ، فتحمل الأيونيون ذلك سبعة أيام رغم أنهم  
لم يكونوا قد اعتادوا ذلك ثم قال بعضهم لبعض : « إلى أى إله أسأنا حتى وقع  
علينا هذا العقاب . هل أصابنا بلوثة في عقولنا حتى سلينا أنفسنا لمخزور  
أحق من فوكيا ، التي لم تستطع أن تساهم في الحرب إلا بثلاث سفن ؟  
وها هوذا بأخذنا وبرهقنا بما لا طاقة لنا به ، إن نصفنا مرضى بالفعل وينتظر  
أن يصاب الساقون منا بالمرض عن قريب ، وليس هناك من عبودية أسوأ  
من ذلك فانكشف عن تحمل كل ذلك ، وقد كفوا عن تحمل ذلك بالفعل  
كما قال هيرودوتوس . وبدلاً من احتمال المشقة فوق ظهر السفن كانوا  
يقصون الأيام في حياهم على الشاطئ . بطريقة أدعى إلى السرور مما أدى  
إلى النتيجة المحترمة .

لها قصة تنم عن قصد سي . ولكن المالمعه التي تنم عن قصد سي . لابد  
لها من أصل يرتكز عليه ، فالأثر الذي تركه الأيونيون في غيرهم من الإغريق

هو أنهم يعوزهم الجذ واسطام ، ولقد وقفوا في الحقيقة موقف الشجاعة من فارس ومع أن مدتهم المتوقعة لم تحفظ على ترابطها الساسى الذى كان من المحكر أن يعدها إلا أنه لم يكن يلحق بكثير من الإعريق أن يحلوا من ذلك موضوع تفريحهم . وتعطبا هذه السبلة المقدسة من الشيد الهوميروى لأبوللون فكرة أبوية عن أيونيا .

غير أنك يا أبوللون تجد أعظم متعة لك في جزيرة ديلوس Delos المقدسة التى يجتمع فيها الأيونيون وأولادهم وروجاتهم وهم يحرون ثيابهم وراهم ، وإن اشتغالهم بالملاكمة والرقص والفناء حين يأتى يوم المهرجان ليبحث في نفسك السرور .

د ولو أن إنساناً أقبل على الأيونيين وهم مجتمعون لقال إنهم لا تدركهم الشجوخة ولا الموت . لأنه يرى لديهم جميعاً قسماً كبيراً من الرقة والرشاقة ، وإنه ليسره منظر الرجال والنساء في ثيابهم الجميلة كما ينتج بمشاهدة سفنهم السريعة وممتلكاتهم العظيمة .

إن الرقة والسحر هما سمتا الفن الأيونى كما أن القوة والجمال هما سمتا الفن الدورى . ويكفى أن يقارن الإنسان من العمارة الأيونى بالدورى لى يقدر ذلك . والاختلاف واضح جداً بين الخفة العامة التى فى الطراز الأيونى والزخارف الحلزونية الساحرة التى لرؤس الأعمدة الأيونية ، وبينما كان يحاول الدورىون والأيونيون على السواء أن يعبروا فى من النحت عن الرصاصى المثالى كان يجد الأيونيون أيضاً فى المسائل التى تنشأ من حفر الصور المكسوة بالثياب ، كما حاولوا سحاح بالغ أن يصوروا على الحجر محلف أسحة الجسم أو الصوف أو الكتان . فمن يجد فى الفن الأيونى طابع الحسية البالغة الذى لا يظهر فى الفن الدورى وكانت احتفالاتهم أيضاً أقل حشوية من احتفالات غيرهم . فكانت تترد فيها الموسيقى والشعر



كما كانت أيونيا تترك في العصر نوحه عام انطباعاً سهياً جداً فيه حيوية بالغة وهو نوحى ، مجرد إلهاء ، بوجود نوحه شرقه فيه أو جونة على الآخر ، وليس مما يدعو إلى العجب أن يجد أفلاطون في القرن الرابع رفض الأساليب الأيونية في الموسيقى والإيقاع باعتبارها شهوانية تسبب على الخور . ولكن يجب أن نذكر أن أفلاطون رفض كثيراً من الأشياء الحسنة .

لقد كان القرن السادس هو العصر الذهبي للشعر الغنائى . فلقد انبعث الشعر الغنائى العاطفى من أيونيا دون سواها تقريباً إن جاز لنا أن نستخدم الاسم هذه المرة بمعنى حفرافى واسع كى يشمل شعراء ليسبوس Lespos الأيوليين وهم الذين تعتبر سافو Sappho أكبر نثر لهم . وليس لدينا من هذا الشعر الغنائى كله إلا النزر اليسير . ولدينا قدر كاف من شعر سافو ( ذكر بعضه كتاب جاءوا بعد زمنها كما أن بعضه اكتشف حديثاً فى رمال مصر ) يجعلنا نرى بأنفسنا كم كانت شعرة عاطفية تجعل الإنسان يحبس أنفاسه من الروعة . وإن لم يكن لدينا من شعر أرخيلوخوس Archilochus ( الأيونى ) ما يكفى لتدرك منه السبب فى أن الأقدمين وضعوه بعد هومر فى المرتبة .

قد أحبينك مرة فيما مضى من الزمان يا أثنس Athens

لقد بقى لنا هذا البيت الجميل بلمحة سافو الأيونية لأن هفابستيون الذى كان مهتماً بأوران الشعر وكان غيباً شديد الغناء قد ذكره فى القرن الثانى قبل الميلادى .

وقد اقتبس ملوتارح الأبيات الآتية من الشعر المقدم فى مقال أحلاقى قاتلاً إن سافو كتبتها ضد سدة عية معروفه .

وحين تموتين ستر قدس فى قبرك منسدة إلى الأبد .

لأنك تحتقرين أرهاق ربة الشعر الغنائى .  
 وسحرى طفلك مع غيره فى ظلام هاديس .  
 كما يجرى ها معموراً لا يشير اهتمام أحد  
 ويدو أن مثل هذه الآيات كانت هى العبارات السابقة واللاحقة  
 لنبذة مألوفة بالأدباء ( مذكورة فى تعليق على بندار ) وهى :  
 لقد خبت وبردت روح هؤلاء النسوة وغارت أجنحتهن .  
 وأشهر مقطوعة من شعر سافو الغنائى هى قصيدة الحب العاطفى الجياش  
 التى وفق كل التوفيق فى نقلها إلى اللاتينية كاتولوس Catulus وهو الشاعر  
 اللاتينى الوحيد الذى كان فى إمكانه ذلك . ولكن لبس الحب والكره هما  
 كل ما طرّفه من مواضع الشعر كما ترى فيما يلى :

إن النجوم التى حول القمر أحبل  
 تستر جمالها المضى مرة ثانية  
 عندما يكتمل القمر بدرأ وبرسل نوره الوهاج  
 إلى الأرض كلها من تحته

ولا يكتب اشعراء الأيونيون الحقيقيون ، على قدر معرفتنا بهم ،  
 بمثل انعطافة الجياشة التى تكتب بها سافو الأيولية ، ولكنهم يشبهونها كما  
 أنهم لا يشبهون معاصريهم فى أسبرطه وأثينا الذين كانوا يكتبون فى مواضع  
 تمهم كأفراد ، ومن النادر أن يكون شعرهم سياسياً مثل شعر تراتيوس  
 Tyrtæus وسولون Solon . وقد اشتهر أرخيلوخوس بهجائه الشخصى اللاذع  
 أما أنا كريبون Anacreon فقد غنى بالحب والخرغام مرحاً كما تغنى عام  
 حريماً عن إقبال الشيوخ . ولقد بقى من الشاعر الأيونى پوترمس  
 Pythæmus بيت واحد فقط هو .

لبس هناك شىء آخر له أهمية غير المال

وهو شديد جدًّا بيت بيلوك Being . —  
 لكن الماء يمحى السرور دائماً  
 وهالك بيت نموذجي آخر هو .  
 إني لأبغض المرأة الغليظة العقبين .

وكلنا نعرف قصة المرأة الأسبرطية التي قالت لإبنها وهو ذاهب للقتال  
 « عد مع درعك أو عليه » ، لأن إلقاء الدرع كان فيه أعظم العار . ولكي  
 أرحلوا خوس أمكنه أن يكتب ما يأتي بابتهاج واصعاً بذلك أساس أسلوب  
 أدنى ابنه هوراس بعد ذلك بأكثر من خمسمائة عام .

إن رجلاً سعيد الخط من تراقيا قد أخذ درعي العظيم .  
 فقد اضطرت إلى الفرار وألقته في غابة .  
 ولكي نجوت والحمد لله .

أما الدرع ففلسوف أحسن على آخر عظيم مثله .  
 إن هناك شيئاً جذاباً جداً عن الحياة الأيونية .

### أسبرطه

لو أن أحد العلماء وجد هذا البيت من الشعر :

إني لأبغض المرأة الغليظة العقبين — في شئرة تشير إني أنها لشاعر  
 دوري :

لأفترض في الحال أن هناك خطأ ما ، ولقد كان للأسبرطي ولا ريب  
 أراؤه عن عقي المرأة ولكر ما هكذا كان يكتب شعراء الملويير فقد كان  
 الدوريون أكثر رصانة كما أنهم كانوا أقل ميلا للفردية فيما كان الشعراء  
 الأيوبيون والأبوليون يكثر ون من الكتمان عن حشيم وكرهم الشخصي  
 كان نرتيوس في أسبرطه مهتماً بحث مواطيه ، على السمو إلى أعلى درى

الطولة ضد أعدائهم في مسيبيا Messen ، كما أن الكال Acan كان يؤلف مدائح رصبيه وسكتها حبيسة . كانت تؤديها فرق لغتيات الاسبرطيات في احتفالاتهم . ويبدو أن العلاسفة الأيونيون يكشفون طرقاً جديدة مثيرة من طريق التفكير مسرشدس فقط ، فقدرهم الفردي على استخدام العقل حل الدوربون جميعاً يسرون طبقاً لأرائهم ويطبقون التقليدية إلى الأمور . وبينما كان المهندسون والنحاتون في أيونيا ينشدون الرشاقة والتنويع كان أمثالهم في البيليونين يكافحون لإدراك الكال متعبدين بنماذج قليلة صارمة . فالأبوني والدوري يمثلان كل اثنين فكرتين متعارضتين عن الحياة — الفكرة المتحركة والفكرة الساكنة والفكرة الفردية والفكرة الجماعية والفكرة المركزية الطاردة والفكرة الجاذبة إلى المركز التي نستطيع أن نراها اليوم بالطر إلى الغرب ثم إلى الشرق . وقد كان مقدراً لهذين الصدين أن يجعدا التوفيق الذي كانا في حاجة إليه في أئينا مدة من الزمن ، ومن هنا كان كمال الثقافة الأئينية في عصر بريكليس . وكما أن النحت والعمارة في أئينا كانا يجمعان بين الصرامة الدورية والرفقة الأبونية وكما أن الدراما الأئينية جعلت من المادج الفني الحامى ومن فن الممثل وحدة مظمة متناسقة فقد استطاعت كذلك الحياة الأئينية فترة قصيرة أن تجمع بين الحرية الأبونية والهدوء الفردى وبين الشعور الدورى بالنظام والناسك ، غير أن هذا التوفيق من الأئينيين كان ما يزال بعيداً في أوائل الفترة الكلاسية .

لقد كانت اسبرطه ، التي ليس من السهل تقدير قيمتها ، تسيطر على الثقة واتساع السياسة للبيليونين وهو وطن الدورين الرئيسى الوحيد . وقد كانت اسبرطه مدسة للمناقشات العجيبة التي لا يجد لعقل الحديث أن من السهل إدراكها . كما أن أرائها القديم مجهول والأساطير فيه أكثر من الحقائق ، وهذه الحقائق الصاهريه يرجع الكثير منها إلى صياغتها من جديد طبقاً لمروص العلاسفة للمأحررين ، إذ أن من مناقضات اسبرطه العديدة أن

هذه المدينة التي تمت خواتمها بشكل بارز بين المدن الإغريقية في الشؤون العقلية كانت بأسرها دائماً لفلاسفة الإغريق

سبق أن رأينا كيف استولى العراة الدورين على أكثر الديالويونيز وكيف وطد الاسبرطيون أقدامهم بصفتهم أقلية متسلطة منعزلة في أحد الواديين اللذين يمتازان بأنهما من أخصب الوديان وأبدها جنوباً عن الجزء الرئيسي من أوروبا . ولو كان في وسعنا أن نقرر أن هذا المجلس الجري الذي كان يسكن الجبال والذي تغلبت عليه الحرارة والترف قد وقع خلال قرون قليلة في غيوبة تكاد تكون شرعية لكان ذلك مما يسرنا . غير أن ذلك لم يحدث . إذ حدث العكس تماماً . فمتدما انكشست اسبرطه وسقطت لم يكن ذلك راجعاً إلى اعتقارها إلى النشاط بل إلى حاجتها إلى المواطنين والأفكار ، وقد كانت مسئولة ذلك تقع عليها هي .

كان هناك حادثان حاسمان في التاريخ الاسبرطى لا نعلم شيئاً كثيراً عن أيهما . وقد كان أولهما هو تصميمهم على أن يطلوا بمعزل عن الشعب الذي قهره . ونحن لا نعلم عن ذلك أكثر من مجرد هذه الحقيقة . ولو أننا نستطيع أن نرى أن ذلك نتيجة طبيعية لما يمكنكم مشاهدته في تاريخهم كله وهو شعورهم القوي بأنهم مجتمع وثيق الارتباط بعضه ببعض . ولا بد أنهم غزوا وادى يوروتاس السريع لأهم جماعة عظيمة التنظيم تشعر أنها هي التي تقرر ما تقرر . وظلوا دائماً على هذا الحال ، إذ لم يكونوا أفراداً يريدون أن يلائموا بين أنفسهم وبين نظام موجود من أنظمة الحياة بل كانوا مجتمعاً قد جاء معه ودمه الخاص الذي صمم على أن يحتفظ به ، ولذلك أصبح المجتمع في لا كديامون يشكون من طمعات مكونة بطريقة غير عادة ( ولو لم يكن ذلك قد حدث في تساليا ) فقد كان الاسبرطياتيس Spartias طوع الحقيقين في القمة ومن دونهم البريأويكوي

Periko إلى الجيران . وهم طلبة من الأحرار لم تكن لهم حقوق سياسية . ثم طبقة لعبيد Heos في القلاع وهم ليسوا رقيقاً شخصيين للاسبرطيين بل رقيقاً للجمتمع الاسبرطى ، يشتغل أكثرهم في الزراعة ويقدمون نصف المحصول للمواطنين المحصنين لهم .

أما الحوادث الحاسمة الأخر فإننا نعلم عنه أكثر من الأول بقليل ولو أننا لا نعلم عنه الشيء الكثير . ذلك أن التفريغ الطبيعي لزيادة عدد السكان كما رأينا كان إرسال جالية للخارج . ولقد أرسلت أسبرطه جاليات كذلك ولو أنها لم تكن كثيرة جداً . وقد كانت تارتم Terentium واحدة منها . ولقد جماعت أسبرطه حاجتها الملحة إلى الأرض بطريقة أقسى من ذلك بكثير ، فقد غزت جارتها الغربية مسينيا واستولت على أرضها وحولت سكانها إلى رقيق . وقد كان مثل هذا الضم نادراً جداً في بلاد الإغريق بسبب جلي هو أنه كان من المحال استغلال أرض الجار دون جيش قائم يسيطر عليها . وقد كانت أسبرطه هي الدولة الوحيدة التي كان لها جيش قائم فقد كانت طبيعة المواطنين تعتمد في معاشها على عمل الرقيق .

على أن السيطرة على مسينيا كادت تكون أكثر من طاقة أسبرطه . فقد نازأهاى مسينيا بعد الفوز بجبل أوجيلين أى حوالى نهاية القرن الثامن وكان من الواضح أن الثورة أمر بالغ الخطورة . ولم يقض عليها نهائياً قبل مضى حوالى عشرين سنة على ما يظهر . وإن إلخاح تورتابوس في الرجاء والتشجيع لثربا أى جهود كان على أسبرطه أن تبذلها .

وقد ترتب على اسمعاد مسينيا أن صار الاسبرطيانيس أفاية في بلادهم بصورة أشد من دى قبل بل وأقلية مهددة كذلك . وربما كانت ثورة مسينيا هي التي دعت الاسبرطيين إلى اتحاد نظم الكورجوس Lycorgos الشهيرة . ونحن لا نعرف شيئاً عن ليكورجوس وعما إذا كان حقيقة أو من

صع الخيال ( وقد قال ح . ب . بيورى وهو من أشد أنصار المذهب العقلى المطلق ما يدل على طابع تفكيره وهو أن ليكورجوس لم يكن رجلاً بل إها فقط ) ومن الممكن أن نشأت أن كثير آ من هذه النظم رجع إلى عهد أقدم من ذلك بكثير ، غير أننا نستطيع على الأقل أن نرى أن تعيراً هائلاً حدث فى الحياة الاسبرطية حوالى هذا الوقت أى فى نهاية القرن السابع . فقد اختفى كل اللطاف والجاهلية من الحياة الاسبرطية وأخذت المدينة تبدو فى مظهرها المألوف الذى تلوح عليه سيماء الشككات . لقد واجه ليكورجوس الموقف بمنطق لا يقبل الخطأ . فقد نظمت جماعة المواطنين طبقاً لما كان ينتظر من أقلية مسيطرة تتحكم وتستغل شعباً أكثر منها بكثير مكوناً من الرقيق النشيطين الخطرين .

وقد كان محرماً على الاسرطى أن يشتغل بالزراعة أو التجارة أو أى مهنة إذ كان يجب عليه أن يكون جدياً محترفاً . وكانت له مزرعته التى يشتغل فيها الرقيق من أجله . وكان يتناول وجبات الطعام الرئيسة معرفته حلاً ويدفع نصيبه فى تكاليفها من مزرعته فإن عجز عن الدفع توقف مؤقتاً عن أن يكون مواطناً كاملاً .

وكانت حياة الأسرة محددة تحديداً صارماً ، فالأطفال الذين ينقررون أنهم ضعفاء كانوا يخدمون ، وكان يعيش الأطفال مع أمهاتهم حتى سن السابعة ثم يتلقون من سن السابعة إلى الثلاثين نوع التعليم والتأهيل العسكري العام المناسب . وكانت الفتيات أيضاً تتلقى تدريباً مدناً دقيقاً

وكان هناك من الألعاب ما نامس أشياء أحياء أفس الثياب حتى أن الإغريق أنفسهم كانوا يزعون من ذلك ولم يكن هناك تعليم رسمى فيه تثقيف للعقل ولو أن الإسبرطيين كانوا يؤمنون أهمية السلوك المتواضع وفصيلة الطاعة ولشجاعه بالطابع وقد كان إحصاء الزهق يتم دون شفقة

فقد كانت هناك سرية مكلفة تقتل كل من يبدو خطره — هذا ما يقوله ملونارح وإن كان من الجائر أنه أخطأ الفهم

ولم يهدف ليكوريغوس إلى جعل هيئة المواطنين جهازاً حربيّاً كفتاً على استعداد دائم بحسب بل لقد تحمل شدة غير عادية لجعلها مكتفية اكتفاء ذاتياً وراكدة ، فلم تكن تشجع التجارة ولم تكن تسمح للزوار بالدخول إلا على كره . كما كانوا يطردون دون توان من وقت لآخر . وكانت الأفكار الأجنبية تسببهم فيها كلفهم ذلك ( وقد يخطر ببال الدين لا يعرفون الحقائق حالة شبيهة بذلك في وقتنا الحاضر ) وفي الوقت الذي كان فيه لأثينا عملة متداولة عليها رقابة رشيدة كما كانت مقبولة في كل مكان حتى في بلاد الغار البعيدة ، كما كان لها فضلاً عن ذلك نظام مصري مفيد جداً ، كانت اسبرطة ما تزال تستخدم عن عمد عملة حديدية قديمة قبيحة الشكل ولو أن استعمال الحديد إجبارياً في بلادها لم يمنع الاسبرطيين الموجودين في الخارج من رؤية مزايا الذهب الفاتكة .

وكذلك كان دستورهم السياسي في كثير من الأشياء يبدو مغالفاً للتفكير السليم . فقد كان لهم ملكان وهو ما بذكرنا بالقنصلين اللذين كانا على قدم المساواة ( في الجمهورية الرومانية ) . وربما كان مرجع ذلك مختلفاً في الحالين ، غير أن النتيجة المطلوبة كانت واحدة . ففي كل من الحالتين كانت الثنائية مانعاً من الحكم المطلق . وكان مما يقلل من شأن هذين الملكين في وطنهما الأيغوروى Ephors ( أي المشرفون ) وهم خمسة قصاة كانوا يختارون سويّاً بطريق الاقتراع السري تقريباً . وقد كان أحد الملكين هو الذي يقود الجيش دائماً خارج البلاد . وكانت له عندئذ سلطات مطلقة . وكان هناك أيضاً مجلس الأعوان كما كان هناك مجلس للاسبرطيين جميعاً ، ولكنه لم يكن يستطيع المناقشة فكان يعبر عن قراراته لا بالتصويت بل



بالصباح . وهو ما كان يبعث على تشبه غيرهم من الإغريق . وكان الذي يكتب له الفور هو أعلى صراح . وقد حير هذا الدستور واضعى اسطريات من الإغريق المأخريين وهم الذين اعتادوا أن يصنعوا كل شىء فى الارض أو فى السماء مخاروا فى أمرهم هل يسمون ذلك الحكم ملكيا أم أرسقراطيا أم حكم الأقلية أم ديمقراطية . لقد كان دستوراً وصل إليه الاسبرطيون دون أن يلفوا أى شىء قديم ( كالمملك مثلاً ) أو يتوسعوا فى شىء جديد إلى نتيجة المنطقية .

والمؤرخ إنما يؤدى واجبه عندما يشير إلى أن هذه الحياة السخيفة السلبية قد فرضها على الإسبرطيين تصميمهم على أن يعيشوا طالة على عمل الرقيق . وإلى أن جهودها قد أثبتت فى نهاية الأمر أنها هدامة من الوجهة الخلقية والفكرية والاقتصادية . وإلى أن الحياة التى فرضها الإسبرطيون على الرقيق لابد أنها كانت كثيفة حتى ولو خامرتنا الربى فى أن التاريخ قد اهتم كمعادته بتسجيل الجانب الكئيب ونسى ما عداه . غير أن المؤرخ لو وقف عند هذا الحد لما أدى كل واجبه . فقد كان لأسبرطة حتى حرب البيلوبونيز على الأقل روعة وتأثير فريد رغم وجود الرقيق ورغم هذا الجود وهذا الجذب . وقد كان هناك عدد كبير من الإغريق ممن يعجبون إعجاباً شديداً بالمثل الأعلى للإسبرطيين على الأقل بل ويغبطونهم عليه رغم رؤيتهم عيوب أسبرطة بكل وضوح .

على أنه مهما أن ندرك أن هذه الحياة كانت مثلاً أعلى لكل إسرقى . ولقد تكلمت عن استعلاء الرقيق ( حتى أكون عصرياً ) ولو اشتمل هذا اللفظ على معناه الحديث لكان معنى ذلك أن المواطنين الإسبرطيين كانوا يعيشون فى دعة إلى حد ما على ثمرة جهد الرقيق . مع أن الحقيقة أن حياتهم كانت خشة متفشفة بحيث لو حير الرجل الحديث اهصل أن يعيش

كالرق لا كالمواطر الإسبرطى . ولقد كانت هناك قصص لا تحصى عن  
إسبرطة والإسبرطيين . ومن المسلم به أن كثيراً منها سجله كتاب يحون  
الإسبرطيين ، غير أن القصص الذى يعالج أسلوب الحياة الإسبرطية يشير  
كله إلى اتجاه واحد . فحين دعى أحد أهلى سيباريس المزمين إلى تناول  
الطعام علماً فى إسبرطة مع الإسبرطيين قال : « إلى أفهم الآن لماذا لا يحشى  
الإسبرطيون الموت » . وقال زائر آخر عندما قدم إليه مرق إسبرطى أسود  
« أنتم فى حاجة إلى السباحة فى نهر يوروتاس قبل أن تتمكنوا من أكل ذلك  
» وعندما سئل المالك أجيسيلانوس Agesilaus عن أعظم فائدة قدمها قوانين  
ليكورجوس للإسبرطيين أجاب : « احتقار السرور » . وعندما رأى  
ديوجينيس Diogenes الزاهد وهو فى أولمبيا بعض شبان رودس فى ثياب  
جميلة جداً قال من فوره : « هذا تكلف » . فلما رأى بعض الإسبرطيين  
فى ثياب بالية قال : « تكلف أعظم » .

أما أن كثيراً من أهل إسبرطة لم يعيشوا طبقاً للمثل الأعلى فى بلدهم  
فذلك ظاهرة نستطيع أن نفهمها بسهولة كبيرة . غير أن إسبرطة كان لها  
مثل أعلى بالفعل ، مثل شديد الإرهاق ولكنه كان يجعل قيمة الحياة  
الإسبرطى ويشعره بالفخر لأنه إسبرطى . وبطولة الجنود الإسبرطيين  
والنساء الإسبرطيات أسطورية وحقيقية معاً . وربما كنا أقل تأكداً من  
سلوك الإسبرطيين فى الحياة العادية لأن الإغريق الذين عرفوا إسبرطة معرفة  
كافية ليرووا عنها فيما عدا أهلها كانوا قليلين جداً ولكن القصة التالية من  
بلوتارح مثل له دلالة . فقد أحد رجل مسي أساء الألعاب الأولمبية  
يتجول ها وهالك ماحتاً عن مقعد والجمهور يسحر منه ، فلما انتهى إلى حيث  
يجلس الإسبرطيون وقف كل شاب فيهم وكثيرون ممن تحطوا مرحلة الشباب  
وعرضوا عليه مكاناً للجلوس ، فهدف الجميع للإسبرطيين . وعندها قال  
الرجل المس وهو يتهدد : « إن الإغريق جميعاً يعرفون الصواب غير أن

الاسرطيين وحدهم هم الذين يعملونه . إن الذي أثر في الإغريق في حقيقة الأمر ، حتى فيمن كانوا معنون الدولة الاسرطية هو أن الاسرطيين قد فرصوا على حياتهم خطأ ممياً وسدوا الكثير جداً من أجله . أما أن هذا الخط قد فرص عليهم من الخارج إلى حد بعيد فهو صحيح . إذ فرضه عليهم خطر الرقيق . تير أن من الحق أيضاً أنهم حولوا الإلزام الذي لم يرض عنهم إلى إلزام اختياري . ويجب على الإنسان عند دراسة التاريخ أن يحذر من رؤيته لأشياء الواضح وتركه لما له مغزى ودلالة . والذي له مغزى هنا هو أن قوانين ليكوجورجوس كانت تهدف لا إلى مجرد إخضاع الرقيق إلى الدولة الإسرطية بل إلى خلق المواطن المثالي ، وهذا مثل أهل محدود ولكنه مع ذلك كان مثلاً أعلى . إن الذي أعجب الإغريق هو أن قوانين إسرطة قد أدت بصورة حاسمة جداً ما كان يعتقد الإغريق أنه أسمى وظيفة من وظائف القانون . إن فكرتنا عن القانون كلها رومانية إلى حد أننا نجد من الصعب علينا التفكير في أن القانون أداة خلاقة بقاء ، غير أن هذه كانت الفكرة الاغريقية العادية . لقد كان أول تفكير للرومان في القانون بطريقة عملية محضة . فالقانون عندهم هو الذي ينظم العلاقات بين الناس وشتونهم وهو مجرد وضع ما جرت به العادة في الصيغة القانونية . ولم يبدأ رجال القانون من الرومان في استنباط المبادئ القانونية العامة من قوانينهم ويتوسعوا فيها على ضوء المبادئ الفلسفية إلا عندما تأثروا بالفوذ الإغريق . أما الإغريق فقد كان يهكر في قوانين «دولته» أي في «الوموى» Nomo ، مجتمعته على أنها قوة خلقية خلاقة فلم يكن يقصد منها فقط بيل العدالة في كل حالة فردية بل كان يقصد أيضاً إلى عرس العدالة في النموس وهذا سبب في أن الشاب الآثيني كان يتعلم «الوموى» وهي قوانين دولته الأساسية طوار السنتين اللتين كان يقضيها في الجيش وهذه القوانين تتميز عن اللوائح الخاصة التي تنظم أموراً من قبيل تركيب الأنوار في

السيارات وهى أمور كانت تنقرر بواسطة التصويت . ولم يكن للإغريق كنيسة أو دين مؤسس على تعاليم بل لم يكن لهم ما يطمح ( الإنجليز ) بدبلا مرضياً عنها أى وزيراً للدربة والتعليم فقد كانت « نابوليس » ، علم المواطنين واجباتهم الخلقية والاجتماعية عن طريق القوانين

ولهذا كانت إسبرطة موضع الإعجاب لأنها حسنة القوانين . وسواء أحببت مثلها الأعلى أو لم تحب فقد كانت تدرب مواطنيها فعلا على هذا المثل الأعلى تدريباً تاماً إلى حد غير عادى عن طريق قوانينها ونظمها ، وكانت بالفعل تدرب مواطنيها محين لأنفسهم على الصالح العالم . فإن كانت قد فشلت فى حالات بارزة للعبان فإن الخطأ خطأ التصور فى الطبيعة البشرية لا خطأ القوانين . لقد كانت موضع الإعجاب لأنها لم تغير قوانينها مدة قرون أو أن المفروض أنها لم تغيرها . ويدولنا هذا أمراً صبيانياً غير أن أى أمر إغريق إن بدا لنا أنه صبيانى فالأولى بنا أن نعيد فيه النظر . ذلك أننا نعتقد أن من البديهي أن تتغير القوانين بتغير الظروف ، أما الإغريق فلم فعله لم يكن ذليلاً إلى هذا الحد أمام الظروف . وكان ما يدعوه إلى ذلك فى دنياه التى تزيد ركوداً عن دنيانا أقل مما بدعونا . غير أنه كانت لديه فكرة متفاوت درجتها تقوم على فرض نمط معين على الحياة لا المواءمة بين الإنسان وبين ذلك النمط . وهذا ما فتنه إسبرطة ( هكذا اعتقد الناس ) عندما تقبلت قوانين ليكوجورجوس التى كانت قد وافقت عليها دلفوى . فلماذا إذن تغير النمط . إنما لأنهم عندما سمع أن عقائد الكنيسة المقررة لم تتغير خلال قرون . لقد كانت قوانين ليكوجورجوس بالنسبة للأسرطين نموذجاً « للمصلحة » أى للامتياز الدشرى من وجهه نظر هذه المواطنين بالذات ، وكانت فكرتهم عن « المصلحة » أصبى من فكرة الآثينيين ، وهى تسوء بحى الإنشائية الحديثيين بقدر ما تشير فيهم مطالها الرعب . ومع أن هذه المطالب قاسية فى حملة وواح ووحشية فى بواح أخرى إلا أن فيها صفة من

صفات البطولة وليس هناك من يقول بأن إسرطه كاتب حقيرة كما أن الإسرطى لم يكن يسلم بأن إسرطه كاتب مجده من ناحية الفن لأن الفن هو الخلق والإبداع وإسرطه إن لم تكن قد خلقت شيئاً من الكلام أو من الحجر إلا أنها خلقت رجالاً .

## آثينا

كان الآثينيون في أثينا وهي قطعة من الأرض مساحتها أقل بقياس من جلوترشير . وكان عددهم في أزهى عصورهم مثل عدد سكان بريستول تقريباً أو ربما أقل . كان هذا حجم الدولة التي أنجبت من الساسة في مدى قرنين ونصف قرن سولون وبيستراتانوس Pisistratus وThemistocles وأريستيديس Aristides وبريكليس ومن كتاب المسرحيات إسخولوس وسوفوكليس ويوريبيديس وأريستوفانيس ومفاندر . كما أنجبت ثوكوديديس أعظم المؤرخين تأثيراً في النفس وديموسثينز أشد الخطباء تأثيراً ، ومنسيكلبس Mnesicles وإكتيوس cinius مهندسى الأكروبوليس وهيدباس Phidias وبراكسياتيلس Praxiteles النحاتين ، وفوريو Phormio وهو من أبرع القواد البحريين ، وسقراط وأفلاطون . مع أننا لم نذكر في هذه القائمة مجرد أصحاب المواهب . وفي نفس هذه الفترة ردت أثينا فارس مهزومة في ماراتون Marathon بمساعدة ألف رجل فقط من أهل بلاتايا وبذلت وحدها أكثر مما بذلته بقية بلاد الإغريق مجتمعة لتفوز بنصر حاسم أعظم من سابقه وهذا هو نصر سالاميس Salamis والإمبراطورية الوحيدة الإغريقية الصميمة فعلاً كانت أثينا هي التي أنشأتها . وفي جزء كبير من هذه الفترة كانت أصص الرزع الآثينية المحلاة بالرسوم الفاحرة مطلوبة ولها قيمة عظيمة في إقليم البحر المتوسط كله وفي وسط أوروبا ولعل أعظم ما يجدر بنا أن نلاحظه على الإطلاق هو وسيلة الفلسفة الشعبية التي

تقابل السبيلين عدد ، وهى أسمى وأدق دراما وجدت إلى الآن . وهذه الحقيقة بعيدة عن محيط خبرتنا بعداً جعل مؤرخاً حديثاً للبلاد الإغريق يقرص أن الآثينى العادى كان من الجائر أن يرحب مسرحيات أحط مستوى لو كانت متاحة له . وهذا ما لا يمكن التسليم به بنائاً فمن لم يسمع بأن المواطن الآثينى العادى كان يذهب إلى المسرح متأخراً أى عند نهاية عرض المأساى واقتراب الوقت الذى تبدأ فيه المسرحيات الحزلية التى يبعث التقايد فيها على الضحك . بل على العكس من ذلك إن الملاحى التى كتبها أريستوفانيس تفترض دائماً أن أى محاكاة لأسلوب يوربيدس أو أسخيلوس هى مما يجعل المسرح يدوى بالضحك . ولو إن الآثينى العادى كان يريد شيئاً أكثر شعبية ، لوجده ، فقد كانت رقابته كاملة مباشرة . وموجز القول أن مساهمة هذه المدينة وحدها فى الثقافة الإغريقية والأوربية مذهشة جداً . ومالم تكن مقاييس الحضارة عندنا هى الراحة والاحتراآت فإن آثينا من سنة ٤٨٠ إلى سنة ٣٨٠ ( مثلاً ) تعتبر أعظم مجتمع متحضر وجد حتى الآن .

إن أجاداً من هذا النوع وهذا المدى لتدل دلالة واضحة على شعب غنى عنى غير عادى فى العبقرية الفطرية . ولو أنها تشير إلى شيء آخر مثل ذلك فى الأهمية وهو ظروف الحياة التى مكنت هذه العبقرية الفطرية من النمو والتعبير عن نفسها تعبيراً تاماً . ولهذا فسنستنبع فى هذا الفصل وانفصالين التالين نمو « الموليس » الآثينية نشأ من التفصيل إن ازدهار الثقافة الآثينية فى القرن الخامس كثير ما يسمى « معجزة » . وقد كان يطلق على أمراض معسة كذلك فى التعبير الدارج عند الإغريق كلمة « معجزة » ، أو « آتية من الرب » . غير أن أحد أصحاب المؤلفات الطبية من الإغريق عبر عن حكمة سطيمة بقوله إنه لا يوجد مرض يشد عن القاعدة بل كل الأمراض طبيعية وكلها آتية

من الرب وهدف أن يحاكي هذا الطبيب الذى يتبع الأصول العلمية بشكل ملحوظ ، وأن بين كلما أمكس ذلك أن أيجاد آتيا فى عهد بريكلير هي معجزة وهي طبيعية . مثلاً فى ذلك مثل أيجاد أى رمان ومكان آخر . وسيكون علماً فى هذا الفصل أن نلاحظ أن آتيا أثناء الحقبة الكلاسيكية الأولى .

قد رأينا أن الأساطير الآثينية تؤكد أن الآثينيين نشأوا فى آتيكا ، كما أن القائمة التقليدية للولك الآثينيين — مهما بلغت قيمتها إذ أن لها شيئاً من الأهمية على الأقل — ترجع بنا تقريباً إلى القرن الرابع عشر . ونحن نعرف حالياً أنه كانت هناك مدينة موكبنة فى آتينا . ولكن آتينا ليس لها مركز ممتاز فى الإلياذة . فقد كان الاتحاد السياسى للإثنى عشرة « بوليس » الصغيرة فى آتيكا هو الذى مهد طريق العظمة الآثينية ، ومن الشاق أن نلاحظ أنه عندما أخذت صناعة الفخار فى الانتعاش من الانحطاط الذى حل بها فى الأزمنة الموكبنة المتأخرة ومن ضعف الحياة الثقافية الإقليمية السائدة فى العهد المظلم إنما يبدأ هذا الانتعاش فى آتينا حوالى سنة ٩٠٠ . فأصص الزرع الديبلونية Dpyon ( وهى التى سميت كذلك نسبة إلى براءة ديون التى عُثر عليها بالقرب منها ) مزخرفة طبقاً للعاراز الهيدى السائد فى الفترة الموكبنة ، ولكن القوة مالبثت أن عادت إليها لجأة فبذت زخرفة عهد الانحطاط التى لامعنى لها ، ويبدو أن آتيكا التى كان تأثرها من الاضطراب الدورى أقل من غيرها من الجهات كانت أول من استأنف الاتصال والثقافة القديمة .

ومن سنة ٩٠٠ إلى سنة ٦٠٠ حينما جعلت أسبرطه توطد نفوذها فى السيلوبير وتصبح القائمة المعترف بها للجنس الهيلينى كانت آتينا دولة من الدرجة الثانية بل حتى من الدرجة الثالثة . ولابد أن الذى اقترح اتحاد

أنبكا في ذلك العهد وتقدمه كان سياسياً عنقياً . فهذا أول الأعمام السياسه العظمى التي قام بها هؤلاء القوم ، لأن الآثيين كانت هم دون شك عنقريه في سياسه الحكم . والمقاربه بين الرومان والآثيين في هذه الناحيه تثير السخرية لسحافتها . فقد كان للرومان موهب كثيره ، غير أن براعه الحكم لم تكن واحده منها ، إذ لم يفتأى لإصلاح كبير في روما دون حرب أهليه . ولقد كانت أعظم مآثره للجمهوريه هي ملء روما بالغوغاء العفراء وتخريب إيطاليا وإثارة ثورات الرقيق وحكم الإمبراطوريه أو على الأقل أجزائها الغنيه بواسطه نوع من السلب والهب الشخصى ما كان يطبقه أى ملك شرقى . بينما كانت أعظم مآثره للإمبراطوريه هي التسليم بأن الحياه السياسيه كانت مستحيله في حقيقه الأمر ، وإنشاء نظام للحكم أشبه بالآله الهياء بدلا عنها . وأنا أعرف أن الامبراطوريه الآثينيه استمرت خمسين سنة بينما استمرت الامبراطوريه الرومانيه خمسمائتين عام . ولكن امتلاك إمبراطوريه ليس بالضروره دليلا على النجاح السياسى . وعلى أى حال فأنا أتكلم عن العبقريه لا عن النجاح . وفي الفترات التي كانت فيها الفوضى شاعره عملت الدوله الرومانيه الكثير من أجل تنظيم حياه أفرادها وحمايتهم ، فيجب ألا ننسى أن العالم المكون من أوروبا والبحر المتوسط كان أكثر سلاماً ونظاماً في القرن الأول الميلادى منه في أى قرن آخر سواء في العصر القديم أو الحديث . ولكن لم يحدث قط أن الدوله الرومانيه بحالتها التي ذكرناها عبرت من نظام حياه أفرادها كما فعلت « النولس » الآثيه في القرن السادس والخامس والرابع ، بل حتى بعد ذلك . فإذا استطاع نظام سياسى أن يهزم ذلك فإن الإنسان الحق في أن ينسب العبقريه السياسيه للشعب الذى أسكره ، ولو أنه ينسب على الإنسان أن يتحادر من الادعاء بأن ذلك النظام كان مثلاً أعلى . وفي رأى أن أعظم نواحى نجح هذه العبقريه هو مل



الآثينيين بصفة عامة إلى معالجة المشاكل الاجتماعية معالجة تدل على أنهم قوم معقولون يعملون متعاونين ولا يستخدمون العنف كالأطغان أو المتوسين ونحن اهم بنصر فون المرة بعد الأخرى على الصورة الآتية إن لطيفة المعنارة بينهم كانت تفرع الحجة بالحجة وتقبل الحكم الذى يصدر بروح الولاء على وجه العموم . وقد كان يسرى فى الحياة الآثينية شعور بالصلابة المشتركة To Konon كان نادراً فى بلاد الإغريق القديمة كما هو نادر فى بلاد الإغريق الحديثة بل فى أوربا الحديثة فعلاً .

ومن المعقول أن نذكر اتحاد أثينا على أنه أول مظهر لذلك . ويعطينا ثوكوديديس أول وصف تقليدى له . ومن المؤكد أنه غير دقيق فى أحد تفاصيله الهامة . وإليك وصفه لكيفية احتفاء سكان أثينا داخل حصون أثينا وبيريه : « لقد ذهبوا لاستحضار زوجاتهم وأولادهم وكل أئامهم من الريف ولخدم الأجراء الخشبية من بيوتهم كذلك . أما المشاة والغنم فقد بعثوا بها إلى يوبويا والجزر المجاورة ولكن هذا الانتقال كان على غير رغبة منهم لأن الجزء الأكبر منهم كان قد تعود أن يعيش فى الريف باستمرار . وكان الآثينيون قد اعتادوا ذلك أكثر من غيرهم . وقد كانت تسكن أثينا دائماً على عهد كيكروبس Cecrops والملوك الأول حتى ثيسبوس Theseus مجتمعات مستقلة لكل منها قاعة اجتماعاته الرسمية وقضائه . ولم يكونوا ينشأورون مع الملك إلا فى أوقات الخطر . وكانت كل جماعة تدبر شئونها . كما كانت تحارب الملك أحياناً . غير أنه لما أصبح ثيسبوس ملكاً وهور جل فوى عاقل فقد طم أثينا من وجوه عديدة . من أعماله أنه ألغى مجالس المدن الأخرى وقضائه ووجد بينها جميعاً وبين أثينا جاعلاً لكل قاعة واحدة للاجتماعات الرسمية ومقرأ واحداً للجلس . ومع أنهم طلبوا جميعاً يتمتعون بممتلكاتهم كشأنهم قل ذلك فإنهم أصبحوا أعضاء فى هذه المدينة فقط .

ومعد ذلك الوقت حتى الآن يجي الآثمنون احتمالاً بالربة سونوكيا (١) من المصاريف العامة .

كان خطأ ثوكوديديس في التاريخ بالطبع . فمسة هذا الحادث لثيسبوس تجعله قبل حرب طرواده . وفيما عدا ذلك يمكننا أن نعتبر هذه الرواية بما يمكن تصديقه إلى حد كبير . فقد كانت الملكية في حالة انحلال كما كانت عاجزة تماماً أمام رؤساء العائلات (أو العشائر) النبيلة الأقوياء وهم الذين مزقوا ملكية قديمة للأخيين إلى عدد من « البوليس » الصغيرة تضم كل « بوليس » منها بضعة عشائر (وقد ظلت هذه العشائر المحلية تثير المتاعب حتى قضى عليها كليستينيز Cleisthenes حوالي سنة ٥٠٠ ق . م) وقد كان في أثينا وفي أثينا وحدها تقريباً ما يكفي من الإدراك السليم لجعلها ترى حق هذا النظام . ولو أن الإغريق كانوا يرونه نظاماً مناسباً . ولابد أن الذي قضى عليه هو مجهود سياسي مشترك لا بمجهود ثيسبوس العاقل القوى ، فقد كانت الملكية موجودة بالاسم فقط حوالي ذلك الوقت كما تدل على ذلك فعلاً الروايات بكل جلاء .

أما الأمر الثاني الذي ترمى إلى مسامعنا فهو أن شخصاً يدعى دراكو Draco قام بنشر مجموعة للقوانين سنة ٦٢١ ق . م فقد كان القانون قبل ذلك مما جرى به العرف والعادة . وكانت العليقة النبيلة التي جاءت في أعقاب الملكية هي الحفيظة على هذا القانون التقليدي وهي التي كانت تحكم بمقتضاه وتنفذه . وكان هزبود قد كتب قبل ذلك بتقيد انتقاداً مرأ الأمرام الذين يأخذون الرشوى ويصدرون أحكاماً ملتوية . وكان السيل قد بلغ الزنى

(١) وقد يدعى الربة سونوكيا Synoecia (اتحاد الدوب هذه المادة أو بمعنى ديسر من هذه المادة . قد كان الاحتمال أكثر من السباح . سوى عدم وجود كس اعترافاً حديثاً وقبولاً من جميع أعماله الاتحاد .

في أتيكا، وكما أصبح رؤساء القبائل المسجون في أسكتلده ملاكا الأرض  
 موصح البد فكذلك كان الحد في أتيكا وقد صح الدين كانوا مريسة  
 لذلك بالشكوى ولا شك أن اتحاد أتيكا جعلهم أكثر شعوراً بقوتهم  
 وبالمظالم الواقعة عليهم وعلى كل حال بعد كفل هذا القانون المستمد من  
 التقاليد بكل ما فيه من جفاء وقسوة شيئاً من الحماية ضد الظلم والتعسف على  
 الأفل . غير أنه لم يكن كافياً . فكم من فلاح وقع في الدين ورهن أرضه  
 أولاً للنيل الغنى فلما عجز عن سداد ديونه استعبده الغنى بل وباعه في الخارج .  
 وقد اشترك الناس في المطالبة بإلغاء الديون وتحرير المستعبدين وإعادة  
 توزيع الأرض . وقد تركت ضروب السخط في ذلك الوقت أثراً عظيماً  
 في تاجر أثيني سبق له أن قام بأسفار كثيرة كما أنه كان فيلسوفاً وسياسياً  
 إلى حد ما بل وشاعراً عظيماً . هذا الرجل هو سولون . ومع أنه سمي بأعظم  
 اقتصادي في العصر القديم إلا أنه لم يكن يعرف في الحقيقة كثيراً عن  
 الاقتصاد السياسي . فقد كان يبدو لعقله البسيط أن مصدر المتاعب ليس  
 هو الظلم الاقتصادي بل الجشع والظلم . وقد أعان ذلك يلاغة عظامي  
 في قصائده . وكانت النتيجة رائعة . فقد اتفقت الأحزاب المعارضة بتلك  
 الطريقة البسيطة المباشرة التي كانت تستطيع تلك الدول الصغيرة أن  
 تستخدمها على أن تعطى سولون سلطات دكتاتورية طوال المدة اللازمة  
 للقضاء على ضروب السخط والتذمر .

أما كثيراً من الدول الإغريقية التي وصلت إلى تلك الحالة لم تعمل  
 شيئاً حتى انتفشت الطبقة المظلومة نفسها بالثورة والمصادرة . فكانت النتيجة  
 الطبيعية أن أصبح الثورة ومقاومة الثورة من نصيبها دائماً . أما سولون  
 فلم يرد التورط في ذلك . فقد قضى قضاء مبرماً على اسعاب الناس بسب  
 الديون كما أنه حصص مقدار الديون وحدد قدر الأراضي التي يجوز امتلاكها  
 ورد الأراضي التي فقدها المديون إليهم . وأعاد إلى أتيكا الدين يعووا

للحاج غير أن أعظم خدمه قدمها لاقتصاد إتيكا كانت إقامة الزراعة فيها على أساس حديد . فقد كان حارب من المتاعب اقتصادياً محصاًشاً من استخدام العملة غير أن السبب الرئيسى فى ذلك كان يرجع إلى أن أتيكا لم تكن مكنميه اكتم . دأباً بطبيعتها . فقد كانت أغلب أرضها من الضعف بحيث لا تسمح بزراعة القمح ، بينما كانت صالحة من جهة أخرى لزراعة الزيتون والكرم . ولذلك شجع سولون التخصص وإنتاج زيت الزيتون وتصديره ، كما شجع الصناعة فشجع الصناع الأجانب بأن تعهد لهم بمعلمهم مواطنين أثينيين حتى يقيموا فى أتيكا ، كما أمر كل والد بتعليم ابنه لإحدى الصناعات . وعلى الذين يعتقدون أن الإغريق كان أرسقراطياً بطبيعته وأنه يحتقر العمل أن يذكروا هذه الملاحظة . وقد كانت نتيجة ذلك المباشرة نمو صناعة الخزاف الأثينى وفنه حتى أصبح الأثينيون بمفضل مهارتهم وذوقهم يمتكرون أصص الزهر الفاخرة التى وصلت إلى كل بلاد البحر المتوسط بل وإلى وسط أوروبا .

وقد كانت هناك مسألة سياسية بطبيعة الحال إلى جانب المسألة الاقتصادية . فقد كان يحكم أثينا حكام ( Archons ) يقوم بانتدابهم سنوياً من الأسر النبيلة مجلس يتكون من كافة المواطنين الحائزين على ملكية عقارية معينة . وكان هؤلاء الحكام يصبحون أعضاء فى مجلس الأربوباجوس ( تل أريس ) بعد بقائهم عاماً فى الحكم ، كما كانوا من وجهة النظر التاريخية بمثابة الملكية القديمة حين تتولى مهمة الحكم . وقد صار المجلس الذى كانوا ينضمون إليه هيئة قوية مترابطة كمجلس الشيوخ الرومانى الذى كان عظيم الشبه به . فلم يتدخل سولون فى شئون المجلس القديم ولكنم ألغى شرط مؤهل نيل المولد واستدله بمؤهل الملكية العقارية . وهكذا أصبح فى إمكان طبقة التجار الجديدة أن تطمع فى أعلى الوظائف ، كما أصبح من الممكن أن يتغير طابع المجلس بمضى الزمن . وقد سمح جميع المواطنين بدخول المجلس ورادت سلطاته بطرق غير واضحة تماماً ، غير أن المجلس أصبح على الأقل من

الاهمة بحيث يشتمل على لجنة منحة مكونة من ٤٠٠ عضو أشبه بلجنة تنفيذية لإعداد أعماله .

وبعد أن قام سولون بكل هذه الأعمال تحلى عن وطبعه الاستثنائية وعاد إلى أسفاره .

وإنه ليكون من أعظم بواعث الرضى أن يسكن الإنسان الآن من أن يقول : ما كاد سولون يعادر البلاد حتى هبت العاصفة بأقصى شدتها ، فقد أثار غضب الفقراء أن مائالوه كان قليلاً جداً كما أثار غضب النبلاء أنهم أرغموا على التنازل عن كثير جداً ، وكان الفريقان يشتركان في بغضهما الشديد لسولون ولو أن ذلك لم يكن كافياً لمنع الثورة من أن تعم أتيكا كلها . كنا عند ذلك نعتبر هذا أمراً مألوفاً ونشعر بالراحة لأن هؤلاء الآثيين متدهم كمثل من عداهم من الناس تماماً غير أن ذلك لم يحدث ، فإن القوانين الماركسية من جهة لم تكن قد صدرت بعد ومن جهة أخرى كان الآثينيون يرون أن الصالح العام أهم من المصلحة الحزبية . وهم في هذه الناحية إن لم يكن في غيرها يشبهون الجنس البريطاني إلى حد ما .

كما أن تاريخ أتيكا من الجهة الأخرى ليس قصة من قصص الجننيات ، فإن سولون لم يحرك عصا سحرية فقد عاد القلق السياسي إلى الظهور وأوجد هذه المرة في آثينا ما أوجده في كثير من المادون الإغريقية الأخرى حوالى ذلك الوقت أى حاكماً مستنداً .

فقد كان بيرستراتوس حاكماً مستنداً من النوع المألوف وكان الأسلوب العلى لهذا الحاكم المستند وذلك سياسته شبيهة جداً بما تجده في رماننا ، فالحرص الشخصى وحريق الرايشساح والألعاب الأولمبية برلين وتجفيف

المستقع الوثيق وتطير الفورم ١١ forum كل هذه الأشياء لها أسماؤها في قصة  
 بيرستراتوس وغيره من المستند الإغريق غير أن هناك اختلافاً كبيراً  
 جداً بين العريقين ، فقد كان المستندون الإغريق دائماً على وجه التقريب  
 أريستقراطيون ومنحصرين فكانوا يحدون كل نهج عن عرفهم من العوام  
 المنهوسين أعداء المثقفين ، إلى حد أن عدداً منهم وجد له مكاناً في مجلس  
 الحكماء السبع . وهكذا كان بيرستراتوس مثلاً حسناً للعالم المستبد .  
 ويصف هيرودونوس (الذي كتب هذا بعد عهده بأكثر من قرن تقريباً)  
 بحجته بالطريقة الآتية : -

كان ابقراط Hippocrates وهو أحد النبلاء الأثينيين يشاهد الألعاب  
 الأولمبية وقد أعد أضيحة وضع لحمها في إناء كبير للنساء فوجده يغلي مباشرة  
 مع أنه لم يكن قد وضعه على النار ، ففسر خيلون الاسبرطى أحد  
 الحكماء السبعة هذه الأضحية بأن نهض ابقراط بالألا يكون له ولد أبداً ،  
 ولكن ابقراط انجذب ولداً بالفعل وهو بيرستراتوس Pisistratus ثم حدث  
 أن قام نراع في أتيكا بين سكان الساحل بقيادة ميجا كلبس Megacles وسكان  
 المدينة بقيادة من يدعى ليكورجوس ( ويتكلم غيره من النفاة عن حزبي  
 الساحل والسهل وقد يدل هذا الصفة ضمنية على شيء من تضارب المصالح بين  
 التجار وملوك الأراضي ، ولكن من الجائز أننا نبالغ أكثر مما ينبغي في تفسير  
 السياسة الإغريقية طبقاً لنطق ، لأن المنازعات المحلية والشخصية البهجة كان  
 يتبع الإغريق أنبأها بحماسة عظيمة دائماً ) فأنشأ بيرستراتوس الذي كان يهدف  
 إلى تولي السلطة العليا حرباً ثاشاً وحينها جمع أعوانه بحجة حماية أهل اللال  
 ( وهم الطليقة الربمية التي تعبر أفقر من غيرها ) دبر الحيلة الآتية : أصاب  
 نفسه وباله بجراح وقاد عزمه إلى الميدان كما لو كان يحاول الحرب من أعداء  
 حارج الميدان وطالب بحرس شخصي ولما كان مواطماً ممارساً أن استولى  
 على نسايا Nsaea وغيرها من المجاريين فقد سمح له الأثينيون بأن يختار

لنفسه بعض المواطنين على ألا يتسلحو بالحرا بـل بالعصى ، فاستولى  
مواظتهم على الأكر ووبليس كما استولى على الحكم . ولكنه لم يتدخل  
فى أمر القصة الموجودة إـد ذاك أو فى القانون . وحكم المدينة حكماً حساً .

وقد جعل ذلك ميچا كليس وليكورجوس ماسيه من البلاء يثوبان  
إلى رشد هما ، فاتفقا وطردا بيزستراتوس ولكنهما ما لبثا أن تنازعا مرة  
ثانية واستمرا كذلك إلى أن وعد ميچا كليس أن يؤيد بيزستراتوس ( الذى  
كان منفياً ) إذا تزوج ابنته فتمت الصفقة ولكن الصعوبة كانت فى تنفيذ  
الخطوة مرة ثانية . وهما يروى هيرودوتوس الخطوة الثانية بشئ من الحدة .

لقد دبر فى رأى أعظم خطة مثيرة للسخرة خطرت بال إنسان ،  
لأسمها إذا وضعنا موضع الاعتبار أولاً أن الإغريق كانوا دائماً يمتازون عن  
البرابرة بسعة الخيلة وبعدمهم عن الحق الساذج ، وثانياً أن هذه الخيلة قد  
نفذت فى الآثينيين الذين يعتبرهم الناس أذكى الإغريق . فقد كانت هناك  
امراة تدعى فوا Phye (١) طولها ستة أقدام إلا بوصتين كما كانت جميلة جداً  
فألبسوها درعا على هيئة سترة كاملة ودربوها على تمثيل الدور الذى كان عليها  
أن تلعبه وأركبوها عربة سارت داخل المدينة حيث نادى المتنادون  
( الذين كانوا قد أرسلوهم إلى هناك ) « بارجال أثينا رحبوا الضيف ترحيب  
بيزستراتوس الذى تكرمه الالهة أثينا نفسها فوق كل من عداد من الناس ،  
وهى تقوده الآن فى عربتها إلى قلعتها الخاصة ، وشكروا ذلك فى أرجاء المدينة  
فاستقبل الناس بيزستراتوس وهم يعتقدون أن هذه المرأة هى الربة أثينا  
كما أنهم تقدموا لعبادة مخلوق بشرى .

وقد تكون انقصة السالفة صحيحة . . لـلـا لا نرى كيف عالجت بعض  
الصحف الإنجليزية موضوع « هلائكة موز » بطريقة جديدة . وإذا صح أن

( ١ ) حسب الاسم حسب حد لأن فوا ، بالانجليزية « فوا » و « فوا »

هذه الحيلة قد نفذت من المؤكد أن ميجاكليس ودرستراتوس وحدها تسدية أكبر مما وجد هيرودوتوس .

وقد كان على هذا السبل البارح أن يدبر حيلة لعوده مرة أخرى لأنه تمارع مع ميجاكليس قبل أن يستقر به المقام . وقد اتبع في هذه المرة طرقاً عسكرية قريبة ساعده عليها إعمال خصومه واستسلام مواطنيه . وفي هذه المرة لم يتحمل من زملائه النلاء أى عيب ، ولو أن ذلك لم يقتض أى سفك للدماء ، وفر الكثيرون وأخذ من الآخرين أبناءهم رهائن ووضعهم في إحدى الجزر التي كانت تحت سيطرته . فدايم له ذلك واصل الإدارة الصالحة عشرين سنة ( ٥٤٦ — ٥٢٧ ) وساعد الفلاحين الفقراء بطرق مختلفة ووزع عليهم الأراضي المصادرة وأنشأ قنطرة أثينا بمورد من الماء الذي كانت في حاجة شديدة إليه وساهم على العموم في رخاء أثينا واستقرار نظام حكمه ، ولكنه أهتم كذلك بزيادة شهرة أثينا الدولية . ولما كان لغيره من الحكام المستبدين حاشية سنية فقد صمم على أن تكون له حاشية كذلك . وقد بنى إلى وقتنا هذا ما يكفي من أعمال النحت وطلاء الاحصص التي تمت في عهده بما يدل على أن هذه الفنون ازدهرت فانتسبت بالأناقة التامة والبهجة . ونحن نعلم أنه اجتذب إلى بلاطه الشعراء الأيونيين سيمونيديس Simonides وأناكريبون Anacreon مثلبا فعل بعدئذ بالضبط هيرود Hiero حاكم سرقوسة المستبد الذي اجتذب إلى بلاطه سيمونيديس Simonides وباخيليديس Baechyl des وبداد الجاد الررس وكذلك اسجيلوس نفسه . وقد أنشأ بيرسراتوس المدياني ككل الحكام المستبدين وأهم مشروع له هو معبد لريوس أوليمبوس غير أن أسبكله كان في حاجة إلى أسطار حاكم أقوى من بيرسراتوس هو الإمبراطور هادريان Hadrian الذي لارانت تصير نقابا معده أحد المناظر الرائعة في أثينا



وهكذا عمل بـ. ستراتوس على أن يرجع شأن أثينا من مدينته رهيبة صغيرة إلى مدنة ذات أهمية دولية غير أن جامداً آخر من سبسته لثقافية كانت له أهمية أكبر. فقد أعاد تنظيم بعض الأعياد الوطنية على نطاق واسع وكان من بينها عيد ديونيسيوس Dionysus وهو أحد آلهة الطبيعة ( وليس إله الخمر وحدها بآية حال ) . وبالتوسع في هذا العيد أعطى بيزتراتوس لأول مرة أهمية عليية لفن جديد وهو الدراما التراجيدية . وقد كانت أنواع مختلفة من الدراما متوطنة في بلاد الإغريق ، فكان هناك الرقص المسرحي وحفلات العفوس الدينية التي كانت تقام تكريماً لديونيسيوس وتستخدم الإشارات والمحاكاة الهزلية للأشخاص ، لاسيما أن الرقص مع الشبب المحاسي لديونيسيوس بدأ يتخذ صورة درامية ( هذا على الأقل ما يقوله أرسطو ) فكان يتعد أثنائه رئيس فرقة الإنشاد ويستمر في محاوره شعرية غنائية عاطفية مع باقي الفرقة . وقد اتحدت مثل هذه الدراما البدائية في أتيكا شكلاً فنياً ، ورجع الفضل في ذلك إلى حد بعيد إلى رجل واحد هو ثيسبس الذي لا نعرف عنه إلا النزر اليسير ، وقد رجع بيزتراتوس من شأنها باستخدامها في مهرجانه الجديد ، وقد أجريت أول مباراة تراجيدية في سنة ٥٣٤ . وقدمت فيها الجائزة لثيسبس Thespis . وليس هناك ما يعبر عن روح أثينا الجديدة ويسمو بها أبلغ من هذه الدراما العلمية التي ستكون لدينا فرصة فيما بعد نتحدث عنها فيها .

ولكن هذا الحاكم المستنير أعطى شعر الملاحم والدراما التراجيدية الجديدة أهمية علمية . فقد جعل القراءات التي لشعر هومر جزءاً من المهرجان السنوي العظيم ، د مهرجان أثينا المتحدة ، وهناك قصة بالفعل لا يمكن أن نتبعها إلى عهد أبعد من شيشرون Cicero أي بعد بيزتراتوس بحمسمائة عام ) تقول إنه أخرج أوران نص ثابت لشعر هومر . مع أن هذا غير محتمل على الإطلاق ، وإن كان . فمكس على الأقل الأثر الذي تركه بيزتراتوس في تاريخ ثقافة الإغريق

وكان ذلك كله أكثر من مجرد إشباع لغيره تقدير الخيال عند حاكم  
مستبد بل كان جزءاً من سياسة لا يستطيع إدراكها إلا رجل ذو بصيرة نافذة ،  
وقد كان تقدير امره والأدب حتى ذلك الوقت محصوراً في دائرة صيقة جداً  
إذ كان السلاء الآنيديون في الحقيقة هم ورثة عصر البطولة الذي كان قد  
بعد عهده وهو الذي كان فيه المترنمون بقصائد هومر من أصحاب الأصوات  
الرخيعة على اتصال بالقصور ، وكانوا ينفون في حفلات العظماء ، فقد كان  
هدف يزنسراتوس أن يتبع للكثيرين ما كان حتى ذلك الوقت امتيازاً (١)  
للقليلين .

لم تكن في الأصل كلمة Tyrant ( أى حاكم مستبد وهي لفظة ليست  
إغريقية بل مأخوذة من ليديا Lydia ) تستدعي إلى الذهن أى معنى من المعاني  
الفظيعة التي أصبحت لها فيما بعد والتي بقيت ملازمة لها إلى الآن ، ولذلك طل  
الإغريق يذكرون بالحمد ما كانوا يدينون به للحكام المستبدين . ومع ذلك  
فقد كان صعباً على الإغريق ألا يسمح له بثولى إدارة شئونه العامة بنفسه ،  
كما أن من الطبيعي أن تأخذ الحكومات الاستبدادية في الانحطاط ، فهذا  
ديونيسيوس حاكم سرقوسة كان يؤنب أحد أبنائه ذات مرة على مسلكه  
الوقع تجاه أحد المواطنين فأجابه : « إنى لا أتبع مثل هذا السلوك إطلاقاً ،  
فقال أبوه : « عجبا ! ولكن أباك لم يكن مستبداً قط » فأجابه ابنه : « نعم وما دام  
هذا شأنك فإن ابنك لن يكون مستبداً » وقليل من الحكومات الاستبدادية  
أمكنها أن تعمر أكثر من الجيل الثالث وهذا الحكم انتهى في الجيل الثاني  
فقد قتل هيباركوس Hipparchus أحد أبناء يزنسراتوس في عراك خاص  
أما ابنه الثاني هيباس Hippias فقد كانت تساوره الريب في وجود دوافع  
سياسة معادية ولم يكن ذلك دون سبب معقول ، ولذلك أخذت مطالب حكمه

(١) زينو في زينو Helas Zio من ٥١

تتعاظم حتى طردته أسرة سيلة مصبة هي أسرة الكمايونيين بمساعدة إمبراطور وبنائيد الآثينيين العام .

ومع أن نهاية الاستبداد قد حوت ما نرحب إلا أن هذا الحكم كان له فضل كبير على أثينا ، ولما كان بيزستراوس قد حافظ بمحاظلة دقيقة على أسس دستور سولون الديمقراطي المعتدل ، فقد تلقى الآثينيون تفرجاً في إدارة شئونهم الخاصة مدة جيل من الزمان تحت الوصاية الرشيدة ، وقد ظلت أمور أثينا تسير على ما يرام بعد سقوط الاستبداد مع أن الذي كان متوقفاً هو حدوث رد فعل أرستقراطي . وقد حاول ذلك بالفعل شخص يدعى إيساجوراس بمساعدة مساعدة من إمبراطور ، غير أنه كانت هناك جماعة أرستقراطية أخرى يرأسها ثلكسيبياس آثيني بارز في ذلك القرن وهو كليستينيس Cleisthenes الذي انضم إلى جانب الشعب وفشل الانقلاب .

غير أن ما عمله كليستينيس كان أكثر من ذلك بكثير ، فقد أتم إصلاح الدستور ، فقد كان الفضل في قوة الأسر النبيلة في البوليس ، المنظمة من الناحية الإسمية تنظيمياً مركزياً راجعاً إلى أن البوليس فيما يخص بموضوع انتخاب القضاة Archons كانت مقسمة إلى قبائل أو مجموعات من الأسر بحيث أن الرئيس المعترف به لأي جماعة كان من المؤكد انتخابه . وقد ثبت أن تلك الجماعات كانت أقوى مما ينبغي لسلامة البوليس ، وقد عاج كليستينيس هذا الخطر بابتداع دستور صوري مخالف لما جرت به العادة ولكنه أدى الغرض منه في الواقع على أنه وجه . فقد أنشأ عشرة قبائل جديدة كل الجدة رודהا جميعاً بالأسباب العريقة وجعل كلا منها تضم عدداً متساوياً تقريباً من الوحدات الإدارية التي لا يتجاوز بعضها بعضاً ، وهذا كل ما في الأمر . وقد قسم كليستينيس أثينا إلى ثلاث مناطق على وجه التعريف هي المدينة والساحل وداحلة البلاد . وكانت كل قبيلة ، من هذه القبائل الجديدة تضم وحدات إدارية من كل قسم من هذه الأقسام الثلاثة فكانت كل قبيلة

لذلك تكون قطاعا مستعرضاً من جميع السكان وعندما كانت تحتتم لإدارة شؤنها كان مكان اجتماعها الطبيعي هو أثينا وقد ساعد هذا تلقائياً على توحيد البوليس . ولما كانت كل قبيلة تضم رراعاً وطائفة من أهل التلال وصاعاً وتجاراً من أثينا ويبريه وطائفة من يسكنون السهول لم يكن في إمكان العصابات المحلية والعالمية أن تفعل إلا القليل في انتخاب القضاة . كما لم تكن تستطيع أن تعبر عن آرائها إلا في جلسات المجلس العلنية حيث كان يمكن فهمها على حقيقتها .

إن كون مثل هذا النظام المصطلح قد سار على ما يرام يحتاج إلى بعض الإيضاح فإنه يبدو صعباً جداً بينما الآبديون يعتبرون عكس ذلك على خط مستقيم ، ولو أن نظاماً كهذا فرض علينا لقضى عليه من بادى الأمر لأنه مصطلح أو مدبر .

أما الإغريق فلم يكن يعترض على شيء جديد إذ أن مجرد كون العقل البشرى قد أنتجه بعد تفكير منطقي رصين كان مما يشفع له . وقد رأينا قبل بضعة صفحات أن هذا كان سبباً من الأسباب التي جعلت الدستور الإمبراطوري موضع إعجاب الإغريق كما أن علينا أن نتذكر أن الإغريق وإن كان من أنصار المذهب الفردي إلا أنه كان يحب أن يعمل مع الجماعة . فقد كان يريد من جهة أن يشترك فيما كان حوله ، كما أنه كان يحب المنافسة من جهة أخرى .

وقد أرمى نظام كاستييز كل هذه المطلب الفطرية ، إذ أنه أنسى . بكل مهارة ووصوح لئلا حاجة ماسة وهي جعل البوليس كلاً متكاملًا ، فقد ترك للآثبي وحدته الإدارية لقضاء شؤنه المحلية ومن أهمها اعتماد قبول المواطنين الجدد ، فقد كان من انصروري أن يقبل أعضاء الوحدة الإدارية الطفل الحديث الولادة من الوجهة الشرعية كما أن هذا النظام حمى

ولاء الاثني ، لبوليس ، أشمل ، فإن المواطن لم يكن يعطى صوته بواسطة القائل ، محسب بل كان يجارب كذلك عن طريق القائل ، بحيث أصبح هذا النظام الجديد يدخل في تكوين عرقه العسكرية كذلك . ولما كانت الحاربات المسرحية أيضاً تجري عن طريق القائل ، فقد وجهت شععه بالمناقسة توجيهاً هادفاً خلافاً .

وقد صحب تغيير هذا الأسس السياسية تغييراً فيما فوقها من بناء أيضاً . فقد أعطت إصلاحات سولون كل مواطن دوراً يلعبه في الدولة ولو أنه كان دوراً محدوداً جداً فيما يخص بالطبقات الفقيرة . وقد واصل كليسثينز الأرستقراطي ما بدأه سولون وكاد يتمه . فقد اقتضت سمات مجلس الأريوباجوس ( المحكمة العليا ) إلى حد بعيد وجعل المجلس الذي يضم المواطنين جميعاً هو الهيئة التشريعية الوحيدة النهائية ، كما جعل القضاة مسئولين أمامه أو أمام لجان من المجلس لها صفة الهيئات القضائية . ولم يبق على الجبل التالي إلا أن يلغى آخر مؤهلات العضوية الخاصة بالملكية العقارية وأن يتخذ الخطوة الأخيرة التي تبدو خفيفة في ظاهرها وهي خطوة اختيار القضاة بواسطة القرعة ، وعندها أصبح نظام الحكم الاثني ديمقراطياً إلى الحد الذي استطاعت مهارة الإنسان في الابتكار أن تصل إليه .

هذه ، باختصار شديد ، كانت الحوادث التي حولت أثينا في أقل من قرن من بوليس من الدرجة الثانية قد مزقتها النزاع الاقتصادي والسياسي إلى مدينة مزدهرة تنعم بوحدة جديدة وهدف جديد وثقة جديدة . وكما أن اسم طه وجدت لها مثلاً أعلى فقد وجدت أثينا مثلاً آخر .

وقد أفصت هكذا في الكلام عن أثينا في القرن السادس وذلك وحده هو الذي يجعلنا نستطيع أن ندعم أثينا في القرن الخامس إن الثقافة الرفيعة يجب من وجهة النظر التاريخية أن تصدر من طمعة أرستقراطية ، فهي وحدها التي لديها الوقت والنشاط الضروريان لخلقها . فإذا ظلت مدة أطول مما ينبغي

قاصرة على الطبقة الأرستقراطية سعت أولاً إلى الانتقال ثم أصبحت صحيحة بعد ذلك . وهذا هو ما يحدث بالضبط للطبقة الأرستقراطية في الساريح السياسي . إذ تصبح شراً ، مستطير آ إذا أصرت على أن تعيش أكثر ، تستلزمه وطمعها الاجتماعية . أما في الميدان السياسي فقد جعل الإدراك السليم السائد في أثينا وهو الذي بلغ حد العبقرية عند سولون وبيستراتوس وكليستينز ، الطبقة الأرستقراطية الأثينية بصفة عامة تترك في النظام الديمقراطي فلأ وقالبا حين كانت لا تزال في عهوان نشاطها .

وقد جاءت غالبية رجال الحكم الأثينيين في الجيلين التاليين من أرقى العائلات ، وأبرز مثل على ذلك هو بريكليس . فإذا أردنا أن نقابل بين ما حدث هناك وما حدث في فرنسا الحديثة ، نجد أنه كان لابد من استخدام المقصنة لاستئصال الطبقة الأرستقراطية التي عاشت بعد الفترة التي كانت فيها مفيدة جداً . وكان من نتيجة ذلك أن اضطرت البقية الباقية سواء كان لديها ما تقدمه لفرنسا الجمهورية أو لم يكن ، أن تعيش مترفعة عن الآخرين . أما في الميدان الثقافي فقد اشتركت عامة الأثينيين في الثقافة الأرستقراطية حينما كانت لا تزال جديدة خلافة . وبمقارنتها بالمجترات نجد أن أحد الأسباب في أنها كانت متحضرة بصورة جوهرية في القرن الثامن عشر هو أنه لم يكن عندنا قط (معشر الإنجليز) فاصل حاد بين عليا الطبقة المتوسطة وبين الطبقة الأرستقراطية ، بحيث أن الأولين تنفقوا بثقافة الآخرين وظلوا بذلك معقولين . وهذا هو السبب في انتشار الآداب العامة في ذلك العهد وفي وضوح الذوق السليم في الفن المعماري والصور الصغيرة إذ ذلك ، على عكس المبالغة والتطرف السخيف في أوروبا الذي تميز فيه من الباروك Baroque بالإسراف في الرسوم الزخرفية التي تكاد تهرز وحدها قيام الثورة الفرنسية . ولم يستطع المجتمع المورجوارى الذي حطت الطبقة الأرستقراطية في أوروبا أن يتعلم شيئاً ذا مال من من الباروك ولقد كان من الممكن أن تنتفع الطبقة

الوسطى الآخذة في الهبوط في إنجلترا في انقرو التاسع عشر ثقافة القرن  
الثامن عشر وواصل حملها سلام لولا الثورة الصناعية الى رعت صورة  
أسرع مما يعمى طقة جديدة من الكثرة والثقة بالنفس بحيث لا يمكن اشتعالها  
بذلك ولهذا فاجتمعات الديمقراطية الخالية في إنجلترا وأوربا ( فيما عدا  
البلاد الاسكندنافية ) ليس لها صلة بأحسن تقاليدهم الموروثة وذلك  
لأسباب مختلفة . ولقد نجت أثينا من ذلك بسبب حكمة القرن السادس  
السياسية من جهة وسبب سياسة بيرستراتوس الثقافية من جهة أخرى .  
وكانت النتيجة أن الثقافة الآثينية في القرن الخامس كان لها رصانة المجتمع  
البورجوازي السليم وتماسكه فضلا عن رشاقة الأرستقراطية ورقها وبعدها  
عن الغرض .

## بلاد الإغريق الكلاسيكية

## القرن الخامس

حدثت في آسيا خلال القرن السادس حوادث كان مقدراً لها أن تؤثر تأثيراً عميقاً في الإغريق . ففي سنة ٥٦٠ استقرت ملكة ليديا في الجزء الغربي من آسيا الصغرى ملكاً لا يزال اسمه مألوفاً ليديا وهو كرويسوس Croesus الأسطوري . وقد نجح في إخضاع مدن الإغريق في أبونيا غير أن كرويسوس كان رجلاً منحضراً ومحاً للإغريق إلى حد ما . ولم تكن فتوحاته من الكوارث المحزنة . وكان يقنع بحكم المدن عن طريق حكام مستبدين ( Tyranno ) موالين له .

وقد اعتلى عرش مملكة ميديا الواقعة أبعد من ليديا شرقاً ملك فارسي هو قورش العظيم . ولما كان يحكم شمال أراضى ما بين النهرين فقد هزم مملكة بابل التي كان يحكمها إذ ذاك ابن شخصية مألوقة هي دنيوخذ نصر ملك اليهود . ولكنه التفت أولاً إلى ليديا جارته الغربية . ولقد كانت هاتان الدولتان متشككتين على عهد أسلاف قورش وكرويسوس في حرب حدث في نهايتها كسوف كلى للشمس تأثر به الجيشان إلى حد أنهما رفضا أن يواصل القتال كما جاء في الخبر . وهذا هو الكسوف الذي كان قد تنبأ به طاليس الميليطي (١) أما الحرب الثانية فقد بدأها كرويسوس بعد أن استشار عرافة دلفوى التي كان يكن لها أعظم احترام ( كما قال الإغريق )

(١) آثار امصل العاشر



فأنا أنه لو عبر نهر هاليس إلى مصلى بينه وبين فورش فإنه يحطم  
 إمبراطورية قوية وقد عبر نهر هاليس وحطم بالفعل إمبراطورية عظيمة  
 ولكنها كانت إمبراطوريته هو لسوء الحظ ، إذ أن هذا الأخير كان قد  
 نسي أن يسأل عن الإمبراطورية التي كانت ستتحطم (١) . وقد أوصفت  
 هذه الحرب سلطة الفرس إلى ساحل بحر أيجه حوالي سنة ٥٤٨ ق . م .

أن رواية هيرودوتوس لهذه الحوادث تعتبر من أمتع الأجزاء في كتابه  
 الشائق . ومما له دلالة عظيمة أن أول تاريخ لما بين النهرين قد كتبه مؤرخ  
 إغريقى . وهذا التاريخ يرخر بالقصص الممتازة ، فهناك قصة ميلاد فورش  
 وهي أطول بكثير ، ما نستطيع أن نذكره هنا . وهي باختصار القصة المألوفة  
 للطفل العجيب الذى ينتظر أن يولد وأن يفعل هذا الأمر أو ذاك . وهناك  
 من يحاول أن يحول دون ولادة الطفل أو أن يقتله ولكن محاولته تنوء  
 بالفشل وتحقق النبوءة بطريقة مذهلة . ومن الصور الإغريقية للقصة  
 أسطورة أوديب . ومن الشائقة مقارنة قصة فورش التي رواها هيرودوتوس  
 بقصة أوديب الملك التي ألفها صديقه سوكليس وهي في جوهرها نفس  
 القصة ولكنها عند سوكليس ذات مغزى أعظم بكثير .

ثم أن هناك قصة اجتماع كرويسوس بسولون . ولابد أن نغسح لها  
 مكاناً هنا لأنها تناق الضوء على العقل الإغريقى . فعندما قام سولون بأسفاره  
 احتفى به كرويسوس احتفاء ملكياً فخماً وأطلعه على ضخامة كنوزه (ولو كانت  
 القصة صحيحة من الوجهة التاريخية لسكان سولون في عداد الأموات قبل  
 هذا الحين عمده ) فقال كرويسوس : إني أعرف ياسولون شهرتك كعالم سوف  
 كما أعرف أنك قد طوحت بك الأسفار وعرفت أموراً كثيرة فأخبرني عن

(١) مما يمكن أن يدعى أن سيمس سرده كانت تهدف إلى توضيح كرويسوس  
 وفورش في حادثة تكون من صفحاته ملأه بالحق

أسعد<sup>(١)</sup> رجل قاداته . وقد وجه إليه هذا السؤال كما قال هيرودوتوس طاماً منه أنه « أسعد » الناس ، ولكن سولون أجابه دون تردد ، إن أسعدهم هو تالموس Teius الذي كان يعيش في آثينا فقد كان يتمتع بالحياة في « دولة » محكومة حكماً حسناً ، وكان له أولاد شجعان طيبون كما رأى ميلاد أحماد له أحماء ، وبعد أن قضى حياة سعيدة بالقدر الذي تسمح به طبيعة الإنسان مات وهو يحارب حرباً مجيدة دفاعاً عن آثينا ضد إلوسيس وقد كرمه الناس تكريماً رائعاً عند دفنه كما أنهم يذكرونه بالحمد والثناء .

ثم سأل كرويسوس عن أسعد الناس بعده راجياً أن يأتي ذكره هو في المقام الثاني . ولكن سولون قال : إنهما كلبويدس وبينون من أهل أرجوس ، فقد كان لذين الشابين ثروة كافية كما أحرزا جملة انتصارات في الألعاب . وكان لموتهما ذكر مأثور . وقد كان على أمهما أن تصل راكبة إلى معبد هيرا على بعد خمسة أميال لحضور مهرجان هناك . فلما وجد أن الثيران لم تأت من الحقول بسرعة كافية قاما بجر العربة بنفسهما ، فبطل جميع من بالمهرجان لقوة الشابين وهنأوا أمهما . وقد طلبت وهي في نشوة السعادة من الرببة أن تمنح ولديها أعظم نعمة يمكن أن يحظى بها الإنسان فأجيب دعاؤها ، إذ نام الشبان في المعبد المذكور بعد تقديم القرбан وبعد الفراغ من المهرجان ولم يستيقظا قط .

وقد تضجر كرويسوس من القان بأنه أقل « حظاً » من المواطنين العاديين ولكن سولون أشار إلى أن الإنسان يعيش أياماً كثيرة وفي كل يوم يأتيه شيء مختلف ، ولهذا فلا يدعى الإنسان بأنه سعيد حتى يموت فمن يدرى ما يصيبه . غير أن القصة لا تنتهي ها فيمد ذلك تسعين هرم قورش كرويسوس لشدة دهشة الجميع وأحده أسيراً وأوقفه ووضع على كومة

(١) كلمة أسعد ، ليس هاء المدح الواحة هـ ولكن دواها أحـ ما عدنا ولم استعدنا عدنا هـ حسن كلام هـ لأب دمي فلفظ الأعز من مد بقه أفضل

من الخشب لإحراقه سواء كان ذلك (على حد قول هيرودوتوس) وناه بدر أو قرماً من أجل الصر أو ليرى هل ينقد أحد الآلهة رجلاً مسعياً جداً مثل كرويسوس حتى إذا أشعلت الحكومة تذكر كرويسوس كذات سولون فتدريج بصوت عالٍ وذكر اسمه ثلاث مرات . ولما سئل عن السبب باح به فرق له قلب قورش . ومن الشائق أن ندرك لما إذا جعلته هذه القصة الإغريقية المحضة يلين ، فلم يكن ذلك لوازع خلق بصفة خاصة فهو لم يدرك أنه كان قاسياً قسوة بشعة وإنما خطر بباله أنه يوشك أن يحرق رجلاً آخر وهو حي ، وأن ذلك الرجل كان قبل ذلك منبهاً موقفاً مثله . وهو بهذا يبيع الحكمة الإغريقية القائلة : أعرف نفسك ، ومماها تذكر من أنت أنك رجل عرضة للموت وأحكامه وقيوده . ولهذا فقد أمر بالنار أن تطفأ خوفاً من القصاص العادل ، على حد قول هيرودوتوس ، واعتقاداً منه بأن ما هو بشري لا يثبت على حال واحدة ، غير أن إطفاءها إذ ذاك كان قد أصبح مستحيلاً ولهذا فقد دعا كرويسوس أبولون أن ينقذه إن كانت قرايينه الغالية قد جلبت له شيئاً من محبة الرب ، وعند ذلك تجتمعت السحب في السماء الصافية ونزل المطر مدراراً وانطفأت النار وصار كرويسوس وقورش صديقين بعد ذلك . وقدم كرويسوس نصيحة بارعة لقورش عن كيفية إدارة شئون البلديين . هذه هي الطريقة التي رأى هيرودوتوس أن التاريخ ينبغي أن يكتب بها .

وفي سنة ٤٩٩ وقع حادث حديد طابع القرن الجديد . وقد ثارت المدن الآيونية على دارا Darius ملك الفرس وقد انبرى هيرودوتوس لشرح الموقف ، فذكر كيف أن أريستاجوراس Aristagoras حاكم ملتوس ذهب إلى كيو ميس Teomenes ملك أسبرطة طالباً معونه ووصف له بالتفصيل أوضاع أسنا الخاصة للفرس وجميعهم أعينهم على لا يصدق ، كما أنهم لا يميلون للحرب فهم يعتبرون عبدة باردة للأسبرطيين . ولا يوضح قوله

« أحصر منه ، كما قال الإسبرطيون ، لوحه صغيره من البرونز مقوشاً عليها محيط الأرض الخارجى بأكله والبحر والأنهار جميعاً ، ، وهذه في الحقيقة أول خريطة ورد عنها أى شئ مكتوب . كما أنه أحد يقران في الختام بين فقر الحياة في بلاد الإغريق ورعيدها في آسيا ، فوعده كليومبيس بالرد عليه في اليوم الثالث . وفي ذلك اليوم سأله كليومبيس عن المسافة بين ساحل البحر الأيوني وبين مدينة الملك . ومع أن أريستاجوراس كان ما كراً في كل ما عدا هذا الموضوع بحيث خدع الملك بمهارة فائقة ، فقد صدرت منه هفوة هنا لأنه ما كان ينبغي عليه أن يقول الحق إن كان يريد الذهاب الإسبرطيين إلى آسيا . ولكنه أخبره بصراحة أن الرحلة تستغرق ثلاثة أشهر . وعند ذلك قطع كليومبيس عليه وصفه للرحلة قائلاً : أيها الضيف الآتي من ميلينوس ، غادر أسبرطة قبل الغروب فأنت تذكر أموراً لا يحبها الإسبرطيون وتحاول أن تستدرجهم إلى رحلة تمتد ثلاثة أشهر عن البحر .

ولكن الرجل الأيوني حاول أن يلعب دوراً آخر إذ تظاهر بأنه سائل وعاد إلى كليومبيس فوجده مع ابنته جورجو Gorgo الصغيرة ، وطلب من كليومبيس أن يحى الطفلة جانباً ويصنى إليه مرة ثانية ، ولكن كليومبيس وافق على الإصغاء إليه دون أن يبعد الطفلة عنه ، ولذا وعد أريستاجوراس أن يعطيه عشر قطع ذهبية إن قبل أن يقدم المعونة الإسبرطية ثم أخذ يزيد فيما يعرضه عليه حتى أوصله إلى خمسين ، وعند ذلك صرخت جورجو قائلة ، يا أبتي إن لم تتعد فسيفويك هذا الغريب . فابتعد عنه كليومبيس لذلك ولم تل أيوبيا أية مساعدة من إسبرطة

ومع ذلك فقد حصص الأيونيون على بعض الأسس من أثينا ومن أترية الواقعة في يوبويا . وقد قامت هذه القوات بهب سارديس Sardis عاصمة كرويسوس القديمة . ومع ذلك فقد فشلت الثورة إذ أظهرت بوضوح لعارس

أبها لا أمل لها في الاحتفاظ بأيوبيا في وقت السلم عالم تستعرض قوتها على الأقل في بحريته . فأرسلت لذلك حملة سنة ٤٩٠ ضد المدينتين المعتدين فهبت أرتريا ونزلت قوة فارسية على ساحل أتيكا الشرقى عند مراتون وكان مع الفرس هيباس بن يزيستر تومس الذي كان مغبطاً لأنه كان قد طرد من آثينا قبل ذلك بمئتين سنة ، وكان المقرر أن يعاد تنصيبه حاكماً تحت حماية الفرس .

ولولا قوة صغيرة مكونة من ألف رجل من بلانابا لترك الأثينيون وحدهم يواجهون الفرس . وقد انتصروا بعد أن كلفهم ذلك ١٩٢ رجلاً . وقد اشترك في هذا القتال أسخيلوس وأخوه قاتل الأخ وعاد أسخيلوس إلى بينه . وإن لنا أن نفتخ بذلك فهو لم يكن حتى ذلك الوقت قد كتب مسرحيات الفرس ، وسبعة ضد طبيه ، و د برومبيوس ، ومسرحيات أوريسنس الثلاث المتتالية .

وكان من الواضح أن فارس ستعيد الكرة ولكن لحسن الحظ شغلها عن ذلك ثورة في مصر كما شغلها موت دارا مدة عشرة سنين . وقد قررت هذه السنين العشر مصير آثينا . فقد تصادف أن عثر على عرق ثمين جداً من الفضة في منطقة التعدين في سونيوم . وقد كان لهذه المدين الإغريقية الصغيرة آراء بسيطة جداً ومباشرة عن المالية العامة والأخلاق العامة وأغلب الأشياء الأخرى . وذلك أنهم اقترحوا أن يوزع المال بين المواطنين على هيئة حصة أرباح ولكن ثيمستوكليس Them stocles نظر نظرة أبعد من ذلك . فقد حدث أن آثينا كانت تحارب جزيرة إيجيبا المجاورة وهي مدينة تجارية هامة ولكن مقص السفن كان بما يعوقها . ولذلك أعرض ثيمستوكليس الأثينيين باتفاق هذا المال الذي لم يكن في الحسان في إنشاء أسطول ، كانت إيجيبا هي الهدف المباشر من إنشائه ولكن الخطر الفارسي كان في ذاكرته كما كان في إمكانه دون شك أن يتنبأ بأن لآثينا مستقلاً باعتبارها قوة تجارية وبحرية

وقد أنشئ الأسطول في الوقت المناسب إذ جاء الهجوم الفارسي الثاني في سنة ٤٨٠ ولم يكن في هذه المرة مجرد حملة تأديبية بل كان عزواً ركباً كاملاً . وفي هذه المرة تحقق نوع من الوحدة الإغريقية ولو أن أرجوس في البيلوبونيز بقيت في معزل لاشتراك الإسبرطيين الذين تسكرهم في الحرب . ونحن لا نستطيع أن نروي هنا قصة حرب العامين إلا أن هيرودوتوس رواها على أحسن صورة مع أنه وهو أعظم المؤرخين إنسانية لم يفهم استراتيجيتها قط فهماً حقيقياً ، فقد سقطت خطوط الدفاع الشمالية واحداً بعد الآخر ولو أن موقعة ثرموبولاي تعتبر حلقة مجيدة كما حدثت موقعة بحرية في المياه المجاورة بعداً عن رأس أرتميزيوم ولكنها لم تكن مثبته للهمم ، فقد أظهرت أن السفن الإغريقية التي كان ثلثاها تقريباً آثينياً كما كانت أثقل من السفن الفارسية وأبطأ ، تستطيع أن تحارب بشيء من الأمل ضد أسطول العدو ( وأكثره فينيقي وأيوني ) في المياه الضيقة حيث لم يكن يستطيع العدو أن يقوم بمناورات . ولكن جاء الوقت الذي كان على الآثينيين أن يغادروا فيه أثينا ويقلوا غير المحاربين وما استطاعوا من مناع إلى جزيرة سلاميس التي كانوا يستطيعون منها أن يروا العرس وهم يحرقون يوتهم ويذمرون معابدهم على الأكروبوليس .

ثم جاء أمر يعتبر من أعظم مآثر حوله الجدل في التاريخ ، وربما اختلط الأمر على هيرودوتوس بالنسبة لبعض التفاصيل ولعله اعتبر من الحقائق ما كان مجرد تبادل للاتهامات في أعقاب الحرب ، غير أن هذه صورة لحادث إغريق يصورها أحد الإغريق ، وهي في جوهرها صحيحة عن بلاد الإغريق . ذلك أن الإغريق من سكان الشمال كانوا قد استسلموا وأخذوا بحاربون إلى جانب العرس ، ولم يبق من المحاربين إلا أهل البيلوبونيز وبعض الجزر وآثينا ، أما أثينا فقد سقطت وكانت قوات البيلوبونيز البرية عند المضيق مشغلة تحصنه . وكان أغلب القواد الحريين يحذون إرجاع الأسطول

المتحالف من سلاميس مخافة أن يحاصره الفرس هناك. ولكن ثيمستوكليس رأى أن المياه الضيقة داخل سلاميس قد تعطى أسطول الإغريق فرصة للانتصار ، أما في المصيق فهريمنته مؤكدة حتى لو تجمع الأسطول واتحد وهو مالم يكن محتملاً . فاستحث ثيمستوكليس القائد الأعلى الأسرطى Eurypides يوريباديس على أن يعيد فتح باب المناقشة ( على حد قول هيرودوتوس ) فوافق وأخذ ثيمستوكليس يتكلم قبل أن يفتح يوريباديس باب المناقشة رسمياً في الاجتماع ، فقال القائد الكورنثي : يا ثيمستوكليس إن الذين يبدؤون في الألعاب أسرع مما يبغي بضربون بالسياط ، فأجابه : ولكن الذين يبدؤون متأخرين عما ينبغي لا يعوزون بالجوائز ، وأخذ يشرح قصيته . لكن أديمانتوس الكورنثي قال أنه ليس له الحق مطلقاً في الكلام لأنه لم يعد يمثل مدينة . فتكلم ثيمستوكليس عندهما روى هيرودوتوس بغدظة شديدة عن أديمانتوس وكورنثا على السواء قائلاً إن لدى الآثينيين حتى الآن مدينة أوسع ومساحة أكبر من كورنثا إذ أنه مادام لديهم مائتا سفينة كاملة العدد فإنهم يستطيعون أن يغزوا أرض أى إنسان ، ثم التفت إلى يوريباديس وقال لهذا الرجل البائس إنه إن لم يوافق على أن يبقى ويحارب في سلاميس فإن الآثينيين سيذهبون لستهم ويعيدون إنشاء مدينتهم في إيطاليا ، فلما توجه يوريباديس بذلك اضطر إلى الموافقة .

بقى عليه بعد ذلك أن يعرى كسيركسيس بالحرب في المياه الضيقة . وقد كان ذلك سهلاً جداً بالنسبة لثيمستوكليس . فقد أرسل عبداً يملكه شخصياً في قارب إلى المعسكر الفارسي يقول إنه جاء من طرف ثيمستوكليس الذي كان يقف سراً إلى جانب الفرس . وهو أمر كان من الممكن قوله إلى حد ما . وبعث أن الإغريق سيتجهفرون بالليل من طريق المهد العرى للخليج سلاميس وأن على الفرس لذلك أن يبدؤوا المصيق العرى حتى يوقعوا الإغريق في الشرك ، فالتجذع الفرس تماماً وأرسلوا فيها من الأسطول لصد

المعد العربي ، كما نجمع ما فيه داخل المياه الصيفة منا عرت الشمس —  
أين كان ،

لقد انتصروا انتصاراً ساحقاً وكان أعظم الفجر لأثينا . ثم جاء دور  
الأسبرطيين في النصف التالي ، فقد أهرم جيش الفرس في بلاتايا بفضل  
ثبات الفرق الأسبرطية ثباتاً رائداً لا بفضل القيادة الأسبرطية التي كانت  
ضعيفة ( وإن كان أهل طيبة قد حاربوا بشجاعة إلى جانب الفرس ) .  
فانتهى الغزو الكبير . وكان كل ما بقي هو تحرير أيونيا والتأكد من أن ملك  
الفرس لن يجرؤ على التدخل بعد ذلك في شئون الإغريق الأحرار . ولكن  
كما يؤسف له أن ملكهم استطاع بعد ذلك بمائة عام أن يعرض صدحاً من  
إملائه على الدول الإغريقية المتحاربة دون أن يقاتل في معركة واحدة .

ولقد كان النصر بعيد الأثر في نفس الوقت على بلاد الإغريق ، إذ  
كان الإغريق قبل ذلك يحسنون الظن بأنفسهم دائماً حين يقارنون أنفسهم  
بالبرابرة . وقد تأيدت لديهم هذه الفكرة فكانوا يرون دائماً أن  
الحرية أحسن من الاستبداد الشرقي ، وقد أثبتت الحوادث أنهم على حق .  
فبينما كان العاهل الآسيوي يرغم الناس على الطاعة عن طريق التعذيب  
والضرب بالسياط ، كان الإغريق يتخذون قراراتهم عن طريق المناقشة  
والإقناع ثم يتصرفون تصرف رجل واحد وبذلك انتصروا . فلا عجب أن ملأ  
الجيل التالي أعلى واجهات معابده بصورة منحوتة تمثل الحرب الأسطورية  
القديمة بين العمالقة من أهل الأرض وآلهة أوليمب . لقد انتصر آلهة الإغريق  
مرة ثانية فقد هزمت الحرية والعقل الاستبداد والفرع

وقد كان هناك ما يدعو أثينا خاصة أن تشعر بالرهو والفخر . لقد  
رأى الناس في أثينا هذا النصر وهم الذين كانوا قد سمعوا من آبائهم كيف  
حرر سولون أرض أتيكا بالذات من استبداد الأثري . ووضع قواعد



الديمقراطية . وقد رأوا بأنفسهم بيزستراتوس يقرص الفقراء بدور القمع ويجعل بالتدريج من أثينا الهادئة مدينة تسترعى بعض الثغرات الإغريق . كما أنهم رأوا وهم في منتصف العمر نهاية الاستعداد ووضع دستور جديد حر بواسطة كليستيز . ولقد حدثت في أثينا منازعات مريرة كما بلغ الشعور الحزبي فيها غاية الشدة ، واتخذ لونا مسرحيا في القصة التي حكها أحد الناس لهرودوتوس عن انتقال أريستايديس Aristides العظيم ليلا وهو زعيم حزبي مني (١) من مقره المؤقت في إيجينا إلى سلاميس قبل المعركة البحرية مباشرة واستدعاه ثيمستوكليس من مجلس الحرب وقوله له : لقد كنت أنا وأنت ألد الأعداء أما الآن فالمنافسة بيننا قائمة على أثينا يمكنه أن يقدم أعظم خدمة لأثينا ، ولقد تسربت من بين الفرس لأقول لك إن أسطول الفرس عبط بنا فأدخل المجلس وأخبره ، فقال ثيمستوكليس : حمداً للرب ! ولكن أدخل ، أنت ، قل لهم ذلك فإنهم يصدقونك . وقد رأى الأثيني ديمقراطية الناشئة تصمد لمثل هذه المنازعات الحزبية كما رأى جيش أثينا منتصراً في مراثون ، ثم رأى مدينته تلجأ إلى البحر دفعة واحدة وتخاطر بكل شيء فيه . ثم رأى مدن أثينا تحترق والأوكروبليس الخالد موطن كيكروبس Cecrops واريخيوس وثيسبيوس والرببة أثينا نفسها ، وهو خراب يباب . ومع ذلك فقد خرجت منتصرة كما عملت أكثر من غيرها على إنقاذ بلاد الإغريق . ولم يكن لبلاد الإغريق إذ ذاك قائمة واحدة بل قائمتان فكانت تنفد مدينته الريفية الهادئة والكل معجب بها إلى جانب أسرطه مدينة البطولة . ومثل

---

(١) كان هذا من من سى ostracism منه . سكره كليستيز . ليكنج من جماع العدوات منعته موجوده في احياء مدينة أثينا . فكان مجلس يطاع أن يقرره . التي دون ذلك الأسماء . وبعد ذلك كان يصح أي مواطن أن يكلم عن نفسه من القضاة . أي مواطن يجب أن يرحل بعد من المدة . أعاداً سريعاً مدة عشرة سنوات . دون صوت . أو أكثر من أي رجل فلا بد من أنه دون غيره حري . وقد كانت هذه وسيلة لأحد زعيم أي د ب حضر .

هذا الجاح الذي يئله الناس لا يحس الخط ولكر يحس الإدراك  
 ويصط الناس لا بالتسلط وحرص الذات كان طبعة الحال حافزاً لمجهود  
 أكبر . وعندما جاءت الحرب الفارسية كانت أثينا قد عرفت نفسها لتوها  
 ما الذي لم يكن في استطاعتها ؟ . إن هناك شبهة بين أثينا في سنة ٣٨٠  
 وانجلترا في سنة ١٥٨٨ ، لحينا نظر الناس كانوا يرون إمكانيات مثيرة .  
 بل إن نظرة الآتيني كانت أبعد بما رآه الإنجليزي . فن الوجهة السياسية كان  
 من الممكن أن تصبح أثينا زعيمة حلف بحري يمكن مقارنته بحلف إسبرطة  
 البيلوبونيزي ، كما كان يستطيع الناس أن يفخروا بأن مدينتهم كانت تعمل  
 ما تفعله لا بواسطة حكام يعملون باليابة عنهم بل بواسطة الآتينييين العاديين  
 أنفسهم في مجلسهم الأعلى . ومن الوجهة العسكرية كانت دنيا التفكير والعلم  
 بأكلها آخذة في التفتح ، وبموود كثير جداً من العضل في ذلك إلى ذوي  
 قربهم في أبونيا . أما في التجارة والصناعة فقد كانت أثينا تعمل على أن  
 تسحق بالمدن الإغريقية الأخرى التي كانت قد سبقتها بكثير . وقد كان  
 أقران ذوق أثينا وذكائها بموقعها المركزي وموانئها الممتازة وقوتها البحرية  
 الغلابة بما يبعث الرهبة حقاً . وإلى جانب هذا كانت أثينا مثل لندن تتمتع  
 بمزايا معينة مما لا يمكن تقديرها ، وهي مستمدة من استقامتها وأساليبها المبنية  
 على الإدراك السليم . أما من الوجهة الفنية فقد كانت أمامها دنيا جديدة  
 آخذة في التفتح ، فقد كان الكفاح الطويل مع البروز والرخام قد أوصل  
 من العبارة إلى حافة الكمال الكلاسي . وكان على الفنانين الآتينييين الذين  
 كانوا يشتغلون على الدوام قريباً من أجل ، الموليس ، أن يقرؤا ما بين  
 الرشاقة الأيونية والقوة الدورية . وكان الحرايين والرسامون الآتينيون  
 عبي وشك أن يحققوا أعظم انتصاراتهم . وأحد أعظم العيون الآتينية كلها  
 وهو دراما المأسى يرداد نفقة واستشارة كل عام ، كما أحد الفايون يعامرون  
 معامرات شائقة جداً في محاولات بسطة مرحلة غير مسطمة سرعان ما تمحضت

في حقيقة الأمر عن ملهات أريستوفانيس وماسبه الطريقة وإن أعور بها الأصالة . هكذا كانت روح عصر ريكليس الذي كان جفراً قد أحد برع ، لاسيما إذا تذكرنا أنه كان عارفاً في أشعار هو مر الحالدة . وهو الذي علم هذه العادة العقيدة ( الأرستقراطية في جوهرها مهما وجدت في أية طبقة من طبقات المجتمع ) وهي التي تتطلب الجودة قبل الكم والكماح النبيل قبل العمل العظيم والشرف قبل الثراء .

أما التاريخ السياسي فأى مضطر أن أعالجه بطريقة مختصرة جداً . لقد أدى التحالف الإغريق واجبه المباشر بإهماد الفرس عن أوروبا ولكن بقي تحرير أبونيا وتحطيم قوة الفرس البحرية . وقد أظهرت إسبرطة في هذا الموضوع قبلها من الاهتمام ، إذ أن إسبرطة كانت من الوجهة الأساسية دولة برية ذات اقتصاد زراعي . وكان يسرها ألا تكون أية دولة أوبجورعة من الدول الإغريقية من القوة بحيث تهددها في البيلوبونيزا وتستثير شبح ثورة الرقيق المنزع الموجود هناك باستمرار ، ولإضافة إلى ذلك فقد كان تحرير أبونيا والدفاع عن جزر بحر إيجه أمراً خاصاً بالسفن أي من شأن أثينا . وقد كانت أثينا على استعداد كبير لهذا العمل الذي كانت تستطيع أن تذكر نفسها بأنه يناسبها باعتبارها الموطن الأصلي للجنس الايوني .

وقد نظمت أثينا لذلك اتحاداً بحرياً كان مقره اترنيس جزيرة ديلوس المركزية المقدسة . وقد ساهمت المدن التي اشتركت فيه وهي بالعمل جميع مدن بحر إيجه الحرة ، بعدد ثمان من السفن والرجال أو بما يقابل ذلك من القود إن آثرت ذلك . وكان الذي يحدد التقديرات هو ارسطانديس الأثيني أو ارسانيديس العادل . ويدل على عدله الحقيقة القائلة أن أحدا لم نجد أي تقدير من تقديراته . وكانت الحقيقة البارزة في هذه الأعمال تفوق أثينا الهائل ، فقد كان لها أسطول من ٢٠٠ سفينة على حين أن كثيراً من الأعضاء

كان الصيب المقدر لكل منهم هو سعيه واحده . وكان يفصل عدد كبير من الحلفاء الصغار أن يدفع صفيه مالا ويكتفى بذلك .

وقد استمرت العمليات الحربية ضد العرس بضعه أعوام ثم قامت مسألة لاجل لها وهي حق الخروج من الحلف . فقد رفضت حرية ناكسوس Naxos الهامة أن تستمر بعد ذلك عضواً في الحلف . فقد توقف تهديد العرس إذ ذاك فلماذا تسام ناكسوس إذن بقوات في حلف لم يكن يحق وراءه في الحقيقة إلا أثينا ؟ وقد كانت أثينا تستطيع أن ترد على ذلك رداً معقولاً بقولها إن لم يوجد الحلف فسيعود تهديد الفرس عن قريب ، ولذلك عاملت هذا الخروج على أنه ثورة وسحقته وفرصت على أهل ناكسوس حرية بدفعونها . وقد عاملت الثورات الأخرى التي من هذا القبيل بنفس الطريقة ، ثم أرغمت دول بحر إيجه التي وقعت بمعزل عن الحلف أن تنضم إليه وكان هناك مبرر أيضاً لذلك ، إذ لماذا تمنع أية دولة في بحر إيجه بالأمان الذي يتكفل به غيرها دون أن تسام فيه ؟ ثم حدث أمران ينفان عن ذلك ، وقد ساعدوا على تحويل الحلف إلى إمبراطورية . فقد نقل المركز الرئيسي للحلف من ديلوس إلى أثينا أي من جزيرة صغيرة كان الناس يذهبون إليها لأغراض دينية بصفة أساسية إلى المدينة التي كان يسر الناس أن يذهبوا إليها لقضاء أي مأرب . وقد كان من الممكن تبرير هذا النقل بموضوع مريب هو سهولة الإدارة ، كما كان يمكن بيان أن خزانة الحلف تكون آمنة في أثينا ، بل إنها كانت كذلك بالفعل لأن أثينا كانت قد فقدت لنزوها أسطولاً في معامرة مصرية . ولكن رغم كل ذلك فإنه قوى لدى أثينا وغيرها فكرة أن ما كان حلماً بالاسم كان إمبراطورية بالفعل ثم أصبحت الممارعات التجارية بين الأعضاء نحن إلى المحاكم الأنسية ، وقد كان هذا في الحقيقة تسيطاً عظيماً في الإجراءات في حالة عدم وجود أي نظام من نظم القانون الدولي كانت الإجراءات القضائية بين أمالي المدن المختلفة تمكده فقط إذا كان بين المدينيتين معاهدة حص

عليها بوصوح ، وإلا فقد كانت مصادرة بصائع الطرف الآخر أخذاً بالتأثر — وهو نوع من القرصة الرسمية — هو الوسيلة الوحيدة للتأكد من أن الشكاوى يسقى الإصغاء إليها . ولقد كانت المحاكم الأثينية ربة بشكل معقول كما كانت غير متأثرة بالأعراس الشخصية . وقد بدلت عناية كبيرة للتأكد من أن أي أثيني لم يكن يتمتع بأي امتياز عند مقاضاة عضو من مدينة مخالفة . ومع ذلك فإن الأمور كانت تبدو سيئة .

وتتضح كغاية أثينا ونزاهتها بوجه عام في إدارة الحلف من حقيقة أن المدن ظلت تنضم له باختبارها ، وأنه عندما وقعت الحرب بينها وبين إسبرطة ظل الأعضاء على وجه العموم على ولائهم لأثينا بشكل يثير الدهشة ولو أنهم كانوا يدعون رعايا مدينة إمبراطورية .

ولكن لم يكره هالك بد من أن يأخذ المواطن الأثيني في التفكير بروح إمبراطورية عندما كان يرى أعضاء الحلف يأتون إلى أثينا للتقاضى ، وعندما كان يعلم أن ثروة الحلف محروقة في الأكربوليس الخاص به وأن سياسة الحلف كان يجب أن تكون في الحقيقة مقبولة من أثينا ، وأن قوة الحلف العسكرية كانت تتكون إلى حد كبير من سنن ورجال أثينيين . كان كل ذلك مما يبعث الزهوى في الأثينيين كما كان مربحاً لهم ، فقد كان المحلفون من المواطنين يتقاضون أجوراً على عملهم ، وقد كان جزء كبير من المال الذي يساهم به عدد متزايد من الحلفاء بدلاً من السنن والرجال يذهب بطريقة شرعية إلى حبوب الأثينيين على هيئة أجور مدبرة في مقابل خدمات .

وفصلاً عن ذلك فقد وجد فسر كثر من المال سبيله إلى أثينا عن طريق سياسة رملكيس في التعمير . وربما كان ذلك مما يثير الريبة والتساؤل أكثر من سواء . فقد أخذت أموال الحلف تتراكم ، بينما لم تكن المعاهد التي دمرها الفرس قد أعدت تشييدها بعد . وقد كان جزء من سياسة رملكيس وهو

امتداد لسياسة بيرسراتوس يهدف إلى جعل أثينا مركز بلاد الإغريق المهيمنة والعسكري والسياسي لآسيا وأن أثينا كان لها مشكلة للطلالة ويعتبر البارثينون Parthenon وهو المدخل إلى الأكروبوليس وعلى حافته معارض للصور، هو وغيره من المباني ثمرة هذه الحاجات والرغبات وإن كانت قد قوبلت باحتجاجات حتى في أثينا. ولكن بريكليس رد عليها بأن الحلفاء كانوا يدفعون المال لأثينا من أجل حمايتهم وأنهم لا يدفعون مبلغاً باهظاً وقد قام الحلف بحمايتهم وكان الأسطول الأثيني كفىً للغاية كما كان هناك احتياط كاف من النفود، فكان لأثينا الحق في إتفاق الفائز على مثل هذه المباني واتمنايل التي كانت تشرفها وتشرف كل بلاد الإغريق وكان في إمكانه أن يمنع ولعله قد احتج فعلاً بأن أثينا وحدها هي التي سلبت مدينتها باختيارها لمن دمرها لكي تواصل الحرب من أجل حرية الإغريق، وربما قال إذ ذاك ما قاله بعدئذ في خطبة التأبين: «إننا نفتتح مدينتنا على مصراعها للجميع».

ولكن لماذا لم تصبح أثينا عاصمة دولة إيجة متحدة؟ لقد استطاعت روما أن تمنح أهل المدن اللاتينية الأخرى وإيطاليا بأكملها والإمبراطورية كلها الحق في أن يكونوا مواطنين بها. ومادامت روما قد استطاعت ذلك فلماذا لم تفعلها أثينا؟

إن تبرير ذلك بالكلام عن عدم القدرة السياسية أو قصر النظر لا يكفي. إن الحقيقة التي لا مراء منها والتي نحاول كثيراً جداً أن نتهرب منها هي أن كل شيء عليها أن يدفع ثمنه. وهناك أشياء كثيرة مرعوب فيها ولكن ثمنها أكثر مما يقرر عليه. ولولم يكن الأمر كذلك لما كان الوجود الشرقي ملتصقاً بالآسيوي ونحن أنفسنا (أي الإغريق) مرنا مثل بوصح ذلك. فقد طاف بحقوق بعض ساستنا أحلام جميلة عن اقتصاد وطني يخطط تحضبطاً متقناً ويأتي بالنتائج المطلوبة بكفاءة تامة. وهذا شيء رائع، غير أن من ذلك كان العمل

الموجه، إلا أن الرحى الإغريقى تعود العريب على الحرية الشخصية وعض  
أن يدمع الثمن .

ولقد ألف الإغريق أبصاً نظام المدينة المستقلة كما حاولوا أن يبين ذلك  
فى فصل سابق . وقد كانت «البوليس» بالنسبة للعقل الإغريقى هى التى تحدد  
الفرق بين الإغريقى والبربرى . ففى التى مكته من أن يعيش الحياة الذكية  
المستولة المدينة بأوجه النشاط التى أراد أن يعيشها . ولم تكن أثينا لتستطيع  
أن تجعل من حلفائها مواطنين لديها دون أن تقتضب ظروف النشاط  
السياسى لكل مواطن أثينى كما تقتضب مسئولته . فكان لابد أن يוכל  
الحكم إلى من يمثلون الدولة الجديدة وعندها كان يشعر الأثينى بأن  
«البوليس» لم تعد ملكاً له ، فكانت تفقد الحياة طعمها ولذتها . وهذه المناسبة  
ترى أن الرومانى كان يستطيع تحت الضغط الشديد أن يجهل اللاتين مواطنين  
له فى المدينة . لأن المدينة كانت مجرد جهاز من أجهزة الحكم ، وطالما  
أنها كانت تحميه فلم يكن يهمه كثيراً من يدير شئونها ، أما الأثينى فلم يكن  
يفكر هذا التفكير وكذلك حلفاء أثينا فى المؤكد ، أن أثينا لو كانت  
عرضت عليهم أن يكونوا مواطنين لما قبلوا ذلك ، لأن الإغريقى إن لم  
يكن يقيم على مسيرة يوم من مفره الانتحافى كان يرى أن حياته أقل من  
حياة الرجل الحقيق .

وقد يبدو هذا شاذاً للعقل الحديث . فلا شك أنه بلوح شاذاً لأواملك  
الروس الذين يعرفون عما اتنا تؤثر أفعالهم على الحرية الشخصية أكثر  
من الانتصارات الحقيقية أو المظفرة التى يحلمها نظامهم . ولكن كان أمم  
الإغريقى فعلاً أن يحدروا ما بأتى : إما أن يضلوا طراداً من الحياة أدنى  
لكثير مما كانوا يسمعون به . وسبع «البوليس» ، وفقدانها بالفعل وإما أن  
يملكون فى السببه . فإن أعمالنا الرأى تلك الروح التى فكرها مورشر عند  
كومة الخشب المعدة لحرق كرويسر ورأب . أن أبصاً مجتمع سياسى معرض

للحضر ، ومعلق بعلق الناس فكرة معينة عن الحياة . وب لا استرجع إلى حكمنا على الإغريق بعد الشيء . وقد كانت سياسة بركليس . أى تلك السياسة 'ى كانت سائدة في المجلس الأثينى ، نحول أن نقيد إلى أقصى حد من الانضمام . فتمنع تماماً كاملاً بالبرليس وبالامبراطورية كليهما وربما كان الحكم الذى تصدره ضد بريكليس مدفوعاً على إخلاص أكثر لو أننا نحن أنفسنا نجعلنا في التوفيق بين حسا للحرية وحساً للدفاع .

وقد كان الذى يوجه سياسة أثينا أولاً خلال نصف القرن الذى فصل الحرب الفارسية عن حرب البيلوبونيز هو كيمون Cimon الأرسقراطى ( بن ملياتيديس Miltiades المنصر في ماراثون ) ثم تلاه بريكليس . وقد كانت سياسة كيمون هي طرد الفرس والاحتفاظ بالعلاقة الطيبة مع إسبرطة . وقد كانت السياسة الأولى أسهل من الثانية . فإن نمو أثينا السريع بل أكثر من ذلك أن تحول الحلف إلى إمبراطورية لا تكاد تكون مقنعة ، أثار الخوف والحقد كليهما إلى حد أن سياسة كيمون أصبحت مستحيلة بشكل واضح . أما بريكليس الذى كانت سيطرته على المجلس من سنة ٤٦١ حتى وفاته ٤٢٩ لا يباذعها أحد تقريباً ، فقد تقبل عداوة إسبرطة على أنه لامفر معها وعقد الصلح مع فارس وحاول أن يجعل تحدى أثينا في بلاد الإغريق بما لا يستطيع . وقد كان النشاط الذى أبداه الأثينيون خلال تلك السنين ، ما لا يكاد يمكن تصديقه . فقد كان هدفهم الذى حققوه فترة وجيزة من الزمن هو الاحتفاظ بإمبراطورية شملت أو تحسكت لا في بحر إيجه كله بحسب بل في خليج كورنثا وبويوتيا كذلك . وكان هناك من كانوا يحلون ومن استمروا يحلون بعروض قليلة العبدية . ويجب ألا نحى كلاماً عن المناقشات والمسارح والمحاكم والمواكب حقيقة أن أثينى القرن الخامس كان رحلاً بحب العمل أولاً وقبل كل شيء . فقد كان عند الأثينيين في سنة ٤٥٦ قدر كبير من المسؤوليات الخاصة في وطنهم . ولكن ذلك لم يمنعهم من إرساء مائتي



سفينة لمساعدة مصر في ثورة لها ضد العرس ، وحين دمرت هذه السفن أرسلوا قوة أخرى يمثل هذا العدد لاقت نفس النتيجة . وقد كانت هناك حرب في ذلك الوقت لها ذكر باق لأنها سجلت أسماء الدين قتلوا فيها من قبيلة إربخشيد في عام واحد في قبرص ومصر وميتقبا وهالييس Haliis ( في اليلوبريز ) وإيجينا وميجارا . وليس هناك من يقول إن الإغريق قد استغلوا إمراطورية كسبتها جهود الآخرين وتضحياتهم . وفي سنة ٤٣١ اشتعلت نار الحرب التي كانت كل بلاد الإغريق تعتقد أنها واقعة لا محالة . وسنذكر شيئاً عنها في الفصل التالي ، أما هذا الفصل فيمكن أن نختمه باستعراض قصير للنظم الديمقراطية التي سارت أثينا في الحرب بمقتضاها . ومسبق ذلك صورتان للخلق الأثيني مأخوذتان من تاريخ ثوكوديدس عن الحرب ، وقد قدم الأولى كورتشي جاء إلى إسبرطة ليبحث الإسبرطيين على إعلان الحرب .

قال الكورثيون : ليس لديكم فكرة عن الصف من الناس الذي مه الأثينيون وكيف أنهم يختلفون عنكم كل الاختلاف . إنهم يفكرون دائماً في تدابير جديدة وهم سراع في إعداد خططهم وتفيذها ، أما أنتم ففانون بما لديكم ولا تريدون أن تعملوا حتى ما كان ضرورياً . وهم جريئون محبون للمغامرة وأصحاب مزاج دموى ، أما أنتم فحريصون وليس لكم ثقة في قوتكم ولا في أحكامكم . وهم يحبون المغامرات الخارجية أما أنتم فتكرهونها لأنهم يعتقدون أنهم يتجهون للتكسب أما أنتم فتعتقدون أنكم تتجهون للخسارة . وهم عندما يتصرفون يبدون من ذلك إلى أقصى حد وإذا انهزموا كان نراجهم أقل من أى إنسان . وهم يكرسون أنفسهم لأثينا كما لو كانوا ملوكاً لها ويستخدمون عقولهم من أجل أثينا وأعظم طريقة فردية ممكنة . وهم يصمون الحفلة فإذا فشلت طلوا أنهم خسروا شيئاً هاماً ، وإذا نجحت رأوا هذا النجاح نافعاً إذا قيس بما سيعملونه بعد ذلك . ومحال عليهم أن يتمنعوا

بالسلام ويربحوا أنفسهم أو أن يسمحوا لغيرهم بالسلام والهدوء. (١)

وهاك بريكلير منه بعد ذلك عامين في حطته التأنيبه ، إنه بمتدح  
أولا سماحة أثينا ، والقانون فيها لا يميل مع الأهواء وتكريم الناس قائم على  
الاستحقاق لا على الحرية أو الطبقة ، والتسامح شائع في الشؤون الاجتماعية ،  
وفي الشؤون العامة يسود ضبط النفس وعدم العنف ، كما أن أثينا عظيمة  
الثراء في أمور الحضارة الروحية والفكرية والمادية .

والى ههنا كان بريكلير يقارن أثينا ببلاد الإغريق عامة وههنا ذا يعكر  
في إسبرطة بصفة خاصة .

« إننا نسمح لأى إنسان بدخول مدينتنا ولا نطرد الأجانب مخافة أن  
يروا أكثر مما ينبغي ، فحين في الحرب تنق في شجاعتنا وجرأتنا أكثر مما تنق  
في الخندق الحرية والاستعدادات . إن أعداءنا يستعدون للحرب بالتدريب  
المضنى منذ الصغر ، ولما استمتع بالحياة ، وهذا لا يجعلنا أقل جرأة في مواجهة  
الخطر . وبالفعل لم يجرؤ الإسبرطيون على مهاجتنا دون مساعدة حلفائهم .  
ولذا فإن لنا ميزتين ترجعان إلى استعدادنا الطبيعي أكثر مما ترجعان إلى القوانين .  
فنحن نفادى الجهود التى تبذل في البداية كما أننا عندما يحين وقت الاختبار  
نكون مثاهم أكفاء . ونحن نحب الفنون ولكن دون إسراف في حب  
الظهور كما نحب الأمور العقلية ولكن دون ميل منا إلى النعومة واللين . »

وبعد هذه المقارنة المباشرة مع إسبرطة يعود بريكلير إلى التعميم ثانية  
فيقول ، إن الثروة في أثينا تعطى عمالا للعمل وليست مبررا للامحار ، أما الذى  
يشين المرء فهو الكسل لا الفقر . إن لدى أى رجل ما وقتا بكرمه لشئونه  
الخاصة أو لشئونه المدينية ، ومع ذلك فأصحاب الأعمال أكفاء جداً للحكم على

الأمور السياسية (١) إن البعض يدعو من لا يسيرك في الأعمال العامة رجلاً هادئاً أما نحن الآثينين فدعوه شديد النفع . ونحن لا نعتبر الكلام حائفاً عن العمل بل مقدمة ضرورية له . وإن جأته بنا من الناس لنقوم على الجهل كما يقوم حوهم على التقدير والتدبير . أما نحن فمستطيع أن ندير الأمور ثم نكون جريئين مع ذلك . ونحن كرماء لا ابتغاء مصلحة ذاتية ولكن عن ثقة في أنفسنا ، ومدينة أهي في الواقع مدرسة لكل بلاد الإغريق .

لا ريب أن خطبة بريكلين هذه تعطيها صورة مثالية عن أثينا ولكنها رغم كل ذلك صورة حقيقية بصفة جوهرية ، وعلى كل حال فالتس العليا لقوم جزء هام عام عليه . وليست الحقيقة الجوهرية في هذه الصورة مجرد استعراض تام ، بل عندما نفكر في أي جانب من جوانب نشاط أثينا في عهد بريكلين نستطيع أن نرجع إلى هذه الخطبة وما تتضمنه من ثناء عظيم على مدينة أثينا ، فنعقد بأن الآثينيين في هذه الفترة لابد أنهم كانوا فعلاً هكذا في كل الأمور الجوهرية . وعدنا جمال البارثون المذهل — فخيمه مواضع جداً وطوله ٢٢٠ قدماً فقط ولكن تأثيره في منتهى القوة ، وهو إن يكن في الصور الفوتوغرافية مجرد معبد من معابد الإغريق إلا أنه في الحقيقة أروع بناء موجود . كما أن هناك مسرحيات سوفوكليس التي وضعها لهؤلاء الآثينيين الذين قابلوها بالإجلال . وأنا نفسي — إن جاز لي أن أجعل نفسي مرجعاً — قد أعطيت محاضرات مفصلة عنها لمدة ثلاثين سنة ، ومع ذلك أجدها الآن أكثر جدة وتشويقاً وإمتاعاً بالأفكار مما وجدتتها في أي وقت سابق ، وليس فيها شيء تافه يمكن إهماله . وكذلك ليس فيها ما يقصد به إلى الظهور (رغم أن أسلوبها

---

(١) من الواضح أن هذه التدريس حريه وصحة ، أخرى مثل كورب ، وهو شخص أمرأ شائعا هو أن عدم مدرم يمكن يحكمنا أصحاب الأعمال . ولقد يصر المسكت المركزية لحرب المحفون أن يعرف ما بعد يرجع إلى أن سامة هذه مفرد ، بوكوديدس ، السكتات الذي وصل :

العنى فائق ) كما أنها ليس بها شىء يعترى فى الدرجة الثانية . وهناك أيضاً ما قد يكون أوضح فى الدلالة من أى شىء ، أعنى الشواهد الحجرية البسيطة التى تحتها محتون أسمائهم بمجولة وهى فى جلالها الهادى . وإحلاصها مؤثرة إلى أقصى حد . وهناك أشباه عادية مما تستعمل فى المنازل لها نفس هذه الصفات ولن يكون الإنسان فى أى مكان متأكداً من أنه لن يصادف شيئاً مبتذلاً أو عجيباً أو شاذاً أو سطحياً مثلاً يتأكد من ذلك فى أثينا فى عهد بريكلبس . ولا أدل على طابعها فى هذا العصر من الملهاة ، ففيها ما يندش الحياة بشكل فاضح مما لا يمكن معه أن يطبع اليوم ، ومع ذلك فهو مما لا يسخر الإنسان منه . ويرجع كل ذلك إلى أن شعباً من معدن **كريم** كان يعيش فى أحوال جعلته يعتمد على أسس أنواع الجهاد الروحى والعقلى والجسمانى .

وهذا يعود بنا ثانية إلى « البوليس » ، فالبوليس إنما وجدت كانت تجعل الحياة كاملة مثلك كما كانت تجعل لها معنى ، وقد كان هذا ملاحظاً بصفة خاصة فى أثينا حيث بلغت الديمقراطية السياسية أقصى حدودها المنطقية . وهناك بطبيعة الحال من يحدون أن أثينا كانت ديمقراطية على الإطلاق لأن النساء والأجانب المقيمين بها والرقيق لم يكن لهم صوت فى إدارة شئونها . وإذا عرفنا الديمقراطية بأنها مشاركة كل سكان البلاد من البالغين فى إدارة شئونها فإن أثينا لم تكن ديمقراطية لاهى ولا أمة دولة حديثة ، لأن كل دولة حديثة يجب أن تكل أمر الحكم إلى ممثلين من الإداريين المحترفين بسبب حجمها ، وهذا نوع من الأوليغاركية ( حكم الأقلية ) .

أما إذا عرفناها بأنها اشتراك كل المواطنين فى الحكم فعدت تكون أثينا ديمقراطية . ويجب أن تذكر أن المؤرخ الذى للمواطن الإغريق هو

أن يكون أمه على الأقل إن لم يكن أباه كلاهما مواطنين لأن الدولة الإغريقية كانت (نظرياً وعاطفياً) مجموعة من الأقارب لا مجرد سكان منطقة ما.

غير أن تعريف الديمقراطية (١) الدقيق غير هام بالنسبة لهدفنا الحالي ، فإيهما هو أن نرى كيف أن نظم أثينا السياسية أثرت في حياة الأثينيين ، وعقله وسنصفها في هذا الفصل ، أما في الفصل التالي فسلماحظها أثناء العمل تحت ضغط حرب بالغة الخطورة .

وقد كان المجلس أسمى السلطات كلها ، وكان يذل كل شيء ممكن للاحتفاظ له بمكانته في الحقيقة وعلى الورق . ولم يكن من الممكن في أثينا أن يقبض هذا الجهار على الحكم . وهذه ميزة أخرى للبلاد ذات الحيز الصغير . وقد كان المجلس يتكون من كل أثينيين بالغين تعترف وحدته الإدارية بشرعيته ، ولم يكن قد سبق أن حرم من حقوقه عمداً بسبب جرم خطير . ولم يبق أثر لخبارة مؤهل الماشية إلا في الجيش . وهو أمر له مفزاد ، وقد كانت البوليس ، هي مجتمع المواطنين إلى حد بعيد كما أنها كانت دولة فوق البشر إلى حد ضئيل مما ترتب عليه أن المواطن كان عليه أن يحدد معداته الحربية ، فكان من نتيجة ذلك أن الرجل الذي كان من الغنى بحيث يمتلك جواداً كان يحارب في سلاح الفرسان على جواده ولو أن البوليس كانت تدفع أجر طعام الجواد أثناء الخدمة . أما من

(١) ما دام معنى كلمة « ديمقراطية » هو : « من الشعب » فإن الممكن أن يحدث ملاحظة هنا عن استعمال الكلمة عند الإغريق في الكلام الذي كان Demokratia دوماً هو « من الشعب » أي « من الشعب » كما وصفها من قبل ولكن فيصحب بطرقات - بيه لاسم « فلاطين » و « رفسو » كوا - « ديموقراط » بمعنى الحكم بواسطة الشعب وذلك مدوناً في « تاريخها » بوعاء من لأوسدركه أو من « ديموقراط » أي « من الشعب » الذي تدعو إليه « بصلحه » الدية ، ثم الاسم الذي تنسب إلى الحكم قائم على موقفه إياه دون علاقه حقيقة من الشعب فهو Po ly

كانوا متوسطى الثراء فقد كانوا يخدمون في سلاح المشاة العلى ، وبأحدوي معهم دروعهم . أما الفقراء اندي لم يكن في إمكانهم إلا التقدم بأنفسهم فقد كانوا يشتغلون مساعدين أو يخدمون في سمن الأسطول . وكان الأجانب المستوطنون يؤدون الخدمات العسكرية إلى جانب المواطنين . أما الرقيق فلم يشتركوا قط في خدمة الجيش أو الأسطول إلا مرة في لحظة من لحظات الخطر العظيم حين دعى الرقيق إلى الانضمام إليهما مع وعدم ( وعداً أو فوا به ) بالحرية وكافة الحقوق المدنية ( لا السياسية ) .

وقد كان هذا المجلس وهو اجتماع عام لكل المواطنين من الذكور المقيمين في أثينا هو الهيئة التشريعية الوحيدة ، وكان له الرقابة النامة على الإدارة والقضاء . فندظر أولاً في موضوع الإدارة . كانت محكمة الأريوباجوس Areopagus القديمة تتكون إذ ذاك ( في القرن الخامس ) من خمسة سابقين تحصر مهمتهم في النظر في جرائم القتل . أما القضاة التسعة Archons الذين كانت لهم سلطة كبيرة في وقت ما فقد أصبحوا يختارون من أعضاء المجلس بواسطة التصويت السرى سوباً . فكان من الجائز أن يخدم أى مواطن في أى سنة خمسة أحد قضائتها التسع ، وكان معنى هذا بالطبيعة الحال أن تولى منصب القضاء فيها وإن كانت له مسؤولية إدارية إلا أنه لم تكن له سلطة حقيقية ، فقد بقيت السلطة للمجلس الذى كان يجتمع مرة في كل شهر ما لم يدع الاجتماع خصيصاً للفصل في أمر ذى شأن ، وكان كل عضو يستطيع أن يتخطب إذا استطاع أن يجعل المجلس يصغى إليه ، كما يستطيع أن يقترح ما يشاء على ألا يتعدى ضمانات دستورية دقيقة معينة ، غير أن مثل هذه الهيئه الكبيرة كانت تحتاج إلى لجنة لتحصير أعمالها وتنصرف في أمورها الهامة العامة . وقد كانت هذه اللجنة هي مجلس الخمسة Boe ( اسوايه ) الذى لم يكن يسحب، عساً بل كان يختار طريق التصويت السرى بمعدل خمسين من كل قبيلة ولما كان هذا المجلس

يختار اعتباراً ويتكون من قوم مختارين كل الاختلاف سوريا لم يكن من الممكن أن يسوده شعور جماعي ، وكان الهدف كل الهدف هو ألا يسيطر شيء على المجلس ، وكان الأعضاء الذين تتكون منهم أكثر اللجان الإدارية ( الإدارات الحكومية ) هم من مجلس ( البولييه أو الخمسة ) ولكن لما كان خمسة أشخاص لا يمكن أن يظلوا مجتمعين في جلسة مستمرة كما أن عددهم كان أكثر بكثير من أن يكونوا لجنة تنفيذية ذات كفاية ، فقد كان هناك مجلس داخلي « Priany » يظل في جلسة مستمرة عشر العام ، وهو يتكون بدوره من الحسنيين رجلا المختارين من كل من القبائل العشر ، وكان أحد هؤلاء ينتخب بالاقتراع السري كل يوم ليشكون الرئيس ، وإذا كان هناك اجتماع للمجلس فقد كان يرأسه ، وكان يعتبر الرئيس الاسمي للدولة لمدة أربع وعشرين ساعة . ( ولما كانت بلاد الإغريق ذات تصرفات مسرحية شائقة فقد تصادف أن شغل سقراط هذا المنصب يوماً قرب نهاية الحرب عندما ساد المجلس الاضطراب والعنف — كما كان يحدث أحياناً وليس غالباً — ولما حاول بطريقة غير قانونية بتأناً باتهام مجلس القواد بأجمعه بالخيانة لفشله في إنقاذ الباقين على قيد الحياة من معركة أرجنوساي Arg nusae البحرية التي انتصروا فيها ، فقد تحدى سقراط الجمع المضطرب وردض أن تؤخذ الأصوات على هذا الاقتراح المخالف للقواعد ) وكان على القضاة الذين يتركون ماصبهم أن يقدموا إلى المجلس تقريراً عن أعمالهم الرسمية ، ولم تكن تنهى مسؤوليتهم حتى يمروا بهذه المراجعة . وهذه تعتبر رقابة أخرى على الإدارة ولم يكن يسمح لهم بمحادثة أيما أو بيع ممتلكاتهم حتى تتم هذه الإجراءات .

وكان هناك منصب واحد هام لا يمكن أن يترك عرصة المخاطر التصويت السري وهو قيادة القوات البرية أو البحرية ، إذ كان القواد أو أمراء البحر العشرة Stratego يستحقون علماً ولكن سوريا . ولو أن

إعادة انتحارهم كان مسموحاً بها بل كانت أمراً عادياً بالمعنى ولم يكن من غير المألوف أن يكون الآثمي قائداً في معركة وجدياً عادداً في معركة تالية وقد كانت هذه حالة مطرفة للصكرة الأساسية المطلوبه من الديمقراطية وهي ، أن تحكم مرة وأن تحكم مرة أخرى ، كما لو كان على عصر نقابة العمال في سنة أن يعود بصفة أرتوماتيكية إلى مضادة العمل في السنة التالية . ولما كان هؤلاء هم المواطنون الوحيدون المنتخبون بكل صراحة على أساس الكفاية الخاصة وهم يشغلون وظائف يمثل هذه الأهمية فقد كان للقواد نموذ عظيم في شئون المدينة بطبيعة الحال . وقد قاد بريكليس الآثينيين مدة طويلة جداً عن طريق هذه الوظيفة وعن طريق تفوقه الشخصي في المجلس .

ولقد كان المجلس لا يكتفى بمراقبة التشريع والإدارة لحسب بل بمراقبة العدالة أيضاً . وكما أنه لم يكن هناك إداريون محترفون فكذا لم يكن هناك قضاة أو محامون محترفون . وقد ظل مبدأ التجاه المعتدى عليه مباشرة إلى زملائه المواطنين طلباً للعدالة مرعياً في المحاكم المحلية فيما يخص بالأمور النافهة وفي المحاكم الآثينية بالنسبة للأمور الجسائية والمدينة الهامة . وكان المحلفون فعلاً قسماً من المجلس يتراوح عددهم بين ١٠٠١، ١٠٠١ تبعاً لأهمية القضية ولم يكن هناك قاض بل كان مجرد رئيس شكلي فقط مثل رئيس المحلفين عندنا . ولم يكن هناك محامون ، فكان الطرفان يترافعان في قضيتهما ، ولو أنه كان في إمكان المدعى أو المدعى عليه في الحقيقة أن يحصل على كاتب محترف للخطب يصوغ له خطبته وإن كان هو يحفظها عنده ويلقيها بنفسه . وقد كان كل من هؤلاء المحلفين الشعبيين من الثقة في القانون وواقع الحياة . ولم يكن هناك استئناف . وإذا كان الذنب مما لم يقرر القانون عقوبه محددة عليه فقد كان المدعى إذا كسب قضيته يقترح العقوبة . لأن العدد الكبير من المحامين لم يكن يستطيع أن يحدد الحكم بطريقة مريحة ، كما أن المصم كان يقترح



بدلها ، وكان على المحققين احتير أحدهما . وهذا يصير الإجراء الوارد في كتاب أبلاطون ، *Apology* ، فعندما أدب سقراط طالب الاتهام بقوة الإعدام ، أما سقراط فقد اقترح أولاً حرية المدينة مقابل هاتم اقترح رسمياً — لا انبني وهو ما كان المحققون يقلونه بسرور — بل عرامه تكاد تكون من قبيل العبث والسخرة .

هذه النظرة الفاحصة ولولأنها موجزة تظهر نقطة جوهرية هي أن الشئون العامة في أثينا كان يتولاها الهواة بقدر الإمكان . أما المحققون فقد كانوا يمسحون أحضيق مجال يمكن ، بل أن الخبير بالفعل كان في العادة عبداً للجميع . وكان كل مواطن بدوره إما جديداً (أو بحاراً) أو مشرعاً أو قاضياً أو إدارياً إن لم يكن بصفته أحد القضاة التسعة الكبار فسيكون ذلك قطعاً بصفته عضواً في مجلس (البوليه أو الخمسمائة) . وقد يرى القارئ أن هذا الاستخدام غير المألوف لهواة مثير للسخرة . ولقد انتقده سقراط وأبلاطون بانفس انتقاداً شديداً ، ولو أن ذلك لم يكن لأنه غير مجد بقدر ما كان لأنه يكن مهمة « الفن السياسي » الكبرى — وهي الارتقاء « الناس إلى مستوى أفضل — إلى رجال يجهلون بها جهلاً تاماً .

وقد كان وراء كراهية الأثينيين للاعتراف ما يكاد يكون نظرية قائمة عن « البوليس » مؤداها أن واجب اشتراك الفرد في الوقت الملائم من حياته في كل شئون البوليس إنما هو دين عليه نحو « البوليس » ونحو نفسه على السواء . فقد كان ذلك جزءاً من الحياة الملائمة بالنشاط إلى كانت « البوليس » وحدها تستطيع أن تفيها . ولم يكن الحصول عليها في استطاعة الرجل المتوحش الذي يعيش لنفسه فقط ولا البربري ، المتمسك الذي يعيش في إمبراطورية منسعة يحكمها ملك وخدمه الشخصيون . فقد كان حكم الناس لأنفسهم عن طريق المناقشة وكذلك رياضة النفس على انظام والمسؤولية

الشخصية والاشتراك المباشر في حياة البوليس في كل صغيرة وكبيرة هي أساس الحياة بالنسبة للآئيني

ولم يكن ذلك ،، يتفق مع حكم دولة متسعة حكماً تمثلها . هذا هو السبب في أن آئينا لم نستطع أن نتمو مثل روما فنقسم إليها عدداً من « البوليس » الأخرى . فقد كانت مسئولية اتخاذ الإنسان لقراراته وتنفيذها وتقبل النتائج بالنسبة للآئيني جزءاً ضرورياً من حياة الرجل الحر . وقد كان هذا أحد الأسباب - التي جعلت مأساة أرسخيلوس وسودوكايس ومهاة أرسطوفانيس هي الفن الذي يحبه الشعب في ألبا بينما السبب في فما المحبوب . وقد كانت عادة الآئيني أن يعنى بالأشياء الهامة ولهذا فقد كان يبدو أى فن لا يعالج المواضيع الهامة فناً صبيانياً .

وربما أوحى وصف الدستور الآئيني هذا وهو وصف قصير جداً بحكم الضرورة إلى القارئ بفكرتين على الأقل ، هما أن هذا الأمر كله كان يؤخذ مأخذ الهواية إلى حد بعيد . كما أن الآئينيين كان عليهم أن يقضوا وقتاً كبيراً جداً في الأعمال الهامة إن كان يرجى لهذا النظام أن يسير حقاً على ما يرام .

فلنبداً بالنقطة الأولى ، لقد كان الحكم عندهم حكم الهواة بأدق معاني هذه الكلمة أى الحكم بواسطة أناس يحسون الحكم والإدارة . وقد يكون التعبير عنها هكذا مضللاً لأن كلمتي « حكم » ، « إدارة » قد اكتسبت لدينا أهمية عظيمة فيما أمران في حد ذاتهما أو مطلقاً يكرس بعض الدين أسماً توجيههم حياتهم من أجلهما ، أما بالنسبة للإغريق فقد كانا مجرد وجهين من الأوجه العديدة في حياة « البوليس » . إن مباشرة أعمال « البوليس » لم تكن واجباً على كل إنسان نحو لبوليس فقط بل نحو نفسه كذلك كما أن كل إنسان كان مهتماً ومشغولاً بها إلى حد يشعل كل وقته وجهده فقد كانت

جزءاً من الحياة الكاملة المليئة وقد كان هذا هو السبب في أن الآثيين لم يكن يستخدم الإدارى أو انقاصى المحترف قط إن كان في أمكانه ذلك ، فقد كانت « البوليس » ، نوعاً من « الأسرة العائقة » ، والحياة العائقة تعنى الاشتراك اشتراكاً مباشراً في شئون الأسرة ومشاورتها . وهذا الموقف تجاه « البوليس » ، يفسر لنا أيضاً السبب في أن الإغريق لم يتكبر - كما نقول - الحكومة التمثيلية ، فما الذى كان يدعوهم إلى ابتكار شيء كان الإغريق جميعاً يخالطون من أجل إلفائه وهو أن يحكمه أحد غيره ؟

ولكن أكان هذا الأمر أمر هواية بمناهاها الآخر أى بمعنى قلة الكفاية أو عدم الأهمية ؟ إنما نستطيع على ما اعتقد أن نجيب على هذا السؤال بكلمة « لا » ، إذا كان المعيار الذى نقيس به الأشياء هو الحكم كما يوجد عادة بين الناس وليس السكال . فقد كان نظام الحكم عديم مستقراً إذ أنه نهض بسهولة جداً من ثورتين كان الحكم خلالهما أو ليجاركيما وقد نشأتا بسبب ضغط الحرب الفاشلة . ولقد كفر نظام الحكم الحصول على إمبراطورية وحسن إدارتها ، وأفلح في جمع الضرائب وضبط الاقتصاديات والمالية والعملية المتداولة بحزم ملحوظ . ويبدو أنه حافظ على مستوى من العدالة العامة لم تبلغه حكومات معينة في زماننا . ولقد خسر حرباً خطيرة لاحتقاره إلى الشجاعة أو الحماسة بسبب أخطاء جسيمة في الحكم على الأمور . وأى نظام من نظم الحكم معرض لذلك ، فإذا حكم عليه طفقاً لهذه الأمور جميعاً أى طفقاً لمعايير الكفاية العادية فحب ألا يصدر الحكم على هذه التجربة من تجارب الديمقراطية المطبقة بأنها لم تكن ناجحة

أما الآثيني فإنه كان يتقبل كل احتجارات الكفاية هذه على أنها مشروعة

ولكنه كان صيف إليها احتساراً آخر وهو هل صمت للمواطن العادى حياة طيبة إلى حد معقول ، أى هل شجعت تفكيره ، وأرست روحه بالإصافة إلى القيام بما ينظره بحسب اليوم من الحكومة ؟ بعد الإجابة على هذا السؤال لا يمكن أن يكون هناك تردد على الإطلاق . ولقد استخدم فلاسفة مثل سقراط وأفلاطون اختباراً أدق بكثير : فتساملوا عما إذا كان نظام الحكم هذا قد درب الناس على الفضيلة ؟ وقد قال أفلاطون في محاوره Gorgias أن ثيمستوكليس وكيمون وبريكليس قد ملأوا المدينة بالتحصينات والفساسف التى من هذا النوع ، ولكنهم فشلوا تماماً فى أول واجب للسياسى وهو جعل المواطنين أفاضل . ، غير أن قلباً جدياً من الحكومات هى التى هدفت إلى الكفاية التى من هذا النوع .

وعند انتمى فى كفاية نوعها أدنى من هذا يجب أن ننذكر شيئاً أحدهما صغر الدولة ، إذ أن هذا الاجتماع الإقليمى الأثينى وهو المجلس مثله كمثل المجلس المحلى النشيط فى أيامنا هذه كان يعالج فى أغلب الأحيان مسائل يعرفها كثير من أعضائه على الأقل معرفة مباشرة . ثم إن تعقد الأمور كان أقل بكثير مما هو عليه اليوم . ولا نقصد بالفعل تعقد الأمور الفكرى أو الخلقى فهو هو ذاته دائماً وإما نقصد تعقد التنظيم . فإذا أعلنت الحرب لم يكن يقتضى الأمر تعبئة كافة موارد الأمة ، وما يستتبعه من لجأ لا تنتهى ومن استهلاك هائل للورق بل كان الأمر يستدعى مجرد ذهاب كل إنسان إلى بيته من أجل درعه ودرجه وطعامه اليومى وإبلاغ المسئولين عن حضوره لتلقى الأوامر . وقد ارتكبت المجلس أسوأ أخطائه باتخاذ قرارات فى مواضع تتعدى نطاق معرفته الشخصية وهكذا أصدر فى وسط الحرب قراراً بعبثه وهو قرار معمم بالمصائب رغم أن القليلين جداً كما قال ثوكوديديس كانوا يعلمون موقع صقلية لا مقدار حجمها

وكذلك يجب على الإنسان أن يذكر أن كل أعضاء هذا المجلس فيما عدا  
أصغرهم سناً كانت لهم تجربة مباشرة لإدارته في الوظائف المحلية والقبلية  
المختلطة وفي المحاكم ، وأن حمائمه رجل حديد كانوا يشتعلون كل سنة  
في مجلس ( البولية أو الخمسائة ) ، فيعدون مشروعات انقوائين لحرصهم على  
المجلس ويستقبلون البعثات الأجنبية ويعالجون الشؤون المالية وكل ما عدا  
ذلك من الشؤون . فإذا أخذنا ٣٠٠٠ ر. على أنه تقدير معقول لعدد المواطنين  
في العادة فإنه يتضح أن اشتغال كل مواطن في ( البولية أو مجلس الخمسائة )  
كان أقرب احتمالاً من عدم اشتغاله . ولقد كان المجلس غالباً ما يتكون  
في حقيقة الأمر من رجال يعرفون ما ينكلمون بشأنه عن تجربة شخصية .

وهذا ينقلنا إلى بحثنا الثاني وهو كيف كان الآثني العادي يجد وقتاً يتسع  
لهذا كله . فهو لم يكن رجلاً فوق البشر كما كان اليوم عنده يتكون من  
أربع وعشرين ساعة مثل يومنا الحالى ، ومن الواضح أن هذا سؤال هام .  
لقد كان الإغريق يمتدكون الأرقاء مثلهم مثل كل الشعوب المتدينة في الزمن  
القديم وفيما تلاه من الأزمنة . وقد استنتج من ذلك الكثيرون من لم يقرأوا  
أريستوفانيس بل قرأوا كروخ العم نوم ، أن ثقافة أثينا كانت من شأن طبقة  
تعم بالفراغ وتعتمد في معاشها على الرقيق ، وقد يكون في هذه العقيدة  
ما نتمرى به نحن الذين لنا مقدره اقتصادية أكبر ، وإن كان عندنا من الحضارة  
الحقيقية أقل منهم بكثير . غير أن هذه عقيدة زائفة من أساسها . إن الشبه  
قليل جداً بين الرق عند الإغريق في القرنين الخامس والرابع وبين الضياع  
الرومانية الكبيرة *lati fundi* التي كان يهاجها الرقيق ، والتي نشأت عن نقص  
سكان الريف

فأولاً إن نظام الرق في الروم لم يكن يكون له وجود في بلاد الإغريق ،  
كما أن التقيد الذي ظل قائماً عندهم هو أن المواطن كان يمتلك أرضه دون أن

يقدم له الرقيق فائدة تذكر في زراعة مثل الأرض المحدودة التي كانت له .  
 إذ كان للعد أن يأكل تقريباً بقدر ما ينتج من المحصول ، وكان الفلاح الثرى  
 مثله كمثل المواطن الذى يسكن المدينة يحصل أن يكون له قليل من الأرقاء  
 الذين يستخدمهم غالباً في قضاء حاجاته الشخصية والمالية . وكان للآثينى الذى  
 يخرج لشراء حاجاته عبيداً أمكنه ذلك يحمل له ما يشتره كما كان عنده في البيت  
 عبد أو إثنان أو جاربة أو جاريتان يؤديان عمل الخادم أو المروض عندنا .  
 وقد زاد ذلك من مسرات الحياة عندهم ورقى الحضارة إلى حد ما مشابهاً أعان  
 الخدم الذين اعتدنا أن نستخدمهم سيدات الطبقة الوسطى على لعب البردج  
 عصر كل يوم ، وكما ساعدوا الأساندة على تأليف الكتب ، وانكهم لم  
 يسكنوا عماد الحياة الاقتصادية في أثينا سلك تأكيده . ويقدر حجة (١)  
 حديث في تاريخ الإغريق أن حوالى ١٢٥٠٠٠ عبيد كانوا في أثينا قبل  
 حرب البيلوبونيز كان يتولى منهم الخدمة المنزلية حوالى ٦٥٠٠٠ أى أكثر  
 من النصف بقليل ، كما كان هناك في تقدير الأستاذ جوم حوالى ٥٠٠٠٠ آثينى  
 منهم فوق الثامنة عشرة . وبذلك كان العدد الكلى لسكان أثينا أكثر  
 من ١٠٠٠٠٠٠ . وهذا يجعل نصف عبد تقريباً لكل آثينى في المتوسط .  
 ولكن من المحال أن نقدر عدد الأسرا التي لم يكن بها أحد من الأرقاء ، وعدد  
 التي كان بها أرقاء كثيرون ، ويقدر الأستاذ جوم أن ٥٠٠٠٠ من الأرقاء  
 الآخرين كانوا يشتغلون في الصناعة و ١٠٠٠٠ في المناجم . وقد كان الآثينيون  
 يعاملون الأرقاء المشتغلين في المناجم بقلوب قاسية إلى أقصى حد . وهذه هي  
 الوصمة الوحيدة الخفيفة التي تطلق إنسانية الآثينيين العامة ، فقد كان لأرقائهم  
 على العموم حرية كبرى وحماية قضائية أكثر بكثير مما يلقاه المواطن السود  
 في الولايات المتحدة الأمريكية مثلاً ، إلى حد أن الإسرطيين كانوا يسحرون

(١) تاريخ الإغريق ، المجلد الأول ، من تاريخ حصار لأورينهم ، ١٠٠ - جود صدر  
 (٢) ومن هذا هو أصل « مودر تاريخي » موجود عن حصاره الإغريق

من أمك لا تستطيع أن تفرق في شوارع آثينا بين العمد والمواطن ، عبر أن الآثينيين كثيراً ما كانوا يحملون الأرقاء يشعلون في المايجم حتى الموت ، وقد كانت الأحوال أسوأ بكثير منها في مصانعنا في أقطع الأوقات ، ولو أن الآثينيين كان من حقهم أن يعتقدوا بأن الآثينيين لم يدعوا على الأقل بأن هؤلاء الضحايا كانوا مواطنين لهم نفوس خالدة ، كما أن أسوأ الأرقاء هم الذين كانوا يرسلون إلى المايجم . على أن ذلك كان شيئاً شاعراً . فن جهة كان هذا بلا ريب مما يطبق عليه المثل القائل : بعيد عن العين بعيد عن القلب ، ومن جهة أخرى ما كان يمكن تقريباً تشغيل المايجم دون شيء من هذا القبيل . إن أكثر الحضارات لها فظائعها الخاصة ، فنحن نقتل ٤٠٠٠ مواطن سنوياً في الطرقات لأن أسلوب حياتنا الحاضرة لا يمكن استمراره بغير ذلك . إن فهمنا هذه الظروف لا يعني بالضرورة الصفع عن ذلك ولكن ليس هناك من ضرر أن حاولنا أن نفهم .

أما الخمسون ألفاً المقدر اشتغالهم في الصناعة فيبدو أن هذا عدد هائل بالنسبة إلى عدد السكان كله ، فلو كان عندنا في بريطانيا العظمى عدد من الأرقاء المشغلين بالصناعة يمكن مقارنته بذلك ، أي نحو عشرة ملايين لكنا نعيش الآن في غاية الراحة لولا قوانين الاقتصاد التي من المؤكد أنها تقرر أن أحوالنا كانت تكون أسوأ منها في أي وقت . ولكننا عندما نحاول أن نقدر الأثر الاقتصادي والاجتماعي لهؤلاء الخمسين ألفاً من الأرقاء ، ينبغي لنا أن نتذكر أن عملهم عندما لم تكن هناك آلات لم يكن ينتج فائداً كبيراً يعيش عليه الآخرون بل كان ينتج شيئاً لم يكن كبيراً سكل تأكيد ، لقد كان هناك حد معين بالنسبة لاستخدام الأرقاء في الصناعة .

في أوقات الكساد كان العمد الكسول حسارة تامة ، فقد كان يتمسك بطعامه . وكانت قيمته الكلية أقل من قيمة طعامه . ولذلك نرى أن المصنع ،

العادى كان يستخدم الأرقاء والمواطنين كليهما ، كما كان من الممكن طرد المواطنين . ولقد كان المصنع ، فى جميع الأحوال شيئاً صغيراً جداً بالفعل . ولو أنه كان يستخدم عدداً يصل إلى عشرين من الأرقاء لكان يعتبر مشروعاً كبيراً أحتما . وقد أصبحنا نعرف بمصل الكشف حديثاً عن بعض النقوش شيئاً عن إدارة العمل فى بعض المباني الأكر و بوليس ، فمن نعرف أن آتينا كانت دولة به الأرقاء ، ولذلك فإننا نتوقع بكل أطمئنان أن يكون البارثيون والأريحيثيوم Erechtheum وبقية المباني قد بنى كلامها مقالول يستخدم فرقاً من الأرقاء . فإذا أمعنا الفكر ربما كان من السخف أن نفترض أن العبارة والسمت اللذين بهذه الجودة وهذه الرصانة وهذه الرقة والذكاء هى من ابتكار ملاك الرقيق . وهذه المباني تختلف عن الأهرام كل الاختلاف ، وإنما نجد أن ما تم بناؤه ليس من قبيل الأهرام ولكنه شئ آخر غيرها مما لا يكاد يصدق العقل . لقد أنشئت هذه المباني عن طريق آلاف من العقود المستقلة ، فأحد المواطنين ومعه أحد الأرقاء يتعاقد على أن يستحضر حمولة عشرة عربات من الرخام من بنىاكوس ، أو مواطن يستخدم اثنين من الآثينيين كما يملك ثلاثة أرقاء يتعاقد على حفر حروز فى أحد الأعمدة . لقد أعانهم الرق كما تعيننا الآلة أما القول بأنه كان عماد الاقتصاد الآثينى فهذه مبالغة خطيرة . والقول بأن الرق حدد طابع المجتمع وأبعد المواطن العادى عن العمل الشاق إنما هو قول مضحك . أما الذى أدى إليه فعلاً فهو أنه خفض مستوى الأجور ، إذ أنه لو أصبح شراء الرقيق أكسب فى النهاية لما استخدم أحد الأحرار فى العمل ، غير أن امتلاك الأرقاء كان عملاً عظيم الموريط

وفى بحثنا إذن عن مصدر وفرة العراغ الذى يبدو أنه كان عد الآثينيين نش هذه الوفرة لابد أن نعطى للرق الأهمية التى يستحقها لا أكثر . وفى أغلب الأحيان كان فى وجود الرق مجرد رماة فى فراع أولئك الذين كانوا يتمتعون براحة كافية . وعليها أن نعطى أهمية أكثر بكثير ، نلى ما أعتقد ،



لمستوى المعيشة البسيط كل البساطة الذى كان يعيش فيه حتى الآن الذى لم  
تعد كان بينه وأدته وثيابه وطعامه بحالة يسدها تصنع الباطن يحترق ،  
وهو لا يستطيع بالفعل أن يعيش عليها في مراح رباطا

صحيح بطبيعة الحال أن الآلات تنج لنا أغلب الأشياء التى تعد بالآلوف  
أما الإغريق فلم يكن حالهم كذلك ولكن ذلك سلاح ذو حدين . ونحن  
لا نبحث الآن موضوع الراحة بل موضوع الفراغ وهو الذى كان يقدره  
الإغريق أكثر من كل شيء إلا المجد . وليس من الواضح أن الآلات  
زادت من فراغاً بوجه عام ، ولكنها زادت زيادة هائلة من تعقيدات الحياة  
بحيث أن قسراً كبيراً من الوقت الذى يوفره لنا الإنتاج الآلى يأخذه ما  
العمل الإضافى الذى يخلفه عصر الآلات .

وثالثاً عندما يحسب إقارء مقدار وقت العمل الذى يقضيه ليستعين  
به على دفع ثمن الأشياء التى كان الشخص الإغريق يستغنى عنها بكل بساطة ،  
من أمثال أرائك الجلوس والبنقات وأربطة الرقبة وأغطية الفراش  
وأنايب الماء الجارى والتبغ والشاي ، وظائف الحكومة ، ليفسح فى الأعمال  
التي يراوها وتستنفد وقته والتي لم يكن يعملها الرجل الإغريق ، مثل قراءة  
الكتب والمصحف اليومية والسفر يومياً للعمل والنسك حول المنزل وتشذيب  
العشب النامى فى الحديقة وهو يعتبر من ألد أعداء الحياة الاجتماعية والفكرية  
فى مناخ بلادنا (إنجلترا) ثم أن دورة العمل اليومى لم تكن تنطعمها الساعة  
بل الشمس ، إذ لم يكن هناك ضوء صاعى مفيد وكان النشاط يبدأ فى الصبح ،  
فى محاوره ، روتا جوراس ، التى كتبها أعلامون أن شأناً محمماً يريد  
أن يرى سقراط بسرعة وبأدى عليه مبكراً إلى حد أن سقراط كان ما يزال  
فى الفراش (والأحرى أن يقول على الفراش وأن يفترض أنه ملتف فى  
عامة) . وكان على الشاب أن يتحسس طريقه إلى الفراش لأن الدور

لم يكن قد برع بعد . ومن الواضح أن أفلاطون يعتقد أن هذه الرقابة تمت في وقت مبكر ، ولو لم تذكر فيها مخالفة صارحة . ولأننا لم نعثر إلا على العاديين الذين يبدو أنهم كانوا يستطيعون أن يقصوا ساعتين كل عصر في الحمامات أو الخسار يوم ( وهو مركز ثقافي رياضي متسع يعده الجمهور لنفسه ) . وليس في وسعنا أن نقطع لأنفسنا مثل هذا الوقت في منتصف النهار ، بل إننا نستيقظ في الساعة وما يتبع ذلك من الحلاقة والإفطار وارتداء هذه السترة الكاملة من الدروع الثقيلة . وهكذا لا نبدأ العمل قبل ٨.٣٠ أما الإغريق فقد كان يستيقظ بمجرد أن يبرغ النور وينفض عنه الغطاء الصوفي الذي كان يتحف به للنوم ثم يلعبه حوله برشاقة جاعلاً منه سترته . وكان يرسل لحبته ولا يتناول طعاماً للإفطار بل كان مستعداً لمواجهة العالم في خمس دقائق . ولم يكن العصر هو منتصف اليوم بل هو آخره على وجه التقريب .

وختاماً لقد كان هناك أجر يدفع عن كثير من أنواع الخدمة العامة كما كان يدفع أجر عن حضور جلسات الجمعية العمومية (١) وقد وجدت أثينا في الحقيقة ما وجدناه نحن خلال هذا القرن ، وهو أننا إن أردنا من المواطن العادي أن يكرس وقتاً للخدمة العامة فالواجب علينا أن نعوضه عن ضياع وقته . ولو أننا لم نقرر حتى الآن مبلغاً من المال لمساعدة الفقراء على دفع أجور مقدمهم في مسرح حكومي لا نمتلكه . وقد كان أعضاء البوليه ، أي مجلس الخمسة والعشرون للتسعة والموظفون الآخرون والمخلفون الذين يشتملون في المحاكم يتعاضون أجوراً ولو أنها قليلة من الأموال العامة التي كانت إلى حد ما مكاسب الإمبراطورية . ويبدو أنه قد أصبح مقررًا بحلأ أن المواطنين الآثينيين كانوا يعنون دوراً أقل في صناعة أثينا ونجارتها في القرن الرابع

(١) الجمعية العمومية أو مجلس بوب *ekklesia* ، ومجلس اشوح *Boule*

بيما كان دور الأحاب المقيعين أكثر وليس السبب هو أن الآنييين كانوا يعتمدون على الرق أكثر في معيشتهم ولكن اعتمادهم على أجور الحكومة كان أكثر .

وهذه التجربة في الحكم الديمقراطي لا يمكن تكرارها أبداً إلا أن نشأت دول مستقلة من الصغر بحيث نستطيع أن نقطعها في يومين مشياً ، كما أن الطريقة المطوية على الثقة التي استعنت بها الآنييون رغبتهم في الاشتراك شخصياً وبطريقة مباشرة في كل ناحية من نواحي الحكم إلى حدها الأقصى المنطقي ، يكاد يلوح أنها تحد مقصود لضعف الطبيعة البشرية . فهل من الممكن أن يحظى شعب بأكمله بالحكمة المستمرة وضبط النفس لإدارة شؤنه الخاصة إدارة حكيمة ؟ وهل يستطيع شعب أن يدير شئون إمبراطورية وأموالها الخاصة دون أن ينطرق إليه الفساد ؟ وهل يستطيع أن يدير شئون حرب ؟ وما هي عوامل الإغراء والخطر التي تهاجم الديمقراطية ؟ إن آنيينا تمدنا بتجربة معملية تقريباً في الحكم الشمي إلا أنها حدثت قديماً جداً وبلغت ميته جداً ولعله مما يستحق اهتمامنا اليوم أن نوليها شيئاً من العناية .

## الإغريق في الحرب

نقد كان العالم الإغريق مقسماً حينذاك . فقد كانت الإمبراطورية  
اللاتينية التي كان الناس يدعونها علناً ، مستبدية ، تقف في جانب وتقف  
في الجانب الآخر لإسبرطة وعدد من الولايات التي كانت تعطف على إسبرطة  
( وبخاصة بوبوتيا Boeotia ) وكانت الجماعة الأولى قوية في البحر أما الثانية  
فكانت قوية برأ وكانت الأولى أبونية بصفة أساسية أما الثانية فكانت دورية  
— على أن هذا التقسيم لم تكن له أهمية في حد ذاته . وكانت أثينا تجذب بل  
تصر على أن تكون دساتير حلفائها ديمقراطية ، أما الجماعة الأخرى فتجذب  
الأوليغاركيات ( حكومات الأقلية ) أو الديمقراطية المحدودة على أكبر  
تقدير وهو موقف مألوف . لقد كان هناك شعور عام بأن تصرف أثينا  
لا يطاق بالنسبة لتقييد الحكم الذاتي عند حلفائها الإسميين . وقد ساعد هذا  
إسبرطة على أن تتقدم بصفها نصيرة الحرية الإغريقية . وكان هناك أيضاً  
مناسبة تجارية بين أثينا وكورنثا ، كما كان هناك خوف في كورنثا من أن تجارتها  
مع الإغريق الغربيين مهددة . وفي هذه المرة كان الكورنثيون هم الذين حشروا  
الإسبرطيين على قبول الناحية الأثينية . ولقد سبق أن ذكرنا وصفاً بصور  
لنا أخلاق الأثينيين ألقاه في هذه المناسبة خطيب كورنثي في إسبرطة .

لقد كانت هذه الحرب نقطة تحول في تاريخ البوايس ، الإغريقية فقد  
استمرت على وجه التقريب من سنة ٤٣١ إلى سنة ٤٠٤ أي سبعاً وعشرين  
سنة من القتال الذي فيما عدا فترات توقف قصيرة استمر في كل جزء  
من العالم الإغريق تقريباً في كل بحر إيجة ، في حاكيدونية وحولها وفي بربوتيا  
وحول سواحل البلوبونيز وفي شلال غرب الإغريق وفي صقلية حيث دمرت

حملان قورينان أرسلهما الآثبيون على عمل دون أن يبقى منهما أحد تقريباً على قيد الحياة وتركزت أتيكا كلها — فيما عدا المدينة ويديره اللذين كانا محاطين بحط من التحصينات — مكشوفة للجيوش الإسرطية . وكانت عرضة للهيب والتجريب بطريقة مطمة . وفي العام الثاني من الحرب عندما اضطر سكان الريف في أتيكا إلى ترك بيوتهم للأعداء والاحتفاء داخل الأسوار والسكنى حيثما استطاعوا انلشر الوباء واستشرى عدة أشهر . ويعطينا ثوكوديديز (الذي أصيب به ولكنه شفى منه) بطريقة التي تبدو هادئة في الظاهر وصفاً عنه تقشعر منه الأبدان . وهو يعلق أهمية خاصة على الانهيار الخلقى الذي سببه . لأن طاعة القانون والدين والأمانة واللباقة تلاشت أثناء هذا العذاب . وقدمات ربع سكان البوليس تقريباً بما فيهم بريكليس . ومع ذلك فقد أفاقت آثينا وشاخصت البحار واستوردت قمحها بانتظام وأرسلت الأساطيل والجيوش وكانت تستطيع أن تعقد المصانع في ماسينين أو ثلاث بشروط ملائمة إلى أن فقدت آخر أسطول لها بطريقة تدعو للذل بعد الوباء بحمس وعشرين سنة واضطرت إلى الاستسلام تحت رحمة إسرطه .

ومع ذلك فقد استمرت حياة البوليس طول هذا الوقت ، ولم يكن يتقرر شيء له أهمية إلا بواسطة الأهالي في مجلس الأمة . وكان القواد ينتخبون وتفتح الجبهات الثانية والثالثة والرابعة وتناقش شروط الصلح وتدرس التقارير الواردة من الجبهة بواسطة هذا المجلس المكون من جميع المواطنين وهو الذي لم تخنه شجاعته أثناء الحرب إلا مرة واحدة بعد كارثة صقلية ، حين خدع المجلس حتى سلم سلطانه إلى هيئة أصغر منه لم تسكن في الحقيقة إلا سناً راجعة من المصممين على أن يكونوا الفئة التي تحكم البلاد ، وادحكوا حكماً راجعاً عدة أشهر ثم أسقطوا وحيء بديمقراطية محدودة ( مدحها ثوكوديديز مدحاً عظيماً ) ولكن سرعان ما حمل المجلس اهباً ثانياً وصار مفتوحاً للجميع

ولم تكن الحياة السياسية هي التي استمرت فقط بل ان الحياة العسكرية

والصية قد استمرت كذلك . إن التفكير في حالة آثينا أثناء الحرب ينير إحساساً بالهوان عند أولئك الذين يدكرون انهيار حياتنا الثقافية في الحرب العالمية الأولى واهتمام السلطات الشديد بإعلاق كل ما يمكنها لإعلاقه ( فيما عدا التجارة والعمل اللذين تركا يسيران كالعتاد ) والهوس الشعبي الذي جعل سماع يتهوفن وفاجرن مما يتنافى مع الوطنية ، وحماقات النقاد والخط من شأن المسرح . فعندما تعرض الآثينيون لأشد المخاطر واقترب منهم العدو حتى عسكر في أتيكا وقتلت نسبة كبيرة من المواطنين واشتد عوز العائلات استمر الآثينيون في أعبادهم لا بقصد اللهو والمتعة بل باعتبارها جزءاً من الحياة التي كانوا يحاربون من أجلها . ففي الروايات المسرحية التي أخرجت لهم وباسمهم استمر سوفوكليس يفكر في المشاكل النهائية للحياة الإنسانية والخلق الإنساني دون أن يذكر كلمة واحدة عن الحرب كما استمر يوربيدس يعرض بأن النصر أجوف ويقبح الأخذ بالتأثر ، وأعظم ما يثير الدهشة هو أن أريستوفانيس استمر يسخر من قادة الشعب المحبوبين وقواد الجيش والشعب صاحب السيادة نفسه ، كما استمر يمبر عن كراهيته للحرب وعن مباهج السلام في ملاء تجمع بين حضور الدهن والخيال والتهريج وجمال الشعر الغنائي ، وقلة الاحتشام ووضع الجذ في قالب الهزل .

وقد كان سقراط طوال هذا الوقت في آثينا يناقش ويقرع الحجمة بالحجة وينتقد — إلا عندما كان في برتيدايا يحارب بسالة في صفوف الجيش — محاولاً أن يقنع كل من يريد أن يهضم إليه أن الخير الأسمى هو خير النفس وأن الجدل الدقيق هو الوسيلة الوحيدة لإدراكه

ومن جهة أخرى عندما نلتفت إلى سبي الحرب الختامية نجد ما هو جدير بالثناء والتقدير ما وجدنا من قبل ما يستحق إعجاباً . فبعد هذا الشعب نفسه يرقه الخلاف ويكل همه إلى حماة الكيباديس ، الذين حاولوا آثينا

وإسبرطه كلا بدوره والذين كانوا يقتضون النصر اظهري من الجريمة ثم يبدون النصر ويعطون بوحشية على القواد الذين أحرروهم لهم والذين كانت لهم قدرة على النشاط المتقدّم على حساره كل شيء عن طريق إهمال يوم واحد كما يبدو لنا ، وليس في التاريخ ما يكشف عن الخلق الإنساني قوه وضعفه أكثر من هذه الحرب إلا حقاقت قليلة . وشعور الإنسان نحو الحرب مثل هذا الشعور يعود كانه تقريباً إلى عبقرية ثوكوديديز مؤرخها المعاصر لها .

وبدلاً من أن أعطى وصفاً متكلفاً عن الحرب سأترجم أو أشرح فقرات قليلة من تاريخ ثوكوديديز آملاً أن يعطى ذلك للقارىء فمكرة عن الرجل نفسه وعن الإغريق في وقت الحرب وعن المجلس الآثيني أثناء قيامه بالعمل وعن تأثيره على حياة المواطنين وعن اضمحلال الروح الآثينية بصورة محزنة تحت ضغط الحرب . وقد كان ثوكوديديز آثينياً مثرياً عريق الأصل وكان معجباً بيريكليس دون خلفائه وقائداً للجيش في مراحل الحرب الأولى وكان بترك عقله أثراً دامغاً على قارئه . أما من حيث القوة المركزة وافهم العميق للأشياء فلا يجارى ثوكوديديز إلا إغريقيان آخران أحدهما إيسنبلوس والثاني هو الشاعر الذي كتب الإلبادة .

ويمكنا أن نبدأ بوصف ثوكوديديز لمناقشة جرت في المجلس قبل نشوب الحرب مباشرة . وكان قد جاء وفد من إسبرطه يطالب بطلبات دبلوماسية معينة من الآثينيين ، من بينها بصفة خاصة أن يرأعوا الحظر على التجارة مع ميجارا وهي عضو في التحالف البيلوبونيزي . وأخيراً جاء آخر الدفءاء من أسبرطه وهم رامفاس Rhamphias وميلسيبيوس Meresippus وأجيساندر Agesander ولم يتكلموا عن الموضوعات المذكورة من قبل إلا بما هذا مقالوه . إن الإسرطيين يريدون أن يستمر السلام وهذا ممكن إن ركنتم الإغريق وشأنهم . فدعا الآثينيون مجلساً (١) للاجتماع وعرضوا الأمر لمناقشة

وقرروا أن ياقضوا هذه الطلبات ويردوا عليها رداً هائياً وتمكلم كثيرون في شتى المواضيع فاقترح البعض ضرورة الدخول في الحرب واقترح الآخرون ضرورة سحب القانون الخاص بميجارا وعدم السماح له بأن يقف في طريق السلام، وأخيراً تقدم بريكليس بركسانثيوس Ξανθίππος كبير مواطني زمانه وأقدرهم سواء على القول أو العمل وأشار عليهم بما يلي :

أن رأيي هو هو دائماً وهو أنا ينبغي ألا نقوم بأى تنازل لإسبرطة . ولو أنى أعلم أن الذين يستمبلهم الناس ويفرونهم حتى يعلتوا الحرب يغيرون أفكارهم عندما يجدون أنفسهم في وسط الحرب ويدعون الحوادث تغير من أحكامهم، غير أنه من الواضح لى أنه يجب على أن أقدم لكم نفس النصيحة التى سبق أن قدمتها وأطلب من أولئك الذين يفريهم زملاؤهم حتى يدلوا بأصواتهم في جانب الحرب أن يؤيدوا عزماً مشتركاً إذا دهننا الكوارث، وألا بدعوا ذكاه خاصاً إذا نجحنا لأنه كثيراً ما يحدث أن تكون الأعمال والقرارات على السواء نتائج غير متوقعة بناتاً . وهذا هو السبب فى أنا تلشب للصدفة الأمور التى يتضح أنها جاءت مناقضة لكل ما حسبناه .

ويخلص بريكليس من مثل هذه المقدمة التى تمتدح الثبات والاعتدال فى الحكم إلى مناقشة منطقية جداً يقصد بها إلى إثبات أن التنازل حتى عن شيء نافه إنما يفسر بالخوف ويؤدى إلى مطالب جديدة ، وأنه إذا استدعى الأمر الحرب فلن يتغلب سكان البيلوبونيز لحاجتهم إلى الموارد والوحدة . ثم قال لو كنا من أهل الجزر فهل كان يوجد أحد لا يمكن غزوه أكثر منا علينا إذن أن نفكر فى أنفسنا بصفنا من أهل الجزر فبرل عن أرضنا وبيوتنا ونحمى البحار والمدنة (١) ولا نخاطر بمعارك لا فائدة منها من أجل

(١) يفسر هذا بوضوح على أن جمهور المستمعين اتركليس كانوا يبدون فى شك خاصه لى أسا وبريه



أتيكا . ويبغى عليا أن نخزن لا على ضباع البيوت والأراضي بل على  
الآرواح التي نعقدها ، فليست هذه هي الأمور التي تكسب الرجال بل الرجال  
هم الذين يكسونها . ولو اعتقدت أنكم تعملون ذلك لحرصتكم على الخروج  
مها وتدميرها بأنفسكم لتروا سكان البيلوبونير أن هذا لم يجلب لهم النصر .  
إن لدى أسباباً أخرى للثقة إذا امتنعتم عن محاولة كسب أراض جديدة  
لأنى أخاف من أخطائنا أكثر مما أخاف من خطط العدو . وهكذا بعد أن  
اقترح بريكليرس رداً قوياً ليس فيه تحد ، جلس وكان على المجلس أن يتخذ  
قراراً . ولما كان الآثينيون يعتقدون أنه قدم أحسن نصيحة فإنهم أدلوا بأصواتهم  
كما أوصاهم ، ورجع مبعوثو أسبرطة إلى وطنهم ولم يعودوا إلى أثينا .

وقد سجلت بالحرب هزيمة مفاجئة من طيبة على بلاتايا سنروها فيما  
بعد . ثم غزا الإسبرطيون أتيكا وطلوا يدمرون أراضي قرية ( أو مدينة )  
أخارناى Acharnae الهامة . فلما رأى الآثينيون الجيش في أخارناى أى على  
بعد ستة أميال فقط من المدينة أحسوا بأن ذلك شيء لا يطاق وبأنها  
إهانة عظيمة أن يكون العدو قائماً بتخريب أرضهم أمام أعينهم ، وهذا شيء  
لم يكن قد رآه الشبان ولم يره الكبار إلا في حروب الفرس . فصمم الجميع  
ولا سيما الشبان على الخروج لمقاومتهم وألا يتحملوا ذلك على مضض ،  
وأخذوا يتجمعون وجرت بينهم مناقشات حامية فكان البعض يحثهم على  
الخروج والآخرين يحاولون أن يثنوهم عن ذلك ، وكان المنتبشون يقصون  
عليهم كل أنواع النبوءات والناس يصفون إليهم بحماسة وأخذ الآخاريون  
يحثوهم على الزحف لعددهم بأنهم يكونون جاساً كبيراً من الجيش ولأن  
أرضهم هي التي كانت تحرب . وكانت المدينة مرعجة من كل وجه من  
الوجوه كما كان الناس في عيط من بريكليرس إذ أسوا كل النصيحة التي سبق  
له أن قدمها لهم وكانوا يلومونه لأنه قائدهم وقد رفض أن يقودهم للخروج  
وكانوا يعتبرونه مسئولاً عن كل ما أصابهم . فلما رآهم بريكليرس عاصين

ورأى أن وجهة نظرهم ليست سليمة بالمرّة ، ولما كان مأ كدأ من أنه محق في رفض مهاجمة العدو فإنه لم يستدع المجلس إلى الاعتقاد في جلسة رسمية أو غير رسمية بحاقة أن يتورطوا عند الاجتماع وهم في حالة عصب لا حالة تفكير سليم بل اهتم بالدفاع عن المدينة وجعلها هادئة بقدر الإمكان . وجعل يرسل الفرسان باستمرار ليعيد العدو عن الأرض القريبة من المدينة ثم قام في نهاية العام بهجوم مضاد بإرسال أسطول لنهب شواطئ البلوونيز وتخريبها . لقد ذكرت هذا الحادث لنفس السبب الذي لأريب أنه دفع نوكونو ديدير إلى إعادة ذكره وهو الإشارة إلى مقدار الخطر الذي كان يتعرض له الدفاع ضد الحماقة . ونظراً لأسلوب الحياة الأثني فلم يكن هناك من دفاع في الحقيقة إلا جماع حسن الإدراك عند عامة الشعب . فلم يكن أي حافز قوى عند الجمهور مثل : دعنا نفتح الجبهة الثانية الآن . يتبدد في الملاحظات المكتوبة بالطباشير على الجدران أو في التهيج الصحفي ، بل كان من الممكن أن يقدم للجلسات رأساً وينفذ مباشرة ، وكان هذا وحده بما يشجع على الشعور بالمسؤولية . كما كان ينظر من أي مواطن يطالب مثلاً بأن تفتح جبهة ثانية الآن ، أن يوضح كيف يكون ذلك وأين وبأي قوات فلم تكن الدولة عرا به . god mother من الجنيات كما لم يكن يديرها خبراء بل كانت هذا المواطن والمواطنيين الذين يجلسون حوله ويستمعون إليه .

فلما وسعت الحرب الطويلة لا من الشفرة التي بين البلاء وبين عامة الشعب أو بين الأغنياء وبين الفقراء . بل بين طبقة التجار والصناع الذين أقبلت عليهم الدنيا وبين الزراع الذين قاسوا الويلات ، وكذلك لما أصبح للمدينة قادة ليسوا كبريكليس البعيد الطردى الرأي المستقل بل رجال لهم حكمة أقل وروح أحط يميلون إلى استئثار الشعب واستغلاله أكثر من ملهم إلى كبح جماحه — لم يعد عند ذلك الدفاع ضد الحماقة قوياً إلى الحد الكافي .

وقد حدثت مثل هذه اللحظة في السنة الثامنة من الحرب . وهي من أحلك اللحظات التي قاستها أئبنا . إذ أن الإسبرطيين لم يأتوا إلى أتيكا لمرّة الثانية لحسب بل احتاج الوليد المرعب أئبنا كذلك . وهذه هي النتيجة الوحيدة لاستراتيجية بريكلبس التي لم يكن في مقدوره أن يتوقعها . فعير الأثينيون رأيهم وأخذوا يلوهمون بريكلبس اعتقاداً منهم أنه هو الذي أغرامهم بالدخول في الحرب وأنه هو مصدر كوارثهم وكانوا تواقين إلى عقد الصلح مع إسبرطه وأرسلوا لها المبعوثين فعلا دون جدوى . وقد دفعهم اليأس إلى استخدام العنف مع بريكلبس ولذلك دعا المجلس ( إذ كان لازال قائمهم ) عندما رأى أن الغضب يتأجج في صدورهم وأنهم يفعلون في الحقيقة ما كان قد توقع أن يفعلوه .

لقد كانت خطبة بريكلبس ( وهي من الطول بحيث لا يمكننا اقتناسها حتى بعد أن اختصرها ثوكوديدير ) رائعة كما كان استقبال هذا الشعب البائس لها رائعاً . وأنه لثوب رائع أن نجد زعيماً شعبياً يتكلم بمثل هذه الروح السامية ويعتمد هكذا كل الاعتماد على الحجّة المنطقية . وسواء كانت حجّة صحيحة أو خاطئة فليس هذا بموضوع بحثنا الآن . وقد كان مضمون الخطبة على العموم ما يأتي :

لقد دعوت هذا المجلس الخاص لأذكركم بحقائق معينة ولاحتج على بعض أخطائكم . تذكروا أنه أهمّ للدوليس أن تزدهر من أن تقبل الدمار على أفراد من المواطنين بينما تهلك « الدوليس » فإنهم يراكون معها . أما إن أصاب مواطن سوء الخط ولم يصب المدينة فإن هالك أملاً في إصلاح حاله .

وأنهم تحت تأثير آلامكم الخاصة عاصون على لآي حثثكم على إعلان الحرب ولهذا فأنتم غاصون أيضاً من أنفسكم لأنكم أدليتكم بأصواتكم معي . لقد وهمتموني على ما أنا عليه كما أعتقد أي على أني أبعد نظراً من الكثيرين

وأندر مهم في الخطاة - فإن الإنسان إذا لم يستطع أن يعبر عن نفسه تعبيراً واضحاً فلا يكون عدده بعد نظر - كما أن أصدق منهم في الوطنية وفي الراحة الشخصية . فإن كنتم أدليتم بأصواتكم معي لأنكم همتموني على هذا النحو فلا تستطيعوا أن تهملوني اتهاماً زليها بأني أسأت إليكم . أنا لم أغير ولكم أنتم الذين تغيرتم . لقد نزلت بكم مصيبة وأنتم لا تستطيعون أن تشاربوا على السياسة التي اخترتموها عندما كانت الأمور على ما يرام . إن عزمكم الخائر هو الذي يجعل نصيحتي تبدو لكم خاطئة . إن الغيب الذي لا تتوقعه هو الذي يحطم روح الإنسان .

إن لكم ( بوليسا ) عظيمة وشهرة عظيمة فيجب أن نكونوا جديرين بهما . والبحر وهو نصف الدنيا ملك لكم . ويجب أن تفكروا في أتيكا على أنها حديقة صغيرة فقط تحيط بقصر . وإذا كنتم تهربون من مشاق السيادة فلا تطالبوا بشيء من مفاخرها . ولا تظنوا أنكم تستطيعون أن تنازلوا بسلام عن إمبراطورية تعتبر في الحقيقة حكماً استبدادياً ، فالبدل من الإمبراطورية بالنسبة لكم هو العبودية .

لأننا يجب أن نحمل ضربات العدو بشجاعة وضربات الآلهة باستسلام . يجب ألا تلوموني على مصائب ليست في الحسان ما لم تكونوا على استعداد لأن تنسبوا إلى الفضل في الانتصارات التي لم نحسب لها حساباً .

وقد حاول بريكليس هذه الخطبة كما قال ثوكودديدز أن يحول غضب الأثينيين عن نفسه كما يحول أفكارهم عن بؤسهم إذ ذاك . من الوجهة السياسية أقنعهم فلم يعودوا يحاولون عقد الصلح ولكم لم يتوقعوا عن استئثارهم به حتى الرموه مدفع عرامة من المال . ولكن لم يمض وقت طويل حتى انتحوه قائداً ثابة ووكلا إليه كل شيء . وهذه هي الطريقة التي يتصرف بها كل جمهور مجتمع .

وإذا جال بفسركما أن هذا الوباء كان في نشأة وباء لندن مضافاً إليه  
 فرع الآيبين من أن العدو خارج حصونهم يحاصرهم مداحداً فإنه يحس علينا  
 أن نعجب معطمة الرجل الذي استطاع أن يحاطب مواطيه مثل هذا الخطاب ،  
 كما نعجب معطمة الشعب الذي استطاع لا أن يصمى فقط مثل هذه الخطابة  
 في مثل هذا الوقت بل أن يقنع بها فعلاً إلى حد كبير . لقد كان للديمقراطية  
 الآيبية أخطاء وعبوب كثيرة ، غير أن أى تقدير صحيح لها لا بد أن يضع  
 موضع الاعتبار تأثيرها على القوة العقلية والحلقية الرئيسية للشعب الآيبى .  
 وقد يرى البعض أنها فشلت ، غير أن هذا الحكم إن كان صحيحاً فإنه يصدر  
 على مدى إمكانيات الطبيعة البشرية أكثر مما يصدر على نظام سياسى معين ،  
 وقد توفى بريكليس بعد ذلك بشهور قليلة وهو لم يكسد يكون قد شفى من  
 إصابته بهذا الوباء وقد أخذ نوكوديدز بطريقته المتحفظة يشهد بفضل مثل  
 هذا الرجل المتناهى في العظمة ويقابل بينه وبين خلفائه الذين أغفلوا نصيحة  
 بريكليس بالألا يحاولوا توسيع دائرة الإمبراطورية أثناء الحرب بل  
 فعلوا عكس ذلك على خط مستقيم . وانبعوا من أجل المطامع الخاصة والريج  
 الخاص سياسة وخيمة فيما يختص بأثينا وحلفائها على السواء بالنسبة لأمر  
 كان بدو الألفة لها بالحرب ، وهى إن نجحت جلبت الريج والتقدير لبعض  
 الأفراد ولكنها لو فشلت لأضرت بالبوليس في متابعة الحرب .

إن المقام يجب أن يقع لمناقشة برلمانة أخرى . فى سنة ٤٢٨ ثارت  
 لسوس Lesbos وهى جزيرة كبيرة أكبر مدنها ميلىنيه . وقد كانت إحدى  
 الحليعات القلائل المستقلة ، الافة وكانت الثورة تهديداً قاتلاً لآثينا .  
 وكان اللسيون قد اعتمدوا على العون الأسرطى الذى لم يأت قط وقد  
 أحدثت الثورة وحصع اللسيون دون فد أو شرط . فكيف كانوا سيعاملون؟  
 كان على المجلس أن يقرر ذلك وكانت هناك شخصية مسطرة على المجلس إذ  
 ذاك هى كليون مائع الجلود ( الذى سحر مه أرسنوفانيس Aristophanes

دون شفقة على اعتبار أنه مهرج أمي عيب . ) وكان من الواضح أنه رجل قدير وخطيب مفوه وإن لم يكن على غرار بريكليرس ولولا ذلك لما استطاع أن يؤثر في المجلس . ولكنه كان رجلاً ذا طبع حاد وعقل وصيح . وقد حث الآثينيين على أن يتخذوا طريق الشدة . فأرسلت سفينة في ذلك المساء إلى ميتيلينيه و معها تعليمات للقائد الآثيني بقتل جميع الرجال وبيع النساء والأطفال بيع الأرقاء .

وفي اليوم التالي شعر الآثينيون بالدم وأخذوا يذكرون في أن المرسوم الذي أصدره كان قاسياً ليس فيه أي تمييز فهو يقتل « بوليساء » بأكملها لا المذنبين فقط ، وقد استغل مبعوثون من ميتيلينيه My ene ذلك بمساعدة بعض الآثينيين لفتحوا السلطات على دعوة المجلس في الحان .

وبعد بضعة خطب لصالح كل من الجانبين ( لم يذكرها ثوكوديديز ) نهض كليون Cleon ويمكن تلخيص خطبته فيما يأتي :

إن هذه المناقشة تزيدني وثوقاً في اعتقادي أن الديمقراطية لا يمكنها أن تحكم إمبراطورية . إن حلفاءكم ليسوا مرتبطين بكم بمنفعتهم بل بقوتكم ، ولهذا فأى شفقة تظهرونها الآن أن تكسب لكم عرفاناً بالجميل بل ستؤخذ على أنها علامة من علامات الضعف وسيشور غيرهم إذا رأوا أن في إمكانهم الثورة دون عقاب . أن التردد هو أسوأ الأخطاء السياسية . وأن من الأفضل أن يكون لنا قوانين رديئة عن أن نقوم بتغييرها باستمرار ، وما سبق أن قررناه مرة يجب أن يبقى . أن المواطن الطيب الفهم يتصرف حيراً من المواطن الماهر فهو يقنع بإطاعة القانون ويحكم على الخطب بطريقة نزيهة عملية بينما يحاول الآخر أن يبدو أبرع من القانون ويعامل الخطب على أنها تمثيلات خطائية يكون نقدها على هذا الأساس . وهؤلاء هم الذين أعادوا فتح هذه المناقشة ولا شك أنهم سيحاولون أن يشتروا أن الميتيلينيين قد قدموا لنا خدمة لا أهم أساءوا إليها

لأنه خطأكم لأحكم تعاملون مجلساً يرن الأمور بميزان الحكمة كما لو كان مشهداً مسرحياً . لقد أساءت إليكم ميتيليديه أكثر مما أساءت إليكم أى مدينة بمعمردها . لقد كانت ثورتها عارمة لبس لها عذر أو مبرر فليعافوا كما يستحقون فما فعلوه كان عن روية وتدبير ولا يمكن تبرير إلا الأعمال التى لا تصدر باختيار الإنسان . ولا تجعلوا هناك تفرقة حمقاء بين الاستقراطيين والعوام فلقد انضم العوام إلى الآخرين ضدنا وكان من الممكن أن يفقدوا من الثورة لو أنها نجحت ، أما وأنها قد فشلت فليدفعوا الثمن وإلا فإن يبقى لكم حلفاء . إن العطف واجب نحو الرحماء لا نحو الأعداء الألداء . وينبغى أن تطهروا الاعتدال نحو أولئك الذين ستكون ميولهم نحوكم طيبة في المستقبل لانحو أولئك الذين لن تقصص كراهيتهم لكم ، أما من جهة هذا العائق الثالث نحو الإمبراطورية وهو شهوة الخطابة . والخطابة يمكن شراؤها - فدعوا الخطباء النارعين يدوا مهارتهم فى أشياء ذات أهمية صغيرة .

وهى خطبة بارعة بها من الحق ما يكاد يكتفى لإخفاء تملقه الرعاع بشكل جزئى وتشجيعه للعنف ، غير أن الإنسان ليلسأل هل كان يجرؤ كليون أن يتكلم هكذا بحضرة بريكليس ؟ .

وقد رد عليه رجل لم يذكر قط فى مكان آخر وإن كان اسمه يسحق البقاء كما خلفه ثوكوديديز وهو ديودوتوس Diodotus بن يوكراتيس Eucrates .

• إن التسرع يتبع الخفاقة والعصب يتبع الخشونة واحطاط العقيدة وكلاهما أعداء للصالح الرشيد ومن يجادل فى أن الأعمال يسعى ألا تسهرها الأقوال ، إما أنه عبي أو خائش فهو عبي إذا طن أنه يمكنه أن يعبر بأية وسيلة أخرى عن شىء غير مؤكد يقع فى المستقبل ، وهو خائش إذا تهرب من الدفاع عن قصة شائنة وحاول بدلا من ذلك أن يربك خصمه وجمهوره بالاتهام الباطل .

وأحدث الكل هم أولئك الذين يذكرون تلميحاً أن الخطاء مرتشون .  
إن الاتهام بالجهل يمكن تحمله ولكن لا يمكن تحمل الاتهام بالرشوة لأن  
الخطيب إذا كان ناجحاً في حياته أصبح موضعاً للشبهة ، على حين أنه إذا  
فشل اعتقد الناس أنه عاجز وخاسر أيضاً ، وهكذا يجمع الطغشون من تقديم  
مسيحتهم للمدينة . فالمشورة الحكيمية التي تعطى بإحلاص أصبح الاشتباه  
فيها لا يقل عن النصيحة الفاسدة .

ولكنني لم أكتب لأدافع عن المبتليين ولا لأنهم أحداً غيرهم فليست  
المسألة مسألة جرم ارتكبه ولكننا مسألة مصالحنا ، ونحن الآن لانفكر  
في الحاضر وفيما يستحقونه ولكن في المستقبل وكيف يمكن أن نخدمونا  
أجل خدمة . إن كليون يؤكد أن قتلهم يخدمنا أجل خدمة بتشيط عزم الآخرين  
على الثورة وأنا أناقض ذلك بشكل جلي .

إن عقوبة الإعدام قد شرعت في مدن كثيرة لذنوب كثيرة ومع ذلك  
فالناس يرتكبون الجرائم بدافع من الأمل في النجاح ، ولم تقم أية مدينة  
بالثورة إلا وهي معتقدة أن الثورة ستنجح . إن الناس يبالغون بطيعةهم إلى  
ارتكاب الأخطاء في الأمور العامة والخاصة . وقد مثلت العقوبات المتزايدة  
في القوة في مع ذلك ولكن الفقر يوحى بالإيمان بسبب الحاجة ، والثروة  
توحى بالطمع بسبب الاعتماد والكبرياء وما عدا ذلك من أحوال الحياة  
توحى بالانفعالات المماسية ، فالمحاولة برجحها الأمل والرغبة تعاون الرجاء  
والصدفة تستحث الناس أكثر . بأن تتيح لهم أحياناً مالا يتوقعونه من النجاح  
وهكذا تشجع الناس على التعرض لأخطار هرق إمكانياتهم . وبالإضافة إلى  
ذلك فإن كل فرد حين يعمل مع الآخرين يتبادى في أفكاره إلى حد التطرف .  
وبذلك دعونا لا ارتكب عملاً من أعمال الحق بالوثوق في عقوبة الإعدام ،  
وعدم إعطاء الذين ناروا أي مجال لتعبير رأيهم فأية مدينة تائرة في وقتنا



الحال إذا وجدت أنها لا تستطيع امور بينها تسلم وهي قادرة على دفع تعويض لنا . ولكن سياسة كليون ستصطر كل مدينة نائرة إلى الشات حتى النهاية فلا تترك لنا إلا الخرائب . وبالإضافة إلى ذلك فالعامة في كل مدينة ميالون لكم نحالياً فإذا ثار الأرستقراطيون قأما أنهم لا ينضمون إليهم أو ينضمون إليهم على كره منهم . والعامة في ميتيليني لم يساعدوا الثورة وعندما حصلوا على السلاح سلوا المدينة لكم فإذا قتلتموهم الآن فسيكون هذا لفائدة الأرستقراطيين .

أنا لا أرغب أكثر من كليون في أن يكون رائدكم العطف والاعتدال ولكن أطلب منكم أن تبجوا لقادة الثورة محاكمة متزنة وأن تدعوا الباقين دون عقاب . فهذه هي السياسة المفيدة والقوية لأن الفريق الذى يفكر بحكمة ضد عدوه يكون مخيفاً أكثر من الذى يتصرف بعنف هو وولد الإهماء .

وقد انتهى التصويت ولكن ديودوتوس فار .

• وقد أرسلوا فى الحال سفينة حربية أخرى بكل سرعة لكيلا يجدوا ( البوليس ) قد دمرت لأن السفينة الأولى قد سبقتها بيوم وليلة . وقد قدم مبعوثو ميتيليني الخركمك الشعير للبحارة ووعدهم بمكافآت عظيمة إن وصلوا إليها أولاً . وقد أظهر البحارة من الخاسة ما جعلهم يأكلون ويشربون وهم يخذفون . وكانوا ينامون متناوبة . وحيث أنه تصادف عدم وجود رياح معاكسة كما أن السفينة الأولى لم تكن قد تعجلت فى مثل هذه المهمة البغيضة بينما جرت الثانية قد ما كما وصف فإن — ماحيس ( القائد الآليني ) كان قد قرأ المرسوم وكان على وشك تنفيذه عندما وصلت السفينة الثانية إلى البر ومعت المدحمة . لقد كانت ميتيلينية قريبة جداً من الدمار .

إن هذه المناقشة وماسستها ونتائجها نوحى إليها بأفكار كثيرة عن وحشية القتال بين هؤلاء الإغريق المتحصرين لا يكاد يوجد لها مثل منذ ذلك الوقت حتى

زماما المتحضر وكذلك عن اكتمال الحياة في آتينا اكتمالا ترضى عنه النفوس عندما كان يطلب من لمواطن العادي أن يست في أمور مثل هذه الصحامة وهذا التعقيد . ولا عجب أنه كان يشتمر من الاستعداد وحكم الأقلية اللذين يسلمون من حياته هذا النشاط المبيض الذي يطوى على المسؤولية كما يتركه دون دفاع في نواح أخرى . ولكن الأولى بنا أن نتمعن في خطمة ديودوتوس فهي أولا خالية تماماً من العاطفة ، وهو ينى علناً أنه يطالب باستعمال الرأفة . غديودوتوس لا يرسم صوراً لصفوف من الأجساد الراقدة على شاطئ أسبوس وللأرامل والأيتام الباكين وهم يساقون إلى الأسر بل هو يناقش قضيته فقط محتجاً بالمصلحة القائمة على حسن الإدراك . وأنه ليكون من الخطر البالغ أن تستنط من هذا أن ديودوتوس والآبديين عموماً كانوا من العاكفين على ممارسة سياسة الدولة ذوى القلوب الجامدة . إن هذا الجمع بالذات من المواطنين الذين اشتركوا في هذه المناقشة ربما اجتمعوا في الأسبوع التالي في المسرح وشاهدوا مسرحية ليوريبيديس — مسرحية مثل « هيكوبا Hecuba » أو « نساء طروادة » عن نفس هذا الموضوع أى موضوع فسوة الانتقام وعدم جدواه ، مسرحية يتم إخراجها رسمياً ويختارها قاضى المحكمة العليا Archon المسئول . وليس لنا أى حق في أن نفترض أن ديودوتوس لم يكن يحس بأى عاطفة . ولكن المناسبة في نظره كانت تتطلب التفكير المطلق لا العاطفة . وهو يواجه كايون لا يظهر إحساسات أرق بل باستخدام جميع أدق ، وهذه الخطبة تشبه من هذه الناحية الشعر الإغريق والفس الإغريق حيث أن سيطرة العقل على الوجدان يريد من التأثير الكلى .

وهاتان الخطبتان يعتبران نموذجاً إغريقياً من وجه آخر ، ولو أن شرحى لمعاهما لا يكاد يكون فيه إنصاف لهذا الوجه وهو الشعب التعميم وحمة ديودوتوس الأخيرة يصح أن تكون مثالا لذلك فلم يكن الإغريق

يشعر بالسعادة إلا إذا استطاع أن يوجد الصلة بين الحالة الخاصة والقانون العام ، في التعميم يكرر رؤية الحقيقة واحتمارها

إن من الشائق تتبع سلوك المجلس طوال الحرب في تاريخ نوكونديير  
لنرى كيف بما نوع معين من عدم المسؤولية — وتعتبر ملاحظات كابون  
عن المسرح دليلاً على ذلك — وكيف ازداد عدم تحمله للرقابة سواء كانت  
رقابة اللحظة أو رقابة القوانين وكيف أخذ مذهب كابون عن استخدام  
القوة بسود أكثر فأكثر وخاصة في معاملة ميلوس المحايدة البريئة معاملة  
بربرية ، وكيف وجه المجلس هجاءه إلى القواد الخففين بل حتى إلى الناجحين ،  
حتى ليأخذ الإنسان في التساؤل متعجباً عما كان يدعو أى قائد للمخاطرة  
بخدمة بلاده ، وبالرغم من قليل من الأمثلة البارزة على الاعتدال والنيل  
الحقيقي فإن هذا على وجه العموم يجعل كتيب للتحلل تحت وطأة الحرب  
والقيادة الانتهازية . وينبغي أن نقرأ تاريخ نوكونديير المفجع حسبما أراده  
هو منه فلا نقرأ باعتباره مجرد سجل لما فعله شعب معين في هذه الظروف  
الخاصة بل باعتباره تحديلاً للسلوك الإنساني في السياسة والحرب . ولما كان  
القيام بذلك على الوجه الصحيح يحتاج إلى كتاب وحده فليس من الممكن  
عمله هنا ، ومادامنا إلى الآن نعيش بمدينة إغريقية دون غيرها فيصح أن نختم  
هذا الفصل بحادثين يزيدان من فهمنا للموضوع .

فأولهما له صفة اللقطة السريعة التي تربينا شيئاً من حظوظ « بوليس »  
إغريقية عادية جداً في الحرب وشيئاً عن الإمبراطورية الآثينية من وجهة  
نظر حليف حاصع لها . فقد أخرجت أسطرطه أثناء الحرب رجلاً واحداً  
فقط هو راسيداس يعتبر شخصاً جذاباً وعلى جانب من العقيدة كذلك  
وقد قاد معركة باهرة في شمال بلاد الإغريق حيث كان لأثينا كثير  
من الخلفاء المحريين لاسيما مدينة امفيبوليس الهامة التي استولى عليها

(والمناسبة كان نوكو ديدير نفسه لقائد الآتي في ذلك الوقت في هذا الإقليم وقد تقي من أنيدا لشله في الوصول إلى ميدان المعركة بسرعة كاهه لا تقاد أمصوليس ولم يرجع إلا عندما انتهت الحرب بعد عشرين عاماً ، ومع ذلك فإنه يروي ذلك بأدق طريقة موضوعية دون كلمة دفاع واحدة بل ولا يذكر فيه إلا بعد ذلك بكثير في مناسبة مختلفة جداً ) .

• وفي نفس الصيف زحف براسيداس Brasidas مع الحالكيديين على كسانتوس قبل حصاد الكروم بقليل ، وكان أهل كسانتوس منقسمين بشأن السماح له بالدخول ، فكان هناك الذين اشركوا مع الحالكيديين في دعوته ، والعوام المعارضون له . ولكن عندما استحثهم براسيداس على السماح له بالدخول وحده على أن يصدر قرارهم بعد أن يستمعوا إلى ما كان عليه أن يقوله لهم ، سمحوا فعلاً له بالدخول خوفاً على فاكهتهم التي كانت لا تزال على الأشجار . لجأ لبئكم أمام الناس وكان خطيباً قديراً جداً على رغم أنه إسبرطي . .

وأخذ براسيداس يعرض القضية الإسبرطية قائلاً إن الإسبرطيين يحررون بلاد الإغريق من الاستبداد الآثي . وأخذ يعلن دهشة من أن يجد بواب أكانثوس Acanthus مغلقاً أمامه في نهاية زحفه الخطر في بلاد الإغريق ويعتدم بأنهم لو انضموا إلى التحالف الإسبرطي فسيجدون الاستقلال التام ، وأن إسبرطة لن تتدخل بأية وسيلة في سياستهم الداخلية أما إذا رفضوا فإنه سوف يخرب بلادهم وهو ما يقضي به العدل وأن يكن على كره منه .

وقد كان براسيداس رجلاً صادقاً وكانت خطبته في تلك الظروف تستميل الناس إليه . وبالإضافة إلى ذلك فإن بلاد الإغريق لم تكن على وجه العموم تعرف قيمة الوعود الإسبرطية التي لم تكن تساوي شيئاً . وهكذا بعد أن تكلم الكثيرون إلى جانب الهريقين أعطوا أصواتهم

سراً . ولما كانت الوعود التي أعطاها براسيداس جدانة ولما كانوا حائضين على ما كنهم مالت الاعلى إلى جانب الثورة على الاثينيين وجعلوا براسيداس حناماً للايان التي حلفها السلطات الإمبرطية قبل إرساله ، على أن الذين يصمون إليه يكونون حلفاء مستقلين . وعلى هذا الأساس سمحوا للجيش بالدخول ، ولم يمض وقت طويل حتى انضمت — ستاجيروس Stagirus إليهم في الثورة — هكذا كانت حوادث الصيف .

ولكن بدء قصة بلاتايا المخرنة هو آخر صورته نعطيها عن الإغريق حين يتحاربون ، فقد كانت بلاتايا مدينة صغيرة في بويوتيا قرب حدود أتيكا . وكانت كل حكومات مدن بويوتيا أو ليبركية كما كانت متحالفة في العادة مع طيبة أهم تلك المدن . وكانت بلاتايا ديمقراطية على علاقات ودية مع الاثينيين . وما يحدد ذكره أن سكان بلاتايا كانوا الإغريق الوحيديين الذين ساعدوا أثينا في مرات . وقد كانت هذه الصلة بين مدينة من بويوتيا وأثينا ، يثير طيبة باستمرار . وفي أثناء الثورة الذي سبق الحرب مباشرة سنة ٤٣١ ساعد الحادث الآتي على التعميل بالحرب :

« دخل جنود طيبة بأسلحتهم بلاتايا في أوائل الربيع حوالي سنة ٣٠٠ في أول جولة من جولات الحراسة بالليل تحت قيادة قائدين من قواد الاتحاد البويوتي . وكان قد دعاها إلى ذلك وسمح لهم بدخولها بعض سكان بلاتايا وهم ناوكلايديس وشركاؤه الذين أرادوا أن يحطموا شخصوهم ويسلبوا المدينة لأهل طيبة حتى يحطوا بالسلطة لأنفسهم وكان أهل طيبة من جهةهم يرون أن الحرب آتية وكانوا مهتمين بالاستحوا على بلاتايا قبل نشوبها . وحيث أن الوقت كان وقت سلم فلم تكن هناك حراسة مما جعل دخولهم المدينة أسهل . وقد صنعوا السلاح على أرض السوق وأخذ يحرسهم أولئك الذين أدخلوهم المدينة على الذهاب توالى إلى موت أعدائهم ولكنهم بدلا عن

ذلك صمموا على محاولة استرضاء الناس وأن يضموا المدينة إليهم بالاتفاق طاماً منهم أن هذه أحسن طريقة ولذلك أذاعوا أن كل مواطن يريد أن يكون حليفاً للبويوتيين عليه أن يأخذ سلاحه وينضم إليهم طبقاً للعوائد التقليدية

ولما علم أهل بويوتيا أن جمود طييه في المدينة ذعروا ونهبل إليهم (لعجزهم عن رؤيتهم في الظلام) أنهم أكثر منهم عدداً بكثير. فوافقوا على شروطهم دون مقاومة لأن أهل طييه لم يستخدموا العنف مع أى إنسان. ولكنهم أثناء المفاوضات رأوا أن الطيبين لم يكونوا كثيرين واعتقدوا أنه يمكنهم التغلب عليهم بسهولة لأن غالبية أهل بلاتايا لم يكونوا يرغبون في ترك تحالفهم مع أثينا. فقرروا أن يقوموا بالمحاولة وأخذوا يتجمعون بعمل ثغرات في الجدران التي تفصل بيوتهم بعضها عن بعض ووضعوا عربات البضاعة بعرض الشوارع كالمخاريس واتخذوا إجراءات أخرى مناسبة فلما تم الاستعداد فاجأهم قبل الفجر حين تكون ظروف الطيبين أسوأ وهم في مدينة أجنبية.

ولما رأى الطيبون أنهم خدعوا ضموا صفوفهم وحاولوا أن يصدوا الهجوم، فردهم على أعقابهم مرتين أو ثلاث مرات. ولكن البلاتيين هاجمهم ثانية بضجة شديدة بينما كان النساء والرقيق على الأسطح في نفس الوقت يصرخون ويقذفونهم بالأحجار والقرايد. وكان قد سقط مطر غزير أيضاً بالليل مما جعل اللاتيين يصابون بالفرع ويهربون من المدينة، غير أن أكثرهم لم يكونوا يعرفونها أو يعرفون أين يلجأون طمأناً للأمان في الظلام والوحل ولهذا قتل كثيرون منهم وكان أحد سكان بلاتايا قد أقفل أحد الأبواب الكثيرة التي دخلوا منها مستخدماً دراع الحربة كالمزاح. فلم يكن الفرار ممكناً من هذا الطريق وقد تسلق بعضهم سور المدينة ليتجنبوا المطاردتين ووثبوا أرضاً ولكن أكثرهم قتل وانطلق العص لا الكثيرون من باد

ليست عليه حراسة لأن امرأة أعطتهم بلطة حطموا بها المرلاخ وأندفعت  
الأكثرية التي كانت تقف معاً إلى ساء كبير كانت أبوابه مفتوحة طامس  
أنها أبواب المدينة فلما وجدهم أهل بلاتايا قد وقعوا في الشرك تناقشوا في هل  
يشعلون النار في المنى ويحرقونهم حيث كانوا . ولكم قبلوا في النهاية  
استسلام هؤلاء وغيرهم من الطيبين الذين وجدوهم يتجولون في المدينة  
وذلك دون شرط .

وقد اتخذ هؤلاء النساء رهائن لإرغام جيش طيبه الزاحف على ترك  
بلاتايا ثم قتلوا في الحال وهي نصيحة من أثينا تنطوى على حكمة أكثر  
جاءت بعد الأوان . ويمكن ذكر نهاية القصة ونهاية بلاتايا باختصار . فقد  
حاصر سكان البيلوبونيز المدينة فقر جزء من الأهالي بحسرة وسط الحصار  
مخترقين صفوف العدو ووصلوا أثينا سالمين . واستسلم الباقون في النهاية  
بشرط أن يخضعوا للإسبرطيين بصفتهم قضاتهم فيعاقبون المذنبين على ألا  
يكون العقاب مخالفاً للعدالة . وكانت فكرة الإسبرطيين عن العدالة هي أن  
يسألوا كل واحد من أهل بلاتايا على حده عما إذا كان قد فعل شيئاً أثناء  
هذه الحرب لمساعدة إسبرطة وحلفائها . وقد أشار منكم بإسان أهل بلاتايا  
إلى أنه لم يكن هناك ما يدعوم لذلك لأنهم بحكم حقهم الصريح المقرر بالمعاهدة  
كان عليهم أن يكونوا متحالفين مع أثينا متى اختاروا ذلك ، كما أشار أيضاً  
إلى الخدمات الجليلة التي قدمت لمدينته لبلاد الإغريق أثناء الحربين الفارسيين  
كما أشار إلى خدمة قدمت لإسبرطة بعد ذلك . وذكر الإسبرطيين أيضاً  
بالفضيحة والعار الذي يبوؤون به في أعين الإغريق بتدمير مدينة في مثل  
شهرة بلاتايا . ولكن لم يجد كل ذلك شيئاً فقد كرر الإسبرطيون سؤالهم  
هل قدمت لإسبرطة أى خدمة في هذه الحرب ؟ .

ومرر الذين كانوا يقولون لا كان الرجال يقتلون والنساء يمسكين .  
وهكذا كانت إذن نهاية بلاتايا في السنة الثالثة والتسعين من تحالفها مع أثينا .

ويصف :وكوديدير عمداً هذا الأمر المربع بعدمبيليه مباشرة، والتناقص بينهما بين . ففي أثينا حتى صوت الإنسانية على الأقل مرصه سماعة في المحلر وفي المسرح على السواء . وأما إسبرطة فلم يكن لها شعراء حينذاك ومن المحتمل أن معاملة الإسبرطيين لأهل بلاتايا هي التي حمزت يوريبديدس لكتابة أندروماتحا وهي مسرحية عن زوجة هكتور الملكة الأسيرة التي حولها الشاعر إلى هجوم شديد على قسوة الإسبرطيين وخداعهم ، ومع ذلك فقد استسلم الآثينيون إلى فلسفة القوة المجردة إلى حد أنهم هم أنفسهم ارتكبوا جريمة أفظع من جريمة الإسبرطيين بعد ذلك بحوالى عشر سنين وذلك بمهاجمة جزيرة ميلوس المحايدة التي لم يقع منها أى اعتداء وبقتل سكانها أو استعبادهم . وقد استعرض ثوكوديديز في حوار صورى النتائج السياسية والأخلاقية التي ينطوى عليها هذا العمل بطريقة غير تاريخية بالمرّة . وهو لا يعلق عليه بل ينتقل مباشرة إلى الحق الجنونى في نظره وهو الخاص بالهجوم الآثينى المشنوم على صقلية .

وثوكوديديز مثله كمثل أكثر الفغانين الإغريق يعمل على البهاء لاعلى الاستعراض فيعبر عن أهمق أفكاره بترتيب مادته ترتيباً معيارياً .



## اضمحلال ( البوليس )

---

شاهدت حرب البيلوبونيز في الواقع نهاية دولة المدينة باعتبارها قوة خلافة تشكل حياة كل أفرادها وتحقق أغراضها . وقد أخذت بلاد الإغريق خلال القرن الرابع تتجه باستمرار نحو اتجاهات فكرية جديدة وأسلوب حياة جديدة حتى أن عصر بريكليس من الوجهة العقلية لابد أنه كان تلوح لأولئك الذين ولدوا في نهاية القرن بعبداً بعد العصور الوسطى عنا .

إن التاريخ السياسي لبلاد الإغريق خلال هذا القرن مضطرب ومنعب وباعث على الكتابة ويكفيها منه ملخص قصير جداً . لقد توقف كسب إسبرطة للحرب على أخطاء الآثينيين أكثر مما توقف على البراعة ، كما توقف على نجاح إسبرطة أكثر من آثينا في الحصول على مساعدة الفرس التي كان ثمنها الانسحاب من أبونيا . فما كسنته إسبرطة وأثينا معاً من كسر سيس Xerxes رده آثينا وإسبرطة لارتكس سيس Artaxerxes وهما تتحاربان ، لقد انتهت إمبراطورية أثينا ولكن ، التحرير ، الذي وعدت به إسبرطة كان من السوء بحيث أن كثيراً من الإغريق كانوا يؤثرون عليه العودة إلى استبداد آثينا . فقد كان معنى التحرير ، هو فرض حكومات الأقلية (الأوليجركية) في كل مكان تقريباً مع حاكم إسبرطى لحفظ النظام . ونحن نرى إسبرطة في أسوأ حالاتها في هذه الفترة فإن الإسبرطى لم يتعلم قط كيف يكون حسن المعاملة في الخارج ، فقد كان في يده مطبعاً ومقتصداً بالضرورة ، أما في الخارج فلم يكن يؤتمن على السلطة أو المال ، فالحرية التي منح لبلاد الإغريق كانت حرية إسبرطة في تهديد من تشاء ، أما من أفاد

حقاً من الحرب في فارس التي استردت إيونيا . ولم تكن تستطيع بلاد الإغريق وهي ممسكة أن تسترجعها منها ، ولذلك كان حكم كل مدينة إغريقية لنفسها حكماً كاملاً مما يربح فيه الجمع سواء منهم الإغريق أنفسهم أو إسبرطة أو فارس .

ومن بين الحكومات الأوليغارشية التي أقامتها إسبرطة أو أيديتها كانت توجد في أثينا جماعة من القضاة المتعاضدين لسفك الدماء يعرفون باسم « الثلاثين » وعلى رأسهم شخص يدعى كريتياس كان قبل ذلك زميلاً لسقراط وقد حكموا حكماً إرهابياً لمدة أشهر قبية . ولكن حكومة الأقلية ما كانت تستطيع البقاء طويلاً في أثينا . فقد أعيدت الديمقراطية بشجاعة واعتدال يكفران بعض الشيء عن الحق والعدل - المستخدم أحياناً - اللذين أظهرتهما الديمقراطية أثناء الحرب . صحيح أن الديمقراطية العائدة قد حرصت في سنة ٣٣٩ ق.م على إعدام سقراط ، غير أن ذلك كان بعيداً عن أن يكون عملاً من أعمال الغباء الوحشي . دع القارئ يتذكر ما شهدته وقاساه المخلفون الذين نظروا هذه القضية - وقد هزم الإسبرطيون مدينتهم وأجاعوها حتى أوشكت على الهلاك وجردوها من أسلحتها وحصونها وتطلمت ديمقراطيتها وتعرض الناس لاضطهاد واستبداد وحشي . ودعه كذلك يفكر في أن الرجل الذي سبق أن ألحق بأثينا أشد الضرر كما سبق أن قدم أبرز الخدمات لإسبرطة هو الأرستقراطي الأثيني الكيباديس Alcibiades وأن الكيباديس هذا كان قبل ذلك رقيقاً دائماً لسقراط - وأن كريتياس Critias المرعب كان رقيقاً ثانياً له . ودعه يفكر كذلك في أنه بالرغم من أن سقراط كان مواطناً إحصاءً واضحاً أشد الوضوح فقد كان أيضاً قدماً صريحاً لمبدأ الديمقراطية . ولما لم يكن هناك ما يدعو لتعجب إذا طعن كثير من الأثينيين السذج أن خيانة الكيباديس وغضب كريتياس وعصاته من حكومة الأقلية إنما كانا نتجة مباشرة لعالم سقراط . وإذا كان غيرهم كثيرين - من نسوا ويلاط المدينة ، وإن لم يكن ذلك دون أسباب معقولة ، إلى قلب معايير

السلوك والأخلاق - فدأرجعوا بعض المسؤولية في ذلك إلى تساؤل سقراط اعلمنى المستمر عن كل شيء ، وهل يمكن الاستغناء بحريه معهد جالوب اليوم في مثل تلك الظروف أن يرى سقراط ، وبخاصة بعد دفاعه هذا الدفاع الذى لا يعلو على أى تساهل ؟ نحن نشك في أن الأرقام تكون في صالحه أى نشك في حصوله على أصوات أكثر من ٦٠ إلى ٥٠١ . ودع القارىء يفكر في أن عقوبة الموت التى تلت ذلك كانت باختياره فقد رفض عمداً أن يقترح الذهاب إلى المنفى كما رفض عمداً أن يحمل سراً خارج السجن . وليس هناك ما هو أسوأ من موقف سقراط أثناء المحاكمة بعدها . ويجب ألا نصنع هذا السمو بالعاطفية بأن نمثل سقراط على صورة صحبة لمخافة من الغواصة الجلمة . إن موته يكاد يكون مأساة من مآسى هيجل أى ، صراعاً يكون الطرفان فيه على حق .

لم تستمر سيطرة إسبرطة مدة طويلة . فقد كان عنها الاستبدادى مما أثار ضدها حلفاً من المدن الأخرى حاربها الحرب المعروفة باسم والحرب الكورنثية ، ثم جاء الصلح ثانية سنة ٣٨٧ في صورة مخزية هي مرسوم من ملك الفرس يجعل كل المدن إلاغريقية تتمتع بحكم نفسها . وقد كانت المدن الرئيسية إذ ذاك هي أثينا وإسبرطة وطيبة . وكانت كل اثنتين منها على استعداد للتجمع لمنع الثالثة من أن تصبح أقوى مما ينبغي . وكانت أثينا أخذة في الانعاش ببطء سواء من الوجهة الاقتصادية أو السياسية حتى أنها كانت حلفاً ثانياً . فقد كانت دول بحر إيجه في حاجة شديدة إلى نوع من السلطة المركزية . وفي سنة ٣٧١ وقع حادث هر بلاد الإغريق هزاً عنيماً . فقد هزمت طيبة جيش إسبرطة في قتال مباشر في بوبوترا .

فقد كان في طيبة في ذلك الوقت رجلا عفران هما يلويداس وأيامبندس . وكما قد اشكرا تكتسكا عسكرياً جديداً جريئاً مدلاً من جعل

المشاء المرودين بالدروع الثقيلة والأسلحة يصطعمون ثمانية صفوف ( على جانبها الفرسان وجود المداوشات ) أنقصا من صفوف الجناح والقلب وأكثر من صفوف الجناح الآخر حتى بلغت حداً غير عادى وهو حمسور صفاً . وهذه الكتلة من الرجال قامت ، كما فى هجوم لعبة الرجبي ، باحتراق صفوف الإسبرطيين بثقلها لبس إلا . يحدث عالم يكن يمكن تصديقه . ولكن لم يكن لطيه أى فكرة سياسية تساهم بها . وقد زحف أباميندس أربع مرات وسط البيلو برنيز لى ينشئ مدينة جديدة مركزية من الاركاديين سكان الجبال ضد إسبرطة . وفى آخر حروبه كسب معركة معدة منظمة فى مانقيا ولكنه قتل أثناءها وانهار تفوق طيبة التى أعطت إسبرطة ما كانت تستحقه . ولكن هذا المدرس الخاص من دروس العدالة أساءت بلاد الإغريق استخدامه عند ظهور تهديد فى الشمال لم يكن أحد يشبهه فى وجوده .

ذلك أن مقدونيا لم تكن تعتبر قط جزءاً من بلاد الإغريق . فقد كانت بلاداً بدائية غير منحصرة لا تكاد تكون منحددة ، تحت حكم أسرة ملكية تدعى أنها من أصل هيلنى وأن جدها الأكبر هو إخيليس ولا أقل من ذلك . وكان لها حاشية بلغت من الحضارة على الأقل ما جعلها تفرى يوريبديس بالذهاب إليها من أثينا قرب آخر حياته . وفى سنة ٣٥٩ ق.م تولى فيليب الثانى العرش بالطريقة المعهودة أى عن طريق سلسلة من الاغبيالات العائلية . وقد كان داهية طموحاً نشيطاً . وكان قد قضى جزءاً من شبابه فى طيبة حيث رأى مقدار ما أخذت بلاد الإغريق تملفه من الضعف وتعلم شيئاً من تكنيك بيوييداس الحربى الجديد ، فأخذ عنه وأجرى به تحسباً . وهو ابتكار الرباعى المقدونى المشهور الذى ظل يسيطر على ميادين القتال حتى هزمته الفصيلة الرومانية . إن الهدف الذى وضعه فيليب الصغير نصب عييه كان حكم العالم الإغريق بما فيه أثينا إن أمكن وسوها إذا لم الأمر . وهو ما كان يبدو للطر السطحي مستحيلاً

فقد كانت تهدد مقدونيا من الشمال الغربى فمائل إيليرية ، كما أنها كانت بلاداً متأخرة تعصلها عن بحر إيجه حلقة من المدن الإغريقية . وكان الأسطول الآبني قد عاد إلى تعوقه مرة ثانية إلا أن فيليب كانت لديه بعض المراكب الكبرى ومن بينها القوة البحرية الكافية ومنجم للذهب كان قد كشف حديثاً . وفضلاً عن ذلك كانت له الامتيازات التي يتمتع بها المستبدون دائماً وهي السرية والسرعة والخيانة . وقد تصدى للقبائل الإيليرية فجعل مقدونيا تنعم بالأمن في وقت وجيز جداً واستولى على مدينة أمفيبوليس الإغريقية التي كان من الممكن أن تعوق زحفه نحو الجنوب . وأمفيبوليس Amphipolis هي المستعمرة الآبينية التي كان ثوكوديديز قد فشل في إنقاذها من براسيداس . وقد فتحها فيليب بطبيعة الحال ليوفر على الآبنيين العاء كما كان يعتزم تسليمها لهم في الحال أو بعد قليل ثم وجه التفاته إلى المدن الإغريقية الأخرى لا سيما أولينثوس Olynthus التي سبق أن كانت مركزاً لاتحاد هائل جداً . ولما كانت إسبرطة لا تحب الاتحادات فقد كان حليها للتحالف الأولينثي مما سهل الأمر على فيليب . وقد ابتداء عند ذاك صراع طويل مضجع بين أعظم شخصيتين في سياسة القرن الرابع وهما فيليب نفسه ومواطن آبيني حر كان كاتباً محترفاً للخطب ووطنياً تشبع بآراء ثوكوديديز وربما كان أعظم خطيب جاد به الزمان ألا وهو ديموستينيز . وكان قد رأى الخطر متأخراً بمض الشيء بل أنه لم يره أولاً في صورته الكاملة . ولكنه رآه على الأقل وأخذ يرجو الآبنيين في رأس متزايد في خطبة بعد أخرى أن يقفوا ويقاوموا ، وكانت أثينا في سنة ٣٥٠ على القيصص المؤسست من أثينا في سنة ٤٥٠ . وفي سنة ٤٥٠ كانت قوات أثينا في كل مكان وكان المواطنون مستعدين لأي شيء . أما في سنة ٣٥٠ فقد اضطر ديموستينيز أن يتوسل إليهم أن يدافعوا عن مصالحهم الحيوية وبرسلوا قوة يتكون جزء منها على الأقل من المواطنين ، إذ أن استخدام الجود المرتفعة كان قد أصبح شائعاً وأن

برعموا الجيش على القاء في مكان الحرب حتى لا يذهب إلى جهة أخرى تكون معركتها أكثر ربحاً . وكان مصطراً أن يرجعهم التوقف عن إرسال جيوش على الورق ، فلا يرسلوا قائداً مهمته أن يستخدم الجنود المرزقة الذين كثيراً ما كانوا يتركون دون أجر . وقاز لهم ، إن حلفاءكم يخشون الخلات التي من هذا القبيل مثل خشيتهم من الموت ، ولكن الآيبين لم يكونوا يريدون رؤية الحلفاء الكرية بل كانوا يرغبون في تصديق فيليب عند قوله ، هذا بالتأكيد هو آخر مطلب لي خاص بالأرض ، كما كانوا يرغبون في الإنصات إلى وزراء المسألة الحريصين وإلى ناصحين أقل منهم أمانة وهم الذين كانوا يسخرون من ديموسثينير ويؤكدون للآيبين أن فيليب كان رجلاً أميناً مثقفاً وأنه أحسن صديق لهم . وقد نشرت صحيفة إنجليزية في سنة ١٩٣٧ عنواناً ضخماً هو ، هل مات هنتر ؟ ، وفي سنة ٣٥٧ ق. م . قال ديموسثينير الآيبين ، أنكم تجرون هنا وهناك يسأل بعضكم بعضاً هل مات فيليب ؟ لا . لأنه لم يموت ولكنه مريض . وما الفرق عدنا بين أن يكون ميتاً أو حياً ؟ أنكم إذا سرتهم في أموركم على هذا النحو فسيؤدى عملكم إلى قيام فيليب آخر ضدكم ، إن الشبه بين الحاليين قريب لدرجة تجعل قراءة خطب ديموسثينير السياسية مريرة لا تحتمل . ولعل التاريخ الحديث كان يختلف عما هو عليه الآن كل الاختلاف لو كان عدنا سياسياً بقود الناس ويعرف خطب ديموسثينير ، وكذلك لو كان عندنا مجلس للعموم قادر على أن يرى أن تاريخ الإغريق قد يكون لديه ما يقوله عن المسائل المعاصرة ، وأن ما حدث قبل زماننا كثيراً قد لا يكون بالضرورة غير ملائم لومنا هذا .

وفي النهاية عندما تضاف تراحي الآيبين مع حرارات الإغريق والحياة الواضحة من عصر أصدفاء فيليب من الآيبين على إحداث أسوأ ما يمكن ، انتصر ديموسثينير فقامت أثينا بمجهود عظيم يستحق الثناء ، فأهت نراعيها مع طيبة الذي استمر عهداً طويلاً ورحتت الجيوش المحتمعة معاً

صد فيليب ولكر النتيجة كانت ذلك الانتصار العادر في خابرونيا الذي قضى على الحرية ، واضطر الإغريق في النهاية أن يفعلوا ما أمروا به مركز فيليب الحاميات المقدونية في ثلاث مدن استراتيجية أصبحت دأصفاد الإغريق .

وتوفى بعد ذلك بسنتين ولو أن ابنه وخليفته كان الملك المقدوني العادي النافه لكان من الممكن جداً أن ينتهى الأمر بالبلاد إلى ضالة الشأن ، ولكن من الممكن أن تستعيد بلاد الإغريق حكمها لنفسها الذي كان ينتم بطابع الموضى . ولكن خليفة فيليب لم يكن تافهاً فقد كان الاسكندر الأكبر وهو من أكثر من نزعهم من الناس إثارة للدهشة . كان شاباً في العشرين وكان في حركته كالبرق الخاطف . ففي خلال خمسة عشر شهراً قمع فتنة في تساليا وزحف وسط بلاد الإغريق على مدن كانت تدل بأصواتها لتشكر قتلة فيليب كما كانت تفكر في الثورة . فكادت تهلك من الرعب . وقاد معركة سريعة حتى نهر الدانوب ليؤمن مؤخرته . ولما أغرى ذهب الفرس طيبة على الثورة ضد حاميتها المقدونية كما أغرى غيرها من المدن على التفكير في الثورة زحف مرة ثانية إلى بلاد الإغريق واستولى على طيبة ودمرها وترك فيها بيتاً واحداً قائماً هو :

بيت بنداروس ، حين وقعت على الأرض ، المعابد والأبراج .

استغرق ذلك كله خمسة عشر شهراً فقط ، وقد وعى كل من الإغريق وجيران مقدونيا الشماليين درهم ، وقد عبر الإسكندر البحر إلى آسيا في الربيع التالي ( ٣٣٤ ق . م ) كما أنه مات بعد إحدى عشرة سنة وعمره ٣٣ سنة . ولكر الإمبراطورية الفارسية كانت قد أصبحت مقدونية جيداً كما أصبح السحاب كذلك فترة قصيرة ، وهو الذي لم يكن الفرس قد حكموه قبل ذلك قط . على أن الإسكندر لم يبق ، وغرو كاسح فقط فإنه كان يدعم

فتوحه حيث ذهب بإنشاء مدن إغريقية بطريقة مدروسة بعناية . وبعضها  
 لاسيما الإسكندرية في القطر المصري تحمل إلى هذا اليوم الاسم الذي  
 أعطاه لها .

ولما مات فيليب كانت دول من أمثال أتيانا وطيبية تعتبر كبيرة قوية في  
 نظر الإغريق ، أما عندما مات الإسكندر فقد كان يرث الإغريق من وطنهم  
 إلى إمبراطورية تمتد من الأدرياتيك إلى نهر السند ومن بحر قزوين إلى مصر  
 العليا . فقد أحدثت هذه السنوات الثلاث عشرة تغيراً كبيراً . إذ انتهت  
 بلاد الإغريق الكلاسية واتخذت الحياة منذ ذلك الوقت شكلاً ومعنى مختلفاً  
 كل الاختلاف .

ونحن إذ نواجه مثل هذا الانهيار المفاجيء لنظام سياسي بأكملة نبحت  
 بطبيعة الحال عن تفسير له . وليس من الصعب أن نجد سبباً مباشراً على الأقل ،  
 وهو أن الحروب التي استمرت قرناً كانت قد أنهكت بلاد الإغريق من  
 الوجهة المادية والروحية . ولم يكن من الممكن أن تسير الأمور على هذا  
 النحو فلم تعد دولة المدينة تقدم أسلوباً مقبولاً من أساليب الحياة . وكما  
 تحاول أوروبا الغربية اليوم في ظروف مشابهة إلى حد ما أن تحسن طريقها  
 إلى وحدة سياسية أكبر ، فكذلك كان هناك في القرن الرابع قبل الميلاد  
 بعض من أخذوا يتباعدون إما عن البوليس ، نفسها أو عن المبدأ  
 الديمقراطي . فلقد كان إيسوكراتيس ، الشيخ البالغ ، الذي ذكره ميثون  
 في قصيدته مبالاً كل الميل إلى المبدأ الملكي . فقد أثنى على رجل يدعى  
 إيجاجوراس كان حاكماً مستقبلاً في قبرص ، كما أخذ يدعو إلى أن المدن  
 الإغريقية عليها بدلا من أن يحارب بعضها بعضاً أن تصمم تحت لواء فيليب  
 في هجوم كبير على الإمبراطورية الفارسية الآخذة في الاضمحلال . كما أن  
 أفلاطون كان قد أعرض عن الديمقراطية وهو يائس وأعلن فكرة الملك



الفيلسوف . - ولم يكتب بذلك بل قام ريارتين لصقلية يحدوه أمل يائس في أن يجعل من ديونيسيوس حاكم سر قوسة الشاب ملكا فيلسوفاً .

غير أن البوليس لم ثبت فشلها من الوجهة الخارجية فقط بعدم إعطائها بلاد الإغريق أسوياً معقولا من أساليب الحياة بل ان الزمام كان قد أخذ يفلت من يدها من الوجهة الداخلية أيضاً كما يمكننا أن نشاهد ذلك بأجل وضوح في حالة أثينا . فالمقابلة بين عصر ديموستينيز وعصر بريكليس مما يشير الفزع ، ففكرة استخدام الجنود المرتزقة كانت تبدو لأثينا في عهد بريكليس إنكاراً للبوليس وهو ما كانت تمليه بالعمل . إن أثينا في القرن الرابع قبل الميلاد تعطينا فكرة الخول السياسي الذي يكاد يصل إلى حد عدم الاكتراث ، فقد كان الناس مهتمين بأمور أخرى غير البوليس ولم يتصرف الآثينيون بطريقة جديدة باسمهم العظيم إلا في آخر يوم نزل به القضاء المحنوم غير أن الوقت كان قد فات إذ ذاك .

إن التضاد بين العهدين يصل إلى حد بعيد إذ أن أثينا لم تكن قد أنهكتها حرب البلووينز الطويلة فقط فإن المجتمعات نفيق من مثل هذا الإنهاك . ولقد كانت أثينا بالفعل في القرن الرابع نشيطة ومحببة للمغامرة بدرجة كبيرة في أوجه أخرى . ونحن لا نستطيع أن ننسب التغيير إلى مجرد الخور ولا إلى مجرد رد فعل لإجهاد الحياة السياسية في القرن الخامس لأن رد الفعل يستلزم قوته بمعنى الزمن . إن الذي نقابله في القرن الرابع هو تعبير دائم في مراح الناس بدل على ظهور موقف بخلاف تجاه الحياة ، فقد كان هناك اتجاه أعظم نحو الفردية في القرن الرابع يمكن أن نراه أنها طرنا في الص والافسفة والحياة . فالتحت مثلاً يبدأ في الاتجاه إلى ذاته بمحضها وإلى الاهتمام بالخصائص الفردية والامرجة العابرة بدلاً من أن يعبر عن المش العليا والعموميات . فهو يبدأ في الحقيقة في تصوير الناس لا الإنسان ،

وهذا هو ما حدث بالنسبة للدراما . ونحن نرى في الدراما أن التعبير لم يكن مفاجئاً . في العثوين سنة الأخيرة من القرن الخامس قبل الميلاد كانت المأساة قد أخذت تتعدى عن الموضوعات الهامة والعامة وتهم بالشخصيات الشاذة ( كما في مسرحيتي الكترا Electra وأوريسيس ليوريبيديس ) أو تعنى بالقصر الرومانقي عن المخاطر الغريبة وضروب الفرار المثيرة ( كما في مسرحيتي إيفيجينيا في تاوريس وهلين ) . كما نجد في فلسفات ذلك العهد مدارس مثل الكليبين Cynics الزاهدين في الملذات أو القورينائيين Cyrenaics الداعين إلى الملذات ، وكان أعظم سؤال يتردد هو أين يوجد الخير ؟ خير الإنسان ؟ ولم يكن الجواب على ذلك يقيم للبوليس أى حساب . أما الكليبيون ومثلهم المنطرف هودبوجيبس فقد قرروا أن الفضيلة والحكمة تدركان بالحياة طبقاً للطبيعة وبذلك ألوان الغرور مثل الرغبة في التكرم والراحة . وهكذا عاش ديوجينيس معتكفاً وكان على البوليس أن تستغنى عنه . أما القورينائيون فقد كان مذهبهم طلب الملذات وهم يرون أن إدراك الحكمة يكون باختيار الملذات اختياراً صحيحاً وتجنب ما يعكر صفو الحياة ، ولهذا فقد تجنبوا البوليس هم كذلك . وقد صيغت كلمة Cosmopolis ( الوطن العالمى ) فعلا في ذلك الوقت لتعبر عن فكرة أن المجتمع الذى يدين له الرجل العاقل بالطاعة لم يكن شيئاً أقل من مجتمع الناس ، وأبنا عاش الرجل العاقل فإنه كان مواطناً زميلاً لكل رجل عاقل آخر ، ولكن بصرف النظر عن هذا المعنى الفلسفى فقد كانت فكرة الوطن العالمى هى التى تقابل بالضرورة فكرة الفردية الجديدة وتكسبها أى أن الوطن العالمى كان قد بدأ يحل محل الوليس .

فإذا تركنا الفن والفلسفة وانتصنا إلى الحياة والسياسة نجد مايعتبر في جوهره نفس الشيء . فالمواطن العادى مهمته تشونه الخاصة أكثر من اهتمامه وبالوليس . فإن كان فقيراً فهو يميل إلى اعتبار الوليس ، مصدرأ

البساع . مثال ذلك أن ديموستينير كافع كعاحاً شديداً لإصاع الناس بأن يكرسوا للدفاع الوطنى الايراتات التى كاترا يجمعولها بانظام انصدوق المسرح ، وهو ليس المبدأ المعد لاختراخ المسرحيات ولكنه المال المعد لتمكين المواطنين من دخول المسرح والمهرجانات الأخرى بحراً . إن المحافظة على هذا المال يمكن الدفاع عنها متى افترضنا فقط أن المواطن كان يبدى من الهمة فى خدمة البوليس ، مثلما كان يبدى فى قبول ما تمنحه له من المزايا . وإذا كان المواطن غنياً فإن انشغاله بأموره الخاصة كان أشد وقد كان ديموستينير يعقد مقارنة تبين الفرق بين المنازل الفخمة التى كان يبنها أغنياء عصره وبين المنازل البسيطة التى كان أغنياء القرن السابق يقنعون بها ، كما أن الملهاء ( الكومبديا ) كانت تبين بوضوح عظيم تغير مزاج الجمهور . فقد كانت الملهاء قديماً سياسية تماماً اذ كانت حياة البوليس ، هى محل الانتقاد والسخرية على المسرح . أما فى القرن الرابع فقد كانت تخدم مادتها فى الحياة الخاصة والحياة المنزلية . وكانت نكتها عن العباخين وأثمان السمك كما كانت عن الزوجات السليطات والأطباء الذين تعوزهم الكفاية .

وبمقارنة آئيننا فى عهد بريكليرس بآئيننا فى عهد ديموستينير نجد اختلافات أخرى ذات مغزى وإن كان يبدو أن علاقتها قليلة بمرور الفردية التى نحن بصدد بيانها . فالتخصيات التى توجه المجلس لم تعد موظفى الدولة المسئولين كما أصبح قيام موظفى الدولة المسئولين بالقيادة فى ميدان القتال أقل من ذى قبل . ومن المؤكد أن انفصال هذه الوظائف لم يكن مطلقاً ، ومع ذلك فما له دلالة أن نجد خطباء محترفين مثل ديموستينير ومصاصه أيسخينيس Aeschines من البارزين فى المجلس الذين يوفدون نصفه معوثين ومع ذلك هما لا يشغلان وظائف حكومية كما أن اشتغالهما بالقيادة فى ميدان القتال أندر من ذلك . وكذلك نجد سياسياً مثل اويولوس الذى كرس مواهبه العظيمة للإدارة الرشيدة والذى لم يشتهر فيما عدا ذلك ، كما نجد فواداً مثل ايبىكراتيس Iphicrates وحارباس Chabrias

اللدن كما يحرمين بالفعل يخدمان دولاً أجنبية حين لم تحتكما أثينا ويعيشان حارحاً بالفعل وقد تروح إبيكراتيس بنت ملك من ترايا وساعده بالفعل صد أثينا ذات مرة بينما عين الآثينيون روحاً آخر لامة ذلك الملك اسمه حارديموس Crandemus قائداً بصحة مطمة مع أنه لم يكن أثينياً بالمرّة بل كان مجرد قائد موهوب للجنود المرتقة .

فإذا أجابنا النظر بعد ذلك في بلاد الإغريق كلها فإننا نجد أن نظام البوليس قد أخذ ينهار ، وإذا نظرنا داخل أثينا نجد أن البوليس كانت آخذة في التفكك بل إن انهيار دولة المدينة يبدو أشد بفتة مما كان في الحقيقة ، فلم يكن الأمر أمر معركة واحدة ولا أمر عشرة أعوام بل ولا جيل واحد ، فما الذي جرى ؟ لقد وجدنا بعض الدلالات ولكن ماذا كان السبب ؟ لماذا انهارت « البوليس » في القرن الرابع لافى الخامس ؟ ولماذا استطاعت بلاد الإغريق أن تتصارع ضد فارس ولم تستطع ذلك ضد فيليب ؟ هل هناك أية علاقة بين هذا الانهيار وبين الفردية التي لاحظناها ؟ أو بين ذلك وبين الاستخدام المشثوم للجنود المحترفين ؟ لو أننا تمعنا مرة ثانية فيما كانت البوليس تعبه وتنضمه فإننا اعتقد أننا نتمكن من اكتشاف علاقة وثيقة بين كل هذه الأمور .

لقد جعلت « البوليس » للهاوى فكان مثلها الأعلى أن كل مواطن عليه أن يلعب دوره في أوجه نشاطها الكثيرة جميعاً ( وهذا يختلف باختلاف ما إذا كانت البوليس ديمقراطية أو أوليغاركية ) وهو مثل أعلى يمكن أن نقبل أنه وصل إليها من فكرة هوميروس عن « الدعوق » *arete* باعتبارها اعتباراً وشاطاً شاملاً فهي تطوى على احترام للحياة بصفتها كلا أو وحدة وكره للتخصص نتيجة لذلك ، كما أنها تنضم احتقاراً للكفاية أولعها تنضم فكرة أسمى بكثير من الكفاية أى الكفاية التي توجد في الحياة نفسها

لا في أحد ماحيها فقط . وقد سبق لنا أن رأينا إلى أي مدى دهمت أنيسا الديمقراطية في تقييد مجال الخير المحترف . لقد كان واجبا على الإنسان نحو نفسه ونحو البوليس أن يكون كل شيء .

ولكن فكرة الهاوى هذه تضمن أيضاً أن الحياة فضلاً عن كونها كلاً متكاملًا فهي بسيطة . وإذا كان على رجل واحد أن يؤدي كل أدواره في الفترة التي يعيشها فيجب ألا تكون هذه الأدوار أصعب مما يستطيع الرجل العادي أن يتعلمه ، وهذا هو الأمر الذي اهارت «البوليس» عنده . إن الرجل الغربي منذ عهد الإغريق لم يستطع قط أن يدع الأشياء وشأنها بل لابد أن يسأل ويكتشف ويتحسن ويتقدم والتقدم هو الذي حطم «البوليس» .

لننظر أولاً إلى اساحبة الدولة . إن القارىء الحديث الذي يتجه إلى أفلاطون وأرسطو ، هذين الفيلسوفين السياسيين اللذين يختلفان عن بعضهما كل الاختلاف لابد أنه يدعج من إصرارهما على أن «البوليس» ينبغي أن تكون مكتفية اكتفاء ذاتياً من الناحية الاقتصادية . فالأكتفاء الذاتي بالنسبة لهما يكاد يكون أول قانون في وجودها . وهما يوثران إلغاء التجارة بصورة عملية . ويبدو من الوجهة التاريخية على الأقل أنهما كانا على حق . لقد كانا يعتقدان اعتقاداً راسخاً أن نظام المدن الصغيرة الإغريق كان الأساس الوحيد الصالح للحياة المتحضرة من الوجهة الحقيقية وهذا مبدأ معقول . غير أن مثل هذا النظام كان من الممكن أن يصح فقط لو أن أحد شروط ثلاثة تحقق وأولها أن كل «بوليس» ينبغي أن تدبر أمورها وتسيرها بذكاء وضبط للنفس لم يد أن المجلس التشريعي قادر عليهما إلى الآن ، وثانيها ، على أسوأ الفروض أن «البوليس» ينبغي أن تكون من القوة بحيث تحافظ على النظام دون رعة في التدخل بلالروم في شئون غيرها الخاصة وهذا ما فعلته أسبرطه حياً من الدهر وبطريقة جزئية . وثالثها أن النظام بأكمله ينبغي أن يكون من الاتساع بحيث أن أعضائه يسعى ألا يعتمد أحدهم على

احتصاص الآخر ، وبعبارة أخرى يجب أن يكونوا مكنمين اكتفاء ذاتياً وقد كان هذا الشرط مستوفى في العصر القديم ، غير أن فتح البحر الأبيض المتوسط وعمو تنجارية غير الأمور ، إذ أدت الماسحات التجارية في الحال إلى حروب على نطاق واسع . فأحد العالم الإغريق يتقلص وأصبح لا مفر من الاصطدامات . وقد دفع نمو أثينا هذه العملية إلى الأمام . فقد كان نظامها الاقتصادي كله يناقض قانون الاكتفاء الذاتي لأن أثينا منذ عهد سولون أخذت تعتمد أكثر فأكثر على تصدير الببذ والزيت والبضائع المصنوعة وعلى استيراد القمح من البحر الأسود ومصر . ولهذا فقد كان عليها أن تشرف على جزر بحر إيجه بصورة ما وبخاصة الدردنيل . غير أن مثل هذا الإشراف كان لا يتفق مع نظام دولة المدينة كما أوضحت ذلك بلاد الإغريق لأثينا بطريقة جافة . وبدأ النظام ينحس حالماً بدا بإفراض القانون الذي يقوم عليه وجوده .

ولكن الوليس ، فرضت البساطة في أمور أخرى غير الأمور الاقتصادية . دعنا نتمعن في التكتيك الحربي والبحري وهو مالا يعتبر طفرة كبيرة منا . إننا جميعاً نعرف كيف يحارب الإغريق اليوم من قبة جبل إلى قبة جبل آخر . إنها طريقة للقتال فرضتها عليهم طبيعة البلاد . ومع ذلك فقد كانت الحرب التي تشنها دولة المدينة في هذه البلاد ذاتها يقوم بها مشاة يحملون سلاحاً ثقيلاً ولا يستطيعون الحرب إلا فوق أرض منبسطة . فقد كان الفرسان بل وأعجب من ذلك الجنود المزودون بأسلحة خفيفة يستغدون المساعدة فقط لحماية الجياحين وحماية حركة التفهقر وما أشبه ذلك . وهذا أمر يبدو خلواً من الدكاء بصورة عربية بين قوم يحبون المعامرة حاًجاً . ولكن تفسير ذلك سهل ، فقد كان الجدى هو المواطن وكان أكثر المواطنين فلاحين وكان لابد للمعارك من أن تكون قصيره إذ أن المحاصير إذا لم ترزع وتحصد جماعت وماتت الوليس ولهذا كانوا يهتجون دائماً عن قرار

حاسم سريع والجنود الجلبون بادراً ما يستطيعون تحقيق ذلك ، وفضلاً عن ذلك مع أن المواطن كان ينتظر منه أن يكون كفتاً في اسخدام السيف والدرع وفي نظام الاشتباك في القتال عن كثب وهو نظام بسيط وإن يكن شافهاً إلا أنه لم يكن يملك الوقت الضروري لإتقان فن الحرب الجبلية الذي تزيد مشقته على سابقه . ولقد كان لدى اسبرطة وحدها جيش محترف من المواطنين ( يساعد على تموينه عمل الأرقاء ) ولما كانت متفوقة في حرب الاشتباك عن كثب فإنه لم يكن لديها دافع يحفزها إلى تغيير وسائلها .

ولكن حدث أن قائداً آثينياً مغامراً قاد أثناء حرب البيلوبونيز معركة في المنطقة الجبلية الواقعة غربي بلاد الإغريق دون أن يلتقي بجاحاً كبيراً ووجد أن موقف المشاة المزودين بالأسلحة الثقيلة خطير ضد الجنود المزودين بالأسلحة الخفيفة الذين يعرفون كيف يضربون الضربة ويفرون ثم يضربون الضربة الثانية . ولم يذهب هذا الدرس هباءً إذ أن تكتيك الجنود المساحين بأسلحة خفيفة قد درس دراسة كان من أثرها أن القائد الآثيني إميفكراتيس Iphicrates ومعه بعض الجنود المزودين بالأسلحة الخفيفة فاجأ فصيلة إسبرطية على أرض وعرة ومزقتها كل ممزق . لم تكن لهذا الحادث في حد ذاته أهمية كبيرة ولكنه رغم ذلك كان نذيراً بما سيحدث ، إذ كان يدل على أن التكتيكات العسكرية كانت قد أخذت تبلغ من التخصص حداً فوق متناول الجسمدى المواطن . فاليوم الذى كان يستطيع فيه سياسى مثل بريكلئس أن يكون كذلك قائداً كفتاً للجنود كان قد ذهب أو كاد . وقد أخذ القتال يصح مهنة تحتاج إلى مهارة . ولقد سبق لنا أن قلنا بمص القواد المحترفين ، كما كان من السهل أن تؤلف الجيوش من بين العاطلين والمطرودين أو مجرد المعامرين الذين خلفتهم الحروب الطويلة وراها . ولقد كان العشرة آلاف جدى المشهورين بقيادة كسيدهون يؤلفون مثل هذه القوة . ولهذا كان هناك بعض المدر للآثينيين في أنهم أخذوا يعتمدون على الجنود

المرترقة أكثر مما يلزم أى على المختربين ، فقد كان من الممكن الإشارة إلى أن هذا هو الشيء العملى ، غير أن الخطر من الالتجاء إليه واضح . أما من جهة خصمهم النهائي فيليب فقد كان له جيش قائم حس التدريب على أحدث تكتيك مستعد للصرب فى أى وقت وفى أى مكان . وهو جيش مكون من الجلبيلين الجفافة الذين لم تشغل المدينة كأهلهم . ولم تكن البوليس تستطيع أن تقاوم هذه الوسيلة بمثلها دون أن تتوقف عن أن تصبح بوليسا .

وتنطق نفس القصة على التكتيك الحرى فقد تحققت هنا أيضاً مهارة الخبرة ولكنها تكلفت ثمناً لم تستطع والوليس ، فى النهاية دفعه . فى الحرب الفارسية كانت السفن الإغريقية بطيئة ثقيلة ، فأصحابها يشغلون فوق الأرض وخبرتهم بالملاحاة قليلة مثلها كمثل الأسطول الرومانى فى الحرب البونية الأولى . وكانت الفكرة هى دفع سفينهم بشدة نحو العدو ثم محاربتهم من فوق سطحها . أما بعد ذلك بخمسين سنة أى فى حرب البيلوبونيز الأولى فقد كانت السفينة الآثينية ذات صفوف المجاذيف الثلاثة سفينة بالمعنى الحقيقى مبنية كسفينة السباق . فقد ضحى الآثينيون بالثقل فى سبيل السرعة وخفة الحركة . وكان المحذفون وهم طبعاً من المواطنين لا الأرقاء — مدربين إلى درجة عالية من البراعة . فى إحدى الحفط البحرية مثلاً كانوا يجذفون تجديفاً سريعاً متجهين نحو سفينة العدو كأنما يريدون مصادمتها ثم ينحرفون عنها فى آخر لحظة ممكنة فتمرق المجاذيف القريبة بجانب سفينة العدو وتكتسح كل المجاذيف التى فى هذا الجانب ، بينما يحدث الرماة الذين على السطح أقصى ما يستطيعون من الضرر ثم يدورون بسرعة نحو العدو الذى شلوا حركته ويضربونه كما يشاءون .

مثل هذه الخطة تحتاج إلى دقة عظيمة وشجاعة من جانب كل من بعضهم الأمر . ولذلك كاد يكون لزاماً على الملاحين أن يكونوا مختربين فى الحقيقة . ولكن كيف تجعل من المواطنين الذين يحتاجون إلى كسب عيشهم ملاحين



محترفين ؟ وما دامت مقدرة العمال على الإنتاج ضعيفة جداً فكيف كانت تستطيع أئبنا أن تتركس مثل هذا العدد الكبير من العمال لأسطوطها ؟ كان ذلك ممكناً فقط لأنها كانت تأخذ الجريه من حلفائها الخاضعين لها . فكانت الوحيدة السياسية الكبيرة وهي الإمبراطورية الأثينية هي التي تستطيع في الحقيقة دفع تكاليف هذه الدرجة من التخصص ، أما «البوليس» فلم تكن تستطيع ذلك . ولكن الوحدة الكبيرة لم يكن يستطيع الناس قبولها . وهذه نقطة لها بعض الأهمية بالنسبة لأوروبا الغربية حالياً . وقد نالت أئبنا في الحقيقة هذه الخبرة البحرية ( وغير ذلك من الأمور ) عن طريق استغلال المدن الأخرى . وكان هذا إهانة لعواطف الإغريق . ففيه إنكار لأحد القوانين الأساسية للنظام كله . وقد جلب هذا الإنكار معه عقوبته .

رأينا منذ لحظة أن التقيد الاقتصادي باعتباره إنكاراً فلاكتفاء الذاتي كان يتعارض مع البوليس في ناحيتها الدولية . والآن ونحن ندرس حالة أئبنا خاصة يمكننا أن نلاحظ أن نتائجه من الوجهة الداخلية كانت خطيرة كذلك . ومع أن قانون أفلاطون أصبح بالفعل بالنسبة للخارج ولا شك أن تجربة أئبنا الداخلية هي التي أدت إلى صياغته . فقبل منتصف القرن الخامس كانت ييريه قد أصبحت إلى حد كبير أكثر موانئ البحر المتوسط حركة ، وقد أعلن بريكليس بفخر وهو يرفض قانون أفلاطون مقدماً : أن منتجات العالم أجمع تأتيها ، وهو ما كان يحدث بالفعل ، فإنها كانت تأتيهم — ومن بينها الطاعون . ولقد ازدهرت ييريه وأئبنا نفسها وأقام بهما أجناب معامرون وطهرت بها صاعات وأصبح المدينة المردوحة مركز العالم . وقد كان ذلك شيئاً رائعاً ومثيراً جداً ولكنه كان أكبر مما تستطيع البوليس أن تهضمه . وقد كانت البوليس مكونة من مجتمع من أصحاب المصالح ، ولكن مصالح العاصر التجارية والزراعية الأثينية وكذلك طابعهم بدأت تنشعب بشكل شديد ، فكانت العاصر التجارية تسكون من الديقراطيين المتطرفين

والاستعماريين وحرب الحرب فإن كانوا أعباء صحتهم الحرب فرصاً لدوسع التجارى، وإن كانوا فقراء أعطتهم عملاً وأحرأ ولكها كانت تغطى سكان الريف يونأ غير مسقوفة وتؤدى إلى قطع . يمكنون من أشجار الزيتون العطية سمو . وكان أكثر رعماء اعمال بعد بريكليس من أهل يريه وهم التجار الناجحون من أمثال كليون . فكانوا ذوى مقدرة عظيمة أحياناً ولكهم كانوا انتهازيين . إذ كانت لهم بحكم طبيعتهم وتدريبهم آراء متعيزة مما جعل لهم خصوماً ذوى آراء أشد منهم تحيزاً وعنفاً . وبالإضافة إلى ذلك أن تعقيد الحبة المتزايد الناشء من هذا النمو التجارى جعل هناك نوعاً من القوة المركزية الطاردة داخل دالبوليس . فأصبحت شئون الناس الخاصة أكثر تشوبقاً وتطرفاً في مطالبها بحيث أخذوا يميلون إلى الانسحاب من الأمور العامة وأصبح الحول السياسى فى أثينا فى القرن الرابع نتيجة مباشرة لذلك .

ولكن هذا التقدم المدمر لم يكن مقصوراً على الجانب الممادى للحياة ، ومن الحق أن نؤكد أنه بدأ به . وكان أريستوفانيس يرى أن سبب ذلك هو محاولة الناس أن يكونوا أهر مما ينبغي . ويمكننا أن نذكر الكثير تأييداً لهذا الرأى البسيط .

فقد ظلت الأخلاق الإغريقية أجيالاً عديدة مثل الخطط الحرية الإغريقية تقليدية محضة تقوم على فضائل العدالة والشجاعة وضبط النفس والحكمة وهى الفضائل الأساسية وكان ينشر شاعر بعد آخر بنص هذه العقيدة أى بجمال العدالة وإخطار الطمع وحماسة العف فكانت عقيدة حلقية لا يمارسها كل الإغريق بالفعل أكثر مما يمارس العالم المسيحى بأجمعه المسيحية ورغم ذلك فقد كانت مثل المسيحية مثالا يحتذى مسلياً به . وإن ارتكب إنسان إساءة كان معروفاً أنه قد ارتكب إساءة وهذا هو الأساس

القوى البسيط الذى كان من الممكن أن تقوم عليه حياة مشتركة . وها أيضاً يجد مصدر فوه انص الإغريق الكلاسى ولساطنه . وقد قام انص الأوروى الوحيد الآخر الذى يقارب انص الإغريق فى هذه الصمات وهو فى القرن الثالث عشر على مثل هذا الأساس .

ولكن القرن الخامس غير ذلك كله . فضل نهايته لم يكن يعرف إنسان أن هو . إذ أن المهرة من الناس أخذوا يقلبون كل شىء رأساً على عقب أما السطاء فكانوا يشعرون أنهم متخلفون عن زمانهم . فإن تكلم أحد عن الفضيلة وجد الرد د إن هذا كله بثوق على ما تقصده بالفضيلة ، وهو ما لم يكن يعرفه أحد . وهذا من أسباب انصراف الشعراء عن هذا الميدان . وكما أن الأفكار الجديدة ومكتشفات العلوم الطبيعية قد غيرت نظرتنا تغيراً كبيراً خلال السنين المائة الأخيرة فهدمت عسد كثير من الناس الدين والأخلاق التى توارثوها حتى أصبح الشيطان لا يجد ما يعمل به ، وأصبح الإنم فى انظارهم لا وجود له وأصبحت كل العبوس الإنسانية نتائج لطبيعة الجسد أو ناشئة عن البيئة ، كذلك شجعت تأملات الفلاسفة الأيونيين الجريئة فى القرنين السادس وأوائل الخامس على البحث العلمى المنظم فى اتجاهات كثيرة مما كانت نتيجه زعزعة كثير من الأفكار المسلم بها فى الأخلاق زعزعة شديدة .

حقاً لقد كان هناك سقراط وهو أنبل من عاش بالنأكيد . فقد اهتم بتأملات الفلاسفة الطبيعيين ولكنه عدل عنها باعتبارها عديمة الجدوى ونافية كذلك متى قوربت بالسؤال الحام التالى : كيف يسعى لنا أن نعيش ؟ ولم يكن هو يعرف الجواب على هذا السؤال ، ولكنه أحد يعمل على اكتشافه بمحصص أفكار الآخرى حصصاً دقيقاً . وقد بين هذا المحص لسقراط وللشان الدرس كانوا يتبعونه أينما ذهب أن الأخلاق التقليدية لا أساس لها فى المطلق ولم يستطع أحد فى أيما أن يعطى تعريفاً لأية فصيلة حنفة

أو فكرية يمكن أن يظل قائماً صحيحاً بعد محادثة مع هذا الساء الهائل تستغرق عشرة دقائق وقد كان تأثير ذلك هداماً على بعض الشبان . وقد تخطمت عقيدتهم في التقاليد الموروثة ، ولم يستبدلوا شيء آخر وترعرع إيمانهم بالبوليس . إذ كيف كانت تستطيع البوليس أن تدرب مواطنيها على الفضيلة علماً بأن أحداً لم يكن يعلم ما هي . ولهذا أخذ سقراط يتحسر على حق أثينا الديمقراطية التي كانت تهتم باستشارة خبير في شيء تافه مثل بناء جدار أو حوض لبناء السفن بينما كانت تسمح لأي إنسان بأن يصرح بما يحول في ذهنه الذي لم يهذب بالنسبة لمسائل الأخلاق والسلوك التي كانت أهم من ذلك بما لا يقاس .

لقد كان الهدف السامي لسقراط ولأفلاطون من بعده هو وضع الفضيلة على أساس منطقي لا يمكن مهاجمته وجعلها موضوعاً لعلم دقيق يمكن الإحاطة به وتعليمه لا لرأى تقليدي خطير ، وهذا هدف يستحق الثناء ولكنه أدى إلى الجمهورية مباشرة وهي النقيض المحترف للبوليس الهاوية . لأن تدريب المواطنين على الفضيلة أى على حكم البوليس يجب أن يركز إلى أولئك الذين يعرفون ماذا يقصد بالفضيلة . وإصرار أفلاطون على العلم كان تأثيره تفتيت المجتمع إلى أفراد كل منهم خبير في مطلب واحد فقط يلزمه أن يقتصر عليه . وسيد الفنون وأهمها وأصعبها هو د فن السياسة . ومن يتقن هذا الفن عند اكتشافه يجب أن يحكم . وبكفينا ذكر هذا القدر عن البوليس ، ونطربنها القائمة ان الحياة الطيبة معناها الاشتراك في كل شيء .

وقد أنتجت هذه العودة العسكرية فصلاً عن سقراط حمرة من قوم أقل مه هم السوفسطائيون الذين كان تأثيرهم على البوليس أهم من تأثيره . إن لعط د سوفسطائي ، ليس له معنى يحيط من قدر الإنسان بالمره . أما الذي أعطاه هذا المعنى فهو سقراط لأنه كان يكره أساليبهم وأهدافهم

على السواء ، إذ كانوا مدرسين لا مستمسين ، وكانت أهدافهم عملية لا فلسفية . ومعنى الكلمة هو معلم ، الحكمة ، Sophia وهي إحدى الكلمات الإغريقية الصعبة التي معناها إما ، الحكمة ، أو ، المهارة ، أو ، الماهرة العملية . ولعل كلمة « أستاذ » هي تقريباً المقابل الحديث لكلمة « سوفسطائي » فهي مثل الكلمة الأولى لها معانٍ متفاوتة بين أساتذة اللغة الإغريقية وأساتذة علم فرائض الدماغ . ومع أن بعض الأساتذة يشتغلون بالبحث إلا أنهم جميعاً يقومون بالتعليم وتدفع لهم أجور . وقد كان هذا عاراً كبيراً على سوفسطائيين . وقد كان بعضهم أساتذة جادين ومربين أو علماء . بينما كان الآخرون أشبه بياعة السلع النافذة المتجولين فكانوا يعلنون أنهم يعدون الفن السامي الذي يهدف إلى التقدم في الحياة . فهل تريد تحسين ذاكرتك ؟ أم تريد أن يكون لك ١٠٠٠ ج دخلاً في السنة ؟ إن من سوفسطائيين من كان يملك ذلك بأجر . فقد كان سوفسطائيون يذهبون من مدينة لأخرى يلقيون محاضرات عن موضوعاتهم الخاصة . ومنهم من كان يعتمد فعلاً بأن يحاضر في أى موضوع وإن كان ذلك دائماً في مقابل أجر . وقد كان الشبان الطموحون المتسائلون يحسونهم حباً جماً . ويمكننا أن نشير إلى أثر تعليمهم تحت عنوانين :

أولها أنهم مثل سقراط أخذوا يقدون الأخلاق البالية . وقد قام البعض بمحاولات جديدة لإرسائها على أساس وعيد . وكان الآخرون يعلمون مذاهب جديدة مثيرة مثل « ثراسيماخوس » Thrasymachus الذي يبرز اسمه في أول كتاب « الجمهورية » ، والذي يصوره الكاتب لساً كرجل عديم الإحساس لا يطبق أى فكرة ولو عامصة عن العدالة . ولضرب مثلاً واحداً دقيقاً إليه عندما أكره على أن يبين رأيه واحداً دقيقاً قال : العدالة بكل نسلطة هي مصلحة الطرف الأقوى . . وكان يرى بروتاجوراس وهو رجل أعظم من سائعه بكثير أنه ليس هناك خير أو شر مجرد ، فالإنسان

هو مقياس كل شيء . أى أن الحق والأخلاق أمور نسبية . ونحن الذين رأينا إلى أية استعمالات دنيئة يمكن أن نرل بالمذهب العلمى القائل بقاء للأصلح يمكن أن نتصور بدون صعوبة كبيرة أية مفعة يمكن أهل العف والمطامع أن يجوها من هذا القول . ومن الممكن أن تعطى مطمراً علمياً أو فلسفياً محترماً لأى شر . والناس يستطيعون أن يعملوا أعمالاً خبيثة دون أن يعلمهم السوفسطائيون ، غير أنه كان من المفيد أن يتعلموا الحجج التى تجعلها طيبة فى نظر الرجل البسيط .

أما السوفسطائيون الذين لم يتعرضوا للأخلاق فقد كان لهم تأثير كالأخرين . إذ أن التعليم كان أثراً من الآثار الفرعية لحياة البوليس يشترك فيه الجميع . وكان أصحاب المواهب الفطرية يسبقون الباقين وإن كان الكل موجودين فى صعيد واحد ، وهكذا بقيت وحدة البوليس . وبظهور السوفسطائيين أصبح هناك تخصص فى التعليم كما دخله الاحتراف ، فأصبح مباحاً فقط للذين يستطيعون أن يدفعوا أجره وكذلك يريدونه . وهكذا أصبحت هناك حوة حقيقية لأول مرة بين المستثنيين والبسطاء . مما كانت نتيجة الطبيعية ان الطبقات المتعلمة فى المدن المختلفة أخذت تشعر أنها تشترك فيما بينها أكثر مما يشترك المتعلمون مع غير المتعلمين فى مدينتهم نفسها . وهكذا أصبح الوطن العالمى أقرب .

وقد كانت البلاغة أهم فن عملى يعلمه السفسطائيون وكان الإغريق قد حللوا من الإقاع لشدة أهميته لهم وأتقوه ونظموه . فقد كان قل ذلك مسألة ذكاء فطرى ومران ثم صار من الممكن تعلمه إبداعاً فى مقابل أجر يدفع فأخذ الناس يمارسونه بحماسة .

ولقد كان الآثينيون الذين يجدون لغة كافية فى الكلام الذى توفرت حججه وحسنت صياغته يفتنون — لفته ماعلى الأقل — بالأسلوب

المنقش والمناقشات الدقيقة التي ابتكرها هؤلاء المحترفون وعلوها حتى أصبحوا — على حد قول كليون — خبراء أكثر منهم مواطنين . بينما كان الرجل البسيط الذي بهرم في المناقشة أو يحسر قضيته يتدمر من الطريقة التي كانت تحوير بها العدالة ( ومسرحية السحب ، لارستوفانيس توضح هذا ) فأنت أن لم تتفنن هذا الأسلوب الجديد تصبح أو يمكنك أن تصبح في مركز ضعيف إن كان عليك أن تعرض قضية على زملائك المواطنين . وهذه هي نفس الظاهرة التي وجدناها من قبل . فالخبير الواسع الخبرة والمتخصص لم يكن له مكان طبيعي في البوليس . فإذا ظهر ، وهو ما كان يحدث في كثير من فروع الحياة ، كان يؤدي إلى إضعاف تماسك المدينة وتخطي الحدود الطبيعية لها .

## العقل الإغريق

الآن وقد ألقينا نظرة فاحصة موجزة على تاريخ الإغريق حتى انتهت  
عملاً دولة المدينة يمكننا أن نتوقف لنلقى نظرة على طبيعة العقل الإغريق  
وبعض مآثره خلال هذه الحقبة .

ربما كانت أبرز علامة مميزة للعقل الإغريق هو إدراكه للأشياء ككل  
متكامل . وقد سبق لنا أن قابلنا بعض الأمثلة البارزة التي تعبر عن ذلك  
في الطريقة التي يتبعها هومر ، فرغم حبه العظيم لذكر التفاصيل وما يميز كلا  
منها على حده ، فإنه يعرضها باحكام في إطار شامل . أو الطريقة التي تدل  
على أن كثيراً من الإغريق متعددو الجوانب في وقت واحد ، فسلولون مصلح  
سياسي واقتصادي ورجل من رجال الأعمال وشاعر . أو الطريقة التي لا تكون  
فيها البوليس نفسها أداة للحكم بل شيئاً يتعلق بالحياة كلها تقريباً . وبينما  
العقل الحديث يقسم الأشياء ويخصصها ويفكر فيها باعتبارها أصنافاً ، يجد  
طبيعة الإغريق على النقيض من ذلك فهو ينظر أوسع نظرة ويرى الأشياء  
كلا عضوباً . وقد أوضحنا خطبنا كابون وديودوتوس نفس الشيء بالضبط  
وهو أن موضوع البحث يجب تعميمه .

دعنا نحاول الآن أن نوضح هذه النظرة الكلية أكثر من ذلك مبتدئين  
بهذا الشيء الإغريقي الصميم — اللغة الإغريقية .

إن من يبدأ تعلم الإغريقية يجد صعوبات مستمرة بالنسبة لكلمات معية  
يعتقد أنها كان يجب أن تكون بسيطة وهي في الحقيقة كذلك ولكنها تدور  
في البداية صعبة بشكل غير متوقع . هناك كلمة كالوس Kalos وعكسها أيسحروس



aischros ، يقال له أن الكلمة الأولى معناها « جميل » ، وهو يعرف ما يقابلها باللاتينية بولكر Pulcher وينتهج بذلك كل الابتهاج ، ثم يقرأ عن « بوليس كالي » أي مدينة جميلة . ويسمى هو « إسرطه » كالليجونايكوس ، أي « مدينة السماء الجميلات » ، ويدعو للقاري « كل شيء على مايرام ولكم يقرأ بعد ذلك أن الفضيلة « جميلة » ، وأن موت الإنسان من أجل بلاده شيء جميل ، وأن صاحب الفرس الكبيرة بكافح ليدرك « الجمال » ، وأن السلاح الحسن أو الميناء الواسع « جميل » ، فيستنتج من ذلك أن الإغريق كانوا يرون الأشياء بصفة جوهرية من وجهة نظر جمالية ، ويتأيد استنتاجه عندما يجد أن كلمة « إيسخروس » ، وباللاتينية « تورينس Turpis » تفيد بالإنجليزية معنى « خسيس » أو « شائن » أو « قبيح » ، وهكذا يمكن أن يكون الإنسان « دنياً » ، لافي خلقه فقط بل أيضاً في مظهره . كم كان راءياً من الإغريق أن يحولوا الفضيلة إلى الجمال والرذيلة إلى القبح !

ولكن الإغريق لم يفعل شيئاً من هذا القبيل . إننا نحن الذين نفعل ذلك بتقسيم المذكرات إلى أصناف متباينة وإن تكن متوازية فمنها الأخلاق والفكرى والجمالى والعمل (١) . أما الإغريق فلم يكن يفعل ذلك ، حتى الفلاسفة كانوا لا يرغبون في ذلك . فعندما يجعل أفلاطون سقراط يبدأ إحدى المناقشات بقوله « أنت توافقني على أن هناك شيئاً اسمه كالون ( جميل ) قد نكون متأكدين من أنه سيرتك مناظره بالانزلاق بلطف من كالون ( جميل ) إلى كالون ( شريف ) . فالكلمة معناها في الحقيقة شيء مثل « جدير بالإنجاب الشديد » ، وقد تستعمل دون أكثرات في أي نوع من هذه الأنواع مثل كلمة « حسن » عندنا تقريباً ، وفي الإنجليزية كلمات مثل هذه ، فكلمة « ردى » .

---

(١) قد لا يجد القاري العرق وجهاً للعراة في استخدام اللفظ الواحد - للدلالة على معنى حلوى وفكرى وجمال الخ . على عكس القاري الإنجليزي ( المترجم ) .

يمكن أن يوصف بها السلوك أو الشعراء أو السمك وهي في كل حالة منها تفيد معنى مختلفاً كل الاختلاف ، أما في الإغريقية ورفض تخصيص المعنى شيء عادي

فكلمة « همارتيا hamartia » معناها « خطأ » و « غلطة » و « جريمة » أو حتى « خطيئة » ومعناها الحرفي هو « عدم إصابة الهدف » أو « طقعة رديئة » وقد نقول متعجبين « كم كان تفكير هؤلاء الإغريق منطقياً افالخطيئة هي بالضبط عدم إصابة الهدف » فلهذا تكون أحسن خطأ في المرة التالية وهكذا يبدو أننا نجد ما يؤيد رأينا عندما نجد أن بعض الفضائل الإغريقية يبدو أنها فكرية بقدر ما هي أخلاقية . وهي حقيقة تجعلها غير قابلة للترجمة لأن ألفاظها تهم بالفرقة بين الأشياء . فهناك كلمة « سوفروسونه Sophrosyne » ومعناها الحرفي « حضور الذهن بكل قواه » ولكنها في سياق الكلام قد تفيد معنى « الحكمة » أو « الحرص » أو الاعتدال أو العفة أو الرشد ، أو « التواضع » أو « ضبط النفس » أي أنها قد تعني شيئاً فكرياً خاصاً أو أخلاقياً محضاً أو بين بين . فالصعوبة التي نجدها بالنسبة لهذه الكلمة أو بالنسبة لكلمة همارتيا ترجع إلى أن تفكيرنا يتدخله مناحي مستقلة . فكلهم « همارتيا » ومعناها ، طلقاً لم تصب الهدف ، لا يقصد منها « لعلك تكون أحسن خطأ في المرة التالية » بل معناها أقرب إلى أن يكون « ان الخطأ العقلي يستحق اللوم وقد يكون عيباً مثل الخطأ الأخلاقي » .

كما أننا استيفاء لدراستنا نجد الإغريق يستعملون كلمات تزخر بالمعنى الأخلاقي في النواحي التي ينبغي علينا فيها أن نستخدم ألفاظاً لها دلالة فكرية كما في حالة النظريات السياسية مثلاً . فالسياسة العدوانية يحتتمل أن تكون « أديكيا » أي ( طمأ ) حتى وإن لم تكن ( هوريس hybris ) أي ( حشاً طامشاً ) بينما « نصحم الرورة » أو « الكسب غير المشروع » هو « دليوبيكسيا Eleonexia » أي « محاولة الحصول على أكثر من نصيبك » وهو خطأ من الوجهة الفكرية والأخلاقية معاً ونجد لسنا الكون .

دعنا نرجع إلى هو مر لحظه قد كان شاعر الإلياذة مدركاً للفروق بين الطمعات ، وهذه من أهم اصغيات الارمه ليوم اللعان في رأى بعض الضالين .

هو يكتب عن الملوك والأمراء وحدهم ، والجندى العادى لا يلعب دوراً في القصيدة ، وفضلاً عن ذلك هؤلاء الملوك والأمراء يراعى في تصويرهم أن يتقيدوا بمحدود طبقتهم وزمانهم . هم مغرورون ، قساة متقمون يلمعون في الحرب ولو أنهم يكرهونها في نفس الوقت . كيف كان يمكن إذن أن يصبح مثل هؤلاء الأبطال مثلاً للطبقة الوسطى التى جاءت بعد ذلك ومصدراً حياً للإلهام ؟ ذلك أنهم باعتبارهم أغريقاً كانوا لا يستطيعون أن يروا أنفسهم إلا في أوسع دائرة ممكنة أى أن يروا أنهم رجال . فلم يكن مثلم الأعلى هو مثل أعلى للفرسان بصفة خاصة كالشمامة في الفروسية والحب بل ما كانوا يدعونه أريتيه arete وهى كلمة إغريقية أخرى تعتبر نموذجاً لغيرها في دلالتها . فعندما تصادفها عند أفلاطون نترجمها بالفضيلة ، وبضيق منا بذلك كل أثر لتذوقها ، فالفضيلة ، في اللغة الإنجليزية الحديثة على الأقل تكاد تكون كلمة أخلاقية محضة . أما أريتيه فإنها تستخدم دون اكتراث في كل النواحي وتسمى مجرد الامتياز ، ويمكن أن يتحدد معناها بطبيعة الحال من سياق الكلام . فالأريتيه ، بالنسبة لحصان الساقى هى السرعة وبالنسبة لحصان جر العربات هى القوة ، فإذا استعمات في سياق الكلام عامة عن رجل فإنها تشير إلى الامتياز في الأساليب التى يستطيع الإنسان أن يكون ممتازاً فيها — سواء منها الأخلاقية أو العسكرية أو الطبيعية أو العملية . وهكذا تجد أن بطل الأوديسا محارب عظيم ومدير أريب وخطيب قادر على الارتجال ورجل ذو قلب حرى وحكمة نالعة يعرف أن عليه أن يتحمل ما يرسله الآلهة من نوارل دون أن يشكو من الشكوى ويستطيع أن يصنع سمية وبحرها ويشق خطأ مستقيماً منخرات مثل غيره

من اللباس ويهرم كل خور صغير معرور في قدف القرص ويتحدى شان  
هايكيا في الملاكمة والمصارعة والعدو ويسلح حلد الثور ويقطعه إرباً  
ويطحه وتندر إحدى الأعالي دموعه . وهو في الحقيقة بارع في كل ناحية  
ولديه « أرينيه » ، فائقة ، ومثله أيضاً طلل القصبدة الأقدم من الأوديسا ،  
أخيليس أرواح المحاربين وأسرع اعدائين وأبل الناس نفساً . ويخبرنا هومر  
في بيت مشهور من الشعر كيف تلقى أخيليس العلم . فقد عمده أبوه بالصبي  
إلى فونيكس Phoenix المعجوز وطلب إليه أن يدرجه ليكون « مؤلفاً للخطب  
وقائماً بروائع الأعمال » ، وقد حاول البطل الإغريق أن يجمع في ذاته الفضائل  
التي قسمها عصر البطولة الذي نعيش نحن فيه بين الفرسان ورجال الدين .

وهذا هو أحد الأسباب في بقاء الملاحم وسيلة لتعليم عصر حضارته  
أرقى من عصرها بكثير . إن « الأرينيه » ، وهي المثل الأعلى للبطولة مع أنها  
راسخة الجذور في عصرها وظروفها كانت من العمق والشمول بحيث أمكنها  
أن تصبح مثلاً أعلى لعصر يختلف عن عصرها كل الاختلاف .

وفي البنية التي ترجمتها من الإلياذة أحد التفاصيل التي يترأى لي أنها  
إغريقية للغاية ، أعني قوله « لقد تمزق قلبه داخل صدره المنفطر بالشعر » ، فهل  
كان ينبغي عليه أن يقتل ابن أتربوس أو بصرف غضبه « وقد كذب تبسسون  
عن لحظة مشابهة وهو يترجم عن فيرجيل Virgil : —

« فأصبح عقله اللهاج موزعاً بين هذا الطريق وذاك » . والعقل بلاريب  
ليس هو القلب . ولو أن تبسون أو فيرجيل ذكر في نفس الوقت الذي  
يذكر فيه القلب أو العقل أحد التفاصيل المادية الخاصة بالجسد الذي يسكن  
فيه هذا العقل أو القلب لأحدثنا الدهشة . أما هومر فإنه يبدو له طبيعياً  
للعناية أن الصدر يكسوه الشعر لاء يرى الرحمن كاه في نفس الوقت .

ليست هذه النقطة مما أخصد نأكد أهميته ، ولكنها تريباً ناحية أخرى

من نواحي الشمول الكلى تنعقر ، وهى ناحية كان يطهر فيها الإغريق على طرفى تقبض مع ، البرارة ، ومع أكثر الشعوب الحديثة . فالفرقة الحادة التى يمر بها العالم المسيحى والشرقى تشكل طبيعى بين الجسد والنفس وبين المادى والروحى كانت غريبة على الإغريق حتى عصر سقراط وأفلاطون على الأقل . إذ أن الإغريق كان يرى الإنسان كله ، أما أن الجسد هو قبر النفس فهذه فكرة نقابلها فعلاً فى بعض ديانات الأسرار الإغريقية . وقد كان لزماً على أفلاطون أن يميز تمييزاً حاداً بين الجسم والنفس فى مذهبه عن الخلود . ورغم ذلك كله فليست هذه فكرة إغريقية اختص بها الإغريق . وقد جعل الإغريق التدريب الجسمانى جزءاً أساسياً من التربية لا لأنه قال لنفسه : لاحظ! أننا يجب ألا ننسى الجسم ، بل لأنه لم يكن يمكن أن يحظر بباله أن يدرب إلا الإنسان بأكمله . فقد كان وجود جهنم يوم ( ما لم يمارس فيه الألعاب الرياضية ) فى البوليس أمراً طبيعياً كوجود مسرح أرسفن حرية . وكان الرجال من جميع الأعمار يتمرنون فيه باستمرار لاعتلى الرياضة البدنية لحسب بل على الرياضة العقلية أيضاً .

غير أن الألعاب المحبة والدولية هى التى تبين بوضوح هذه الناحية من العقل الإغريق . وقد يلام الإنسان عندنا على أنه : يتخذ الألعاب ديناً له ، أما الإغريق فلم يكن يفعل ذلك ولكنه كان يفعل أحياناً شيئاً أعجب منه ، إذ كان يجعل الألعاب جزءاً من دينه . ولكى يكون ذلك واضحاً كل الوضوح نقول إن الألعاب الأولمبية وهى أعظم المهرجانات الدولية كانت تقام بتجديد الإله الأوسى ربوس ، كما كانت تقام الألعاب البوئية بتجديد أولولون والألعاب فى عيد اساتناثيسا Parathena بتجديد أثينا . فضلاً عن أنها كانت تقام إلى جوار الأمكة المقدسة ، وكان الشعور الذى دعا إلى ذلك شعوراً طبيعياً حاداً . فقد كانت المباراة وسيلة إثارة الأرينيه ، الشربة وإظهارها ، وقد كان هذا قرناً جديراً أن يقدم للرب . وبمى

الطريقة كانت تقام الألعاب تكريماً لطلل فدم مات مثل ماتروكلوس Parroclis في الإلبادة . ولكن لما كانت « الأريتيه » خاصة بالعقل كما كانت خاصة بالجسم فلم يكن هناك شيء من عدم التناسق أو التصعق في الجمع بين المباريات الموسيقية والرياضية . فقد كان العرف على النأى مباراة ثابتة مقررة في الألعاب البوئية . ألم يكن أبوللون نفسه « رب النأى » ؟ .

لقد كان المقصود من الألعاب هو اختصار « الأريتيه » الخاصة بالإنسان كله لا بمهارة معينة فيه فحسب . وقد كانت الألعاب المعنادة هي العدو السريع لمسافة ٢٠٠ ياردة والسباق الطويل (ميل ونصف) والسباق مع لبس الدروع وقذف القرص والحربة والوثب الطويل والمصارعة والملاكمة (من نوع خطير جداً) وسباق العربات . وكانت اللعبة الكبرى هي البتائلون (مباراة الألعاب الخمس) في الساق والوثب وقذف القرص والحرب والمصارعة فإن فزت فيها كنت رجلاً حقاً . ولا حاجة بنا إلى القول بأن سباق المراثون لم يسمع عنه إلا في العصور الحديثة . وكان من الجائز أن يعتبره الإغريق شيئاً طبيعياً . أما عن المهارة التي يبدونها الأبطال الحديثون في ألعاب مثل الجواف والبليارد فمن المؤكد أن الإغريق كانوا يعجبون بها كل الإعجاب ويرون فيها شيئاً رائعاً يصلح للرقبى بفرض أن الإنسان لم يجد لهم فائدة أكثر من تدريبهم على هذا النحو . إذ كان ينتظر من الإغريق أن يقول إنه محال أن يكتسب الإنسان مثل هذه المهارة ثم يعيش في نفس الوقت الحياة التي تليق برجل مواطن . إن مثل هذا الشعور هو الذي تطوى عليه ملاحظة أرسطو « إن لسيد المهدب يسعى أن يكون قادراً على عرف النأى ولكن على ألا يكون مهارته فيه أكثر مما يدعى » .

إن « الفائر » في إحدى الألعاب انعطى كان « حلاً » بل إنه كاد يكون بالفعل أكثر من رجل فيكون « طلاً » يعامله مواطنوه معاملة

الاطفال وكان يحظى بالتكريم العلى العام الذى ربما تضمن تقديم  
العشاء له فى قاعة المدينة من المصروفات العامة بقية عمره ( ليضاهى إلى  
حد ما أكليل أغصان الزيتون الذى كان يسمح للمنصر ) . ولقد تمت بين  
الدورين بصفة خاصة عادة تكليف شاعر بعظم أعية رصينة تكريماً للباطل  
تغنى فى وثبة أو مهرجان دينى ، وهكذا حدث أن من بين أعظم وأرصن  
شاعرين فى القرن الخامس أسخيلوس ، وبنداروس كان الثانى معروفاً لنا  
بأنه عتصر فى نظم أغاني النصر ( باستثناء شذرات من قصائد أخرى )  
وانها لفكرة غريبة بالنسبة لنا أن يكتب شاعر رصين أغاني للرياضيين  
والأعجب من ذلك أن نجد فى مثل هذه الأغنية قطعة كهذه : —

إن من يكسب لجأة جائزة نعمة

فى أعوام الشباب الخصبه

بسمو به الأمل وتنمو لرجولته أجنحة

وينطوى قلبه على ما هو أفضل من اثروة .

ولكن موسم ابتهاج الإنسان قصير ،

فسرعان ما يقع على الأرض ويبحث جذوره قضاء رهيب .

مدته يوم - هكذا الإنسان ، إنه طيف فى الحلم .

ومع ذلك عندما يتزل عليه الهاء الذى يصفيه عليه الرب .

يتلألأ عليه سماء وضاء فما أحلى الحياة !

فيا أمة العزيرة اجيئنا أرشدى هذه المدينة إلى طريق الحرية

بوساطة ريوس وهصل البطل أياكوس

وبلبوس وتيلامون القوى وإحيائس .

هذا شعر عظيم حتى يعد أن انتزع من لعنة الإغريقه الأصيلة . وعلى الإنسان أن يلتزم له نظيراً مأساؤياً في « سفر الجامعة » ، وهذا الشعر حاتمة أعبة ألقت للاجتماع بانصار في مذهب من أبحا في ماراة مصارعة الأولاد في دلفوى .

ولست كل أغاني بنداروس حزينه رصينة كهذه بأية حال ، ولكنه لما نظم هذه الأغنية كان شيعاً طاعناً في السن ، وقد كانت أبدا تهدد سكان إيجينا وهم من أقاربه الذين كان يكن لهم إحساسات ودية جداً . وهذا هو سبب الابهال الجدى الموجه لأبطال إيجينا في الختام ، وهذه الرصانة لم تكن أمراً غير عادى بأية حال . ولا يفكر بنداروس في مجرد المباراة الرياضية التى لا يتواضع فيصنفها أبداً بل يفكر في « الامتياز » الذى بدا من المستصر ، ومن الطبيعي أن ينتقل الشاعر الإغريقى منه إلى أى نوع من « الامتياز » سواء عند الفرد أو عند البوليس فهو يرى الانتصار في أوسع نطاق .

إن الامتياز الجسمانى والخالق والفكرى مضافاً إلى « الثراء البسيط » كلها أجزاء من كل عهد بنداروس ، وربما كان هذا أحد الأسباب التى تجعل الإنسان يشعر وهو واقع تحت تأثير سحره أنه هو الشاعر الحقيقى الوحيد الذى نظم الشعر . هذا الإدراك السامى للألعاب وإن يكن بنداروس قد حوله إلى شيء أسمى من إدراك الرجل العادى كان حقيقياً إلى حد كبير ، وإن تسكر مع ذلك « مدته يوماً » يتلألاً عليه ساء وصاء والهباء الذى يصعبه الرب ، غير أن هذا الاندماج التام لما هو حسبان وفكرى وخلقى وروحى وحسى قد اخل وتفكك . فقد كتب بورينبديس بعد وفاة بنداروس بعشرين عاماً ندة في تجميع المستصرين في الألعاب الأولمبية دوى القوة العضلية والعقول الجوفاء الذين يحطون بأطراء مدينة لا يسهمون فيها شيء .



وفدكت مداروس معه أعبية هي الوحيدة التي كتبها دون أكثرات ،  
إلى من يدعى كسوفون من سكان كورتنا ، ويلوح أنه كان شبه محترف  
ومتكالب على الجوائز ليس إلا .

أن هذا الاستعداد الفريرى لرؤية الأشياء كلا متكاملا هو مصدر  
سلامة الحياة الإغريقية الجهورية . وقد كان للإغريق نزواتهم فلا تخلو  
مجلاتهم السياسية كما لا تخلو مجلات غيرهم من الشعوب من نوبات  
الوحشية ، فالمنفى الجائع قد يدمر مدينته إن استطاع أن يعود إلى الحكم سواء  
كان أوليجاركيًا أو ديموقراطياً . ولكن المعيار الذى اتخذوه لكافة أوجه  
نشاطهم كان هو التوازن المعقول . فن الصعب أن يفكر الإنسان فى إغريق  
يمكن أن يدعى متطرفا فى حماسه . فالتعصب الدينى المعروف عن الشرق  
وعن العصور الوسطى لم يكن له محل فى العصر الكلاسى فى بلاد الإغريق ،  
كما لم يكن هناك محل بمناسبة هذا الموضوع لضروب التطرف الأقل من ذلك  
تشويقاً والموجودة فى زماننا من أمثال المذهب النجارى . وقد عرف  
الإغريق النشوة الصوفية وكانوا يشدونها فى طقوس ديونسيوس الدينية  
ولكن هذا كان جزءاً من خطة معينة شاملة بجملة أمور ، وهناك مغزى كبير  
فى الأسطورة الدينية القائلة إن أبولون كان يترك دلفوى مدة ثلاثة أشهر من  
العام ويحل ديونسيوس محله ، ويرسم يوريبيديس صورة لمتعصب دينى  
هو هيبولوتوس الطاهر العذرى الذى عبد الربة العذراء أرتيميس Artemis  
ولم يقم شكرهم الهة الحب أفروديتا ، وهو من هذا الطراز الذى ربما كانت  
تجعل منه العصور الوسطى قديساً . أما يوريبيديس فيجعل منه شخصاً فاشلاً  
معجوعاً . فعلى الإنسان أن يعد هاتين الرتين وإن كان يبدو أنهما معاديتان .  
ولقد دمرت أفروديتا هيبولوتوس الذى استنصف بها ولم تستطع أرتيميس  
أن تفعل شيئاً لحمايته

عليها الآن أن تنتقل إلى نقطة أخرى امتارها العقل الإغريق  
وهي اعتقاده الراسخ في التمكير المطلق هناك قصة ممتعة ربما كان بها  
قدف وتشهير وهي عن فيلسوف صيني سئل عما ترتكز عليه الأرض فقال  
« على سلحفاة » فقبل له « وعلام ترتكز السلحفاة ؟ » فقال « على مائدة » .  
فقبل له « وعلام ترتكز المائدة ؟ » فقال « على فيل » فقبل له « وعلام يرتكز  
الفيل ؟ » فقال « لا تكن فضولياً » . وسواء كانت هذه القصة صينية  
أولاً فمن المؤكد أنها ليست هيلينية لأن الإغريق لم يكن يشك لحظة في أن  
العالم ليس منقلب الأهواء بل هو خاضع لقانون ثابت ولهذا فإنه قابل  
للتفسير . وإنما لجد هذه الفكرة حتى عد هومر الذي جاء قبل عهد  
الفلاسفة . فورا الآلهة توجد قوة غامضة ( وإن كانت أحياناً تعتبر هي  
والآلهة شيئاً واحداً ) يسميها هومر أنانكى . Ananke أى الضرورة أو نظام  
الاشياء الذى لا تستطيع حتى الآلهة نقضه . وتقوم المأساة ( التراجيديا )  
الإغريقية على الإيمان بأن القانون لا المصادفة هو الذى له السيادة في  
الشئون البشرية . فإذا أخذنا مثلاً صعباً إلى حد ما وهو أوديب الملك  
لسوفوكليس نجد أن الكتبتين قد تابأوا قبل أن يولد أوديب بأنه سيقترأباه  
ويتزوج من أمه . وقد ارتكب هذه الأمور عن جهل تام بها . ولكننا  
لو فسرنا ذلك بأن معناه أن الإنسان لعبة مسخرة بيد قدر شرير كانت  
المسرحية هراء . إنما الذى يريده سوفوكليس هو أن هناك هدفاً مقصوداً  
في أعقد الحوادث الى يبدو أن بعضها يفتقر ببعض مجرد الصدفة ولو أن  
المقصود قد لا نعرفه . ولقد استطاع أولولون أن يتنبأ بما سيعمله أوديب  
لأن الآلهة يستطيعون رؤيه المقصود بأكمله أما عبد إسحولوس والقانون  
أسط من ذلك ، إذ هو قانون أخلاقي فالمعقوبة تمنع الجريمة كما يمنع الليل  
النهار . وقد كان هذا الإيمان الراسخ بالقانون سبباً في أن هوايتهم

Whitehead دعا شعراء المأساة عند الإغريق - لا الفلاسفة الأوائل -  
المؤسسين الحقيقيين للتفكير العسى غير أنه نستطيع أن نوضح هذا  
الاعتقاد العطري في التفكير المطلق عند الفلاسفة الأولين ولو أن مارو به  
عنهم يجب أن يكون وجيزاً .

إن التفكير الإغريق ومرض النظريات عن أصل الكون وطبيعته  
لا يبدآن بأية حال بطاليس الميليئى حيث تدآن في أكثر تواريج الفلاسفة .  
ولكن طاليس Thales كان أول من عبر عن أفكاره بعبارة منطقية  
لا أسطورة . وقد كان طاليس تاجراً سقى له أن سافر إلى مصر وتعلم هناك  
شيئاً عن الرياضيات المصرية والعنك الكلدانى . وكان الكلدانيون  
قد وضعوا عبداً محترماً جداً عن سلوك الأجرام في السماء ولو أن الذى  
دعاهم لذلك لم يكن دافعاً من دوافع الكسل كمجرد حب الاستطلاع . فقد  
كانوا قوماً عمليين واستخدموا العنك في أمر هام هو تنظيم التوقيت ، وفضلاً  
عن ذلك فقد كانوا مثل قراء صحف الاحد عدنا ( في إنجلترا ) يريدون  
معرفة ما سيقع بهم . وافترضوا أن النجوم ستخبرهم ( أما الإغريق  
في العصر الكلاسى فقد كان عندهم أحتمال تام للتنجيم ) وكانوا قد اجتهدوا  
جداً في الحساب التجارى كما اجتهد المصريون في الهندسة العملية ( كلمة  
هندسة عند الإغريق معناها قياس الأرض ) . وقد كان المصريون شعباً  
عظيم الذكاء ، قاسوا انحدار النيل لمسافة ٧٠٠ ميل فلم يتجاوز خطاهم عدداً  
قليلاً من الموصات . واكتشفوا أن المربع المقام على وتر مثل قائم الزاوية  
يساوى مجموع المربعين المقامين على الصلعيين الآخرين كما استخدموا هذه  
الحقيقة ، ولم يعمل الإغريق شيئاً يمكن مقارنته بذلك إذ كان تفكيرهم يمتار  
بأصراره إلى المسائل الأخلاقية والدينية والاجتماعية . أما تفكيرهم وحرصهم  
للنظريات الخاصة بالعالم المادى فقد كانا يصران على مسألة كيف نشأ العالم  
أكثر من اهتمامهم بمعرفة كيف كان يسر

وما يعرفه عن طاليس قليل جداً وهو مأخوذ عن الفلاسفة ومؤرخي الفلسفة الذين حاوروا بعده ولكنه هام جداً ، إذ كان قد تعلم من الملك ما يكفيه للتدو بأنّه سيكون هناك كسوف كلى للشمس في سنة ٥٨٥ . وقد حدث هذا الكسوف فعلاً في وقتّه في اليوم الذي نسميه ٢٨ مايو . وقد طبق ما كان قد تعلمه من هندسة على مسألة قياس بعد سفينة في البحر . ويقال إنه قدم خدمة كذلك لفن الملاحة والتقويم . ومن الواضح أنه كان رجلاً عملياً . وبما أنه إغريقى فقد كان مهتماً ومغرمًا بالسياسة لأنه ( طبقاً لما رواه هيرودوتوس ) وجه للمدن الأيونية الحاضرة الاقتراح الرشيد بأنه ينبغي عليها أن تؤلف حلفاً سياسياً مركزه في تبوس Teos . وتروى عن طاليس القصة المعتادة عن الأستاذ الشارد الذهن . وهي تتلخص في أنه أثناء مسيره كان مستغرقاً في التطلع إلى السماء حتى أنه سقط في بئر ، ولكن أرسطو - وهو فيلسوف إلى حد ما ولذلك لا تخلو روايته من الغرض - قد حكى عنه قصة من نوع آخر ، وهي أن طاليس قد لأمه الناس على إضاعة وقتّه في هواية تافهة . ولما كان قد لاحظ من دلالات حجة أن المحصول التالي للريتون سيكون وفيراً فقد اشترى حق استخدام كل معاصر الريتون في لسبوس ، حتى إذا جاء المحصول الكبير وأراد كل واحد أن يعصر زيتة فوراً اضطربوا جميعاً أن يذهبوا لطاليس لعصره . وهكذا أظهر أن الفيلسوف يمكنه أن يكسب مالا كافياً إن رأى أن جمع المال يستحق ذلك .

وقد كان الأمر الهام الذي فعله طاليس هو أنه سأل سؤالاً بسيطاً وأجاب عنه إجابة غير صحيحة ، وكان سؤاله هو : مم صغت الدنيا ؟ أما جوابه فهو : من الماء .

إسما مجد هام قطعاً كثيرة شائقة أولها مجرد توجيه السؤال . مع أن هؤلاء الإغريق كانوا رجالاً عمهين إلا أنهم كانوا معرّمين سوحيه أسنة

لا فائدة منها . مثال ذلك أن هيرودوتوس ذهب إلى مصر ووجد هناك  
 إلهاً كان من الواضح بالنسبة إليه أنه هيراكليس ولو أنه كان أقدم منه  
 بكثير . فاستبح من ذلك أن الإغريق عرفوا هيراكليس عن المصريين وبما  
 أنه قد صار عظيم الشوق والشعب فقد قام برحلة خاصة إلى صور .  
 Tyre حيث سمع أن هناك معبداً قديماً جداً مكرساً لهذا الإله كما قام برحلة  
 أخرى إلى ثاسوس Thasos . ومثل هذه الاستفسارات الخالية من الفرض هي  
 من خصائص الأيونيين بصفة خاصة . ولكن لنرجع إلى طاليس فقد أراد  
 أن يعرف شيئاً لا فائدة منه بتاتاً ، وهو ما لم يكن يمكن أن يخطر ببال أحد  
 الرومان . وافترض أن من الممكن الإجابة عليه فكيف توصل إلى إجابة ؟  
 لا نعرف لسوء الحظ ولكن ما دمنا نعرف كيف اتجه للعمل بعض من  
 جاءوا على أثره مباشرة بما فهم هيرودوتوس النابغة فإننا نستطيع أن نخبر  
 إلى حد ما . إن الماء موجود في كل مكان فهو يحيط باليابس وينزل من السماء  
 وينفجر من الأرض وفضلا عن ذلك فهو يكون والدلتات (١) ، كما كان يعرف  
 طاليس معرفة جيدة جداً . . ومن الواضح أنه يدخل في تكوين كثير من  
 الأجسام الصلبة كما أن له خاصية التحول بدوره إلى صلب وسائل وغاز .  
 ونظر إلى الاعتقاد الشائع بأن هؤلاء المفكرين من الإغريق كانوا مجرد نظريين  
 فإن مما يستحق الذكر أن نلاحظ أن امبيدوكليس Empedokles استخدم وعاء  
 الخمر الجلودى لإثبات أن الهواء شيء مادي ، كما استخدم ساعة مائية للاستدلال  
 على وجود الضغط الجوي ، وأن كسثوفانيس Xenophanes بنى نظرية عن  
 التحول الجيولوجي على وجود القواقع البحرية فوق الجبال وانطباع  
 الطحالب البحرية والأسمالك في محاجر سرقوسة . لقد كان هؤلاء الناس

(١) الدالات جمع دلت (ريف الأعشى) توجع ذلك الأهر ، ذلك لأن شكل حرف  
 هو دة شكل الدلت (د).

قادرين جداً على استخدام أعينهم وعقولهم معاً . ولا حاجة بنا إلى افتراض أن إجماع طاليس لم تقم إلا على أساس التمسك المطلق بالمجرد .

غير أن أعظم ما له دلالة هو أنه «تعرض رعم المظاهر أن العالم لم يتكون لا من أشياء كثيرة بل من شيء واحد وهما نقابل سمة دائمة مميزة للتمسك الإغريق وهي : يتحتم أن يكون كل من العالم الفيزيائي والمعنوي على السواء لا معقولا لحسب وبالتالي يمكن معرفته بل لا بد أن يكون كل منهما بسيطاً أيضاً . فعدد الأشياء المادية الظاهري سطحي فقط . وسنرى عن قريب أن المؤلف المسرحي الإغريق كان يفكر بنفس الطريقة تماماً فيقول : لا تتم بشأن تنوع الحياة وخصبها الظاهري بل عليك بالغوص إلى الحقيقة البسيطة . ولو أن طاليس استطاع أن يقابل كجاءوا من أبناء القرن التاسع عشر وأن يسمع منه أن العناصر سبعة وستون ( أو كائناً ما كان عددها ) فلربما اعترض بأن هذا العدد أكثر مما ينبغي بكثير جداً . ولو أنه قابل فيزيائياً من أبناء القرن العشرين وسمع منه أن كل هذه العناصر في الحقيقة تراكيب مختلفة لشيء واحد فلعله كان يجيبه : هذا ما كنت دائماً أقوله .

وقبل أن نترك طاليس يجدر بالذكر أن نشير إلى تحرره التام من أى تصوف ديني كان من المعقول أن نتوقعه من مفكر قد استخدم كل أسلافه عبارات أسطورية للتعبير عن أنفسهم . ولو أنه افترض أن العناصر في العالم ثلاثة أو سبعة أو أى عدد مقدس آخر لما كان ذلك عجباً . ولسا نرى بين الأيونيين شيئاً من هذا القبيل . ولو أن العموص كان شديداً بدرجة كافية في مدرسة سدكراها عما قريب وهي مدرسة البشناغوريين .

من المحال إعطاء ولو مجرد ملخص عن سير الحركة الفلسفية التي بدأها

طاليس، ومع ذلك فمن الممكن أن يذكر بعض تطوراتها. وسرى فيها جمعاً  
نكل وصوح الجرأة في التفكير وكأنما رفع العقل البشرى أطراف أقدامه  
مر قاع البحر وأخذ يسبح ويسبح بثقة مدهشة. وقد صبح أنا كسيمندر  
Anaximander حليقة طاليس المباشر - وهو رجل عملي آخر - أول  
خريطة وقاد بعض المستعمرين من ميليتوس إلى أبولونيا. ويلوح أنه استدل  
بطريقة منطقية على أن الحقيقة الفيزيائية القصوى لا يمكن أن تكون هي  
نفسها إحدى المواد الفيزيائية، ولذلك استبدل بالماء شيئاً غير محدد، ليس  
له خواص، ولكنه يحتوى في ذاته على «متناقضات فهو ساخن وبارد  
رطب وجاف». وتتكون موضوعات الحس من ذلك الشيء الغير المحدد  
عن طريق هذه المتناقضات تحت تأثير حركة أبدية ثم تعود إليه بعد أن  
تبلى. وكانت لدى أنا كسيمندر أيضاً فكرة عن توازن القوى في الطبيعة  
عبر عنها بوساطة لفظة «ديك»، Dike، التي تفيد معنى العدالة إن وردت  
في سياق كلام آخر. وقد صور الحركة الأبدية على هيئة دوامة مركزها  
الأرض، وهي فكرة مكنت أنا كسيمندر من تحسين رأى طاليس القائل  
بأن الأرض المسطحة ترتكز على الماء، فقد كان رأى أنا كسيمندر أنها معلقة  
دون شيء بمسكها في انفضاء، وأن بعدها عن محيط الدوامة مساو في  
كل اتجاه.

وقد كان هذا تقدماً ملحوظاً جداً. ويمكننا مشاهدة حرية تفكير  
أنا كسيمندر في أروع حالاتها في انطريات التي وضعها عن أصل الجنس  
البشرى وهو الذى اقتبسته الميثولوجيا (تلم الأساطير) بطريقة غير  
مباشرة من الآلهة والتيان (عائلة الأساطير) (Titans). وقد اقترح هذا  
الأيونى فكرة أن كل انحولات الحبة نشأت من الماء عندما تحرته الشمس،  
وأن الإنسان كان سمكة في الأصل. ويمكننا أن نلاحظ هنا، باعتبار ذلك بما  
يوضح طبيعة عقلية أنه من جهة لم تدعمه مجموعة من الأدلة العلمية التي لم

يستطيع أن يقاومها إلى فرض جديد قد يكون بايأ . كما أنه لم يكن هناك قدر كبير من الحقائق الملاحظة والمصنعة حتى بدأ أرسطو في العمل . ومن ناحية أخرى أن هذه نظرية لم تكن חדساً جاء سمو الخاطر . وهي مسنة في جزء منها على التفكير المطلق المحض . والحيوانات الأخرى سرعان ما تعول بهسها بنفسها ، أما الإنسان فيحتاج إلى مدة طويلة من الرضاعة ولو أن حاله كان هكذا دائماً لما استطاع قط أن يبقى بعد أن هلك غيره . والإنسان بناء على ذلك قد ارتقى من حيوانات أخرى وهذه هي النقطة الشائقة . إن الوصول إلى استنتاجات أخرى يمكن من الوجهة المظيقية ، ولكن حدث أن قيل لنا إن أنا كسيمندر لاحظ عادات سمك القرش الناعم وهو سمك له خصائص الثدييات ولا علم لنا بالاستدلالات المظيقية الأخرى ، ولكننا نستطيع أن نرى أن اقتران التفكير المطلق المحض بالملاحظة هو الذي أدى به إلى تقدير نظرية أثارت دعر أجدادنا عندما أعيد ذكرها لهم .

ولقد أظهرت المدرسة الإيلياية ثقة أعظم من ذلك بالعقل ( لا سيما بارمينديس Parmenides وزيو Zeno مبتكر المتناقضات المشهورة ) وقد أخضعنا نظريات الأيونيين الفيزيائية للمحص المطلق ونوصلا عن طريق التفكير المنطقي فيما وراء الطبيعة إلى تقرير النظرية الذرية . ويمكن بيان تفكير بارمينديس المطلق هكذا : العدم غير موجود أى أنه ليس هناك لاشئ ، ولهذا فالموجود أبدى لأنه إن لم يكن كذلك فلا بد أنه نشأ من العدم أو أنه سينتهى إلى العدم مع أن العدم ليس له وجود . كما أن الحركة وهم لأن أى شئ لا يتحرك إلا بالذهاب إلى الفراغ أى إلى لاشئ . وقد قرر كذلك أن المادة متجانسة لأنها لا يمكن أن تحلظ بلاشئ لتصبح أندر . والكون شكل واحد متناسق ملو تماماً بمادة متجانسة عدمة الحركة

وهذا هراء بالطبع ، ولكن الباحث لا يحتقر النتيجة السلبية والبحث



في هوانين المطلق كان نتيجة لتفكير بارميديس ، كما أن نظرية ليوكيبوس Leucippus وديموكريتوس Democritus كانت نتيجة أخرى لتفكيرهما اللذان قلا فكره بارميديس عن الكون . ولكهما أثرهما عدداً لانهاياً من الذرات كما افترضه العراخ الذي يمكنها أن تتحرك فيه . وهذه هي الذرات التي تكون كل شيء موجود والتي تنظم أو تفصل بحركة طبيعية .

وهناك مسألة أخرى كانت محل نقاش وهي طبيعة العلم وإمكانه . فقد كان من المفروض قبل ذلك فعلاً أن الحقيقة شيء ثابت . ولكن كاتباً مغموراً منصرفاً إلى النبوءات يدعى هيراقليطس دعا إلى المذهب المفرع القائل بأن العكس هو الصحيح ، أي أن الكون يقوم في جوهره على التغير . فكل شيء في حالة تنازع مستمر ، فأنت لا تستطيع أن تخطو إلى نفس النهر مرتين ، فهو في المرة الثانية ليس نفس النهر . وهو قول جاء به من بعده شخص سريع الخاطر نقحه قائلاً : لا تستطيع أن تخطو داخل النهر مرة واحدة ، مادام يتغير أثناء خبطوك فهل تستطيع إذن أن تقول إن شيئاً موجود عندما يكون دائماً في حالة تحول إلى شيء آخر؟ وفلسفة هيراقليطس هذه كان لها تأثير على أفلاطون . لأن التفرقة بين عالم الحس المتغير الناقص الذي لا يمكن معرفته في النهاية وعالم الحقيقة الكامل الذي لا يتغير والقابل للمعرفة هي بالطبع أساسية بالنسبة للمذهب الأفلاطوني .

ليس الفلاسفة وحدهم هم أصحاب هذه العادة العقلية ، عادة إغفال ما على السطح ، أي المظاهر العابرة للأشياء كالعدد والتنوع ، ومحاولة الوصول إلى الحقيقة الباطنة المستطية . أسأجد شيئاً شديداً جداً بهذا في السحت الإغريق الذي لم يحاول أدنى محاولة حتى أوائل القرن الرابع على الأقل أن بصور الأفراد بل كافع دائماً للوصول إلى الكمال في تصوير الرياضي أو الإله أو تحت تمثال له ، ونحن نحمد بكل تأكيد شيئاً شديداً بذلك في المأساة الإغريقية ،

وبين المسرحيات الإغريقية ومسرحياتنا الكلاسيكية ، يرى نفس الفرق الذي نراه بين فن العمارة الإغريقية والقرطبية ، وهذه الفروق توضح العادة العقلية التي نحن بصددتها ، فكما أن فن العمارة القرطبية مولع بعدد الأجزاء وإحداث أقصى تضاد بين النور والظل والحرارة التي تقديس مادتها من ملكة الطبيعة كلها كالطير والوحوش والأزهار وصور الملوك والقديسين والملائكة والصور السخيفة المضحكة أيضاً ، فكذلك المأساة في عهد اليصابات تقدم على مسرحها المزدحم المتنوع كل أصناف الحياة المعقدة الخصبية ، من ملوك ومواطنين ومستشارين وجنود وعشاق وهزليات وأطفال وجنيات فكل شيء هناك ، لقد قيل إن لسكاندراية القرطبية لا تتم أبداً . أما مسرحيات شيكسبير ، على العكس من ذلك ، فكثيراً ما اقتضت ، ولكن من الذي يستطيع أن يضيف شيئاً إلى معبد إغريق بحيث لا يعتبره الناس كالورم البارز في الجسم أو بقطع مطراً من مسرحية إغريقية دون أن يجعل مهمتها غير ممكنة ؟ .

وليس السبب في هذه الاختلافات أن الإغريق كان لديهم فهم للشكل المسرحي يمتاز عن سواهم أو كان لهم خيال أو لذة في الحياة أقل من سواهم ولكنهم فكروا تفكيراً مختلفاً عن غيرهم . ولعل التمثيل يجعل الأمور واضحة . في أثناء استحضار القارئ في ذهنه لمسرحيات شيكسبير التاريخية دعه يدرس المسرحية الإغريقية الوحيدة الباقية عن موضوع تاريخي وهي مسرحية دالفرس ، بقلم أيسنخولوس التي كتبها بعد الحادث الذي تعالجه بأقل من عشر سنين ، والتي مثلت أمام الآتيسين الذين كانوا قد لعبوا دوراً ملحوظاً جداً في الصراع . وكان ذلك بالصدفة تحت الأكرود ، ليس مباشرة وهو الذي كان انفرس قد نهوه وددسوه . ولو كان الكاتب كاتباً مسرحياً من عهد اليصابات لأعطانا صورة شاملة لمطر الحرب كلها ولخطات اليأس والأمل والنصر ، ولرأينا على المسرح القواد الذين وضعوا الخطط وبدص

الحدود الذين فاروا بالنصر أما في مسرحه ، الفرس ، فبنا لا يرى شيئاً من هذا القبيل . إذ يقع المطرق في العاصمة الفارسية ويرى حادث واحد فقط من وجهة النظر الفارسية . ويجرى الحرب مبسطة إلى حد أن معركة أرتيمسيوم البحرية لم تذكر بل ولادفاع الأبطال عن رومويليه كما لم يذكر الإغريق واحد باسمه . ويكاد التضاد بين الحالتين لا يكون أتم من ذلك .

والقول بأن المسرح الأثيني والشكل المسرحي الإغريقي لم يسمحا بمعالجة الحرب بطريقة واقعة قول صحيح ، ولكنه ليس صحيحاً بدرجة كافية . فالأمر الحقيقي هنا هو أن المسرح والشكل المسرحي ترجع حالتها التي كنا عليها سوياً إلى أن الكتاب المسرحيين لم تكن لهم رغبة في أن يكونوا واقعيين . إن الكتاب المسرحيين هم الذين يصنعون المسرح والشكل المسرحي ، وليس المسرح والشكل المسرحي هما اللذان يتحكمان في الكتاب المسرحيين . غير أننا نشاهد أن كل شيء من تفاصيل المسرحية ليس طبيعياً لحسب بل وضرورياً كذلك ، متى أدركنا أن إيسخولوس لم يكن يقصد كتابة مسرحية تاريخية ، بل مسرحية تقوم على فكرة أن الجبروت والفتاوسة Hybris ( وهو في هذه الحالة التحدي الجاح الذي أظهره كمرسيس لمشئته السماء ) لا مفر من أن تعاقبه السماء . فزيوس يقهر كمرسيس في المسرحية ، والإغريق ما هم إلا وسطاؤه لحسب بل لإنهم روح بلاد الإغريق كذلك . وليس الحادث بل معناه الجوهرى هو الذى يضفى عليه إيسخولوس اللون المسرحي . وإذا لم تعد الحوادث التاريخية في أحد التفاصيل الصغيرة عن المعنى الجوهرى بوضوح كاف فإن إيسخولوس كان يعبرها . وهكذا بوضوح مقدماً قول أرسطو المأثور إن الشعر أكثر فلسفة من التاريخ

والآن نبدأ في رؤية العلاقة بين الكثير من صفات الإغريق بعضها وبعض — بين ثقته في قوة التفكير وشعوره انقوى بالشكل المسرحي وحه

للتاسق وميله الخلاق أو الساء واتجاهه للاعتماد على التفكير المطلق قل كل شيء . ولا ريب أن هناك مسالك متعددة داخل هذه العاية الكثيفة من الأفكار ولكن لما كما قد شققتنا طريقاً من طائيس إلى إيسحولوس فدعا نتابع مسيرنا من هذه النقطة .

لقد أدليت بفكرة أن الفريرة التي جمعت الفلاسفة الأوائل ينحدون من خلال مظهر الطبيعة الخارجى إلى الحقيقة والوحدة المفروض وجودها تحت هذا المظهر إنما هي نفس الفريرة التي يظهرها شاعر المأساة الذى لا يكسب مجرى الحرب الصبغة المسرحية بل يستخدم حوادث الحرب أو بعض هذه الحوادث لى يقدم ما يرى أنه معناها الحقيقى . ولما كان الفنان الإغريقى يعمل هذا باستمرار فإنه بمعنى خاص يقوم دائماً بعملية الحقائق والبناء . صحيح كل الصحة أن الفنانين جميعاً يعملون ذلك ولكنهم لا يعملونه جميعاً بنفس الطريقة . فالاختلاف كل الاختلاف إنما هو بين إعطاء صورة عن الحياة تكامل عن طريق الانتخاب والتأليف وإبراز التضاد مما يكون له أهمية ومغزى ، وبين تفسيرها بالطريقة الإغريقية . فأحدهما يؤدى إلى التنوع والاتساع ويؤدى الآخر إلى الساطة والتركيز الشديد . ولما كان الإغريقى يحاول أن يعطى صورة تمثل الحياة بل أن يعبر عن فكره بكل قوة ووضوح فإن الشكل الذى يحققه يكون منطقياً ومحكماً أكثر من غيره بكثير . وربما ساعد مثال آخر بمقد مقارنة بين مسرحيتين تشتركان فى أنهما تستخدمان قدراً هاملاً من المادة القصصية وهما : أنطونيو وكليوباترة ، و : أجاممون ، ١ فبمسير يعتمد فى وضع عقدة قصته على بلوتارخ . ولما أن يقول على وجه التقريب إنه يودع فيها ما يجده فى بلوتارخ . وبلوتارخ باعتباره مؤرخاً يسجل فى سياق ما يرويه أن أحد صباط بومى أشار عليه بحطة بارعة هى الإبحار إلى عرض البحر مع الحكام الثلاثة ( Trum vs ) وإلقاؤهم

من فوق سطح السفينة ثم يقرأ شيكير هذا ويتحقق من أنه يصلح أن يكون مطراً حساً فيصعد في مسرحيته أما علاقة ذلك بحب أنطونيو وكايوباترة المصجع ( وهو موضوع المسرحية على ما أطل ) ، فليس واضحاً بالمرّة ، ولكنه يساعد على إعطاء عمق وامتداد للنظر بأكله ، كما أن هناك بعض السفلة من الناس مثل مباس لكي يكون كل شيء في موضعه بلا ريب . أما بالنسبة لمسرحية أجاممون فإنني محتاج إلى نبذة طويلة جداً لأختصر إلى أقصى حد تلك المادة الأسطورية التي يستخدمها إيسخولوس فعلاً ، من اغتصاب هيلينا إلى حملة طرواده ونجاحها وتاريخ كاسندرا ( Cassandra ) ومصرع أجاممون وكاسندرا بل والشجار الذي وقع في الجبل السابق ، بين أتربوس والد أجاممون وشقيقه . وهذا يدل على وبرة هذه المادة ولكن عقدة المسرحية مخصرة جداً . فقد أعلن قدوم أجاممون ثم ما لبث أن دخل بيته ومعه أسيرته الأميرة كاسندرا ، ولكن زوجته كليتمسترا قتلتهما معاً قائلة إنه يستحق ذلك لأنه صمى ابنتهما إلى أرتميس كيما تقدم الحمله . ثم دخل تشيقيها أيجستوس ( Aegisthus ) ليقول إن أجاممون يستحق ذلك لسبب مختلف . وهذا كل ما هناك . لقد كان لدى إيسخولوس مثل شيكير قصة طويلة معقدة ليستخدمها مادة مسرحيته والفرق بينهما هو أن إيسخولوس مزق القصة إرباً ثم أخذ في بناء مسرحية من هذه القطع ثم ورحول فكرة معينة من العدالة ، تلتخص على وجه التقريب في أن القصص الذي يوقع لجرود الأخذ بالثأر يؤدي إلى الفوضى ، فالهيكل الذي بنى عليه مسرحيته ليس هو القصة بل هو هذه الفكرة وهو يطرح أجزاء القصة التي لا يريد لها جناهاً مثل نصه الحرب وإعراء أيجستوس لكيتمسترا أما الأجزاء التي يريد لها فهو يستخدمها لا بترتيبها الرمي بل بالترتيب الذي ياسبه ( وهو يستطيع أن يعالج قصته هكذا لأن جمهور المشاهدين كان يعرف خطوطها الرئيسية من قبل . وقد كانت إحدى مزايا استخدام الأساطير أنها

كانت توفر على المؤلف المسرحى عملية التشرح المتعة ) وهو بهذا المعنى خلق شيئاً جديداً فهو يتحكم تحكما تاماً فى شكل المسرحية وموضوع مسرحيته هو أن الجريمة التى يكون عقابها جريمة يجب أن تعاقب هى الأخرى بجريمة . وهو يقرر هذا مرة واثنين وثلاث مرات بشدة متزايدة باستمرار ينشأ عنها تركيب متين منطقى جميل . والمسرحيات الإغريقية جميعاً تبنى هكذا على فكرة واحدة ولا يدخلها شيء لا يساهم فيها مساهمة مباشرة . والذى يحدث فى الحقيقة فى المسرحيات الإغريقية هو أن ميناس هو الذى يلقى به من فوق سطح السفينة . ومن هنا تأتى قوة المسرحيات ووضوحها . ولقد قبل إن هناك نماذج من هملت بقدر ما هناك من الممثلين القادرين على تمثيل الدور . ولا يمكن أن يقال مثل هذا عن أية مأساة إغريقية . فالعلاقة بين المعنى والشكل المسرحى منطقية بحيث أن أى تفسير ناب يمكن دحضه بطريقة مقنعة . فهو إن لم يعلل لكل تفاصيل المسرحية يكون خاطئاً لأن التعليل الصحيح يوضح كل شيء .

هذا على ما أظن هو أصل المطلق والوضوح اللذين يظهران بكل جلاء فى شعور الإغريق بالشكل المسرحى . فالفنان عنده فكرة واضحة جداً عما سيقول وعنده تحكم تام فى مادته . وغرام الإغريق بالناسق والتمثيل هو يمثل هذا الوضوح . وتتفرع عنه جملة تفريعات شائقة . ونحن نجد لديه إنهما نظرتنا تقديرأ للنموذج الذى يمتدنى وللتوارى ، ويمكننا أن ننظر أولاً فى حالة واضحة أو سالتين . لقد سبق لنا ذكر فن العبارة ، فالخروج على النظام فى وضع تصميم كل كائناتيه قوطه تقريباً يوحى لعقولنا بفكره الطاقة الديناميكة . فمكره الحياة . أما بالنسبة للعقل الإغريق فهذا أمر محقوت ولا يوحى إلا بالقصر فالبناء الكامل الذى يهون كما أدركه صاحب فكرته من الطبيعى أن يكون مناسباً كما يمكننا أن نوجه التعاتنا إلى الشر الإغريق بولعه بالتوارى والطباق ( المصاد ) اللذين كثيراً ما يصلان إلى حد

الإفراط . والطباق عند الكتاب المجيدين أو الخطباء يأتي من حادة الدكاء الذي يحل فكرة تواء إلى الأجزاء التي تتكون منها (وهناك مثل حسن على ذلك في واقعة شخصية ثيمستوكليس يعتبر عدم ذكرها في مكان ما من هذا الكتاب أمراً مؤسفاً ، وهي هيلينية للغاية : ذلك أن رجلاً حسوداً من جريرة سرفوس (seriphus) العنيفة الأهمية قال لثيمستوكليس : إنك مدين بشهرتك لاجتدارتك الشخصية بل لأنك آتيتي بحكم المصادفة المحضة . فإجابة ثيمستوكليس : هناك شيء من الصحة فيما تقول : فلو أنني كنت من سرفوس لما أصبحت مشهوراً وكذلك أنت لو كنت من أثينا ، ) غير أن الجزء الثاني من الطباق يكون شكلياً محضاً في بعض الأحيان حتى عند نوكوديدز ، كما نجد في أسلوب النثر الذي أتقنه بعض السوفسطائيين ، إن الطباق الذي يبرز التشابه في الأساليب والأفكار بأنواعه المختلفة وكذلك السجع منعيب بصورة لا يمكن التمييز عنها . فلم يكن العيب في الأسلوب الإغريق هو انعدام الترتيب والشكل بما يدل على العجز ولكن العيب هو مراعاتهما بطريقة متكلفة . ولم يكن الإغريق يحب أن يكون كل ما يبدعه متناسقاً أو مطابقاً لنموذج فقط بل إنه كان يعتقد أن العالم بأسره لا بد أن يكون متناسقاً ، وهذا أمر طبيعي إذ يتطلب العقل والكمال شكلاً متناسقاً في روائع أعمال الإنسان ، والإنسان جزء من الطبيعة وعلى ذلك تكون الطبيعة أيضاً متناسقة لأنها قائمة على العقل (١) طبقاً للفرض .

ولم تكن تعوز الإغريق الدلائل على وجود التناقض في الطبيعة ، فالور يوازن الظل على مدار السنة ، والبرودة توارن الحرارة بل إن الرياح

---

(١) كله العمل في الإغريقية معناه الخلق هو « لوحوس » التي ترجم خطأ في المادة لمعنى « كلمة » والأولى أن نقول « اسكلام » أو « فكرة » التي تعنيهم من الكلام « في البدء كان الكلمة » معناه الحقيقي في البدء كانت الفكرة .

المتقلة نفسها تراعى توازناً عاماً . وقد كانت حركات السجوم التى تسير طبقاً للقانون معروفة من قبل فيما عدا الكواكب ، الجوارى ، فاعمال والقانون والمنطق كانت أوجهاً مختلفة لشيء واحد .

ولهذا كان الإغريق مبالاً إلى فرض نموذج حيث لا يشترط أن يوجد نموذج فى الحقيقة . كما كان يعتمد على العقل حين كان الأولى أن ينصح الناس باستخدام الملاحظة والاستنتاج . وقد أوضع الجغرافيون الأوائل النقطة الأولى ( أى فكرة التماثل ) فقد أثارت روعة النيل هيروdotus وهو فى مصر بدرجة هائلة فقام بعمل كل الاستفسارات التى استطاعها عن منبعه . وقد استطاع رجل أن يخبره نقلاً عن اثنين قبله قصة عن بعض الشبان المخاضين ، من قبيلة كانت تعيش بالقرب من سيرت Syrtis<sup>(١)</sup> فى خليج سدره ، Sura الذين تجاسروا على السير جنوباً فى صحراء ليبيا ، وبعد رحلة خطيرة نقلهم رجال صغار الحجم ( أقزام ) إلى مكان آخر . وكان يجرى أمام بلدتهم من الغرب إلى الشرق نهر عظيم فيه تماسيح ، وقد حذر مخبر هيروdotus أنه هو النيل ، وقال هيروdotus ، والتفكير المنطقي يؤيد ذلك ، والسبب فى ذلك هو التماثل الطيعى . فكما أن النيل يقطع أفرقياً طولاً فإن الدانوب يقطع أوربا بالعرض ومصبات الدانوب تواجه مصبات النيل مباشرة ، والدانوب ينبع على بعد كبير إلى الغرب بين الكلت بالقرب من مدينة يرنى على حد قول هيروdotus ، الذى من الواضح أنه سمع اسم يرنيز ولكنه حوره إلى اسم مكان أو شعب . وما هو أوضح من ذلك هو أن النيل نفسه ينبع من الغرب أيضاً . ولهذا فإن منبعه ومصباته تواجه مثيلاتها فى الدانوب وهذه من خصائص المراحل الأولى للجغرافية الإغريقية . فعندها أن

(١) فى طرابلس ليبيا (الترجمة)



الذى صنع السكرية الأرضية صنعها مناسبة لطبيعة الحال كما صنعها بشكل مسق .

أما النقطة الثانية وهى أب الإغريق استخدموا التفكير المطلق حيث كان ينبغي لهم أن يستخدموا العاروق العلمية فيمكن إيصاحها من مناقشة جدلية في تاريخ الطب الإغريق نذكرها بنصها :

« هناك طائفة من كتبوا في الطب يتخذون أساس مناقشتهم فرضاً قد تصدوا في اختياره كالحار والبارد والرطب واليابس أو أى شيء يصلح لذلك . وهم يملكون هكذا من عدد أسباب الأمراض والوفاة بين الناس ، يجعلها نفس الأسباب في جميع الحالات . هؤلاء الكتاب مخطئون في كثير من بياناتهم (١) الفعالية ولكن أسوأ أخطائهم أن الذى يعالجون أمره هو صناعة من أهم الصاعات . »

إن ما ذكرناه هو بداية مقال « عن الطب القديم ، وصل إلينا تحت اسم أبقرات من كوس وهو أعظم شخصية في طب القرن الخامس . وليس معروفاً كما لا يهمننا إن كان أبقرات قد كتب حقاً هذه المقالة . فالأمر المهم هو احتياج العالم على المفروض فيه أنه فيلسوف وأمثلة من هبطوا على الطب من أقطار الفاسفة الطبيعية الواسمة ( كما كانوا يفهمونها ) فأخذوا يضعون الفروض العامة وهى ليست الفروض العلمية التى تعتبر نظريات مؤقتة توضع لشرح الحقائق الملاحظة بل هى تعميمات لا تحظى بالتأييد فى أشبه بالبداهات الرياضية . وهذه الطريقة حسنة جداً كما يقول الكاتب بمد ذلك بالنسبة للأفكار التى لا يمكن العاذ إليها كتلك التى توجد فى السماء أو تحت الأرض ولكنها ليست الطريقة التى تمارس بها أية « صناعة » ( أو فن ) لأن كلمة

(١) اسمها غير مؤكد

Techné الإغريقية تفيد معنى الإثنية وهو يستمر قائلاً : إن أساس الطب معروف من زمن بعيد ، سواء من المبدأ أو الطريقة . وقد أتت الطريقة إلى اكتشافات كثيرة مماارة ، وسيكتشف مابقى إذا عرف مستمر كشف . ماسق أن تعلمه الناس ، وجعله أساساً لمحدث جديد . ولكن من يرفض كل ذلك ويحتقره ويحاول أن يتابع الاستفسار بأية طريقة أخرى يكون فريسة للخطأ كما يكون هو السبب فيه . ومحاولته مستحيلة وسأثبت أنها مستحيلة .

ومعنى هذا أن العلم الذى من الممكن أن نحصل فيه على مجموعة من الحقائق عن طريق الملاحظة والتجربة كان من الإغريق من يمكنه أن يتبع فيه طريقة علمية بشكل كاف . وقد سبق أن رأينا هذا فى وصف ثوكوديديز للوباء فهو يعطى وصفاً دقيقاً لآثاره العقلية والخلقية . ويقدم لهذا الوصف بقوله : يمكن أى إنسان سواء كان طبيباً أو رجلاً عادياً أن يقول ما يحول بخاطره عن الأصل المحتمل للوباء والأسباب التى بظن أنها كانت كافية لإحداث مثل هذا الاضطراب الكبير . أما من جهتي فأصفه كما بدا لى وسأدون تلك الأعراض التى قد تساعد على التعرف عليه ثانية لو فرض وعاد ، لأنى أصبت به أنا نفسى وقد لاحظت غيرى من الذين أصبوا به .

هذا هو الاتجاه العلمى . وليس لثوكوديديز علاقة بالتعميمات التى يعوزها الدليل . وهل يمكن أن يكون هناك ما له صفة علمية أكثر من السذجة الآتية من القانون (١) .

يجب أن يعنى الإنسان فى الطب لا بوضع الطريبات المقولة بل بالخبرة

(١) لفرطى ولطمة لى حقها حور .

والتمكير المطلق معاً . وأما موافق على أن وضع النظريات المقبولة ببغى أن يقل شرط أن يكون مبدأ على الحقائق وأن تقوم استنتاجاته بشكل منظم على الملاحظة . ولكن النتائج التي يصل إليها الإنسان بواسطة التفكير المطلق وحده لا تكاد تكون نافعة ولا تفيد إلا تلك النتائج التي يصل إليها الإنسان من ملاحظة الحقائق .

ولدينا مثال ممتاز على الملاحظة الدقيقة للحقائق في كتاب « الأوبئة » ، الذي يبدو أنه كتاب طبيب رحالة ، عن الحالات المرضية . والكاتب منظم جداً فهو يبدأ بتدوين الجو السائد ، ثم يبين بصفة عامة سير أدواء مرضاه ، ذا كراً السن والجنس والتفاصيل الأخرى التي يمكن أن يكون لها علاقة بها . وهانذا أعطى المثال النموذجي الآتي لأنه قصير وفيه ذكر اسم مكان مهم شائق .

أصيب الشاب المريض الذي كان يرقد في « سوق الكاذبين » بالحمى بعد الجرى وبعد مجهود جسماني غير عادي . اليوم الأول : اضطراب الأمعاء ، إفرازات الأمعاء كثيرة رقيقة صفراوية ، البول قليل مائل للسواد ، لا نوم ، عطش — اليوم الثاني : الأعراض أسوأ والإفرازات المعوية أردأ ، لا نوم . هلبة التفكير غثلة ، العرق خفيف — اليوم الثالث : غير مستريح ، عطشان ، شعور بالغثيان ، كثير التقلب والحركة ، مكروب ، مشقت الذهن ، داكن الأطراف وباردها ، جانباً العكش متوتران ومرتحيان نوعاً — اليوم الرابع : لا نوم ، الحالة تميل للسوء — اليوم الخامس : توفي . حوالي العشرين .

هاك نقد ، من القرن التاسع عشر لكتاب الأوبئة ( ذكره الدكتور جوز ) وهو نقد شائق لأنه يحقق في إدراك الموضوع مأكله . وهو يتلخص في أن مؤلف ( الأوبئة ) كان مراقباً غير إنساني لآلام الناس

فهو لم يعمل شيئاً لتجميعها . وهو في الواقع يذكر علاجه مرة أو مرتين كقوله مثلاً : الكمادات الساخنة ، لم تأت براحة . والحقيقة أنه يكتب صفته مشحواً للأمراض أكثر مما يكتب صفته طبيباً باطياً ، وهو يأنزم هذه الصفة . لقد كان الإغريق أكثر اتباعاً للطريقة العلمية مما أمكن ناقد الحديث أن يدرك .

وتدل هذه الاقتباسات بوضوح على أنه كان هناك إغريق فهموا الطريقة العلمية واتبعوها كما أنها تدل كذلك على أن غيرهم كانوا يستخدمون مجرد الطرق المنطقية ، وكما قال الدكتور د جونز ، بينما أخذت الفكرة التي تمزق المرض إلى عامل ديفي تختفي تدريجياً ، طهر عنصر مزيج آخر مثله يناهض تقدم الطب القائم على العلم وبدأ بثبت وجوده . إذ حلت الفلسفة محل الدين وأخذت الفلسفة الإغريقية تنشد تجانس المظاهر الطبيعية المتعددة ، وأدت الرغبة في إيجاد هذا التجانس إلى التخمين وإهمال الحقيقة في محاولة وضع نظرية شاملة . وقد أدى نفس الدافع الذي جعل طاليس يعلن أن كل الأشياء من الماء بكتاب مقال في مجموعة كتابات إبقراط إلى انتمسك بفكرة أن الأمراض كلها يسببها الهواء ، أى كما قال دارمبيرج إن الفلاسفة قد حاولوا أن يفسروا الطبيعة وعيونهم مغمضة . ولم يكن في ذلك شذوذ من جانب الإغريق . فالعقل البشرى معتاد على تمرين مثير هو عبور الفجوات وثباً كما لو لم يكن لها وجود . فعقيدة التثليث مثلاً صهرت نظرية الموسيقى في القرون الوسطى بصورة تبدو لنا اليوم نابية إلى حد ما .

ولكن دعنا لا نتعالى أكثر مما ينبغي على هؤلاء الإغريق الذين كانت أعينهم مغمضة . فقد تركوا شيئاً آخر مفتوحاً على مصراعيه وهو عقولهم ، ومع أن إغماض العيون قد أحرى نمو العلم فإن تمنح العقول قد أدى إلى

أشياء كالرياضات والبحث فيما وراء الطبيعة مما كان له من الأهمية مثل ما سبقه .

وربما كانت الرياضات أعظم المكتشفات التي أمتار بها الإغريق كما أنها أعطت ما أثارهم . وسوف يزداد فهمنا لأولئك الذين كانوا ينغمسون أعينهم على الحقائق إذا ظللنا نتذكر أولاً اعتقاد الإغريق أن الكون كل متكامل مطلق وأنه لذلك بسيط ( رغم المظاهر ) ويحتمل أن يكون متناسقاً ، ثم إذا حاولنا أن نتصور تأثير الرياضيات المبدئية على عقولهم .

وقد حدث أنى أنا نفس - أن جازى أن أنكم عن شخصى لحظة - استطعت أن أفعل ذلك عن طريق موضوع بحث رياضى قمت به بنفسى لأتحايل به على الأرق ( للقراء من الرياضيين أن يتسموا ) فقد خطر ببالي أن أتساءل عن الفرق بين مربع عدد وبين حاصل ضرب العددين المجاورين فثبت لى أن  $10 \times 10 = 11 \times 9 = 99$  أى أقل من الأول بواحد . وقد كان شائعاً أن أجد أن الفرق بين  $6 \times 7$  ،  $6 \times 7 \times 5$  يساوى نفس الفرق السابق . وقد اكتشفت بنشوة متزايدة كما أثبتت جبرياً القانون الذى ينص على أن حاصل الضرب هذا - يجب أن يكون دائماً أقل من المربع بواحد ، وقد كانت الخطوة التالية هى أن ألخص خواص الأعداد المجاورة التي تتناقص وتزيد واحداً . لقد اكتشفت بسرور عظيم نظاماً كاملاً للخواص العددية كان من علوى الرياضة قد تركوى فى جهل تام به ( وهو ما يسرنى أن أقوله ) وقد أحدث اتبع حل المتسلسلة  $10 \times 10 = 11 \times 9 + 100 - 12 \times 8 + 99 - 13 \times 7 + 96 = 91$  ووجدت أن الفروق هى على التوالى  $1, 3, 5, 7, 9, 11, 13, 15, 17, 19, 21, 23, 25, 27, 29, 31, 33, 35, 37, 39, 41, 43, 45, 47, 49, 51, 53, 55, 57, 59, 61, 63, 65, 67, 69, 71, 73, 75, 77, 79, 81, 83, 85, 87, 89, 91, 93, 95, 97, 99$  وهى المتسلسلة ذات الأعداد الفردية . بل أعجب من ذلك اكتشافى أنه لو طرح كل حاصل

۱۶ \*\*\*

لم يكن المدرسون قد ذكروا الى قط ، كما لم يحطروا بيالى قط ، أن الأعداد تلعب مع بعضها البعض هذه الألعاب الهامة الخفية من الأزل إلى الأبد مستقلة ( فى الظاهر ) عن الزمان والمكان والعقل البشرى . ولقد كانت هذه نظرة بالغة الأثر إلى عالم جديد متصف بالكمال .

عند ذلك عرفت كيف كان شعور الفيناغوريين عندما توصلوا إلى نفس هذه الاكتشافات التي ذهبت سدى فيما يختص بـ . إن الحقيقة النهائية المبسطة التي كان الأيونيون يحاولون اكتشافها في شيء فيزيائي كانت في الحقيقة هي : العدد . هل أعلن هيراقليط أن كل شيء دائم التغير ؟ إن هنا أشياء لا تتغير ، موجودات أبدية خالصة من شوائب الجسد المفسد ومستقلة عن الحواس التي يعنورها النقص ويستطيع العقل أن يفهمها على الوجه الأكمل ، وفضلا عن ذلك فلما كان العدد قد أمكن إدراكه مكانياً فقد كان لهذه الموجودات الرياضية صفة اشترط الإغريق وجودها في الشيء الكامل وهي أنها متناسقة والفكرة فيها نموذج يحتذى . ويمكننا توضيح ذلك بأن نعكس وضع المتسلسلة التي ذكرناها آنفاً كما يمكننا الحصول على متسلسلة المربعات بإضافة الأعداد الفردية التي تلها : -

$$\therefore \quad \tau_x = \gamma + \tau, \quad \tau = 0 + \tau, \quad \tau = \gamma + \tau$$

وقد كانت هذه الحقائق تياخذ عند الفيلسوفين لأن تفكيرهم الرياضي كان يسير طبقاً لأساليب هندسية ومن ثم كانوا يعبرون عن مربع العدد هكذا

وكما ازداد التعمير الإغريق تقدماً في هذا العالم الجديد بدا أن ما عرفه بالعطرة من الممكن إثبات صحته، أى أن التعدد الظاهري توجد تحته البساطة وأن القانون هو السائد للمصادفة وأن الكون قائم على العقل وأن التعمير المعطى يمكن أن يكشف عن حقيقته السكامة وأن الطريق إلى الحق يمر بالعقل لا بالحواس .

والذى زاد من قوة هذه العقيدة هو ما اعتادته الطبيعة من أن تكون هندسية ، فلاشك أن أحد الفيشاغوريين قد لاحظ التكوين الهندسى للأزهار والبلورات الكبيرة . وليس عندنا بيان مدون عن ذلك ولكننا نسمع فعلاً أصداً للنشوة التى حدثت عندما اكتشفت المدرسة الفيشاغورية الأساس الرياضى المتوافقات الموسيقية ، ولازال يبدو للعقل غير الرياضى بالمرّة أن من معجزات المصادفة أن ما تتقبله الأذن باعتباره نفس النغمة عند ضرب أوكتاف أعلى إنما يحدثه وتر طوله نصف طول وتر النغمة الأولى تماماً . وهذه أبسط ظاهرة من سلسلة كاملة من النسب التى تعتبر فترات موسيقية أيضاً . وقد رأى العقل الإغريق في هذا ما يخرج عن مجرد المصادفة وما يخرج عن كونه مجرد ظاهرة شائعة في الفيزياء . فالعقل الإغريق ( كما ينبغي لنا أن نقرر ذلك ) معناد على أن يبنى حججه في المناقشة على المشابهة وعلى عبور الفجوات ، والسبب الحقيقي في ذلك هو افتراضه أن الكون بأكمله أو الطبيعة وحدة — الكون الفيزيائى والأخلاقي والدينى معاً . فإذا تذكرنا هذا ، إذا تذكرنا كيف كان يفكر في الخلق الخبير باعتباره وسطاً بين حدين وضبطاً حسناً للعلم وانسجاماً للنفس ، وإذا تذكرنا الدور العظيم الذى كانت تلعبه الموسيقى Moussikê ( وهى التى كانت تشتمل على الشعر والرقص ) في التريسة الإغريقية ، كما إذا تذكرنا أن العلاقات الرياضية كانت قد أخذت تتكشف في الكون الفيزيائى — إذن لا ممكناً أن نفهم كيف انطلق الفيشاغوريون مدفوعين بنشوة أبحاثهم في خواص الوتر الرمان إلى التفكير في إمكان إيجاد

أساس رياضي كذلك للدين والأخلاق فأنشأوا مذهباً صوفياً للأعداد كان يعبر فيه عن الله أو الخير بالرقم (١) أى الوحدة كما يرمز للعدالة بالرقم (٤) وهو العدد المربع التالى وهكذا . لقد كانت محاولة تتم عن شهامة ولكن تاريخ الإنسان قد أرانا منذ ذلك الوقت أنه أسهل لنا بكثير أن نسبحم في الكون الفيزيائى من أن نتحكم في الكون الأخلاقى .

وقد كان أفلاطون طالباً مولعاً بالرياضيات وكان مكتوباً على باب الأكاديمية بالإغريقية (ميديس أجيو مريتوس إيسيتو) وهى عبارة معناها « الكفاية الهندسية مطلوبة ، وقد كان أحد أقواله — إن الله يمارس الهندسة على الدوام ، وهو تعبير فلسفى صادر من نفس الدافع الغريزى الذى حرك هيرودوتوس إلى أن يحول ذهنه ما فعله خاصاً بالنيل . وقد كان أفلاطون يجمع إلى الحافظ الرياضى عقيدة سقراط فى أن أهم دراسة للجنس البشرى هى الإنسان وما نشده من خير مطلق للإنسان ، وقد ورث كذلك طريقة سقراط فى الجدل أى البحث عن طريق التساؤل المطلق عن Logos (لوجوس) وهو التعريف الجامع لكل الفضائل ، وكان يمتد مثل سقراط أن الفضيلة هى المعرفة وأن الرجل الذى يعرف ما هى الفضيلة لابد أن يمارسها لأن الفضيلة باعتبارها خيراً مفضلة بالضرورة على ما هو شر . وبالنسبة لهذه النقطة ربما كان صحيحاً أن سقراط وأفلاطون قللوا من شأن ضعف الإرادة وإن كان صحيحاً أيضاً أنه من المحتمل أننا قللنا من شأن ما كانا يقصدان « بالمعرفة . فأفلاطون مثل بعض من تقدموه فرق تفريقاً حاداً بين المعرفة والرأى ، فالمعرفة ليست ما قاله الناس للإنسان أو أروه له أو علموه له ، فهى لا يمكن أن تكون إلا ما اكتشفه الإنسان بنفسه بواسطة البحث الطويل المتعمق . وفضلاً عن ذلك فإن النشء الدائم لا العابر هو الذى يمكن أن يكون مادة المعرفة أى « ما هو كائن » وليست الأشياء الحسبة التى تصير دائماً شيئاً آخر وهكذا يصل أفلاطون فى الحقيقة إلى درجة لا تعد كثيراً عن « صاحب



المرامير، الذى يقول : « معرفة الله ، هذه الحكمة ، ولو أنه يصل إلى هذا الموقف طريق مختلف جداً . معرفة ما هو كائن تأتي فقط عن طريق حياة مكرسة للمجاهدة الفكرية ، ودراسة الرياضيات هي المقدمة التي تؤدي إليها لأنها تبعد العقل عن الأشياء الخسبة العجة إلى التأمل في الأشياء التي صلتها بالحقيقة أكبر ، فنحن نستطيع أن ندرك الحقائق التي لا تتغير بواسطة العقل وحده ، أما الحراس فإنها قادرة على أن تربيا صوراً عابرة ناقصة لبس إلا من الحقيقة . وأسمى الحقائق والأفكار هو الخير . ومع أن أفلاطون لا يجعل من الله والخير شيئاً واحداً بصورة قطعية فإنه يتكلم عن طبيعة الخير الإلهية بطريقة لا تجعل من كونهما شيئاً واحداً إلا اختلافاً طفيفاً .

هذه هي المعرفة التي متى حصل الإنسان عليها لا يستطيع أن يعمل سوءاً . إنها معرفة الوجود والخير وهما في الحقيقة خاصتان بالله . والمعرفة أغزر وأوسع من معرفتنا الفكرية المحضنة الحالية لأن القوة الدافعة إليها رغبة خلقية كما أنها فكرية . وهدفها هو الحقيقة التي تنظم كل شيء . وهي تنمى في الواقع إلى نفس الاعتقاد المسيحي بالرحمة ولو اختلفت عنه في صفته ، وهذه ذروة أبحاث مفكرى الإغريق عن الحقيقة الباطنة ، عن ( لوجوس Logos ) والكلمة هي الله

## الأساطير والدين

ليس العرض من هذا الفصل أن نحصى حراً وأسماءً ومعتقداً جداً من الحياة الإغريقية والفكر الإغريق وإنما القصد منه مجرد تفسير متناقضات طاهرية معينة ربما تكون متعبة للقارىء .

لقد قضينا بعض الوقت نتكلم بالتفصيل عن العكرة القائلة إن الإغريق كان يبحث بفرزته عن الوحدة والنظام في الكون . وربما أدى بنا ذلك إلى أن ننظر منه أن يكون موحداً لله ، ولكننا نجد بدلاً من ذلك يؤكد عبادة آلهة متعددين تعدداً هائلاً . وحتى في الأزمنة الكلاسيكية أى في عهد الاسفارة يبدو أن الشعراء يخترعون أرباباً جدداً دون ترو . فالأمل والخوف وكثير من أمثال هذه المبركات يمكن أن تصبح آلهة دون أن تدعو إلى دهشة أحد . وكلنا نعرف كيف أن القديس بولس ( كما ورد في النص المنقول نقلًا غير دقيق في الترجمة المعتمدة للعهد الجديد ) وجد الآتينيين يخافون الله جداً ، غير أنهم يخافون عدداً كبيراً من الأرباب . ومضاً عن ذلك فإنى أمل أن نكون قد رأينا أن الجزء الأكبر من الشعروالفن الكلاسيكي رصين بشكل ملحوظ ، وهو بعيد كل البعد عن أن يعوزه المرح والسحر . وبالرغم من ذلك فصفته البارزة هي الشعور باستولوية الخلقية . ولكن يبدو أن الأساطير التي نشأ منها هذا الفن لا يمكن تصديقها مطلقاً . ومن الجائز أن قصص أموات الأرباب المعلقة ووحشيتهم وعشقهم الآثم تلقى في روعنا أن الإغريق كانوا يستهونوا بأحاديثهم الأخلاقية فعلاً ولكن هذه العكرة تعتبر زائفة تماماً .

هاتان صعبتان خطيرتان وتفسيرهما بكل اختصار أن كلمة « ثوس »

الإغريقية ليس معها الله إذ لم تكن العلاقة في الأرمية القديمة بين اللاهوت والمبادئ الأخلاقية كما يجب أن تكون في نظرنا ، ولم تكن في الحقيقة بينهما أية علاقة فعلية على الإطلاق . ولا مفر من أن يكون فهما للأساطير خاطئاً ، وأن تتساوفاً في شكلها النهائي الخاطئ . مادامنا نقابلها لأول مرة في صورتها العامة المتأخرة . فنحن سواء عرفنا ذلك أو لم نعرف ، نبدأ بأوفيد Ovid ومراجعته الإغريقية المتأخرة مع أننا لكي نفهم الأساطير فهما صحيحاً يجب علينا أن نبدأ من البداية لا من النهاية .

فلننظر أولاً في تعدد الآلهة : يظهر أن الإغريق الأولين فكروا في الآلهة بقدر ما فكر غيرهم من الشعوب البدائية . فحياتنا في الحقيقة معرضة لقوى خارجية لا نستطيع التحكم فيها كالجو مثلاً ، فهذه القوى أرباب وكل ما نستطيع أن نعمله هو أن نحاول أن نظل على علاقة طيبة بهم . هذه القوى لا تفرق أبداً بين الناس . فالمطر يسقط على العادل والظالم . ثم إن هناك قوى أخرى . أو هذا ما نرجوه — هي التي تحميننا ، مثل أرباب القبيلة والعشيرة والعائلة والبيت . هؤلاء الأعضاء في المجتمع الاشتراكي الذين لا تدركم الأبصار تحب معاملتهم باحترام شديد كما يجب أن تقدم القرابين لكافة الأرباب طبقاً للطقوس المقررة فقد تستثيرهم أية مخالفة . ولا يدو أنهم يلتزمون بالقوانين التي تتحكم في السلوك الإنساني ، بل من الواضح في الحقيقة أن بعضهم لا يلتزمون بها ، بمعنى أنه ليس هناك ارتباط جوهري بين اللاهوت والأخلاق .

غير أن طبع الشعب الإغريقي ينضج من الطريقة التي نمت بها هذه الديانة البدائية حتى في عصر ما قبل التاريخ . وقد طلت القوى الإلهية بين أقارب الإغريق من اللاتين كثيرة كثرة هائلة كما لم يكن لها أسما ، وطلت طقوس العادة تراعى ممتهى الدقة ذكر الصبح القديمة التي كان من الحائر أن معناها

صار مدياً ، طالما استمرت الديانة في القاء . وقد كان هناك مجرد تصور (لقوة) ، نوم numen ، لانكاد نستطيع ترجمتها ، شئ معبر مثل « الروح » ، كانت تختص بكل عمل من أعمال الإنسان تقريباً منذ أول صرخة له كطفل حتى اختفائه النهائي في القبر . وإذا روعيت الشعائر بالشكل المضبوط فلم يكن يهم ما عداها . أما عند الإغريق فقد كانت الأمور تتطور بشكل يختلف عن ذلك كل الاختلاف . ففي أول الأمر كان شعورهم المسرحي المرح الخلاق ، يجعلهم بالضرورة يصورون « القوى » بصورة أشبه بصورة الإنسان . ويكاد الإنسان يقول إن الأرباب مالم إلا ملوك . وثانياً لقد أنقص الدافع إلى الوحدة والنظام عدد الآلهة وجعلهم في أسرة واحدة ومجلس واحد الأسرة . ويكفينا مثل واحد لهذا الجوع فإن زيوس ذلك الإله القوي القوي الكبير كان يعتبر كذلك إله السماء وكان هناك أيضاً معبود اسمه هيركاوس Herkeios كان يحسب « مزرعة العلاح » . وقد أصبح هذان الإلهان إلهاً واحداً يلقب بزيوس هيركاوس وهكذا أصبحت كلمة هيركاوس صفة لزيوس تدل على مظهر خاص لزيوس فيما يتعلق بوظيفته الخاصة بحماية المزرعة .

ولكن هذا الدافع إلى الوحدة والنظام سار شوطاً أبعد من ذلك ، فمع أن بعض القوى لا تخضع للقانون وهي أحياناً في نزاع ظاهر بعضها مع بعض إلا أن في الكون قانوناً منظماً قد تحاول خرقه دون أن تفلح في ذلك قط . وبعبارة أخرى إن هناك قوة أقوى من الآلهة ، فالآلهة ليست قادرة على كل شئ . وهذه القوة الغامضة تدعى أنانكي Ananke أي « ما لا بد منه » ، أو مويرا Moura أي « مقسمة الأصبه » ، أو « القدر » وتحتوي فكرة القوة العالمية اللاشخصية على العنصر الأول الذي نشأ منه الدس والعم على السواء .

وكانت المرحلة الثانية هي الجمع بين اللاهوت والاخلاق ولم تكن

هذه العملية بالطبع واضحة منظمه كما لابد أن يوحى بذلك أى ملخص قصير . فالإغريق لم يكن يستطيع أن يحترم الصبح الشكبة مثل الرومان وحيث استطاع أن يرى على الأقل طريقين كان يتم بواسطة عور انفجوة التي بين الدين والأخلاق فقد كان تقديم القرابين للآلهة يتطلب طهارة دقيقة طبقةً للانتقوس . فالرجل الذي سفك الدماء لم يكن يصح له أن يشترك في تقديمها إلا بعد أن يتطهر . وكان من الطبيعي أن هذا الطلب الإلهي للطهارة الظاهرية يمتد بمضى الزمن حتى يشمل الطهارة الباطنية ، كما أن ذنوباً معينة مما لم يكن قاذرن البشر يستطيع معاقبتها أو لم يكن الناس يستطيعون اكتشافها صارت مما يعاقب عليه الآلهة . ففي ظروف الحياة البدائية لم يكن طريد القانون أو اللاجئ يلقى حماية قضائية ، كما لم يكن يستطيع الشخص الوضع أن يحصل عليها بسهولة . ولهذا فقد كان راجئ الشفاعة وكذلك الضيف والسائل يعتبرون موضعاً لعناية الآلهة الخاصة ، وكذلك الخنث في أيمن كان ذنباً من المحال إثباته وهذا كان ، ما تنفذه الآلهة بصفة خاصة . وفرق كل شيء فقد رفض الإغريق في النهاية أن يفرقوا بين الطبيعة والطبيعة البشرية . ولهذا فقد رأوا أن القوى التي تحكم العالم الفيزيائي لابد أن تحكم عالم الأخلاق أيضاً . وكان الآلهة عند هذا الحد قد صاروا روحانيين ولم تعد أنانكي دور زيوس بل أصبحت هي التعبير عن إرادته وصارت القوى الإلهية الأخرى مثل ربات الانتقام أو Erinyes اللاتي يعاقبن على ارتكاب أعمال العنف والمطالم من أعوانه الأوفياء .

ولكن لم يكن هناك أى تضارب بين مثل هذه المفكرة عن زيوس وبين الأساطير التي تطهره بمطر العف وسرعة الإشارة والحب الجسي ؟ كان هناك مثل هذا التضارب بالتأكيد ، ولكن قد أن نتكلم عن التضارب مجرد بما أن يكشف كيف جاءت الأساطير إلى الوجود .

ليس يعيبها هنا نوعان من الأساطير وهما الأساطير التاريخية أو التي تدعى أن لها أصلاً تاريخياً مثل أساطير طروادة والقصص التي من أمثال بيرسوس وهو يقطع رأس الجورجون ( العولة ) ، وهي أساطير شعبية وقصص جنيات Marchen أما الذي يعيبها فذلك الذي يشبه قهر زيوس لأبيه كرونوس Cronos وتشويهه ، وكذلك الأعداد الهائلة من الربات والحوريات ( عرائس البحر ) والنساء من البشر اللاتي كان زيوس وأبوللون موفقيين في حبهن فهذه هي القصص التي تضللنا والتي أساءت إلى كرامة الإغريق أنفسهم في عصور التفكير ، فكيف نشأت ؟ .

لقد كانت هذه الأساطير على العموم تفسيرات لأشياء معينة ، وقد اكتسبت لونا وحياة لأن الإغريق لم يكن بوسعهم إلا أن يفعلوا ذلك .

إنها كانت مجرد تفسيرات ، فقد كان هناك عدد هائل من الشعائر الدينية التي يمارسونها ، والتقاليد التي يذكرها الناس ذكراً غامضاً والتي كانت في حاجة إلى التفسير . ولما كانت الحقائق مناسبة فقد حلت محلها القصص الخيالية . لقد أعطت الفصول السابقة مجرد فكرة ناقصة جداً عن تعدد ديانة ما قبل التاريخ في بلاد الإغريق . فقد تكلمنا بطريقة عامة عن تعدد الآلهة بين الإغريق القدماء ، ولكن دعنا نفكر في أن هؤلاء الإغريق القدماء ، لم يكونوا أمة متماسكة بل طوائف من الناس ظلوا يتدافعون ويتصارعون قروناً ويقبضون هائم يقيمون هناك ، ويقومون باستمرار باصطالات جديدة مع حيران جدد ودعنا نمكر أيضاً في أن الديانات العظيمة الرقي وحدها كاليهودية والمسيحية والإسلام لا تتساح في موضوع الألوهية ولا تنقل إلا الله أما الديانة القائمة على عبادة آلهة متعددة وبها ترحب بطبيعتها بالآلهة الحدد فإذا استقرت طائفة من الجنس الإغريق القديم بين حيران جدد أو إن فرصت نفسها عليهم فقد كان من

الطبيعى أن تستمر فى عبادة آلهتها هى ، ولكنها كانت تكرم كذلك الآلهة الموجودين فى تلك الناحية من قبل . وهكذا دعنا نصرب مثلاً يعتبر نموذجاً لآلاف غيره . لقد كان يقام مهرجان فى أموكلاى بالقرب من إسبرطة يعرف باسم هوا كينشيا لتكريم ، أبوللون وهيا كثنوس على السواء . وقد كانت تتميز طقوس هيا كثنوس الدينية المكتوبة بسكب الخرف فوق الأرض زلنى إليه . وكان اليوم الثانى من أيام المهرجان الثلاثة يكرس لأبوللون . وكان أكثر بهجة بكثير من سابقه ولاشك أن الأصل البعيد لهذا المهرجان المزدوج يرجع إلى أن قوماً جدداً عن يعبدون الآلهة أبوللون الأولمبى استقروا فى أموكلاى بين قوم كانت عبادتهم تختلف كل الاختلاف عن ديانة هؤلاء ، أى بين قوم كانوا يعبدون إلهاً من آلهة الأرض لا من آلهة السماء . وقد كانت التقوى والحرص كلاهما بحرمان إهمال العبادة الموجودة هناك ، ولذلك جمع القوم بين القديم والجديد . فلما انقضت الأجيال نسي الناس أصل العبادة المزدوجة بل نسوا فعلاً وجود إله الأرض ذاته ، ولكن التقوى وعادة المحافظة على الآراء أبقت الطقوس حية . هم إذن كان كل هذا الموضوع ؟ إن سكب القربان على الأرض لا يمكن أن يدل إلا على شئ واحد هو أنه كان يقدم الميت . ولما كان لأبوللون نصيب فى مهرجان هيا كثنوس Hyacinthus فلا بد أن هيا كثنوس الميت كان صديقاً حميماً لأبوللون . ومن هنا جاءت القصة التفسيرية التى نقول إن هيا كثنوس كان شاباً أحبه أبوللون ولحقه قلة مصادقة بقرص كان يقذفه . إن كلمة « هيا كثنوس » كما رأينا ليست كلمة إغريقية ، كما أن عادة إله أرضى ليست إغريقية . لدينا إذن فى هذه الشميرة الأدبية كما فى القصة سجل لاندماح ثقافتين مختلفتين كل الاختلاف وصدى لهذا الاندماح .

وفى كثير جداً من الأحوال كان المسود السابق رتبة من الربات ، وفى

هذه الحالة كان من الطبيعي جعلها زوجة للإله الواحد . أما إن كان هذا المصود لها فمن الممكن أن يصبح ولداً للإله الذى يحل محله . غير أن هذا كان يتطلب أمماً فتكون حورية أو الهة محلية . وقد كان هذا أمراً طبيعياً جداً يدل على غلبة البراءة . ولكن لما كان مثل هذا الأمر قد حدث في كثير جداً من الوديان والجزر التى لا عداد لها وهى التى استقر بها الإغريق ، وكان يثبت أن هؤلاء الآلهة الذين حلوا عن غيرهم كانوا هم وزئوس وأبوللون شيئاً واحداً فقد بدأ يظهر أن زئوس وأبوللون لهما ذرية هائلة من عدد كبير جداً من الإلهات والحوريات ونساء البشر اللاتى نلن الخطوة لديهما . ولكن عشق الآلهة الجسدى هذا جاء مجرد نتيجة عرضية للأساطير وليس هو المقصود منها . والسبب فى أنه لم يسىء من قرره إلى العاطفة الدينية أن الناس كانت تعرف حق المعرفة أنه تفسير لا أكثر . فلم تكن له صفة الحاجة الدائمة التى تستخدم للزينة والتعليم وإنما كان مجرد ما يقوله الناس ، فهو تفسير . ومع أنه قد صارت له أهمية التقاليد المتوارثة فقد كان تفسيراً يمكنك أن تقبله أو ترفضه . أما الأمر الجوهرى فى الشعيرة الدينية فقد كان تكريم لإله ، ولم يكن هناك ما يلزمك بتصدق القصة التى عن هذه الشعيرة .

غير أنه كان هناك نوع آخر من الأساطير أكثر بساطة كان له أصل مختلف ولو أن المقصود منه كان التفسير كذلك . فما الذى دعا مثلاً إلى اختراع القصة المروية عن زئوس والذى أساءت مثل هذه الإساءة البالغة إلى الإغريق المتأخرين وهى القائلة بأن زئوس قد قهر أمه كرونوس مستخدماً فى ذلك العنف وتركه سجيناً فى أقصى أعماق الجحيم ؟ وتعليل ذلك باختصار أن مثل هذه الأساطير كانت محاولة للتصدى لأصل الأشياء الخاصة بالعالم العيزائى أو لاثم بالآلهة بعد ذلك . وفى البدء كانت الفوضى « Chaos » أى



و فراع قد تعرفاه ، ثم امتعت الأرض الواسعة المستوية وهي الأرض الحقيقية لكل شيء سواء الآلهة أو الناس ، وقد نشأ منها أورانوس Ouranos ( السماء ) . ومن اتحاد الأرض والسماء نشأ الليل والنهار ودرية كاملة من الكائنات البشعة التي تعبر صوراً لقوى سبكولوجية وهي يائبة ، وقد كان من الطبيعي تصوير الخروج التدريجي للنظام من الفوضى بطريقة إنسانية . ثم لماذا لم تستمر الأرض وأورانوس في ولادة مثل هذه الذرية الأولى ؟ وكيف جاء النظام ؟ لقد قهر أورانوس وكبله بالسلاسل ابن جديده له أسمى منه هو كرونوس . وعلى طول الزمن قهر زيوس بالمثل كرونوس وحل محله ، وبواسطته حدث العالم والنظام الأخلاق الذي نعرفه . أما أن كرونوس كان إبناً لأورانوس كما أن زيوس هو ابن كرونوس فأمر عرضي جداً . فلم يكن هناك أحد آخر يمكنهما أن يكونا ولديه . فقد كان على عصر متأخر يشتد فيه الفساد أن يتمسك بمثل هذه التفاصيل الصغيرة وبأخذ في الإحساس بالمهانة من تصرف الآلهة ذلك التصرف الذي لا يليق بالأبناء .

لقد كان تعدد الآلهة عند الإغريق إذن ديانة طبيعية ، زائداً تعقيداً وتعددًا تجزئة الجنس الإغريقي واندماج نوعين مختلفين من الديانات في جهات من بلاد الإغريق على الأقل ، أحدهما خاص بالمجتمع الإشتراكي والآخر خاص بعبادة الطبيعة . وأما انرى ميل الإغريق الغربي للوحدة والمنطق في إنشائهم للنظام الأولي الذي يرأسه زيوس أبو الآلهة والناس ، وقد أدمجت فيه الآلهة الهيلينية الخاصة بالقبائل والسماء وإلهات الطبيعة وآلهتها غير الهيلينية في الظاهر وجمع هائل بأكماله من الديامونيس ( أي الأرواح لا الشياطين ) مثل ربات الانتقام والمعالي المجردة التي تجسمت أشخاصاً مثل ( العدالة - Dike ) ، ( القانون - Themis ) فأصبح نظاماً واحداً متماسكاً ، وكذلك نرى هذا الميل في الطريقة التي وصفت بها الأخلاق تحت حامة الآلهة وإن كانت في الأصل موضوعاً بهم البشر والمجتمع وحده كما نراه كذلك في فكرة أنانكي

« أو موريا ، الموحدة التي كانت في الأصل أسمى من الآلهة ولكنها أصبحت فيما بعد مطابقة لإرادة زيوس ، فجاء هذا الحشد الهائل من الأساطير عن قصد تفسيراً لهذا الأمر أو ذاك ، ولم يكن هناك مصر من أن يكسوه حياء ، الإغريق الشيط ثوباً مسرحياً .

ولكن عندما بدأت الأخلاق تتلاق مع الدين ، وعندما لم تعد الآلهة قوى طبيعية واجتماعية وسيكولوجية لحسب بل قوى أخلاقية أيضاً ، أصبح عنصر العشق الجنسي في الأساطير حجر عثرة ، فكان يعتبر تحدياً تقبله الفلاسفة والفنانون بطرق مختلفة . فاستبعد الفنانون أونوسوا ما لم يحبه فيه ، أما ما تبقى فقد استخدموه في الخلق والإبداع ولكن الملاسفة نبذوه نبذاً كلياً . وقد سبق أن أشار إلى ذلك الفيلسوف الأيوني كسينوفانيس في القرن السادس بقوله : لو كانت الحير متدينة لتصورت آلهتها على هيئة حير ، . بهذا نختم كلامنا عن تمثيل الآلهة على هيئة البشر وهو لب الأساطير . وقد كان يوريبديدس يندد « بقصص الشعراء الزرية ، مع أنه كان شاعراً وكان يرى أن الإله الذي يخطئ ليس إله والذي يشقى شتياً لا يمكن أن يكون إلهاً لأن الله كامل تام ، ويندد أفلاطون بالشعراء كل التنديد لشعرهم قصصاً تافهة زائفة بل وخبيثة بالفعل عن الآلهة ، كقولهم إنهم يتعاربون أو يستسلمون للانفعالات مثل الحزن والغضب والحور وهو لا يقبل هومر في جمهوريته ، على كره منه . وهو غاضب جداً على شعراء المأسى لشعرهم أفكاراً لا تليق بالإله المعبود .

من الجائر جداً أنه كان هناك شعراء للمأسى من طبقة أدنى يستحقون انتقادات أفلاطون ، أما بالنسبة لشعراء المأسى الذين تعرفهم فإن حملة أفلاطون تعتبر صحيحة ، فهي المحوم الذي يقوم به على الصان فيلسوف لا يسلم بأن هناك طريقاً آخر يؤدي إلى الحقيقة إلا طريقه ، وهي هجوم

فيلسوف مترمت في فهمه كان أقرب إلى أن يكون شاعراً من كثير من تخيلوا حتى أصبحوا شعراء ، فقد ابتكر بعضاً من أعرق وأجل الأساطير الإغريقية<sup>(١)</sup> . إن هناك ، على حد قول أفلاطون ، نزاعاً طويلاً بين الفلاسفة والشعراء ، كان قائماً بالفعل من جانب الفلاسفة كما كان قائماً قبل كل شيء في نفس أفلاطون .

ولكن الشعراء لم يكونوا يشعرون بهذا النزاع . لقد كان بنداروس وإسخولوس وسوفوكليس وبوريديس شعراء فلاسفين إن كان الشعراء الفلاسفة حقاً قد وجدوا يوماً ما . وقد كانت طريقهم الطبيعية هي استخدام الأساطير حتى الأساطير التي تتنافى مع الأخلاق . ومن المهم أن نفهم كيف استخدموها ، فقد كان الشعراء المسرحيون يكتبون في الطاهر مسرحيات « عن » شخصيات أسطورية . والواقع أنهم لم يفعلوا شيئاً من هذا القبيل . إن هؤلاء الرجال لم يضعوا وقتهم ووقت بلدهم في تصوير شخصيات مأخوذة من « سفينة نوح » ، ولو أن شيئاً من هذا القبيل يبدو أن النقاد قد افترضوه ، وهم الذين كتبوا أنهم قد ضاقوا ذرعاً بالأساطير التي استخدمها الشعراء ، مع أنه ليس هناك ما هو أكثر زيفاً وأقل ذكاء من ذلك ، فإن الشعراء قد أخذوا مسرحياتهم من واقع مكالماتهم للشاكل الدينية والخرافية والفلسفة الموجودة في زمانهم ، وقد استخدموا الأساطير إلى حد كبير مثلما استخدم شيكسبير هولنبشيد Homrshed وبمثل حريته في التصرف . وقصة بوريديس « المساء » ميديا Medea معروفة معرفة كافية ، فإن ميديا التي خانها زوجها جاسون تقتل فضلاً عن زوجة جاسون الكورثية الجديدة أولادها وهم أولاد جاسون . والحادث الرئيسي ها وهو قتل الأم لأولادها من ابتكار بوريديس . هي بعض الروايات السابقة أن أهل كورثا هم الذين

(١) أنظر مثلاً في «الصفحات القليلة الأخيرة من محاولة » جورجياس »

قتلوا الأولاد . ومعنى هذا أن يوربيديس عبر الأسطورة تعبيراً تاماً  
لكي يعبر عن فكرته هو . ولم تكن فكرته ، كما يبدو أن بعض المخرجين  
الحديثين يظنونها ، هي أن يخلق دوراً لمثلة مأسى من بحوم المسرح أو أن  
يكتب بحثاً سيكولوجياً لا يكاد يحتمل تصديقه ، وإنما كان يقصد أن يبين أن  
العاطفة التي لا يتحكم فيها العقل تدمر من تمنائها بالذات كما تدمر المجتمع كله .  
وكان إيسخولوس بالمثل يستطيع أن يستخدم أعف الأساطير القديمة ويملاها  
بالمفردى العميق . ففي مسرحية بروميثيوس يستخدم قصة نشأة الكون القديمة  
الخاصة بقنال الآلهة بعضهم لبعض ويتحدى بروميثيوس لزبوس ومقاساته  
عذاب الدهر نتيجة لذلك . ومطالبة ارتيميس لأجاممنون في مسرحية  
«أوريستيا» Orestia ، بأن يقدم ابنته قرباناً لها لإنهاى أسطورة ترجع في أصلها  
إلى أبعد العصور التي كانت تقدم فيها القرابين البشرية . ولا تحدث تصرفات  
أبوللون مع كاسندرا وهي التي وردت بعد ذلك في المسرحية صدمات نفسية  
أقل من سابقتها بكثير ، ولكنه اتخذ من هذه الأساطير قصتين مسرحيتين  
قويتين — إحداهما ناقصة للأسف — وهما تحتلان مكانهما بين أسامي روائع  
ما أنتجه العقل البشرى . فهما مسرحيتان عن مولد قوة التفكير ونموها  
وعن مولد النظام والرحمة بين الآلهة والناس على السواء .

وهكذا يستطيع الإنسان أن يظهر كيف أن الأساطير قد بقيت حيوية  
تزخر بمعنى ديني فلسفي عميق عند كل الكتاب المسرحيين وعند بنداروس  
وإن يكن بطريقة مختلفة نوعاً ما فقد ظلت تفسيرية في جوهرها كما كانت  
دائماً . ولو أنها أصبحت بعد ذلك في أيدي هؤلاء الشعراء الوقوريين الأقوياء  
شرحاً للحياة الإنسانية وللنفس البشرية .

غير أن مستقبل التفكير الديني عند الإغريق لم يكن رهناً بالأساطير  
ولا بالآلهة الأولمبيين بل ولا بديانات الأسرار التي كانت شخصية أكثر

من سواها كما كانت مكتملة للعبادات الأولمبية ولكنه كان رهماً بالعبادة ،  
 قاله صر الإغريق في المسيحية هائل ومستمد من أفلاطون . إن ربوس  
 الذي كتب عنه اسحولوس ولو أنه كان طاهراً علماً إلا أنه كان معوداً حاصراً  
 بالو ليس الإغريقية بدرجة لا تسمح له بأن يصبح إله الجنس البشرى .  
 كما أن إله اليهود ما كان من الممكن أن يصبح إله الأمم الأخرى كذلك دون  
 تغيير جسيم . لقد كانت الفلسفة الإغريقية لا سيما فكرة أفلاطون عن  
 المعبود المطلق الباقي هي التي أعدت العالم لاستقبال دين عالمي .

أما فيما يتعلق بالأساطير الإغريقية فإن بعض مسرحيات يوريبيديس  
 المتأخرة تبين كيف أن مركز الجاذبية كان أخذاً في الانتقال . إذ أخذ  
 التفكير الجدي يسير في اتجاهات فلسفية محضة وأخذ يوم الشعر الراقى في  
 الغروب كما أخذت وحدة الأساطير والدين الكلاسيكية في التفكك . فقد  
 أخذ يوريبيديس حوالى نهاية القرن الخامس يستخدم الأساطير بطريق  
 السخرية والتهو والإغراق في العاطفية والخيال ( كما في دايون ، و دايوجينيا  
 في ثاورس ، ودهلياء ) فقد صرنا إذ ذاك قاب قوسين من المرحلة النهائية  
 للأساطير الإغريقية ، وهي المرحلة التي نعرفها عنهم أكثر من سواها بفضل  
 الشعراء الهيلينيين والرومانيين . وقد تمت التفرقة بين الأساطير والتفكير كنتاج  
 لفتوحات الإسكندر . فأخذت الآلهة التي لاتعيا الذاكرة والمعبودات  
 المحلية لبلاد الإغريق وطقوس عباداتهم المحلية تبدو بعيدة جداً وشاحبة  
 للإغريق الذين يعيشون معيشة الغربة تحت حكم ملك قوى في مدن مصر  
 وآسيا الإغريقية أو نصف الإغريقية . وكما نشأ فيها يساهم اهتمام وشوق إلى  
 المواكلور عندما انتزع الشعب من الريف انترعاً ، وسبق زرافات إلى  
 المدن فكذلك يجد في العصر الهليني الجديد ، عندما تشتت الإغريق وانتهت  
 الحياة القديمة أن النشاط في البحث عن الخرافات المحلية وطقوس عبادات  
 الوطن قد عم وأن هذه الخرافات والطقوس قد صفت في قوائم ولم تعد

أساطير حية بل مجرد آثار جدادة اتجه إليها الشعراء والفنانون بحسنة وهم شعراء مطلقون — مثل بعض من نمرتهم اليوم — وأحدوا يؤلفون لا من أجل يولبس حية يرونها بأعينهم بل من أجل الجمهور المتعلم حينئذ وجد ، وهو منتشر في العالم الكبير الجديد . هذا العصر أى العصر الإسكندري هو الوقت الذى تمت فيه الأساطير حتى صارت نوعاً من الجئون الأدبي والفني ، حين أخذ الشعراء يروون في أشعار رشيقة قصصاً جميلة أوفاضحة عن عشق الآلهة وتغيير أشكالهم بطريقة عجيبة . وكان هؤلاء الشعراء من المغموين الذين لم يحدوا الإلهام أو الجمهور الذى يستمع إلى شيء أهم من ذلك . وهذا هو العصر الذى يقع بيننا وبين الإغريق الكلاسيين ويجعلنا نظن أن الإغريق كانوا عابثين لا يرجي لهم صلاح . ولم يكن هذا العصر مفتقراً إلى مفكرين من أهل الجدة ولكن هؤلاء كانوا فلاسفة العصر وعلماءه لا شعراءه . ومعالجة هؤلاء الشعراء للأساطير جدابة في أولها ، ولكنها سرعان ما تصبح شيئاً عملاً لا يطاق ، فهي شيء ميت أما عند بنداروس وإسخولوس وسوفوكايس ويوريبيديس فقد كانت تزخر بالحياة .

## الحياة والأخلاق

نبي كسينوفون الذى كان قائداً للعشرة آلاف جندى من أثينا لأسباب غير واضحة كل الوصوح ثم أصبح صديقاً شخصياً جميعاً لأجيسيلوس ملك إسبرطة الذى أعطاه قطعة أرض في البيلوبونيز في مكان يدعى سكيلوس بالقرب من أوليمبيا وهو مكان يصلح لسكنى من لا يمكنه أن يسكن في أتيكا لأن كل إنسان كان من عادته أن يذهب إلى أوليمبيا إن قريباً وإن بعيداً ، وفي هذا المكان لابد أنه كتب أكثر كتبه بما فيها «التقهر» - الانسحاب Anabasis وهو وصف حملة قورش وماتلاها جملته مناسبة لوصف مكان اعتكافه الرينى .

وكان عشر غنائم العشرة آلاف جندى قد خصص لأبوللون وأرتيميس . وقد كان القواد مسئولين عن ذلك كل على حده . وما تسلمه كسينوفون من أجل أبوللون وجهه في دلفوى لحزاة الأثينيين . أما ما كان يجب دفعه لأرتيميس حامية أفسوس ( ديانا حامية أهل أفسوس ) فقد تركه في عهدة من يدعى ميغابيزوس Megabyzus وهو كاهن من كهنة أرتيميس لأرث كسينوفون كان ذاهباً مع أجيسيلوس وباقي العشرة آلاف (الآن ٨٦٠٠) في معركة ضد طيبة وبالتالي ضد أثينا . وبالنظر إلى بقاءه حياً بعد المعركة فقد زاره ميغابيزوس في معتكفه الرينى القريب عند قدومه لمشاهدة الألعاب الأولمبية ورد إليه المسال اللازم دفعه لأرتيميس ، فاشترى به كسينوفون أرضاً في جهة أشار عليه بها أبوللون في دلفوى . والواقع أن نهر سيلينوس يحترق هذه الأرض كما يجرى أيضاً أمام معد أرتيميس في أفسوس وفيه يوجد السمك والمحار . وكان هناك صيد في الأرض الموجودة في سكيلوس من كل أنواع الحيوان الذى يمكنك ذكره . وقد بنى كسينوفون من هذا

المال مدحاً ومعبداً وحدد عشر محصول الأرض سويّاً لتقديم قربان للربة في مهرجان كان يدعو إليه كل المواطنين والجيران وروجاتهم . وكانت الربة تمد من يحصرون بوجة شعير وحبر وببند وحلوى ونصيب من القرابين التي تقدم من المرعى المقدس وكذلك من حيوانات الصيد لأن أولاد كسينوفون والمواطنين الآخرين كانوا يذهبون للصيد قبل المهرجان كما كان يشترك معهم في ذلك الرجال أيضاً إن أرادوا ، وقد كانت الحيوانات كالخنازير البرية والغزلان والوعول تصاد أحياناً من الأرض المقدسة وأحياناً أخرى من فولوى Pholoe . وكانت الأرض واقعة على الدرب الموصل من إسبرطة إلى أولمبيا على بعد ميلين ونصف ميل من معبد زيوس في أولمبيا . وهي تشتمل على مرعى وتلال تكسوها الأشجار تعيش عليها الخنازير والماعز والبقر والحيل . حتى أن دواب الحمل الخاصة بمن يأتون إلى الوليمة كانت تأكل منها كما تشاء ، وكان حول المعبد بستان مزروع به كل نوع من أشجار الفاكهة . وكان المعبد نموذجاً صغيراً للمعبد أفسرس كما كان التمثال مصنوعاً من شجر السرو وهو نسخة من التمثال الذهبي الذي هناك . وكان مكتوباً على أحد الأعمدة التي إلى جوار المعبد ، وهذا العقار مكرس لأرتيميس ، وكل من يملكه ويتمنع بممتلكاته يجب أن يوزع منها العشر كل سنة ويصلح المعبد من الفائض فإن لم يفعل ذلك فإن الربة تنظر في أمره . .

إن هذه الصورة حلالة لمظهر واحد من مظاهر الحياة الريفية في إحدى أحياء بلاد الإغريق التي تمتاز عن غيرها باعتدال الجو . ويستطيع الإنسان أن يتصور أن المواطنين والجيران قد أخذهم شيء من الحيرة بشأن هذا العريب ذي الأهمية البالغة الذي استقر بين طهرانيين . وهو رجل سق أن قاد أولئك المترفة عانداً بهم من أقصى الأرض ، وكانت علاقته طيبة جداً



بأجيسيلوس ملك أسبرطة التي كان يؤلف كتاباً عنها ، كما كان يؤلف غير ذلك من الكتب - فيما يقال - مما فيها كتاب أو كتابان عن أثيني عجيب ليس ذا أهمية ولو أن كسينوفون كثيراً ما كان يتحدث عنه فهو فيلسوف كان يدعى سقراط أو نحو ذلك . ولو أنك لا تكاد تعتقد بوجود كثير من هذا الهراء عن كسينوفون - فهو رجل متدين جداً وعاقِل وعمل جداً - ولكن يحتمل أنه كان يبالغ في مراعاة الصغار فقد كان يعطى قيمة كبرى بالفعل لوضع كل شيء في موضعه . ويظهر هذا واضحاً جداً من رسالة صغيرة شيقة جداً عنوانها بالإغريقية « إقتصاديات » ومعناه الحر في إدارة البيت والأرض . وهي معروضة بطريقة لطيفة جداً على هيئة حوار بين سقراط وبين إيسخوماخوس Ischomachus وهو سيد أثيني من أهل الريف . وهذه هي المرة الوحيدة التي نجد فيها من يحاور سقراط يقوم بأغلب الحديث . فعند إيسخوماخوس ما يقوله عن تدريب زوجته ، إذ هي لم تكن قد بلغت الخامسة عشرة عندما تزوجها . لأن النساء في إقليم البحر الأبيض المتوسط يتزوجن في وقت مبكر فعلاً ، وكانت قد قضت طفولتها في عزلة تامة حتى لا تعرف أكثر مما ينبغي . وقد كانت تعرف كيف تصنع قيصاً من الصوف وكيف تشرف على الخدم وهم يغزلون ، ولكن إيسخوماخوس تولى تعليمها غير ذلك من الأمور متدناً بتقديم قربان مصحوب بالصلوات . وقد شاركه في ذلك زوجته الصغيرة عن نقوى كتنقوى زوجها . وقد بين لها أنه اختارها كما اختاره أبواها ليكون كل منهما أحسن شريك أنسب لإدارة منزلها وأنجاب ذرية ممتازة في كل شيء تكون عوناً لهما في شيخوختهما . وقد كان نصيبه أن يتولى شئون البيت الخارجية . وسنسمع عن قريب كيفية اختيار الوكيل والعمال وتدريبهم ليوصلوا العمل بإحلاص واقتراح بينهما كان عليها أن تسعى إلى أقصى حد بتدبير ما يحصره . ومن رعاية الله أن جعل طبيعتي الرجال والنساء مختلفتين تبعاً لذلك . ولو أنهما من حيث الصفات الخلقية يقفان

على قدم المساواة . وهو يقارن الروجة بمذبة الحبل فعليها مراعاة التدبير بحيث لا تستهلك في شهر ما يسعى استهلاكه في عام ، كما أن عليها أن تصنع الثياب لمن هم في حاجة إليها وتراعى حفظ الأثنية المجمعة لتكون صالحة عند الحاجة إليها ، وربما كان واجب العناية بالأوراق أثناء مرضهم من خفض الأمور ، غير أن الزوجة الصغيرة تبدد كل مخاوفه بهذا الصدد قائلة : ستكون العناية بهم من أحب الوظائف إلى فإن الذين تحسن معاملتهم غالباً ما يكونون حافظين للجميل ومرتبطين بى أكثر من ذى قبل .

ويستمر الدرس بما فيه من ملاحظات على تدريب الخادومات على الصالحات المنزلية . لقد وصلنا الآن إلى البيت نفسه . إن ترتيبه يجرى بعناية شديدة ودون أى إسراف حتى يلائم الغرض منه ، وتبدو كل غرفة وكأنها ترحب بما يوضع فيها . وهكذا نرى أن الغرفة الداخلية تحوى على أثمن السجاجيد والأرائى لأنها أثمن الغرف . أما القمح فإنه يوضع في أجف الغرف كما يوضع الببند في أرطب الغرف وألطفها بينما توضع أصص الأزهار الفاخرة وغيرها من القطع العتيبة التى تحب رؤيتها في أكثر غرفة يدخلها النور . والمنزل يواجه الجنوب بحيث أن غرف الجلوس تدخلها الشمس في الشتاء ولكنها ظلية في الصيف ( وليس من شك في أن خارجها صف ضئيل من الأشجار ) وقد كان لا يسخو ما خوس يصر على الترتيب والنظام . إذ كيف يكون حال الجيش أو فرقة المظن بدون مراعاة النظام الدقيق ؟ وقد ذكر لزوجته قصة سفينة فينيقية رآها ذات مرة وحبالها المتنوعة محزونة في حيز يبتغ من الصغر حداً لا يصدق فهو لا يريد عن غرفة طعام ذات حجب مناسب ، غير أن كل شيء بها كان من السهل الوصول إليه بعد طلعه بإحطة وكان يستطع الحمار أن يضع يده مباشرة على ما يحتاجه عند أشد الطوارئ . ولا ريب أن الطعام شيء ممتاز جداً في حد ذاته . فالحسن مطر الثياب والأحذية بل وأواني الطبخ عندما تطعم تطيماً مناسباً .

أما فيما يتعلق بأسلوب حياته الخاص فقد أوضح إيسخوماخوس لسقراط أنه يستيقظ مكرراً ( أى عند الفجر مائلاً كبد ) حتى إذا أراد أن يروى رجلاً في شأن من شؤون العمل فمن المحتمل أن يجده في منزله كما أنه يفقد من المشى ( ويهمهم من هذا صيناً أن المشى أفضل من الانتظار إلى ما قبل الظهيرة حتى يعثر على من يريد في السوق ) فإن لم يكن له عمل خاص في المدينة فإن الخادم يطلق حصانه إلى المزرعة أما هو فإنه يمشى على قدميه بقصد الرياضة لأن هذا أفضل من المشى ذهاباً وإياباً في أحد أروقة المدينة . وهو يرى في المزرعة ما يقوم به الناس من عمل فإن خطر بياله لإجراء أى تحسين أو صام به ثم ركب جواده مخترباً الحقول كما لو كان في ساحة الحرب واضعاً نصب عينيه أن يحافظ عليه من العرج . ثم يعطى حصانه لأسانس ويعود للمدينة مشياً أحياناً وجرياً أحياناً أخرى . ثم يمسح عن بدنه الفأض من الزيت لأن الرياضي كان يدهك جسمه بالزيت ويزيل الفأض ( بالإسترجيل ) وهى آلة مقوسة للتدليك . بعد ذلك كان يتناول إيسخوماخوس غذاء وهو أول طعام اليوم . وكان حريصاً على ألا يفرط في الأكل . أما ماذا كان يصنع في بقية اليوم فلم نسمع عنه شيئاً . ولا شك أنه كان مملوءاً بالعمل الخاص والعام وبالكلام مع أمثال سقراط من الناس . وقد كان سقراط يعجب بهذا الأسلوب من أساليب العيش ويقول ، « ليس من عجب إذن أن تعتبر من أحسن فرساننا وأغنى مواطنينا ما دمت شديد العناية بهذين الأمرين على السواء » فنجيبه إيسخوماخوس « ومع ذلك فأنا لست محبواً بين الناس » وهذا لا تلوح أية ابتسامة على وجهه كما لا تلوح أية بسمة على وجه كسيوفون

إلى أى مدى يعتبر كل هذا نموذجياً ؟ لو كان لدينا قدر من أمثال ما ذكرناه تقاربه له لأمكننا الإجابة على هذا السؤال ، ولكن ليس لدينا شيء من ذلك . والذي يحظر بيالي أنه ليس نموذجياً بالمرّة بصرف النظر عن كون

إيسخوماخوس رجلاً عيباً . إن هناك أثراً من طابع القرن الثامن عشر موجوداً عند كسيوهون — تقواه الدقيقة وحبه للنظام ووقاره الممتاز وأسلوبه الدارج المحبب . وقد وجد صحة الأسير طيبين بما تناسب دوقه ، ومن المحتمل أنه اشتغل مع المسندير الثلاثين دوى السمعة السيئة ليس أربها أئينا فترة قصيرة بعد انتهاء حرب الديلوونير . وعلى العموم فهو ليس بالآثني النموذجي ، وإنه ليكون من قبيل السذاجة البالغة أن نفترض أن الآراء التي وردت عن الزواج وتربية البات — وهي المنسوبة إلى إيسخوماخوس الذي لا تبدو عليه محافل النجابة العاطية — تمثل العادات الآثنية السائدة .

إننا لا بد أن نعود إلى هذه المسألة غير أن أمرين من الأمور التفصيلية التي تعبر بالتأكيد نموذجاً لما كان يحدث هما عدم تناول طعام الإفطار والارتباط الوثيق بين حياة المدينة وحياة الريف .

قد رأينا الآن شيئاً من حياة الريف في أوائل القرن الرابع ولو أن ذلك كان من وجهة نظر قائم متقاعد له ذوق في نوع من التاريخ والفلسفة لا يمتاز بالعمق الكبير . هن في استطاعتنا حقاً أن ننقل إلى الريف بين الرواة على الجبال أو مع الفلاح العامل في واد بعيد ؟ هذا أمر صعب بشكل عجيب ، فليس عندنا مجلات كاثي في الأديرة أو في بيوت سادة الأرض من النبلاء ، وهي التي يحظى بها مؤرخ القرون الوسطى . ولم تكن المؤلفات التي تصدر في دولة المدينة مستنصضة أو كثيرة الاستيراد . ونحن نسمع عن احتمالات ريفية ولو أنها ليست كلها بلا شك من النوع اللاتق كاحتفال كسيوهون . كما نسمع عن حرافات ريفية قديمة ومعتقدات عرسة لأن الأجراء الربية في بلاد الإغريق كانت موحشة ، في أركاديا يظهر أن شيئاً دائماً جداً مثل تقديم قربان بشرى كان يرسه الناس ، في القرن الخامس .

وبعطيا أريستوفانيس في مسرحتي « الأخارنيون » ، السلام (١) ، نصمة خاصة ، صورة للملاح الأتيكي الذي أرمعه الاحتلال الإسرطى على الانتقال إلى المدينة دعم أنه يكرها وفي مسرحية أهل أخارناى نقابل شخصيتين مثل « هارى لاودر » فهما فلاحان من طيبة وميجارا أصرت بهما الحرب ضرراً بديعاً ولكن ليس هناك وصف تفصيلي أو متتابع عنهما . وعلينا أن نرجع إلى هزبود قبل قرنين أو أكثر ونحن واثقون من أن صورة العمل المتواصل والنخطيط لم يكن قد دعا عليها الزمان وأن نتقدم قرناً عبر الزمان حتى نصل إلى ثيوكريتوس Theocritus ورعاه الذين تركوا وراءهم نتائجاً أدبية هائلة ما ترنموا به عن دامون ودافيس ولوكيداس (٢) ، كما تركوا خلفاً لهم من الرعاة الذين يعيشون اليوم ولو أنهم لا يرتحلون كأسلافهم الأغاني السداسية الوردن الرشيقه اللذنة وما تمتد به من ترجيع . فإنهم على الأقل يترنمون على مراميرهم ويندعون الأغاني أو هكذا كانوا يفعلون حتى جعلتهم الحرب يفكرون في شيء آخر . إن الراعى عند ثيوكريتوس يبدو لنا طمعاً في صورة مثالية ولكن هذه المثالية قد لا تكون عظيمة جداً في أنشودتين ( ٤ ، ٥ ) من أكثر أناشيد الرعاة واقعية . ونعطيها أنشودة ثيوكريتوس السابعة صورة بهيجة عن نزهة ريفية وسير طويل ذات يوم حار في جزيرة كوس . فإذا تقدمنا أربعة قرون أخرى عبر الزمن لنصل إلى كتابات ديوجروسوسوس Diogenes Laertius وهو خطيب متأق اعتنق الفلسفة ، نجد وصفاً مفصلاً فيه عطف شديد على أسرتين من الصيادين السطاء كانا تعيشان في وحدة تامة على أرض دور في ناحية بعيدة من يوبويا ومن

(١) هم ثامر مسرحتي أهل أخارنا (Acharnai) و السلام (Eirene)

(٢) هذه أسماء رعاة خلدني ثيوكريتوس في أنشوده ، أوردده مؤلف في صورة الجمع للدلالة على كثرتهم في ديون ثيوكريتوس ومفليده من سيد ، ليونان وارومان

بينهما رجل لم يأت إلى المدينة في حياته قط أما الثاني فجاءها مرتين ، ووضعها شائق حذاب (١) .

وتعطي المسرحيات بين الحين والحين صورة سريعة واضحة إلى حد ما عن شخصية ريفية ، ففي البكتراء التي كتبها بوربيديس عمل إيجستوس Aegisthus الخبيث على إبعاد البطلة أو زواجها من فلاح ساذج حتى لا يطالب أولادها بالحق في استرداد التاج من المقتصب . وزاها عند الفجر وهي تحمل جرة ماء من الينبوع رغم أن زوجها يحتاج بأنها لا حاجة بها إلى هذا العمل فتجيبه : ولكنني أعمله لأنك كنت طيباً معي ، ولديك عما تعمله خارج البيت ما فيه الكفاية ، أما أنا فعلى أن أرفع شؤون البيت فإنه مما يسر الرجل السكادح أن يعود إلى بيته فيجد كل شيء في أحسن نظام ، ثم إذا خلت إلى نفسها برهة بعد قليل لتنتحب على أجا ممنون ظهر أعضاء الجوقة على هيئة فتيات جئن بدعونها للمهرجان فنقول البكتراء : لا ، إنى لا أستطيع أن أرقص أو أبتج . أنظرني إلى شعري الأشعث وثيابي المبهلة ، أهذه جذيرة بأجامنون وبطروادة التي استولى عليها ؟ ، فيكون الجواب : لكن الرثة ذات شأن عظيم ! تعالى وسوف أعيرك ثياباً موشاة وحلياً من الذهب ، ولكن أخاها أوربستيس Orestes الذي طال انتظاره يصل مع پولاديس Pyades الأمين لبثأر من القتل — وإن لم تكن الروح التي تحنره روح بطولة عالية ، وهو لا يفصح عن هويته . أما البكتراء فبصحبها ذعر قاتل من رؤية رجلين مدججين بالسلاح على مقربة جداً من بيها . ويعود الفلاح في الوقت المناسب فحس بالفصيحة حين يرى روجته تحدث شائناً مألوفاً لا يليق وهو يخالف التقاليد كل

(١) عكس الاعطال عا ، سهولة ملجأ في كتاب ح . ١ . ك مومون Gr. Tradition

المخالفة . والبكترا توصح الأمر قائلة لهما صديقان لآحيها جاءا رسالة من أوريسيتيس وهذا بالفعل كل ما باح به أوريسيتيس ، فيقول الفلاح . أدخلنا إذن . إن يتنى متواضع ولكنني أضع كل ما فيه تحت تصرفكما ، وهو يسارع إلى الدخول قلما ويتيح ذلك لأوريسيتيس فرصة إلقاء خطبة وعظية عن عدم الاعتراض بالمظاهر يقول فيها . أنظروا إلى هذا الرجل وهو شخص عادي تستهين العين بمرآه ولكن ما أعظم نباهه ، والذي نلاحظه هو أن أوريسيتيس نفسه وهو من البيت المملوك قد برهن في هذه المسرحية على أنه ذو بدرجة غير عادية . ثم يدخل المسامران البيت بينما يحمل عبيدهما المتاع ويعود الفلاح إلى الظهور ، وتبكته زوجته بقولها . أنت تعلم أيها الأحمق كم بعضنا الفقير بنابه فلماذا أدخلت هؤلاء السادة ومراكزم في الحياة أعلى منك بكثير ؟ ، فيجيب هذا الرجل المعقول . حسناً ؟ إن كانوا سادة مهذبين — وإنهم ليبدون كذلك ، ألا يرضيهم ما يجدونه ؟ ، فنقول . ما دمت قد ارتكبت هذا الخطأ الفاحش فابحث عن عبيد الذي كان يخدمني وهو الآن شيخ كبير ، فسببره أن يسمع أن أوريسيتيس لا زال على قيد الحياة وسبب طلبك شيئاً لطعامهم ، فيجيب . حسناً جداً ، أدخل وأعدى كل شيء . فإن المرأة إذا أخرجت تستطيع أن تجد الكثير لأعداد وجبة طيبة . إن لدينا طعاماً في البيت يكفيهم يوماً ( تخرج البكترا ) . لأنه شيء عظيم أن تكون غنياً فإنك تستطيع أن تكون كريماً مع الضيوف وتعانج نفسك عند المرض ، أما بالنسبة للطعام فذلك لا يؤدي إلا إلى فرق بسيط لأن الغنى لا يستطيع أن يأكل أكثر من الفقير ، وعندما يصل العد المس وقد اشتد به التعب من الصعود الطويل ، لأن الفلاح ليس مزارعاً عيياً من مزارعي السهل ، يجده قد أحضر معه حملاً وبعض أنواع الحب وشيئاً من الخمر المعتقة . ومع أنها ليست كثيرة جداً فهي حلوة قوية يسكر حلاطها بحمر مخففة كما أحصر

أكاليل الزهر وهي المقابل الهلالي الرقيق للملاس السهرة عدنا . غير أن ما هو أقرب صفة لموضوع القصة أنه يعرف أوربستيس فلا يكون أمام البطل مجال للتردد بعد ذلك وتسرع القصة إلى نهايتها الدشعة الشائعة .

وقد وردت في مسرحية « أوربستيس » ليوريبيديس خطبة صريحة تتم عن أمانة ، وقد ألقاها في مجلس أرجوس مزارع يشتغل يديه ، إذ كانت تجري محاكمة أوربستيس لقتله أمه وإيجستوس ، فوقف تالوثيوس ، Ta Inybius المسمى في الاجتماعات العامة وألقى خطبة غير محددة المعاني تتم عن مكر وخداع ( كما قال يوريبيديس ) وهو من ذلك الصنف الذي يحفظ بصدقة الحزب الغالب .

وقد ظل ينظر دائماً وعلى وجهه انسامة خفيفة ناحية أصدقاء إيجستوس ، ثم تلاه ديوميديس Diomedes الجندي الجاف قائلاً : لا تقتلوه بل احترموا الواجبات والروابط المقدسة بإرسالهم إلى المنفى ، وقد أثار ذلك هتافات الاستحسان وهتافات الاستهجان ، أما الخطيب التالي فكان دينتاً غنياً متدفقا كالسيل وقد اقترح أن يقتل أوربستيس رجلاً بالحجارة ، وقد استنهم الخطيب التالي على عكس ذلك فقد كان رجلاً شجاعاً ولو أن مظهره لا يسترعى النظر ، كما أنه لم يكن يأتي إلى المدينة إلا نادراً فهو مزارع يعمل يديه — هؤلاء وحدهم هم الرجال الذين يحافظون على سلامة البلاد — ولكنه كان ذكياً يميل إلى قرع الحجة بالحجة كما كان أمياً فوق الملام . وقد اقترح أن ينوح أوربستيس علماً لأنه ثار لأبيه وقتل امرأة شريرة كافرة عادرة . ويرى يوريبيديس أن هذا الاقتراح كان من الجائر جداً قوله لو لم يكن أوربستيس من الحق بحيث يتكلم مدافعاً عن نفسه .

ومن الواضح أن يوريبيديس كان معجباً بالهلاحين ، أما عند سوفوكليس فلا يصرف الكلام إلى الهلاحين عموماً بل إلى رجل منهم . هي « أوديب ملكاً »



يحمد أن الرسول الآتي من كورنثا كان راعياً تعود أن يقضى كل صيف في  
السين المأصية مع قطعانه فوق مرتفعات كينايرون Cithaeron . كما لا يزال  
يعمل الإغريق عندما تجف المراعى الى على السفوح . وقد قضى ثلاثة من  
بصول الصيف على الجانب الآخر من كينايرون مع راع من طيبة كان عبداً  
ملكها لا يوس . وفي ذات مرة أقبل راعى طيبة ومعه طفل كانت قد صدرت  
إليه الأوامر بتركه في العراء حتى يموت ولكنه لم يستطع أن يحمل نفسه  
على ارتكاب هذا المنكر ، فأخذه منه الراعى الكورنثي وسلبه الملك الذي لم  
يكن له ولد ، فسربه واتخذه ولداً ورباه كما لو كان ابنه ، فلما بلغ الطفل أشده  
ترك كورنثا لجأة ولم يعد إليها قط لسبب لم يدركه الراعى الكورنثي . فقد  
ذهب أوديب إلى طيبة وقدم لأهلها خدمة عظيمة منحوه من أجلها العرش  
الشاعر لأن لا يوس كان قد قتله الاصوص ، فتزوج الملكة . ثم مات ملك كورنثا  
لمس بعد ذلك بسنين وتحدث الناس هناك بدعوة أوديب ليخلفه . فرأى  
الراعى فرصته السانحة في الحال . وانطلق إلى طيبة بأسرع ما يمكن ليكون  
أول من يزف البشرى إلى أوديب وهو ينتظر منه مكافأة سخية . وفضلا عن  
ذلك فقد كان من حقه أن يطعم في عطف أوديب لأنه هو الذى أنقذ حياته  
وهو طفل . وهكذا نجده يدخل المسرحية وهو كثير الاهمية عظيم الأدب  
نافع وواثق جداً من أنه قد بنى صرح مستقبله ، ولكنه ينثر عند خروجه  
من المسرحية وهو رجل محطّم للغاية لأن نتيجة الشفقة التى أراد بها الخير  
لطفل لا حول له كانت أن أوديب قد كبر ليقتل أباه وليتزوج أمه .

وهاك جندي بسيط في مسرحية ه أنتيجونا ، شبه جداً بهذا  
الكورنثي ، فهو مستقل الرأي واضح الحديث وعلى جانب من الدهاء  
والحدق ومولع بمناقضة آراء الغير ، وكان عليه أن يلع كريون أن أحداً الناس  
قد عصا أمره ودفن جثة الخائن ، فثار كريون ثورة عارمة وأرغى وأرد  
على الحياة والفساد ثم انقلب على الحارس العيس وأخبره أنه إن لم يأت

بالمذهب فلا بد من إعداده شقاً ليكون هذا درساً يعمله معنى قول الرشاش .

الحارس : هل يمكنى أن أقول شيئاً أم يجب على أن أذهب لحسب ؟  
كريون : أليس تعرف حى الآن أن كل كلمة منك تسوءى ؟ .

الحارس : أين تؤذيك ؟ أفى أذنيك أم فى نفسك ؟  
كريون : لماذا تنقصى موضع استقياننا ؟ .

الحارس : إنى أبعت الأسى إلى أذنيك لحسب أما المذنب فهو الذى يجلب  
الحزن لعقلك .

كريون : تبا لك فلست إلا ثرثاراً .

الحارس : ( براعة ) أليس هذا برهاناً على أننى لم أرتكب هذه الفعلة ؟  
كريون : بلى لقد ارتكبتها لقد بعت نفسك من أجل المال .

الحارس : وأسفاه ! إنه لثى مريع أن يطفر الإنسان إلى الاستنتاج  
الخاطى .

إن بيان سوفوكليس الساحر أخذ يشغلنا عن موضوعنا أكثر مما ينبغى ،  
فقد غمنا نتكلم عن الحياة الريفية ، والأدلة هى من قبيل ما ذكرناه . وليس  
هناك كثير سواها . غير أننا قل أن تنجبه إلى حياة المدن دعنا نلظر فى شاهد  
من شواهد القبور عثر عليه فى أخارناى وهو الإقليم الجبل فى أتيكا الذى  
كان يأتى منه الفصح النبأى ، ( والمفروض ) أنه شاهد يخلد ذكرى عبيد مات ،  
وهو مكتوب بالنثر العادى ماعدا الصفة الهومرية المستعملة مع « آثيا » .

هذا الصب التذكارى الخيل يشير إلى قبر مانيس ر أوروماس .

لقد كان أحسن « فروجى » فى آثيا ذات حلقات الرقص الواسعة .

وأقسم بربوس أنى لم أر قط حظاً أفضل منه سواى . لقد قتل

فى الحرب .

والآن يمكن أن ندخل في معترك الحياة الصاحبة في آثينا . وليست الصعوبة فيها هي بدرجة الأدلة بل وجود ثغرات عارضة مربكة في تلك الأدلة ، وما الدليل على ذلك ؟

إننا نجد في الأدب الإغريقي أولاً وقبل كل شيء مسرحيات أريستوفانيس والأجزاء المهمة الباقية من ملامى منادروس ( ولو أنها تقع خارج نطاق العصر الذي ندرسه ) وبعض مؤلفات كسينوفون وهي دون ذلك في الأهمية مثل كتاب « الاقتصاديات » الذي ذكرناه وكتاب « الذكريات » ( مذكرات سقراط ) وآرائه الفلسفية ( حديث المسألة ) والإيرادات ( مالية آثينا العامة ) وخطب ديموسثينز الخاصة بالمحاكم ( وهي ليست جميعاً لديموسثينز فعلاً ولكن ذلك لا يغير من الأمر شيئاً ) وكثير من المناظر التي نتج بالحياة عند أفلاطون ولا سيما آراؤه الفلسفية الرائعة ، وشخصيات ثيوفراستوس theophrastus اللاذعة المسلية وهي التي ينبغي ألا يظل يحملها أى شخص له اهتمام بالإنسانية مدة تزيد على عشرة دقائق إن كان ذلك في إمكانه . كل ما ذكرناه من أحسن ما يقرأ ولو أن واجبنا أن نقول إن بعض من قاموا بترجمته قد نشروا ستاراً من العظمة بين القاريء وبين الأصل الإغريقي . ومن بين الأدلة الأخرى عدد وغير من أصص الزهر المزينة بمنظر من الحياة اليومية وكذلك بعض النقوش والرسوم الجائزة .

إن من الحق أن نحاول تلخيص كل ذلك في صفحات قليلة . وأولى بنا أن نتناول بالدرس قليلاً من النقاط العامة وأن نذكر ما نستطيع من معلومات دقيقة بمناسبة هذه الدراسة : —

ولا نفل عن أى إنسان إنه سعيد إلا بعد موته . قد مرت بنا هذه الحكمة من قبل ، وإن أمة معرفه مهما تكن سطحية بالحياة الإغريقية والآثنية تعيننا على توضيح سبب ديوعها

إن الحياة ومن ثمة التمسك قد قام بالقرب من الصخرة التي بقيت فيها العور ونوع من صعوبة العيش ، فكانت النتيجة نوعاً من الشدة لها ما بعدها من رد الفعل ، فقد كان من الممكن أن يسبب القحط المحلي أو الفحص بجاعة مجاعة في سنة ١٩٣٠ حدث أني كنت سائراً وسط البلويزينز وبينما كنا نشترى زادا من إحدى القرى نهنا دليلنا إلى ضرورة شراء خبز إضافي لأن المحصول الزراعي في القرية التالية وهي على مسيرة نصف يوم كان قد أصيب بالبلل إلى درجة جعلت الخبز هالك لا يصلح للأكل . هذا ما حدث ، فالذي يفيض عما يقيم أود الحياة هو من الضالة ، كما أن مصاريق النقل هي من الارتفاع ، بحيث أن حادثاً يقع لسوء الحظ كتلف المحصول لا يمكن إصلاحه .

ثم كانت الحرب وقد أضرت بنا كثيراً أما بالنسبة للإغريق فقد كانت أسوأ من وجوه كثيرة . وقد سجل كسيوفون في « الذكريات » محاورة بين سقراط ومن يدعى « أريستارخوس » Aristarchus وهو من ملاك الأرض الأغنياء ، ولكن الأعداء كانوا قد احتلوا كل أهلاكه بحيث لم يضع كل إيراده لحسب بل إن أربع عشرة سيدة من قريباته اللاتي فررن من الأعداء أصبحن تحت رعايته . إن الدولة الحديثة تبذل قصارى جهودها لا ابتكار الوسائل المختلفة لتخفيف وقع مثل هذه الضربات على الأفراد ، أما البوليس الإغريقية بما لبثها البدائية وممارستها للمذهب الفردي بمخافته لم تقم حتى بمحاولة ذلك . فهذا أريستارخوس يقول : « أنا لا أعرف كيف أستبقيين على قيد الحياة ، ولا يمكنني أن أقترض لعدم رحوذ ضمان لدى ، ولا أستطيع أن أبيع أثاث بيتي إذ ليس هناك من يشتره » . وقد اقترح سقراط حلاً بسيطاً قائلاً : إن النساء يعرفن طبيعة الحال كيف يعزّلن ويصنعن الثياب ، كما أن هناك سوقاً للشباب ، فأشترصوا ودعهن يشتغلن ، فعلى أريستارخوس ذلك ثم عاد يقول بعد ذلك إن النساء يشتغلن بنشاط وإنهن أكثر بهجة ولطفاً كما أنهم يكسرن المال ما يكفي للإعاق عليهن ، وكانت شكواه الوحيدة

أهس كس يتهمه بأنه يحيا حياة الكسل . فقال سقراط : آه ، أقصص عليهن قصة الشاه الى كانت تشكو من أن كلب الحراسة لا يعمل شيئاً .

وهذه قصة أخرى من قصص الحرب وردت في الفصل ٥٦ من كتاب ديموستينيز، ذلك أن رجلاً يدعى يوكسيثوس نبذ زملاؤه من أهل المدينة بعد فحص موضوعه لحصاً دقيقاً على اعتبار أنه غير مولود قانوناً في أثينا ، فلجأ للحكمة محتجاً بأنه قرار ظالم وأنه يودى به إن صح إلى الخراب ، إذ يهوى مركزه إلى مستوى الأجني المقيم ، وهو بهذه الصفة لا يستطيع امتلاك الأرض كما يصبح خاضعاً لبعض القيود الأخرى التي يصح جداً أن تودى بمعاشه ( وقد قبل أحياناً إن مثل هذا الرجل كان عرضة لأن يباع بيع الرقيق والظاهر أن هذا خطأ ) وقد جاء في جانب من الأدلة التي كانت عنده أن أباه كان يرطن رطانة أجنبية ( غير آثينية . وهو أمر شائق يدل على أن كل الآثينيين الصميمين كانت لهم نفس اللهجة — بخلاف اللدنيين — كما كانوا يفورين بذلك . غير أن المدعى عليه ذكر أن أباه أخذ أسيراً أثناء حرب البيلوبونيز وبيع على أنه عبد في لوكاس ( بالقرب من كورفو ) وعاش هناك أعواماً كثيرة فتأثرت لذلك لهجته الآثينية بطبيعة الحال . وقد نال حربه على يدي مثل تصادف أن كان يزور لوكاس وقد دفع أقاربه ها فدينه وعاد إلى وطنه . فإذا صححت هذه القصة فإننا نستطيع أن نحرز أن العبد الآثيني أمكنه أن يقابل الممثل الآثيني الذي أخبر أقارب العبد عن مكانه . أما إن كانت القصة موضوعة فإن مؤلفها على الأقل كان يتوقع أن يصدقها الناس وإن كان يبدو أنه أرر الدليل على صحة

وبالإضافة إلى ما كانت تأثر به الحرب من أحداث كانت هناك أخطار في البحر من القرصان لا سيما بعد سقوط الإمبراطورية الآثينية اليقطة . في الفصل ٥٣ من ديموستينيز أن رجلاً أطلق للدحت عن العبد الآثيني

فأسرته سبعة مسلحة وصعدته بالإغلا ( مما أصر ساقه صرراً بليعاً )  
وباعته في آيجيا ، وقد كانت قدرته ٢٦ ميناى Mine أو ٢٦٠٠ دراهم .  
ويمكن ألا نعتبر الدراهم من حيث قيمتها الشرائية المعدية أقل من الجنيه بكثير  
طبقاً لسعر الجنيه الحالي . وقد ذهب إلى صديق يرهن البضائع والأموال  
حتى يساعد على جمع المبالغ . وتساعدنا الحوادث التي من هذا القبيل على  
أن نفهم الأهمية التي كان يعلقها الإغريق دائماً على الصداقة . فقد كان الإنسان  
الذي ليس له أصدقاء عاجزاً حقاً عن الدفاع عن نفسه في مثل هذا العالم .

كما أننا نجد في الفصل ٥٢ من ديموستينيز حادثاً مماثلاً وقع لرجل من  
هيراكليا يدعى لوكون Lycón كان على وشك الإبحار إلى ليبيا . فذهب إلى  
باسيون Pasion صاحب المصرف الذي كان يعامله مالياً (١) بصحبة شهود  
وتأكد من حسابه ( ١٠٤٠ دراهم ) وأفهم باسيون أن يدهم المال  
لكيفيسباديس Cephis ades من أهل سكودوس وهو شريك لوكون في  
أعماله وقد كان بالخارج في رحلة خاصة بشئون العمل . ولما كان باسيون  
لا يعرف كيفيسباديس فقد كان على الشاهدين اللذين أخذهما لوكون معه  
أن يثبتا شخصيته لمصرف عند عودته إلى أثينا . ثم أبحر لوكون ولكن  
القرصان أسروا سفينته فأت من جرح سببه له سهم أصابه . فأخذ قسماً  
هيراكليا في أرجوس على عاتقه رعاية أمتعته ثم طالب بعد حين بحسابه من  
المصرف ولكن المصرف كان قد دفعه لكيفيسباديس وفقاً لتعليمات لوكون .  
وبحسب العادة نجعل نتيجة هذه الحالة لأن علماء الأرمية التالية الذين  
احتفظوا بهذا الكلام لم يهتموا به بصفته وثائق بل باعتباره ممادح لأسلوب  
ديموستينيز .

(١) أنظر الفصل الذي كتبه ب . من . جود عن « بيت باسيون » في كتابه « من  
ربكليس » في ص ٤٠٠ وفيه « موضوع شائق يهيج عن لشون المصرفية »

وهكذا نستطيع أن نقضى وقتاً طويلاً بواصل الحديث عن مصادرات  
وقتل ونبي جرت على نطاق واسع وإن لم نعرض لمخاطر الثورات . ولم  
تكن شكوى أثينا من هذا الداء خاصة ، بمقدار ما كانت تشكو منه بعض  
الدويلات الأخرى ، غير أنها عوضاً عن ذلك كانت تعاني أوباً الأخرى كان  
المواطنون الذين هم أهل للمهاجرة يعانون من صنف من الناس يفيد اسمهم  
الإغريقي ( طفيلي Sycophant ) معنى أكثر بكثير مما يدل عليه اللفظ في  
اللغات الحديثة ، ولدينا شكوى مرة من هذا الوباء الاجتماعى من  
أرستوفانيس ومن بعده . ويسجل كسينوفون في كتابه ( الذكريات  
Memorable الفصل الثانى الفقرة التاسعة ) محادثة بين سقراط وصديق  
موسر يدعى كريتو Crito أشار إلى أنه كان من الصعب جداً أن يعيش  
الإنسان بسلام ، لأن الناس يقيمون الدعاوى ضدى في هذه اللحظة لا لأنى  
أسأت إليهم ولكن لأنهم يعتقدون أنى أفضل أن أدفع لهم مالا على أن  
أحصل مشاق الذهاب إلى المحكمة . ولما كان سقراط رجلاً عملياً ( كما  
هو دائماً فى الذكريات ) فقد اقترح على كريتو أن يعقد أواصر الصداقة  
مع رجل يدعى أرخيديموس وهو ذو مقدرة ونزاهة عظمى كما أنه خطيب  
معه ولو أنه فقير إلا أنه كان بكره الطرق السهلة التى تؤدى للثراء . ولهذا  
كان من عادة كريتو أن يدعو أرخيديموس Archedemus كلما قام بتقديم  
قربان ( وهو تصرف جدير بالملاحظة ) . وفى مقابل ذلك وجه أرخيديموس  
عنايته إلى بعض هؤلاء الطفيليين ، فاكشف بعض المخالفات التى ارتكبوها  
وأخذ يقاصيهم بلا رحمة بمعونته بعض المواطنين الذين كانوا قد أرموا على  
دفع اتهامات لهم تعادياً لاتهاماتهم ، بما ألجأ هؤلاء إلى الوعد ترك كريتو شأنه  
وإلى دفع مبلغ لأرخيديموس فضلاً عن ذلك . وحين عبره الناس بأنه  
منطعل على كريتو كان رده : أيهما أشرف ، أن تكون صديقاً للأصنام وعدوا  
للخشاء أو أن تجعل الأسماء أعداءك والخشاء أصدقاءك ؟ ،

ولديا صورة لمثل هذا الطعيل ، وهو ستيغانوس Stephanus ، في خطة  
عوانها ، صد بيارا Neera ، مكتوبة بأسلوب شيق وإن تكن مافية جداً  
للاخلاق ( الفصل ٥٩ في ديموستينير . ولو أن من الجائر أنه لم يكنه ) فقد  
وصف ستيغانوس في هذا الهجوم العيب بأنه يفرض الآثارات على الناس  
ويعيش على المال الذي تكسبه زوجته من طرق غير شريفة ، وقد زوج باتها  
العديدات المومسات بطرق غير قانونية من مواطنين آثيين ، فقد كان يتظاهر  
زوراً بأنهن بناته من أم آثينية . وقد قال عنه الرجل الذي يقاضيه إنه  
لا يحصل على دخل يذكر من الحياة السياسية لأنه لم يكن معدوداً من الخطباء  
المظلمين ، بل كان متطفلاً يجلس بالقرب من المصة ويطعن الاتهامات ويقدم  
المعلومات لمن يستأجرها ويضيف اسمه إلى مقترحات الآخرين . ثم تعرض  
له كالبيستراتوس Calistratus وهو من زعماء رجال الحكم إذ ذاك ، ولو أنه  
لم يكن حسن الحظ فقد حكم عليه في آخر الأمر بالإعدام في لحظة من  
لحظات غضب الشعب ، لأن رجلاً حديث النعمة من أهل ثاليا قام بشاره  
بحرية على يبريه .

ويبني ألا نصدق دائماً الاتهامات التي كانت توجه في المحاكم الآثينية  
دون تحفظ . ومع ذلك فإن الشكاوى من التآمر وشهادة الزور كانت شائعة  
جداً كما كانت مؤيدة بالحجة والدلائل في بعض الأحيان بحيث أنه لم يكن من  
الممكن أن تكون مجحولة أو أن يكون من الصعب على رجال من ذوي التصميم  
والمهارة أن يستغلوا بهذه الطريقة ، محاكم الشعب ، هذه التي تتألف من الهواة .  
وقد كان من الصنيع المادية التي تتردد عادة ، لقد حذعكم تماماً هؤلاء الأوباش  
الذين لا مبدأ لهم إلى حد أن . . ، مثل ذلك أن أبولودوروس Apollodorus  
أحد الذين اتهموا ستيغانوس في هذه الخطب روى أنه كان عسوراً في الوليه  
Bouie عندما قرر المجلس أن يرسل كل قوته إلى أولينثوس Olynthus ولهذا  
اقترح أبولودوروس ، أنه مادامت أثينا في حرب فيسعى أن يحول الدخول  
العائض من المال المخصص للمهرجان إلى الحرب .



ولما كان هذا مطابقاً للقانون فقد أقر المجلس الاقتراح دون معارضة ولكن ستمانوس هاجمه على أنه غير دستوري وقدم شهادة رورليو بدعته أن أبولودوروس كان مديباً للحرانة سين كثيرة ، ولهذا أصبح ممنوعاً من تقديم أى اقتراح في المجلس . وقد كان قرار المحلفين في صالحه لتقديمه كثيراً من الاتهامات التي لم يكن لها علاقة بناتاً بالموضوع ، ورغم توسلات أبولودوروس فقد طالب ستمانوس بغرامة مائة قدرها ١٥ « ثالث ، ( يمكننا أن نقدرها بحوالى ٧٥٠٠٠ جنيه ) وهي على حد قول أبولودوروس تبلغ خمسة أضعاف ما كان يمتلك ، ولو أن الغرامة لم تدفع في خلال السنة لنضاعفت ولصودرت كل أملاكه ولانتهى الأمر بأبولودوروس وأسرته إلى التسول ، ولما تزوج أحد من ابنه ، ولكن المحلفين خفضوا الغرامة إلى « ثالث ، واحد استطاع أن يدفعه بكل مشقة قائلاً : « إنى أشكركم على ذلك فغضكم أيها السادة لا يرجع إلى المحلفين الذين خدعوا بل إلى الشخص الذى خدعهم » ثم استمر في حديثه قائلاً : ولذلك فإن لدى داعياً قوياً لتقديم هذه الدعوى ضده ، وقد كان المتقاضون يتكلمون بصراحة تامة عن رغبتهم في الانتقام لسببين على الأقل ، فإن هذا التفسير عند تصديقه كان يدفع عنهم شبهة كونهم « ظفاريين » كما أن طلب الانتقام كان مسألة شرف وكرامة شخصية .

أما فيما يتعلق بوكسينيوس Euxineus الذى ذكرناه منذ قليل هناك قصة شائقة يبدو أنها صحيحة . ذلك أن المستأنف (على حد قوله) كان قد أساء إلى سياسى عيب عديم الدعة يدعى يوبوليديس Eubulides ، إذ كان قد شهد ضده في قضية خسرها يوبوليديس بأغلبية أصوات كبيرة فكان انتقام يوبوليديس هو أن يدر شطب بوكسينيوس من السجل لأنه إذا أمكن إثبات أن المدعى قد تسلل إلى السجل بطريقة غير قانونية فإنه كان معرضاً لأن يباع بيع الرقيق وتصادر ممتلكاته . ويلوح بصورة عامصة أن طريقة يوبوليديس

كانت مألوفة ، فقد تصادف أنه كان عضواً في البوليه وسهده الصفة طلب اجتماع أهل الناحية لصحص السجل وأصاع أكثر اليوم في إلقاء الخطب وصباغة القرارات بحيث أن الصوتيات الفعلية لم يبدأ إلا في وقت متأخر جداً ، وكان الطلام قد حل قبل أن ينادى على المدعى وهو الذي عاجاه الموضوع كله في الطاهر . وكان أكثر رجال الناحية قد ذهبوا إلى بيوتهم لأن أكثرهم كانوا يقيمون في الواقع في ناحية تبعد عن المدينة بأربعة أميال تقريباً ، ولم يبق معه إلا الذين كان يبوليديس قد أغراهم على البقاء بالرشوة ، ورغم احتجاجات المدعى فقد أصر يبوليديس على أخذ الأصوات ، ولم يسكن الذين أعطوا أصواتهم أكثر من ثلاثين ولكن عند إحصاء الأصوات بلغت أكثر من ستين حتى أنا دهشاً جميعاً ، ولا عجب في ذلك . وعند قراءة هذه الخطب الممتعة يحسن بنا أن نذكر شيئين ، أحدهما واضح إلى حد كبير وهو أن الإنسان يقابل في دور القضاء محتالين أكثر مما يجد في المجتمعات العامة ، وثانيهما هو العصر الذي تنتمي إليه وهو منتصف القرن الرابع . وهما يقدمان لنا في الحقيقة دليلاً وافياً على الحججة التي أوردناها في الفصل الخاص ، باضمحلال البوليس . فقد كانت الحياة في أثينا من التمتع ببحر حيث أن فكرة الهواية التي كانت تمتاز بها البوليس لم تعد مجدية تماماً ، إذ أن أوان النظرية التي قام عليها الدستور الأثيني ، ومثله في ذلك مثل الدستور الأمريكي — كان قد فات .

ومن الممكن أن نذكر الكثير عن الأعباء والمضايقات التي كانت المصالح العامة تورط فيها الأعيان وكذلك صروب القلق والمخاطر التي كان مصب الدولة يعرض لها الرجل الفقير ، غير أن هناك جواب أخرى من الحياة تتطلب الاهتمام . وإنه لمن الخطأ أن يناقش مخاطر الحياة العامة مادام الجانب العادي فيها والذي لا يتميز بأية أحداث لم يسجله التاريخ ، وقد ذكرنا ما يكفي لبيان أن الحياة حتى في أثينا لم تكن

من الأوس والرتابة بحيث يمكن أن توصف بالسحب . فالواقع أن الانتقال من حصاره سوفوكليس وأفلاطون التي تنقسم بالكال إلى الحياة الإغريقية في حالتها البدائية هو نوع من التجربة التي تشبه العصام العقلي .

إن اهتمام غالبية الرجال موجه للمرأة أما غالبية النساء فاهتمامهن موجه لأنفسهن . ولندرس إذن مركز المرأة في أثينا . أن الرأي المسلم به وهو الذي لم يجد فيما أعلم أحداً يناوئه إلا د . أ . جوم<sup>(١)</sup> هو أن المرأة الأثينية كانت تعيش في عزلة شبه شرقية كما كان يظهر إليها بقدر من الاعتبار إن لم يكن بالذراء .

والدليل على ذلك مستمد من الأدب مباشرة من جهة ومن مركز النساء القانوني من جهة أخرى وهو دون مركز الرجال . فالأدب الإغريقي يربنا مجتمعا كله من الذكور وليس للحياة المنزلية دور فيه . والملاحظة القديمة تعالج كل ما يتصل بالرجال وحدهم تقريبا ( فيما عدا *لوسترانا* *Lysterata* ) والنساء في البرلمان ، وهما من القطع الأدبية الشاذة ) والمتجادلون في محاورات أفلاطون هم دائما من الرجال ، ومادة أفلاطون وكسينوفون ترينا بجلاء أنه عندما كان يحتفى أحد سراة القوم بضيوفه كانت تحضر هذه الدوات من النساء من لم يكن قد بقي لها شرف إلا سمعتها المنهية . وقد كانت شهادة الشهود في قضية نيارا بأن إحدى الزوجات تناولت العشاء مع ضيوف زوجها وشربت معهم خمرأ دليلا على أنها عاهرة . وقد كان البيت الأثيني مقسما إلى غرف للرجال ، وغرف للنساء ، وكان القسم المخصص للنساء مزودا بالمرابح والقصاص ( كما في كتاب الاقتصاديات لكسينوفون ) ولم تكن النساء تخرج إلا تحت الرقابة الشديدة إلا إذا ذهبن لحضور إحدى حفلات النساء . وفي مأساتي ( الككرا وانتيجون لسوفوكليس ) أمرت العتيات

(١) في كتابه ، معالقات في التاريخ والأدب ، ص ١٩٣٧ .

مرتين مضطلة أن يدخل البيت فهي المكان المناسب لها . وقد اقتبس  
 حب عد تعليقه على المتيجوما ٥٧٥ فدة شعرية تقول « ولا تجعل في  
 الإمكان رؤيتها خارج المنزل قبل زواجها » ، كما أنه اقتبس من لوستراتا  
 التي كتبها أريستوفانيس « إن من الصعب على المرأة ( المتروجة ) أن تهرب  
 من بيتها » . ولقد كان الرجل هو الذي يولى الشراء من الخوانيت ويعطى  
 ما يشتره لخادمه كي يحمله ( والرجل الوضيع في ثيوفراستوس كان يحمل  
 كل ما يشتره إلى البيت بنفسه ) وفي ملاهى مناندر ( القرن الثالث ق . م )  
 نجد أن الشاب الذي أحب فتاة حياً رومانياً كانت مقابلته لها في مهرجان  
 باستمرار ، ويفهم من هذا ضمناً أن فرصة الاستهداف لهذا الغشاء لم تكن  
 تواتيه إلا قليلاً في الحياة الاجتماعية العادية . ( ولعلنا نذكر أن إيسخوماخوس  
 الوقور « اختار زوجته الصغيرة ، مما نفترض معه أنه كان قد رآها قبل  
 ذلك على الأقل . كما أننا نسمع من ثيوفراستوس أن الشاب قد ينجح  
 محبوبته بأغنية بالبلبل ) على أن ألوان المحبة الرومانتية التي نسمع عنها في الواقع  
 هي مع الغلمان والشبان ، وهي مما يتردد على مسامعنا بكثرة . وقد كان حب  
 أفراد من نفس الجنس يعتبر أمراً طبيعياً ويعامل بنفس الصراحة التي يعامل  
 بها حب أفراد من الجنس المخالف ، ( وقد كانت له ناحيته السامية وناحيته  
 الوضيعة مثل النوع الآخر ) . ولأفلاطون بعض النذ الحيلة التي يصف فيها  
 ملاحاة الغلمان وحياءهم والسرقة والاحترام اللذين كان يعاملهم بها الرجال<sup>(١)</sup> .  
 وقد كان والدا الفتاة هما اللذان يديران أمر زواجها . وقد رأينا من نغارتا  
 الوجهية إلى إيسخوماخوس كما أوردده كسيوفون أنه على الأقل لم يطر إلى  
 الرواح على أن فيه متعة كبيرة ، فالروجة هي مديرة شئون البيت وليست

(١) عن لرس عدوى حد الموضوع شيئاً أو هاماً ، إلى كتاب « اثنان ضد » في ١٥٤  
 الإغريق القديسة « هم هاس تحت » .

أكثر من ذلك بكثير ، بل إنه يقول دعلا أنه يفصل أن تكون زوجته الصغيرة جاهلة تماماً حتى يعلمها نفسه ما يريد منها أن تعرفه . وكانت العتبات محرومات من التعليم . وقد كان الآتي يتجه إلى طلبة النساء الأجديات المثقفات نقادة راقية إن أراد صيغة النساء الذكيات ، وهن في الغالب من الأبونات اللاتي كن يعرفن باسم « الخليلات » *heiaerae* . وقد كن يشغلن مركزاً وسطاً بين السيدة الآثية والعاهرة . وقد كانت أسباسيا *Aspasie* خلية بريكليس الشهيرة تسمى إلى هذه الطبقة . واسمها بالمسابقة معناه « مرحباً » . وهكذا نقرأ عند ديموسثينير قوله : « إنا نتخذ الخليلات من أجل المنفعة والمحظيات ( الجوارى ) من أجل العناية اليومية بأشخاصنا ونتخذ الزوجات ليلدن لنا أطفالاً شرعيين وليكن حارسات أمينات على بيوتنا وأسراتنا » . وفي الختام إن أى وصف لمركز المرأة في أثينا لن نفيه حقه دون الإشارة إلى بريكليس وأرسطو ، فقد قال بريكليس في خطبته التأيينية : « إن أحسن صبت يمكن أن يكون للمرأة هو ألا يتكلم الرجال عنها بخير أو بشر ، ومن رأى أرسطو ( في كتاب السياسة ) أن الذكر المنفوق بحكم الطبيعة وأن الأنثى أقل منه ولهذا فالرجل بحكم أم المرأة فتحكم » .

ولهذا فإن رأى بكاد يجمع كما قلت على أن المرأة الآثية كانت تتمتع بحرية ضئيلة جداً بل إن بعض الكتاب قد ذهبوا إلى حد التحدث عن « الازدراء » الذى كان يشعر به الإغريق المثقفون نحو زوجاتهم ، ويقنعنا صدق الرأى أن نقارن كتب النساء في أثينا بالحرية والاحترام اللذين كن يتمتعن به في المجتمع الهومرى وفي إسبرطة التاريخية .

ويبدو أن الدليل القانونى يؤيد ما ذكرناه فالمرأة لم تل حقوقها السياسية والمدنية ، أى أنها لم تكن تستطيع حضور الجمعية العامة أو شغل الوظائف العامة ، ولم يكن لها حق تملك العقارات أو إدارة الأعمال بصفة قانونية . وكان

يجب على كل أنثى مد ولادتها إلى أن تموت أن تكون تحت وصاية زوجها أو أقرب أقاربها الذكور ، وقد كانت لا تتمتع بأية حماية قانونية إلا عن طريقه فقط . وكان ولي الأمر يروح المرأة ويقدم صداقها للروح وكان يرد الصداق إلى ولي الأمر مع الزوجة عند الطلاق . وأعظم نص قانوني بعداً عن محيط أمكارنا هو الذى كان يتعلق بالإبنة التى ترث والنداءات دون أن يكتب وصية ، فقد كان أقرب أقاربها الذكور له الحق فى طلب الزواج منها ، فإن كان متزوجاً من قبل ، كان من حقه أن يطلق امرأته لكي يزوح من هذه الوريثة ، (ينبغى علينا أن نبين أن قانون أنيكيا كان يعترف فى جميع الأحوال بزواج العم من بنت أخيه أو الخال من بنت أخته بل كان يعترف بزواج الأخ من أخته غير الشقيقة ) وإلا أصبح أقرب أقاربها الذكور وصياً على الوريثة وعليه أن يزوجه بصداق لائق . والواقع أن الرجل الذى لم يكن له ولد كما لم يكن له أمل فى إنجاب ولد ، كان يتبنى فى العادة شاباً لا طفلاً ، على أن يكون مثلاً أمها الزوجة أو زوج الأخت ، لأن الغرض من التبنى لم يكن لإرضاء لعاطفة أو شفاء لمرض نفسى ، بل كان الغرض أن يترك من ورائه رئيساً صالحاً للأسرة ليواصل حقها المشروع فى البقاء وممارسة شعائرها الدينية . ولكن من الواضح أن كثيراً من الرجال توفوا قبل أن تنضج لهم ضرورة التبنى ، فبقيت لهم وريثات . وقد أكد لنا إيسابوس (Isaeus) (وهو خطيب تخصص فى قضايا الميراث المتنازع عليه) أو أكدمستيمبه ، والمعنى قد لا يكون واحداً فى الحالتين ، أن كثيراً من الرجال سرحوا نساءهم ، ليتزوجوا من وريثات ، وبما عد ذلك كانت قوانين الطلاق تطبق على الأزواج والزوجات براهة لأعبار عليها وإن لم تكن راهة مطلقة . وكان يمكن فسخ أى زواج لا يعقب ذرية متى طلب ذلك أقرب الزوجة ، على حد التعبير الدقيق الحب .

هل بقي لنا أن نذكر شيئاً أكثر من ذلك؟ فإذا أصيب الدليل القاطع إلى الدليل المستند من الأدب — وأطر أن هذا الملخص الموجز بالضرورة بصورها معاً — ألا يكون واضحاً جداً أن الآثني كان يعامل أساءه بكثير من عدم الاكتراث الذي لا يمكن أن تكون لفظة احتقار قاسية إذا استعملت بدلاً منه؟ هل يمكننا أن نشك في الأدلة القائلة بأن النساء في هذا المجتمع الذي كانت فيه الغلبة للذكور كن يتحركن في دائرة محدودة جداً بحيث يمكننا إلى حد كبير أن نعتبرهن طائفة، مريضة الجراح؟

كثيراً ما نجد في القصص البوليسية أن رجل البوليس السري ينتهي إلى نقطة يكون عندها ملأاً بجميع الحقائق التي يرى أنها تقضي به إلى نتيجة واحدة، ولا يكون هناك مجال للشك على الإطلاق سوى أن بيننا وبين نهاية القصة عشرة فصول. أما رجل البوليس فيحسن إحساساً غامضاً بالقلق، فع أن كل شيء في موضعه إلا أنه يبدو محاطاً فلا بد أن هناك شيئاً في ناحية ما لم يكتشفه بعد.

أنا أعترف أن شعوري يماثل شعور هذا الرجل والخطأ هو تلك الصورة المرسومة عن الرجل الآثني. لقد كان الآثني أخطاؤه ولكن أبرز مزاياه كانت ذكائه اللامع وحبه لمهنة الدس وإنسانيته وحبه للاستطلاع. فالقول بأنه كان عادة يعامل نصف أهواء جسده دون اكتراث بل باحتقار لا معنى له في رأيي، فمن الصعب أن نرى الآثني أكثر احتقاراً للمرأة مما يعزى إلى رب الأسرة الروماني.

دعنا أولاً نقول قليلاً من الاعتبارات العامة التي قد تعربا شيء من التردد. أما فيما يخص ملاد الإغريق وإن أكثر ما ينعاداً في الهيمنة ما هو إلا شخص أجبي. وكلنا يعلم كم يعد تقدير الأجنبي وإن كان ذكياً عن الحقيقة

فإنه يرى حقائق لا يمكن إنكارها ولكنه يسيء تفسيرها لأن خبرته العقلية مختلفة كما أنه لا يرى الحقائق الأخرى مثال ذلك أن العرصة مسحت لى مرة للحصول على تحبيل للحلق الإنجليزي من شاب أمدى لم يكن ينقصه الذكاء، وقد كان يعرف إنجلترا بريفها وحضرها معرفة لا بأس بها . وقد قال لى إن الإنجليزي يلعبون الكريكت لفائدته الصحية باعتبار ذلك أمراً واضحاً بالبداية . وعندما ذكرت له فى أثناء المناقشة تلك الزهور التى يجب كل صاحب كوخ أن يزرعها وجدت أنه كان يحسبها زهوراً برية ، وقد كانت صورته عن الرجل الإنجليزي مضحكة للغاية بطبيعة الحال . ونحن نعتقد أن لكل فرنسى خبيطة ( ودليلنا هو الروايات والمسرحيات الفرنسية ) وأن كل فرنسى لا يحب زوجته ( فكل الزوجات الفرنسية وليدة المصلحة ) وأن الحياة المنزلية فى فرنسا لا وجود لها ( فالرجال يتجمعون فى القهاوى التى لا تنفشاها السيدات الفضليات ) وأن مركز المرأة الفرنسية القانونى أقل بكثير من مركز المرأة الإنجليزية وأن النساء فى فرنسا بناء على ذلك أقل حرية واحتراماً ونفوذاً مما فى إنجلترا — وقد اعتدنا أن نسمع هذا الرأى ونعلم مقدار ما فيه من مخف ، فما أيسر ما يفوت الأجنى أن يرى الشيء الهام .

وهناك نقطة عامة وهى المغالطة القائمة على افتراض أن ما ليس عندنا دليل عليه ( أى الحياة المنزلية ) لم يكن له وجود ، فإننا لا نعرف إن كان قد وجد أو لم يوجد . ولكن هل من الممكن أن يسكت الأدب الإغريقى عن الحياة المنزلية إن كان للحياة المنزلية أبة أهمية ؟ إن الجواب المستطر هو لا ، أما الجواب الصحيح فهو « نعم » . إن الحجة التى يدع عليها الصمت فى أى أدب حديث حجة قوية جداً ولكنها ذات قيمة صئبة جداً فى الأدب الإغريقى . لقد لاحظنا كيف أن هومر يمنع عن رسم المطر التى حلف الصورة وهى التى كنا ستطرها منه ، سيما يعطيا ملابس لا تنوقها وقد لاحظنا كيف أن الشعراء المسرحيين يشتغلون بالإشياء



لأن الصور، في مسرحية أجاممون لا يربوا إسخولوس الطرقات والسوق وبيوت المواطنين العاديين ورعاة العم والطاحين وخدم المطبخ الذين يعملون في القصر. ولما نلتج من ذلك أن هؤلاء لم يكن لهم وجود ولا أن إسخولوس لم يكن عنه اهتمام وشغف هذه الأشياء. فإننا نستطيع أن نرى في الحال أن هذه الأشياء لا تدخل في مسرحيته لأنه لم يكن هناك ما يدعو إلى ذلك، فكل الفن الكلاسي الإغريقي كان له معيار دقيق عن كل ما يتصل بالموضوعات التي يعالجها.

فالنقطة المتصلة بالموضوع هي مادة الأدب في ذلك العهد. وإذا لم نأخذ حذرنا فإننا نفكر في الأدب بدافع من غريزتنا باعتباره يشمل على الروايات وتواريخ الحياة والرسائل واليوميات، أي يشمل بكل إيجاز على الأدب الذي يختص بالافراد سواء كانوا حقيقيين أو خياليين. أما الأدب الإغريقي الكلاسي فهو لا يدور حول الفرد بل هو سياسي، والواقع أن الأدب الوحيد الذي لا نعرفه ولا يعتمد على القواعد المقررة هو «الذكريات» *Memorabilia*، «لكسينوفون»، وهما لأتزعمان أنهما سيرة سقراط الحقيقية وإنما تعالجان بصراحة قصة سقراط الفيلسوف. ألسنا نجد أن شخصية إسخولوس التي صورها كسينوفون غير رومانتيه إلى حد ما؟ ويمكننا أن نضيف إلى ما سبق أن كتبناه عن هذه النقطة أن كسينوفون لم يكن يكتب عن الحياة الزوجية في أثينا وإنما كان يكتب عن التدبير المنزلي مثله كمثل مسر يديون.

ثم إن هناك نقطة أشار إليها جوم، بكل حذق وهي أن أدلنا شحيحة وأن من السهل إساءة تفسير ما لدينا. ويجمع جوم نحو إثني عشر قولاً مأثوراً عن النساء والزواج مختارة من أقوال كتاب القرن التاسع عشر تعطى فكرة زائفة إن لم نطر إليها في ضوء جميع الملاحظات وقرها وفقاً

لها وهو أمر في إمكاننا . حد مثلا قول ريكليس الماثور الذي ظل يتردد صده خلال العصور . إنه نموذج على الاحتقار الذي كان يشعر به الآثيون نحو النساء — هذا جائز ولكن افرض أن حلاستون كان قد قال : أنا لا يهمني أن أسمع اسم سيدة يتردد هنا وهناك في أحاديث الناس سواء كان ذلك بخير أو بشر ، فهل يتضمن هذا القول معنى الاحتقار أو الاحترام والأدب اللذين قد عفا عليهما الزمن .

وقد قيل أيضاً إن القاعدة التي كانت متبعة في أثينا هي الإشارة إلى المرأة المتزوجة باسمها ( كما لو كان مثلاً كليبوريه ) بل باعتبارها « زوجة نيكاتور » فالمرأة الآثينية ، تلك المسكبة ، لم يكن لها حتى اسم معروف بل كانت مغمورة بهذا صحيح ولكن عندنا نحن ( معشر الإنجليز ) عندما تتزوج شايلا جا كسون تصبح ميسر كلارك . نعم بظل اسمها فعلا شايلا عند صديقاتها ولكن لا يذكرها أحد باسم شايلا جا كسون — فعليا إذن أن نكون حذرين .

إن النقطة العامة الأخيرة التي سأذكرها ربما كانت أهم القطر ، فعندما نناقش هذا الموضوع ما الذي نتكلم عنه في الحقيقة ؟ هل نقارن مركز المرأة في أثينا بمركز المرأة في مانشستر . أو نحاول أن نقدر خلق الرجل الآثيني وحضارته على أساس المركز الذي كان يجعله لنسائه ( إلى حد ما ) ؟ إن هناك فرقا كبيرا بين الحاليتين ، فإن كنا نعني الأمر الأول فمن المناسب أن نقول إن المرأة في مانشستر تستطيع التصويت والاشتراك في الحياة السياسية ، ولكن إذا قلنا إننا أكثر استنارة وأدأ من الآثينيين لأننا نعطي النساء حق التصويت فهذا من قبيل الهراء ، إذ تكون قائمين بعمل مقارنة بين تفاصيل صورتين مع تجاهل أن الصورتين مختلفتان كل الاختلاف . إن المرأة في مانشستر التي تريد أن تذهب إلى لندن تستطيع ذلك بنفس الشروط التي تسرى على الرجل

بالصط وهي تستطيع أن تشد ي تذكرتها صعباً أو شتاء كما أن الأجر واحد بالنسبة للجميع . أما الآتي الذي كان يرد الذهاب إلى طيبة فقد كان يمكنه أن يركب بعلة . وقد كانت الرحلة عبر الجبال مرهقة وخطيرة في الشتاء . وإن أرادت امرأة الذهاب فقد كان ذلك ممكناً متى انطرت الموسم المناسب ولو أن ذلك كان من قبيل المجازفة الخطيرة . من المعتقد جداً أن تحصل المرأة على حقوقها السياسية في الدولة الحديثة وذلك أولاً لأن المدنية - إذا استعملنا الكلمة هذه المرة بمعناها غير الدقيق - قد جعلت الفروق الجسدية التي بين الجنسين ذات أهمية سياسية ضئيلة جداً ، فالمرأة تستطيع استخدام القطار والدراجة والتليفون والصحف بنفس الشروط السارية على الرجل ، وعلى العكس من ذلك أن موظف البنك أو المشرف الجامعي مادام صحيح الجسم لا لزوم لأن تكون عضلاته أقوى من المرأة العادية ، فهو يعلم أن ليس هناك من فرصة تتطلب منه أن يمشي عشرين ميلاً في الأسبوع القادم في الشمس المحرقة لابساً درعاً ثقيل على أن يحارب بشدة كما يحارب زميله وإلا عرض حياة زميله للخطر ، وثانياً لقد تغيرت مفاهيم السياسة والإدارة . صحيح أن القرار السياسي كان يؤثر إذ ذاك كما يؤثر الآن في كل فرد بصرف النظر عن السن والجنس . ولكن الدائرة التي كانت تحيط بها تصرفات الحكومة كانت أضيق بكثير منها الآن . وكانت تختص بوجه عام بأمور كان الرجال وحدهم لا محالة هم الذين كانوا يستطيعون الحكم عليها طبقاً لخيرتهم وتفيذها بمجهودهم . إن من أسباب إعطاء النساء حق التصويت اليوم أن أحكامهن بالنسبة لكثير من شئون السياسة الحالية يحتمل أن تكون مناسبة مثلاً كمثل أحكام الرجال ، وربما كانت أحسن منها ، بينما لا يحتمل أن يكن أكثر جهلاً بالأمور الهامة من الرجال كما ينبغي ألا نسي ما يحتمل أن يعتبر فرقاً أكبر . فمن نظر أن اعتبار المجتمع حشداً من الأفراد أمر طبيعي مع أنه ليس بالامر الطبيعي من وجهة النظر التاريخية بل هو تطور محلي . فالرأى الطبيعي هو أن المجتمع

جمع من الأسرار ولكل مبادئها المستول ، وليست هذه العكرة إغريقية فقط بل هي رومانية هدية صينية تيوتوبية كذلك

من حق كل إنسان أن يقول إنه ما كان يجب أن يكون امرأة في أثينا القديمة حتى مقابل ثروة لا مثيل لها . وقد لا يأسف الإنسان على أنه لم يكن رجلاً أثينياً كذلك ، إذ أن « البوليس » بصرف النظر عن ظروف الحياة العادية فيها كانت تفرض عليه أيضاً بعض المطالب المتعبة للغاية . أما الذي ليس من سلامة التقدير فهو أن نقول للأثيني « نحن نعامل النساء أفضل منكم بكثير في بلدنا ( جولد رزجرين ) ألا ترون أنكم أدبنا إلى حد ما ؟ »

بعد هذه المناقشة العامة دعنا ننظر إلى البراهين من جديد . سنحاول أن نتذكر المسألتين كلاهما على حدة . هل تقرر العقيدة الراضية الحقائق على وجه صحيح ؟ وإن كان الأمر كذلك فهل تستخلص منها الاستنتاجات الصحيحة ؟ أي هل كانت حياة المرأة الأثينية مقبلة ومبتورة ؟ وإن كان الأمر كذلك هل كان السبب أن الرجال ينظرون إليهن دون اكتراث أو بازدراء ؟

قد رأينا أن الدليل الأدنى نادر وأنه بمعنى من المعاني يعتبر من جانب واحد لحسب بحيث لا نعلم إلى أنه يعطينا صورة صادقة كاملة ، إنه يقرر أن الرجل إذا أقام حفلة عشاء لم تظهر فيها امرأته وأن الأثيني المذهب كان يحب محبة الرجال ، وهو يخالف في ذلك المذهبين من أهل لندن وهم الذين لم بطرق مساهمة أن ندينها لا يسمح بدخول النساء بحرية تامة ، ولكن هل كان الأثيني يقوم بدور المضيف أو الصيف كل مساء طول العام ؟ وهل لم يكن للنساء حملاتهن الاجتماعية ؟ لقد كان بوريندس متأثراً بعكرة وجود هذه الحفلات ، وكثيراً ما كان يقول عبارات مثل « ما أشد صرر بحبي النساء إلى البيت للثروة » . وهل كان الأثيني يتناول عشاءه على أنفراد

حين لم يكن يوجد عنده صيوف كأنه كوكلوس في كهفه ؟ ألم يكن يخطر في باله قط أن يتحدث مع زوجته عن أى شىء سوى تدير شئون البيت وإنجاب الأطفال الشرعيين ؟ إن ستعاوس وبأيراير معا رأسهما الموصومتين بالعار فيقول المسدعو في ختام خطبته للمحلمين وهم المائة أو المئتان أو الثلاثة : —

«أيها السادة إن برأتكم هذه المرأة فاذا عسى أن تقولوا الزوجانكم وباتكم عندما تعودون إلى بيوتكم ؟ إنهن سيسألنكم أين كنتم ؟ ، فتجيبن : كنا في المحاكم ، فيقلن : ماذا كانت القضية ؟ ، فتردون بطبيعة الحال ، ضد نيأيرا المتهمة بأنها تزوجت آثينياً بطريقة غير مشروعة وبأنها زوجت إحدى باتم وهي عاهرة من ثوجينيس Theogenes قاضى المحكمة العليا . . ، وستذكرون لمن تفاصيل القضية وكيف تم إثباتها بكل دقة . فاذا فرغتم سيسألنكم ، وماذا فعلتم ، ؟ فتجيبن : برأتها ، وعند ذلك تكونون قد وضعتكم الخطب في النار . هذا أمر طبيعي جداً وهذا هو السبب في أنى اقتبست هذه الفقرة وهي من الأدلة البسيطة التى لديها والخاصة بالعلاقات العادية التى بين الرجل وزوجته وبناته . والذي حدث هو بالضبط ما يمكن أن يحدث اليوم ، فلا ينتظر أن يرد المحلف على نساته قائلاً : لقد نسيت أنفسكن ! أنكن أثنيات ممن ينبغي عليهن أن يظهن نادراً ولا يسمع لهن صوت على الإطلاق .»

وهالك ندة أدبية صغيرة أخرى ، ففي مأدبة كسيوفون يجد أن أحد الضيوف وهو يدعى بيكرانوس Niceratus قد تزوج حديثاً ، وهو يحيط أشعار هومر عن طهر قلب ويشرح للجمعين مقدار ما أفاده من أدب هومر كالاستراتيجية واللغة والملاح وما إلى ذلك ، ثم يلتفت مرهواً إلى مضيقه قائلاً : ومع ذلك فقد تعلمت من هومر شيئاً آخر حيث جاء في أقواله .

إن أكل البصل مستاع مع شرب البيرة ويمكن أن نختبر صحة هذا القول الآن فدعهم بأنونا بقليل من البصل فإنكم تتمتعون عدتد بالحر أكثر بكثير من دى قبل ، فيقول آخره مرحى ! إن نيكرا توس يريد أن يذهب إلى البيت ورائحة البصل تفوح من فمه حتى تطل زوجته أن أى امرأة أخرى لم تصكر فى ثقيله ، إنها ملاحظة نافذة بالطبع ولكنها بالضبط من قبيل النكت المرسلة التى قد يسمعها الإنسان أى مساء فى ناد إنجليزى أو بيت من بيوت الدعارة .

ولكن ثمة دليل لم نذكره وهو ليس بمثل هذه البساطة وهو يهدف إلى نفس الانجاء ولا يمكن فهمه لو سلمنا بالرأى السائد ، فن المصادفات أن نجد لدينا عدداً كبيراً من الأصص المصورة ( من القرن الخامس ) عليها مناظر تصور الحياة المنزلية وفيها عدد من الأواني الجنائزية تمثل زوجة ميتة وهى حية تتلقى من زوجها وأولادها وعبيدها الوداع الأخير . وهناك شواهد قبور — عادية جداً — محفور عليها مناظر مماثلة . وهى فى بساطتها الجلية التى لا تكلف فيها من أعظم الأشياء المؤثرة التى خلفتها لنا بلاد الإغريق ، وهى ترتقى إلى مستوى ندة أندرومacha فى الإلياذة التى سبق أن بسطتها . وأما أنقل لها عبارة من رسالة لجوم اقتبسها هو من مقالة (١) عن بعض القصور الأثينية . « مظهر داما سترانا وزوجها وقد تشابكت أيديهما عند الفراق وثمة طفل بجوار المقعد وإحدى قريباتهم . وقد ركز كل من الزوج والزوجة عييه فى عيني الآخر . وأنتك لنجد فى عمق نظرة الفراق المهادلة الجواب على كل الاستفسارات الخاصة بمركز الزوجة والأم فى المجتمع الأثينى ، أن هو مر يقول فى أبيات مشهورة من شعره « ليس أحمل من رؤية رجل وامر أنه يعيشان فى حياة زوجية محالصة ويقادلان نفس الأفكار . ولو أراد مصور لומר أن يصور هذا الشعر لانتجه من تلقاء ذاته إلى هذه

(١) منهم ح . س . ديك ريد فى مقدمة خاردين

الصور والرسوم المحورة التي صنعت من أجل قوم كان تقديرهم للنساء وخاصة للزوجات تقديرأ تأمها !

ولن أتكم عن الأصغر أكثر من ذلك ولكي سأعود إلى المأساة الآثية . إن إحدى سمها البارزة هي التتابع الرائع لبطلات المآسى — ثلاث كليمنترات وأربع اليكترات وتكبسا وانيجونا وإسميا وديانيرا وموكاستا وميديا وفايدرا Phaedra وأندروماخا وهيكونا وهيلينا وكلهن متباينات الخلق بطبيعة الحال ولكنهن صورن جميعاً صوراً تفيض بالحياة وليس من بينهن من هي جامدة كالدمية . وأكثر من ذلك أن الشخصيات التي ملئت اشاطاً ومغامرة وذكاء قد ورد ذكرها أكثر من نقيضها . وقد يقال إن الأمر طبعى جداً في المسرحيات . ربما كان ذلك ولكن ليس بما لا مندوحة عنه أن تكون النساء عند يوريبيديس ، الطبيات منهن والحديثات ، أكثر مغامرة من الرجال في كثير من الأحيان . فالمرأة الذكية القادرة على إحكام التدبير حينها يسقط في أيدي الرجال تكاد تكون دائماً الشخصية التقليدية عند يوريبيديس ، مثل هيلينا وإفيجينيا ( في مسرحية إفيجينيا في توريدس ) . أما عن المغامرة فإننا نجد العبد المسن لكربوسا Creousa التي أسبغت معاملتها في مسرحية « إيون » هيا عليك أن تفعل شيئا يليق بالمرأة . الجأى إلى السيف اسميه (١) . إن من الصعب علينا أن نعتقد أن كتاب المسرحيات لم يصوروا بناتاً ولو بطريق الصدفة تلك المخلوقات القاصرة التي علينا أن نفترض أنهم كانوا يعيشون بينها فعلاً ، وأنهم استمدوا تلك الشخصيات التي تمص حيوية من الكتب ومن هومر ، كما لو أن كاتباً من كتاب المسرح الحديثين لم يأبه بمعاصريه بدافع الاحتقار واتجه إلى تشوسر وشيكسبير يستمد منهما شخصياته النسائية وأفلح في هذا الاتجاه إن يوريبيديس فعلاً قد

جعل النساء يشكون مما يلاقينه على أيدي الرجال ، وكثير من ذلك يحدث في المجتمع الحديث كما كان يحدث في المجتمع القديم ، وهو يجعل في الوقت نفسه كثيراً من : حال مسر حياته يقاسون الولايات على أيدي نساء محبات للانتقام لا يمكن كسح جماهن . إن بعض المحدثين ينهمون يوربيديس بأنه من المدايعين عن حقوق المرأة بينما كان يسميه النقاد القدماء عدواً للمرأة ، وهم في رأيي على حق أكثر من المحدثين . وهو لم يكن يرى على الأقل أن من الممكن إهمالهن لا هو ولا إيسخولوس أو سوفوكليس .

الآن وقد توهر لدينا من الأسباب الوجبة ما يبرر ارتيابنا على كل حال في فكرة الغلو في كبت النساء وازدراثن ، دعنا نفحص بعض الأدلة من جديد كشأن رجل البوليس السرى السالف الذكر . اقتبس جب قول أريستوفانيس ، من الصعب على النساء الخروج ، في عبارة له تم فيما عدا ذلك عن فرض الرقابة الشديدة على الفتيات غير المتزوجات ، وهذا القول يوحي بفكرة أن النساء المتزوجات أيضاً كن يحتجن احتجازاً شديداً في بيوتهن . وأى مشتغل بالأدب الكلاسي قد يفكر في أن كسينوفون تحدث في موضع ما عن وضع المتاريس والقضبان على أبواب مساكن النساء . ولكننا لو رجعنا فعلاً إلى عبارة أريستوفانيس لاستفرت في أذهاننا فكرة مختلفة ، فالعبارة قد وردت هكذا على لسان سيدة متزوجة : « إن من الصعب على النساء أن يارحن بيوتهن مع ضرورة البقاء في خدمة الزوج واستبقاء الخادم متبقةطة وغسل أجسام الأطفال وإطعامهم . . » وقد سمعنا عن أشياء مشابهة لذلك في زماننا وهكذا يحنى من هذه العبارة الجانب المفرغ على الأقل .

ولكن ألم يكن يسمح للمرأة بالخروج ما لم يكن هناك شخص يحافظ عليها ؟ إننا نجد العمون لها من ثيو فرائستوس الشط ، وهو يصف بدقته المعتادة في التمييز بين الناس ثلاث شخصيات يكسا أن ندعو كلا منها « ضيعاً » ، فالأولى تمثل شخصية رجل شحيح بشكل واضح ، من خصائصه أن يأتي



قبل اليوم المعين لدفع الأجور ليظهر ثلاثة قروش تكون قد استحققت له عن قرص، كما أنه يقلب البيت رأساً على عقب إن أضاعت زوجته قطعة من ذات القرشين، وهو يجمع أى أمرى يتحدث نفسه أن يأكل إحدى ثمار التين من حديقته أو من النقاط ثمرة أو ريتونة من بستانه، ثم هالك، صاحب الكسب الحرام، على حد تعبيره الحرفي وهو الذى ينقص المكبال والمقياس ويسوء من تغذية عبده ويتطفل على أصدقائه بطرق حقيرة، ولكن الذى يعنيننا حالياً هو الرجل الثالث فهو يشتري حاجات الأسرة كما جرت عادة الرجال، ولكنه بدلاً من تسليمها لعبده لكي يحملها إلى البيت يحملها هو بنفسه فى إحدى طيات جلبابه القصير سواء كانت لحماً أو خضراً أو أى شيء آخر، ومع أن زوجته قدمت له صداقاً قدره ٠٠٠ره جنبه فإنه لم يكن يسمح لها بخادم. وعندما كانت تخرج كان يتأجر فتاة صغيرة من سوق النساء لترافقها. وهذا النوع من الخفارة يعتبر *one either* أى السلوك الذى لا يلبق بالرجل المهذب، ويعرفه ثيوفراستوس بأنه نقص فى الكرامة الذاتية متى كان للأمر علاقة بالنقود. ومعنى هذا أن السيدة كان لها الحق فى أن تجدد الرفقة المناسبة عند الخروج، ويصح أن أضيف هنا شيئاً بسيطاً من ثيوفراستوس يساهم بصفة هامة فى تأييد حجتنا مع الاعتدال التقليدى عن إسفافه. فإحدى شخصياته هى المهرج الجلف، الذى يقف عند باب الحلاق ويعان على رؤوس الأشهاد أنه يريد أن يشرب حتى يسكر وإذا رأى سيدة قادمة رفع ثيابه وكشف عن عورته أو لقد كانت طرقات أثينا نغم كافة أصناف الناس، وربما كانت هناك أسباب قوية تدعو إلى عدم السماح للفتيات بالسير فى الطرقات دون حراسة.

ثم إذا تمعنا فعلاً فى السدة الخاصة بالمتدريس والقضبان نجد أن الغرض منها هو ألا يتيسر للحوارى أن يلدن أطفالاً دون أن يدري (١) وكذلك

(١) يلاحظ كديمون وأرسطو أن إعجاب الأطفال يحمل المذنب صالح أكثر وهدوء سيدة ومها يكسب لها يود ولا شك أن يتم معكرو عن يمتل أن يود فى يته

لنفع تسرب أى شيء من أماكن إقامة السيدات بطريقة غير مشروعة ، وهو ما يعيدنا على أن نذكر إلى أى مدى كان يعتبر البيت الإغريق مصعاً كذلك . فبصرف النظر عما يمدد من الأعمال المنزلية كان البيت يقوم بصنع الملابس من الصوف الخام وطحن القمح الذى يحضره الزوج وخبر الطحين وإعداد الطعام للشتاء . ويجب علينا فى الحقيقة أن نستبعد من أدهانا فكرة وجود أكثر أنواع الحيوانات التى نعهدها ، عند الإغريق ، وكذلك السلع التى تنسبها فى لغافات . ومن الواضح أن وظيفة المرأة كانت ذات مسئولية عظيمة . إن هولبود تبين لنا عن طريق الموعظة والمثال أن الحب القائم على العواطف والمغامرات هو الأساس الوحيد الذى يمكن أن يقوم عليه الزواج السعيد الدائم ، فمل كان الإغريق حتماً يلبد المشاعر ومبغضاً لبني جنسه لأنه كان يفكر بطريقة مخالفة ؟ لقد كان على علم بقوة الحب الرومانتى إذ كان يصفه بوجه عام بأنه شيء هدام ( انظر أنتيجونا سطر ٧٨١ نظم سوفوكليس وميديا سطر ٦٢٨ وما بعده ليوريبيديس ) عندما يكون الحب معتدلاً فلا شيء أكثر منه سحراً ولكن أنقلدنى من النوع الآخر ! ) .

فلنسلم بأن الرجل كان له خليلانه وما هو أسوأ من ذلك ، فما قولنا فى البذرة الواردة فى خطبة نيأيرا ؟ ماذا نقول حقاً ؟ لقد كانت تستخدم أحياناً كما لو كانت وثيقة معتمدة كالمستندات الحكومية — فما هى ؟ إنها ملاحظة ذكرها فى معرض المرافعة فى قضية شائنة رجل خبر الحياة طيبة محلفين مكونة من مائة آئيتى عادى أو أكثر من مائة ، وكثير منهم انضم إلى تلك الهبة ليطمر بثمانية وثلاثين قرشاً أجراً يعينه على مداد حساب ناعم السمك فى آجر الأسبوع ! إيهن حليلات ولاشك ! جوار حسان ! ماهطات التكاييف بالنسبة لأمثالها ! ومع ذلك فشكراً لك على مجاملتك ! ، وعلى أى حال ماذا قال صاحب العساة ؟ إن حجته كلها موجهة إلى إبرار صحامة الجرم الذى اقترفه ستيغانوس بدس أرومة أجنية فاسدة على الدولة .

وليس هذا من قبيل التظاهر بالبلبل فهو يرجع في أصله إلى العكسة القائلة إن الوليس تنظم قوماً تربطهم وشائج القربى ، ولهذا فهو يقول : لا بأس من وجود الخبيلات والجواري ولكن حين نصل إلى الأساس الصلب الذى تقوم عليه حياة بوليسا وجوهر وجود أسرتنا كل على حده ، إلى من نمتجه ؟ إلى زوجائنا ، إن هذه العبارة بدلا من أن تتضمن معنى احتقار الزوجة ترفعها إلى مكانة لا ندركمها النساء الأخريات ، فهي تنمى في الحقيقة مع الدليل المستمد من الرسوم الموجودة على الأصص . إن مقومات حياتنا المادية والاجتماعية المختلفة كل الاختلاف وميراثنا من القصص الرومانتيك خلال القرون ، هي التي تحملنا على أساءة تفسير مثل هذه العبارات وعلى محاولة نفخض الدليل المستمد من الرسوم والمسرحيات . إن عالما كثير الحبيوة والنشاط والحساسية مثل ت . ر . جلوفر يمثل سقراط وهو يقول ما يأتى لصديق : « هل ثمة أحد هو محل لثقتك أكثر من زوجتك في الشؤون الخطيرة أو نتحدث إليه أقل منها (١) ؟ » . ولكن معنى العبارة الإغريقية الواضح هو : « تأمنه على أشياء أخطر ومجادلاتك معه أقل ؟ » والسبب في أن مجادلاته مع زوجته أقل هو كما يفهم ( من مضمون الكلام ) أنهما يعملان معاً بروح المشاركة والتفاهم .

وقد كان الأولاد يرسلون إلى المدرسة ويتعلمون القراءة والكتابة والشعر والموسيقى والألعاب الرياضية ، أما البنات فما كن يذهبن إلى المدرسة فقط - وهو دليل آخر على أن الآثينيين كانوا يحتقرون النساء ويفضلون عليهم الأغنياء من الرجال . ظلمة المرأة الآثينية كانت أمية وغير متعلمة حتى أنها حين كانت تذهب إلى المسرح وتسمع أتيجونا تتكلم بهذا السمو وهذا الدكاه

(١) كتاب جلوفر « من بريكلس إلى ديبس » ص ٣٤٦ ، كسموفوس « الأدب والادب » ص ١٢

لا بد أنها كانت تمنح عيبتها اللذين نهبنا عن عطاء في دهشة وهي تقاسم أي مخلوقة كانت تلك ، وكيف استطاع سوهوكليس أن يتصور أن امرأة يمكن أن تكون هكذا .

من الواضح أن هذا تهريج مصحك فاشيء للمرة الثانية من خلطنا بين آثينا وماثيستر .

إذ أننا أولاً نفترض أمراً يجوز أولاً يجوز أن يكون صحيحاً عندما نحتاج بأن الفتاة ما دامت لم تذهب إلى المدرسة فهي أمية ، فهناك من الأطفال من نعرف أنهم تلقنوا فن القراءة في البيوت . وما نعلمه عن الذكاء الإثنى وحسب الاستطلاع يوحى إلينا بأن اقتراضنا لم يكن سيديداً . وثانياً أن من لا يعرفون القراءة اليوم يعدون دون البشر ، غير أن هذا لا ينطبق على مجتمع كانت الكتب فيه نادرة بالقياس إلى زماننا . ولقد كانت القدرة على القراءة غير مهمة عند الإثنى العادي إذا قورن بنا . فقد كانت مصادر الترية الحقيقية عنده هي المحادثة والمناظرة والمسرح أكثر مما كانت الكلمة المكتوبة .

فلم يكن يرسل الولد إلى المدرسة ليعمل من أجل إجازة دراسية تعطيه ميزات تعليمية ( أي مؤهلات لوخيفة أفضل من العمل البدوي الذي تقدره أكثر من الإغريق بكثير ) . فقد كان الإغريق يرسل الأولاد إلى المدرسة بطريقة المحدودة الشاذة لينلقوا التدريب على الرجولة في الأخلاق والآداب والتربية البدنية . فالقراءة والكتابة كانت تدرس ولكن هذه الأوليات ما كان يمكن أن تستغرق وقتاً طويلاً جداً . وفيما عدا ذلك كان منح الدراسة الأولية عبارة عن تعلم الشعر والموسيقى Mousikê والتربية البدنية . وقد كان للموسيقى أهمية كبرى ما عداها وسيلة للتدريب على القيم الخلقية والحكمة ، كما أنه لم يعمل الأثر الخلقى الذي للرياضة البدنية gymnastikê .

ماذا كانت تعمل الفتاة في نفس الوقت ؟ لقد كانت تتلقى الإرشاد من

أما في الصون التي تهم المواطنة في قلبنا في عمل البيت ، هذا ذلك مهيأ  
أما إن قلنا في التدبير المبرر فإنه يبدو محترماً بصورة واضحة وقد رأيناكم كان  
هذا العمل موسوعاً وعظيم المسؤولية فافتراساً أنها لم تتعلم شيئاً غير ذلك  
لا يستند إلى دليل . وفكرة أن والدها ما كان يناقشها في شأن من شؤون  
السياسة تدحضه عبارة نيأيرا .

ولكن هل كانت عند النساء فرصة للمشاركة في التعليم الحقيقي الذي  
كانت تنجيه أئتنا ؟ كلا ، بالنسبة للجمعية العامة والمحاكم إلا عن طريق غير  
مباشر . وماذا كانت الحال بالنسبة للمسرح ؟ هل كان يسمح للنساء بالدخول ؟  
هذه نقطة شبة جداً والدليل عليها منواتر واضح ومقرر بالإجماع . نعم  
كن يدخلن ، وسأعطيك مثلاً على ذلك أو مثلين ، فأفلاطون إذ يستسخر  
الشعر عامة والمأساة خاصة يسمى الشعر نوعاً من البلاغة موجهاً للأولاد  
والنساء والرجال والأرقاء والمواطنين الأحرار دون تمييز . ولن يكون هذا  
مفهوماً إذا كان المواطنون الذكور وحدهم هم الذين يسمح لهم بمشاهدة  
المهرجان . في مسرحية الضفادع التي كتبها أريستوفانيس زاه يحمل إيسخولوس  
يهاجم يوريبديدس ، فجوره ، فهو يقول : « أن يوريبديدس قد وضع على  
المسرح من العاهرات الفاجرات ما جعل النساء الفضليات ينتحرن خجلاً ،  
فما الذي كان يلجئن إلى ذلك إن كن مقصورات في خدورهن ؟ » وحياة  
إيسخولوس ، القديمة تروى لنا أن الجوقة التي كانت تتكون من ربات الانتقام  
في مسرحية « اليومئديس » كانت مربعة إلى حد أن الأولاد كانوا يموتون  
من الفرع كما كانت تصاب النساء بالإجهاض — وهي قصة فيها منغف كثير  
ولكن من الواضح أن من رواها لأول مرة كان يعتقد أن النساء كن يذهبن  
فحلاً إلى المسرح .

إن الدليل قاطع ولكن في معالجة هذا الموضوع يظهر أن الأدباء محارون  
ودن مبرر لرأى سبق لهم أن اعتفوه عن أى الأشياء هو الصواب الذي

لأعبار عليه . لقد كانت النساء الآثيبات يعشن بلا ريب في حالة تكاد تكون  
عزله شرقية . وقد كان يتحلل الملهاة الآثيبية القديمة ابتداءً يبدو أنه كان  
يجعلها عبر مأساة للأولاد والنساء على الإطلاق . وهذه الأسباب تغالى  
بعض الكتاب فأكدوا أنهم لم يكن يحصرن أية جملة تمثيلية قط . وقد أعلن  
أدباء آخرون أن مشاهدة النساء للمآسى كان مسموحاً به أما مشاهدتهن لتمثيل  
أية ملهاة فقد كان محالاً ، (١) بن محالاً كل الاستحالة هذه خلاصة الموضوع .  
ولكن « هي » ولو أنه يعتقد في العزلة الشرقية إلا أنه يبين أن الدليل  
يدحض فكرة أن النساء كن يستطعن حضور المأساة دون الملهاة . وحتى  
لو خالفنا الدليل لما ظفرنا بشيء ، لأن ربايعيات المأساة كانت تنهى بالمرحبة  
الساتورية Satyric ( وهي تدور حول آلهة الغابات الفجرة ) التي يتضمن  
النموذج الوحيد الباقي منها ( مسرحية كوكلوبس Cyclops التي كتبها  
يوربيديس ) طائفة من النكت يمكن أن تخلج بورصة الأوراق المالية ذاتها .  
لقد كان في هذا الأمر إذن مساواة وحرية بين الجسسين غير معبودة لدينا  
وإن لم تكن كذلك بالنسبة لباريس (٢) القرن الثامن عشر فيما يبدو .

ولكي نلخص موضوع المناقشة يبدو إذن أن الأدلة التي لدينا لا تكاد  
تبرر أمثال عبارة ( كانت النساء مقصورات في خدورهن في شبه عزلة  
شرقية ) لأن الأدباء لم يفرقوا تفرقة واضحة بين البنات والنساء المتزوجات  
ولا بين ظروف الحياة في أثينا وفي مانشستر ولا بين الأدب الكلاسي  
الإغريقي والأدب الحديث . ولقد كتب ثيوكرينوس Theocritus في أوائل  
القرن الثالث قبل الميلاد أرجورة مملوءة بالحياة ، وصف فيها كيف أن  
سدة من سيراكور رارت صديقة لها في الإسكندرية وسارت معها في الطريق

(١) « مسرح الآثيبى » بقلم « هي » طبعة ثالثة (الناشر : بكارد . كبردح )

(٢) صحيح أن ملهاة والمسرحية الساتورية كانت معتريتين بالدين ، ومما يدل جميع  
أصناف نسي الأشياء من أمثالها .

إلى مهرجان . هذا وقد قيل لما هؤلاء من السببات الدوريات فانظروا مقدار ما كن يتمتعن به من حرية أكثر من الآثنيات ، هذا الاستنتاج يبدو أنه غير مطابق ، وأولى بنا أن نقول ، لقد كتب هذا الشعر في الإسكندرية وهي مدينة عالمية في عصور كانت دولة المدينة فيه قد انتهت وأصبحت السياسة من اختصاص الملوك وموظفيهم لا من اختصاص المواطن العادى . فانظروا في أى المواضيع المختلفة إذن كان يكتب الشعراء إذ ذاك ، فهم لم يقتصروا على المواضيع التى تمس حياة البوليس بل أخذوا يكتبون فعلا عن الحياة الخاصة والحياة المنزلية .

ولكن الاعتقاد فى عزلة النساء ، قد أصبح من الرسوخ بحيث أننا إن أخبرتنا امرأة متزوجة فى إحدى مسرحيات إرسنوفانيس عن السبب الذى من أجله كان يصعب عليها أن تخرج فإننا لا نرى من الضرورى عليها أن نصيح السمع ، فنحن نعتقد أننا نعرف السبب . كما أننا عندما نجد دليلا قويا على أن النساء كن يذهبن إلى المسرح ليشاهدن فى أغلب الأحيان مسرحيات لا ينبغي لنا بالتأكيد أن نسمح لنسائنا بمشاهدتها فإننا ناضل لنحضر هذا الدليل . وبعد ذلك يبدو أن الحجة اللاشعورية التى تتبادر إلى أذهاننا هي ، لو كان هذا هو وضع النساء عندنا لكان سببه هو معرفة الرجال وكتبهم للنساء ومن ثم فهذا هو السبب فى عزلة النساء فى آثينا . فلا بد أن الآثينى كان يهمل نساءه ومن المحتمل أنه كان يزدرين ما لم يكن أجنيات أو يكن جذيرات بالاحترام الزائد . ثم تأخذنا الدهشة عند رؤية الأصص ونحضر الدلائل المستمدة من الشخصيات النسوية التى فى المأسى ونسبى الأحوال المادية الخاصة بالحياة الإغريقية وكيف أنها كانت بدائية تسلم وجود تفرقة حادة بين أسلوب حياة كل من الرجال والنساء ومصالح كل منهما ونحن نجد من يؤكد لنا بأن الآثينيين كانوا يعمدون إلى صحة العشقات لأن هذه الطائفة من النساء كانت متعلبة بينما كانت روجاتهم جاهلات

عيات ما أطلعها من سداجة إنه ليس بالأمر المجهول حتى يتنا أن الفتاة التي تعيش وحدها في مسكن صغير وتداول وجبات طعامها خارج البيت قد تمارس حياة اجتماعية أكثر نشاطاً من المرأة المتزوجة . ولقد كانت هؤلاء العشيقات من المعامرات اللاتي طرحن وراء ظهورهن الجانب الجدي من الحياة . لقد كن يتمتعن الرجال طبعاً ، ولكن الواحد منا لا يتزوج من هذا النوع باصديق العزيز .

وإننا لنذكر كذلك عدم الأهلية القانونية للمرأة وخاصة بالنسبة للورثة ، ونقول إن هذا يدل على مدى استهانة الآثيني بكرامة المرأة مع أنه لا يدل على شيء من ذلك . وإنما يدل فقط على ما كنا نعرفه من قبل وهو ما أقل ما كان الرجل الآثيني أو على أى حال القانون الآثيني — وقد لا يكون نفس الشيء — يفكر في راحة الفرد ومصالحه بالقياس إلى مصالح المجتمع الاشتراكي أى مصالح الأسرة والبوليس . ويجدر بنا في هذه المناسبة أن نذكر قضية أبولودوروس Apolodorus ضد بوليكليس Poycles ( في ديموستينيز ) .

فقد كان أبولودوروس رجلاً ثرياً من رجال الأعمال مكلفاً بإنشاء سمينة وتجهيزها بمعدات الحرب . وقد قررت الجمعية العامة أن هناك حملة حرية لازمة على جناح السرعة . فكان يتعين على أصحاب مثل هذه السفن أن يأتوا بها إلى رصيف الميناء في اليوم التالي وأن يشتغلوا بها ستة أشهر . فهل كان أبولودوروس مشغولاً حينئذ ببعض شئون العمل المعقدة ؟ وهل ملعه في حلال الأشهر الستة أن أمه على فراش الموت ؟ وهل الحارة المحصون له كانوا قليلين وغير أكفاء ، وحتى إذا احتاج إلى بحارة صالحين كان يتعين عليه أن يدفع أجورهم بنفسه ويجازف بذلك أملاً في استرداد ماله ؟ كل ذلك من سوء الطالع ، غير أنه لا يعبر من الأمر شيئاً فأبولودوروس



كان يمكنه أن يكلف صديقاً بأن يعي شئونه فليثل هذه الأمور كان الأصدقاء ، أما أنه وبصح أن تموت وهو بعيد عنها ، أما أن يترك أبولودوروس سفينته فهذا ما لم يكن يستطيعه . ولم يكن هناك من يقول إن أبولودوروس عومل معاملة حشة كذلك التي تلقاها الوريثة وإن كان المبدأ واحداً في المجالتين ، كما أنه لا ينبغي علينا أن ننظر في مركز الوريثة دون أن ننظر في الأهمية الدينية والاجتماعية الأسرة والمسؤوليات الخطيرة التي على عاتق رب الأسرة . إن انقراض أسرة هي وطوقسها الدينية كان يعتبر كارثة كما أن ضياع ممتلكاتها كان مصيبة لانكاد تقل عن ذلك . دعنا إذن على كل حال نعطف على الوريثة ، كما نعطف على القواد الخففين الذين كان جزاؤهم الإعدام — ولكن دعنا لا نتسرع فنقرض أن القانون الخاص بالورثيات يدل على احتقار النساء . وبعد كل ما سلف فلنذكر أن رب الأسرة عند الرومان في مرحلة من مراحل تاريخهم يمكن مقارنتها بهذه المرحلة عند الإغريق كان له قانوناً سلطات الحياة والموت على أفراد أسرته . فعلينا إذن أن ننظر إلى الأمر في ملابساته الكاملة قبل أن نبدأ في إستنباط النتائج .

ماذا يمكن أن يقال عن حياة الرجال الاجتماعية ؟ يجب علينا كذلك هنا أن نتذكر طبيعة أدلتنا . فلم يحدث أن آثينا تولى رسم صورة مجتمعه المعاصر أو حتى الكتابة بطريقة يمكن معها أن تظهر مثل هذه الصورة بصفة غير مباشرة . إن لدينا الكثير من التفاصيل الجلية ولكن علينا أن نكون دقيقين جداً في الاستنتاج بصفة عامة .

نحن نعرف أن آثينا كانت مطوية على نفسها سياسياً وأن الخطوط التي تفصل بين العد والحر والأجى والوطنى كانت حاسمة بصعب تحطيمها وقد كان الانتحال غير القانونى لمركز سياسى سام يعاقب عليه عقاباً صارماً . وأنه لم الطبعي بالنسبة ل أن يطل أن هذا الانعطواء السياسى كان مقرباً

باطواء اجتماعي مشابه له . سير أن ذلك يكاد يكون حظاً في الرأي . لقد كان معنى « المواطن » هو « العضو » وكانت العضوية تابعة لبليلاد . ولقد كانت العضوية لا تسمح للأجسي إلا مكافأة له على تقديم خدمات جليلة غير اعتيادية . وهو الذي كان بالطبع « عسواً » في دوله أخرى . ولم تكن كلمة « مواطن » تعني شخصاً هذا متفقاً .

بل إن فكرة الإنسان العامة عن المجتمع الآثني هي أنه كان خالياً بصورة غير عادية من الحواجز المترتبة على المركز السياسي أو المال . وهناك صورة سارة جداً لكفالوس Cephalus الشيخ الكبير وردت في أول « جمهورية » أفلاطون . فقد كان أجنبياً ( ولو أنه كان غنياً ) ولكنه كان كثير الاختلاط بالناس في أرقى مجتمع آثني . ولقد كان سقراط فقيراً ولم يكن من أسرة ممتازة ولكننا نجدته يتعشى مع العظماء دون إحراج لأي جانب ، كما كان يتحدث في المدينة مع الأرستقراطيين والعمال حديث الند للند . ولم يكن سقراط وحده فقيراً بل كان أنستشيبس Antisthenes كذلك ، وكان زميلاً له في مادة كسينوفون . ولكن هذا الدليل دليل مختار بطبيعة الحال ، فلم يحدث أن ذكر أفلاطون وكسينوفون الأثرياء الذين ينقهم الدكاء والوضيعة الذين يدعون الرفعة .

ولكن هناك دليلاً آخر — متى نظرنا بعين الاعتبار إلى الحالات المنطرفة — وهو معاملة الرقيق . فقد عرفنا من الرسوم التي على الأواني ومن مصادر أخرى أن الصداقة الحقيقية بين العبد وصاحبه لم تكن غير معهودة ، إذ كان يتوقف كل شيء على الأهراد الذين يعيهم الأمر . فصفوه القول أن الاستعباد كان أمراً يحدث اعتباطاً معكم من عند كان مهدداً دكاً . وقد كان الآثنيون من الحكمة بحث بمروء بين المركز الاجتماعي وبين الرجل . فالعبد الذي يظهر بحريته طبقاً للتقاليد المعهودة كان يبال المسكافة

الاجتماعية الخاصة ، بالمهاجر ، أو الأجنبي المقيم وليس هناك ما يوحي بأنه لم يكن يبال في المجتمع تلك المسكاة التي كانت تؤهله لها أحلافه ومواهبه . ولم يعبر إنسان بأنه كان في الأصل عدواً إلا مرة واحدة في إحدى مراهقات المحاكم التي انتهت إلينا ، والذي قام بذلك هو أبو لودودروس الذي كان أبوه ياسيون عبداً رقيقاً ومديراً محترماً جداً وأخيراً أخلفاً لصاحب بنك ثم أصبح مواطناً عند ذاك .

كان الفاصل السياسي بين الأغنياء والفقراء قد أصبح حاداً جداً . ولكن إلى أي حد كانت هناك تفرقة اجتماعية أيضاً ؟ للإنسان أن يقول إنها لم تبلغ باناً كبعد الحد الذي بلغته بينا . فلم يكن يستطيع الإنسان أن يقول إن آثنيياً بعينه كان عديم الجدارة بمجرد أن يفتح فمه بالكلام . كما سبق أن رأينا أن الأشياء الجوهرية في التربية كانت متاحة للجميع على قدم المساواة . ولما نستطيع في أذهاننا فكرة أن الآثيني كان متساهلاً في تقديره للناس أكثر مما . وهو على أي حال ما يجب أن ننظره في مجتمع أكثر تعرضاً لصروف الزمن .

فدلاً يحلل كتاب « الشخصيات » ، الذي كتبه ثيوفراستوس ثلاثين عاماً أو نقيصة مختلفة وليس من بينها الوضع المتعالي ، وإنما هناك الرجل النافه المتكبر الذي يحتفظ بعبد حبشي . وإن كان عدده غراب حقول أليف فإنه يدربه على الصعود والهبوط وثباً على سلم صغير . وهو يلبس حلة من زرد فإذا سار في موكب مع العرسان الآخرين فإنه يحتال في المدينة لابساً عمامة الركوب والمهمار ، وهو يكثر من قص شعره ويحتفظ بقرد أليف . وعدده حلة خاصة للبصاعة فإذا أعارها لإقامة صارة عليها تعتمد أن يصل متأحراً حتى يسكر الناس بعضهم بعضاً قائلين « ها هو ذا صاحب الحلة » . وثمة عضو حكومة الأقلية وهو لا يخرج أداً قبل التطيرة من بيته ( لبست أنه لا صلة له بشيء مبتدل كالأعمال التجارية ) ويدلس عمامة رشاقه منعمدة

ويمتاز بأن شعره ليس بالطويل ولا بالقصير وكذلك لحبه وبأن له آراء سياسية ضد الديمقراطية كقوله : لتكن لنا لجنة قوامها شخص واحد شرط أن يكون رجلاً قوياً ، ويجب أن يلزم هؤلاء الأشخاص حدودهم ، . حقاً إن هؤلاء الناس يفتخرون إلى الألفة ، كما يفتخر المتعجرف الذي لا يتكلم إلا إذا بادره أحد بالحديث ، وهو الذي يحتق بالناس في بيته ولكنه لا يشاركهم الطعام . على أن هؤلاء الناس ليسوا من السوء بدرجة المتظاهر بالبراءة .

إننا نسمع الشيء الكثير عن « حسن الطلعة » وعن الصفات الشخصية وإن هناك ما يفرى الإنسان بالظن أنك لو كنت قبيح الصورة لاعتبر الرجل الذي يقابلك ذلك إهانة شخصية له . ومن هنا قول أبولودوروس (ديموسثينيز الفقرة ٤٥ — ص ٧٧) : « إن وجهي ومشيتي السريعة وصوتي الجمهوري لا تجعلني ، على ما أعتقد ، أحد المظلومين من الناس بل إنما محسوبة علي . لأنها تضادق الآخرين ولا تنفعني بحال ، فكان الصوت الخفيض والمثبة المحيية موضع الاستحسان . أما التأنق ( كما رأينا ) فلم يكن من صفات المهذبين . ولكن التافه المنكبر هو الذي يبذل جهداً خاصاً ليحفظ بأسنانه بيضاء ناصعة . ومن جهة أخرى فالرجل الممقوت هو صاحب الأسنان السوداء . والمنطرس يشمر عن الجانب الأكبر من ساقبه عندما يجلس ، وهو الذي يرد على الطارق على الباب بنفسه . ويترنم بالأغاني في الحمام على مسمع من الناس ويضع المسامير في حذائه . وبالمثل فإن الرجل الوضيع يلبس حذاء مرقعاً كله . ويقسم أنه أصل من القرون . وهناك شخصية تدوك كما لو كان صاحبها حديث العمة ، وهي شخصية من يتعلم في الكبر ، وهذا الرجل يحفظ الشعر ويتلقى دروساً في الرقص والمصارعة وركوب الخيل عندما يلمع السمين أو يتجاوزها . وحطاه هو في أنه يتباهى بنفسه في غير الألوان وفي غير طائل . وليس في هذا ما ييم عن تفوق المركز الاجتماعي والرجل

العبى يمارس الرماية وقذف الرمح مع الصنية ويتقدم من المعلم ليريه كيف يفعل ذلك ، كما بما المعلم لا علم له بذلك هو الآخر ، .

إنه ليشق على أن أترك ثيوهرستوس ولذلك لن أتركه حتى أقدم للقارئ الرجل الفضولى والرجل البطيء العبى ولو لم تكن لهما علاقة بقطعة البحث ، فالرجل الفضولى يريك أقصر طريق للوصول ثم بضل بك وهذه طريقة هيلينية جداً — وهو يجرب تقديم البيذ لرجل معه طبيبه من تناوله فيتسبب فى سقوط المسكين طريح الفراش . وإن أقسم بمياً قال للمحاضرين : إنكم لتعلمون أن هذه ليست المرة الأولى التى أقسم بها ، . والرجل البطيء العبى يجمع قائمة حسابه ويكتب المجموع ثم يقول : ما مقداره ؟ ، وهو يبقى فى المسرح ينظ فى سات عميق وحده بعد أن يكون قد غادره الجميع . وعندما يسأله سائل عما إذا كان يعرف عدد الجائر التى مرت فى طريق المقابر فى الشهر الفائت يجب : كم أود أن يكون لى ولك نصف عددها ، وبعد أن يتناول العشاء بشراهة يضطر إلى الاستيقاظ بالليل ليلذهب إلى محل الاجتماعات العامة ، وفى طريق العودة يخطيء فيدخل بيت جاره فيعضه الكلب هناك . ولكن يجب علينا أن نعود إلى موضوع بحثنا ولو كان معنى ذلك أن نتجاوز الرجل الذى تعوزه الكياسة وهو الذى يغنى لحبيته بالليل وهى تعافى من الحمى أو يدعو شخصاً عائداً لتوه من رحلة منهكة للخروج معه فى زهرة ، والذى يقيم من نفسه حكماً ثم يجمع بين الخصوم قسراً ولو لم يكن لهم غرض إلا الصلح ، والذى ، عندما يعتزم الرقص يمسك بتلابيب رجل آخر لم تلعب الخمر برأسه . .

إن العقر بدعت على الأسى بطبيعة الحال هو يجعل الإنسان عاجراً عن مساعدة أصدقائه كما يشتهى وقد احتج بوكسيثيوس Euxtheus بأن حصمه قد سحر من أمه لأنها تباع ، الأشرطة فى السوق ، وهذا مخالف للقانون

الذى يجبر رفع دعوى قذف ضد أى شخص يؤاخذ موافقاً أو موافقة لآله يشتعل بحرقه فى السوق ، وقد يكون مما له معنى أن وجود قانون (أو إحدى مواد) كان أمراً ضرورياً ، غير أن السوق كانت له صفة خاصة إذ أنه يدعو إلى افتراض أن الإنسان وعد من الأوعاد (قارن ذلك بما جاء عن سوق الكذابين) ، وقد قرر كذلك الوعد الذى أقام الدعوى ضد بوكسيثوس أن أمه كانت ممرضة قاتلاً وما فى ذلك ؟ لقد نكبتنا الحرب نكبة فادحة كما نكبت كثيرين غيرنا وقد اشتغل كثيرات من النساء الإثنيات ممرضات وإن شتمت أعطيتكم الأسماء .

وكثيراً ما يؤكد البعض لنا ويقدمون أدلة كثيرة أو قليلة على أن الإغريق كان بكرة العمل البدوى . وقد نبذ زيمر هذه الفكرة (فى كتابه والكومنولث الإغريق) باعتبارها مثيرة للسخرية وهذا نعمت موفق فيما أظن . وكما أننا عند النظر فى معاملة النساء يجب علينا أن نتخلص من بعض الأفكار السائدة فى عصرنا قبل تقدير موقف الإغريق حق قدره ، فكذلك علينا أن نبحث فى أمر الذين نتخذهم حجة نرجع إليهم ، كما نبحث فى أحوالهم . لقد حرت عادتاً أن نتحدث عن العمال بلمحة من بردد تعاويز صحريه . أما الإغريق فقد كان من بساطة العقل بحيث لا يفكر تفكيراً ضخماً هكذا بل كان يود أن يعلم فى أى شيء يشتغل وكيف يشتغل . مثال ذلك والعهد على سقراط (كما روى كسيوفون فى الاقتصاديات ، الفصل الرابع ، الفقرة ٣) أن بعض الدول (وهى ليست آتدا) كانت تحظر على رعاياها الاشتغال بالحرف الميكانيكية ، وإنه لنحظر بالان تواء القاعدة المنفعة أو أى كانت متبعة عند رابطة التحديف للهواة ، وهى ألا يسمح لمن عمارس حرفه يدوية بأن يكون مجدفاً هاوياً . وقد معجب لوحود مثل محاولة الترفع هذه عند سقراط من بين الناس جميعاً ، ولكننا لو نظرنا فى العبارة التى وردت بها لما وجدناها تطوى

على ترفع بالمرّة . والذى يؤدى إلى هذه العبارة هو ما بأتى : « إن الناس  
ليذكرون بالسوء تلك الحرف المسماة بالحرف البدوية . وهى فى الحق  
ليست ذات شأن يذكر بين طبقات المجتمع لأنها توهم أبدان الذين يتكسبون  
من قسرم على الجلوس وإعاقق أياهمم خلف أبواب موصدة ، بل إن البعض  
ليشتغلون طوال الوقت بجانب النار ، ولكن عندما يصاب الجسم بالهزال  
يضعف العقل أيضاً . وفضلا عن ذلك فإن هذه الحرف الميكانيكية لاتدع  
للإنسان أى وقت للفراغ لمراحة مصالح أصدقائه أو الصالح العام ، ولا يمكن  
أن تكون هذا الطبقة من الناس لذلك ذات فائدة كبيرة لأصدقائه أو للدفاع  
عن وطنه ، وبعض الدول بالنقص ولاسيما أكثرها ميلا إلى الحرب لاتسمع  
للمواطن بالاشتغال بهذه الحرف البدوية » .

وبالنظر إلى بساطة عقل الإغريق فإنه كان إذا واجهته مسألة لا يسأل  
عادة عما إذا كانت مسألة رجعية أو شعبية أو تنم عن انحراف بل كان يميل أن  
يسأل عما إذا كانت صحيحة . أما الدول التى قصرت ، كما قبل ، الحرية السياسية  
على تلك الطبقات التى كان من المحتمل أن تكون دائماً على استعداد للخدمة  
العسكرية ( والفلاحون من بينهم بكل تأكيد ) فربما كانت نظرتها إلى  
وظائف الدولة نظرة ضيقة ، ولكن لا يمكن لهذا السبب أن يقال عنها إنها  
تحتقر العمل البدوى لذاته .

ولنفرض أننا طبقنا استدلال سقراط المطلق على زماننا . فقد حدث أنى  
كنت أكثر هذا الكتاب وأنا جالس بجوار المدفأة ، فلو كان على أن أمشى  
إلى « برد جووتر » فى الأسبوع القادم لغشى على إلى جانب الطريق ولكان  
واجباً على بالتأكد أن ألقى ما على من أُنقال . ولو استدعيت للقيام بوظيفة  
محلف لكان من المحتمل أن أطلب إعفاءى معتدراً بأن جامعتى ، لا يمكن أن  
تستعنى عى ، ولوحد سقراط دون شك أى تأثير اهتمامه كمرد وإن كان لاند

أن يطل أن مواطن حقير ويضع مهبي في قائمته السوداء ، غير أنه ليس من سلامة الرأي أن نستنتج أن سقراط ، كان يحقر الأعمال العسكرية ، أما الذي كان يعترض عليه سقراط في الحقيقة فإنه لم يكن العمل البدوي بل التخصص ، ففلاحة الأرض كانت تقابل منه بأعظم ثناء . فهو لم يكن يسخر من الفلاح .

ثم دعنا لا ننسى أن سقراط يتكلم هنا من الوجهة السياسية لا الاجتماعية وهو لم يكن من ذلك النفر الذين يسمحون للاعتبارات التي لا علاقة لها بالموضوع بأن تتدخل في قرع الحجة بالحجة ( ومثله في ذلك أفلاطون وأرسطو ) . ونحن نرى ناحية أخرى من سقراط في كتاب « الذكريات » ، فصل ٣ فقرة ١٠ فرى سقراط الذي كان يقضي أكثر وقته مختلفاً إلى « المصانع الصغيرة » ، « والمراسم » ، ( وهما لا تكاد تمكن التفرقة بينهما ) ويناقش « العامل » ، في حرفته ، وقد كانوا على حد قول كسينوفون يجحدون محادثته مفيدة جداً . وقد سجل كسينوفون محادثة مع صانع للزرد يدعى بستياس . إذ قال سقراط « ما أروع اكتشاف الزرد . إنه يمنع الوقاية حين تكون الوقاية لازمة ، ومع ذلك فإنه لا يمنع الإنسان من استخدام ذراعيه . أخبرني يا بستياس Pistias لماذا تنقاضي ثمناً أكثر من الصانع الآخرين ؟ إنك لاتصنع زرداً آمناً من غيرك فهو مصنوع من نفس المواد ، وقد أوضح له بستياس أن زرده أكثر تناسقاً ، فقال سقراط « ولكن هب أن المشتري نفسه كان غير متاسق الأعضاء ؟ » فقال بستياس إنه بعيد تنسيق الزرد حتى يلائمه ، فأجاب سقراط « أي أن التناسق ليس شيئاً مطلقاً ولكنه يتوقف على لابسى الزرد ، وبالطبع إن كان المقاس مضبوطاً فإن ثقل الزرد يتورع بالتساوى ويكون أقل استرخاءاً للملاحظة ، فقال بستياس « هذا صحيح ومن ثمة ترى أعنفد أن صاعتي تستحق ثمناً مجزياً ، ولكن هالك من الناس من يفضلون الزرد المزخرف زحرفة خثمة » .



لقد كان هؤلاء العمال يهتمون بأنفسهم وكذلك بحرفهم . وكثيراً ما تعطس الرسوم التي على الأواني المعدة للبيع العادي مطراً في مصع ، وهي في أغلب الأحيان تربي الحراف وهو يوم براجل عمله . وهذا أمر طبيعي غير أن ثمة حرفاً آخرى قد نقش أيضاً . لقد درج الحرافون الإنجليز في أكثر الأحيان على زخرفة سلعمهم بنقش صور الفراشات أو الأكوخ الربعية الجبلية عليها ، ولا أعلم أن المصع ذاته قد رسمت له صورة على صحيفة من صحاف الطعام أو على إريق . وقد تكون هناك أسباب أخرى لهذا ولكن كون الحراف الإغريقي على الأقل كان يستخدم حرفته الخاصة لأغراض الزخرفة يوحي بأنه لم يكن ثمة أي اعتراض من الوجهة الاجتماعية العامة ضد هذه الحرفة .

ونحن نسمع في الدكريات ، عن رجل يدعى بونيروس Eutheros وهو من ذوى الأملاك الذين جنبت عليهم الحرب الحراب مثل أرسنارخوس الذي مر ذكره من قبل ، وقد اشتغل بعمل يدوي وإن كما لا نعرف ماهو إذ كان يعتقد أن هذا أفضل من محاولة التطفل على الأصدقاء ، وقد قال له سقراط : هذا حسن جداً ولكن ماذا يكون حالك عندما تتقدم بك السن فلا تستطيع العمل المرهق ؟ أولى لك أن تبحث عن شخص يحتاج إلى مدير لمزرعته يتولى أمر العمال ويشرف على الحصول إلى غير ذلك . إن مثل هذه الوظيفة تفيدك أكثر عندما تتقدم بك السن ، وهي نصيحة حكيمة جداً ولكن ماذا قال بونيروس ؟ إنه قال شيئاً هلينياً صمياً مما سمعته أنا نفسى من رجل يونانى كان صاحب مطعم صغير فاشل في مدينة يونانية صغيرة حالتها متدهورة فيها كنت هناك أمتنع يوماً بعد يوم بوحات طعامه الذى كان يطهوه طهواً رائعاً اضطر إلى الرضوح وقبول وطبعة في مطعم قائم في مكان آخر ، فأخذت أعير له عن الأمانى الطبية التى مكتنى لعى اليونانية الحديثة من التعبير عنها ، غير أنه قاطعنى قائلاً مطرة وإشارة تهاى عن مرارة

لاحد لها . لقد أصبحت تابعاً . هذا ما صط ما قاله يوثيروس . إنه لم يكن  
يهمة أن يعمل بيده بقدر ما كان يصيره أن يكون تحت إمرة سيد آخر .  
وهو كما قال مترجم « يوهن » ، طريقته اللادعة ، إلى لا كره كراهية شديدة  
يا سقراط أن أحضج للعبودية ، وقد أشار سقراط إلى أن إدارة ضيقة مثلها  
مثل إدارة مدينة وأن هذا هو عكس ما يضطلع به العبد من أعاء . ولكن  
يوثيروس كان عنيداً فقال : « أنا لن أعرض نفسي لتقريع أى إنسان ، وقد أجاب  
سقراط : « هذا صعب ولكن عليك أن تبحث عن شخص لا يكثر من اللوم —  
رجل عادل تستطيع أن تؤدى له العمل الذى فى وسعك وترفض ما عداه . »  
لسنا ندرى ما صنع يوثيروس — ولكن أن تكون مديراً لضيقة ! يا للسهاء !

ويبدو فى الحقيقة أن موقف الإغريق من العمل كان حساساً جداً .  
فلبس ثمة شئ يسمى « عملاً » ، بهناه المجرد ، فكل شئ يتوقف على نوع  
العمل وبصفة خاصة على ما إذا كان يبيع لك أن تكون سيد نفسك . إذ لم يكن  
بهم المواطن أن يراهم الأرقاء فى العمل . والعرق يسهما هو أنه كان يستطيع  
أن يتوقف ويذهب إلى الجمعية العامة أما العبد فلم يكن يستطيع ذلك . لقد  
كان بشتياس يستطيع أن يفلق حانوته متى أراد على « أن يعود فى الغد » .  
وكانت له مهنة شيقة فكان يستطيع أن يفخر بعمله . وإذا كان زبائمه  
لا يحبون سلعه فقد كان يمكنهم أن يذهبوا إلى مكان آخر .

لقد كان الإغريق يقدرون العمل فهم لم يهككونوا يترفعون عنه  
أو يسافون مع العاطفة تجاهه . وعندما قال أرسطو : « إن المهنة البدوية  
والميكانيكية لا تجعل من المرء مواطناً صالحاً » ، كان من المستحيل ماقتضه  
فى أمر من صميم اختصاصه . فلم يكن الأمر أمر ميل مع الهوى بل كان  
إعمال الرأى والحكم الصحيح الذى بقاء على المقدمات المطقية . لقد هجا  
اروستوفانيس كليون باعتباره بائع جلود عيبى سوقى ولكنه لم يكن يسحر

من ماعى الجلود الدين لم يكونوا عبيد أو يكونوا من السوق وقد قال سقراط عن ابن اتوتوس Anytus الذى قام بمقاضاته (الكريات ٣٠٤) «أنا لا أظن أنه سيستمر في المهنة الحقة التي وصعه فيها أبوه، وهي في الظاهر أيضاً بيع الجلود» وهو قى ذوكهاية ومقدرة، إنه أعلى من ذلك حقاً. ولقد كانت المهنة التي يطر إليها في الحقيقة نظرة ازدراء هي البيع بالتجزئة، وقد كان السبب في ذلك من جانب هو التحيز من الوجهة الاقتصادية — فثل هذا الشخص لا يعمل شيئاً في الحقيقة بل هو يتطفل على غيره — كما كانت له ناحيته الأدية (راجع سوق الكذابين)، بل يكاد الإنسان يقول إن له ناحيته الجمالية وذلك لأن مثل هذا الشخص لا يعمل شيئاً يطلب المهارة أو يمت على الرضا. وعندنا في الإنجليزية كلمة «بائع بالمتجر» Counter-jumper، تفيد هذا المعنى وقد قال ديموسثينز (١) وهو يتكلم عن التجار المحترمين، إن الناس تعتقد أن الرجل الذي يجمع بين المهارة والأمانة في عالم التجارة والمال رجل ممتاز أو ملفت لل نظر، وهناك كثير من الفلاسفة والكتاب عند الإغريق المتأخرين كانت كتاباتهم عن العمل تتم عن احتقاره، غير أن ذلك قد حدث في عالم منشق على نفسه هو الذي كان قد ابتدع «الثقافة».

ولكى نختتم هذا الفصل الذى يمتاز إلى حد ما بالاستطراد ربما جاز لنا أن نتساءل عما إذا كان هناك أية مميزات عامة لهذا الشعب لم نذكرها أو لم نعطها حقها من الدراسة. أجل إن ثمة إحدى هذه الخصائص.

ربما كان القارى قد دعر لأن متقاضياً يسلم علماً بأنه رفع دعواه لكي يثار من حصمه (٢). إن هذا دافع نحصر نحن على إحضائه، بل هو بالفعل

(١) عبد الدفاع عن «مورمو» أحد أصحاب سوق

(٢) أطر ما قلته من ٢٨٢

كما يسعى الدفاع لا الاتهام إلى إثباته . ومع ذلك فقد كان الإغريق يطالبون به صراحة في محاكمهم وهذا موضوع يستحق الدراسة شيء من التطويل .

وواضح أن القول بأن الإغريق كانوا يحين للأحد بالثأر لا يعتبر تفسيراً للموضوع إذ ربما كانوا كذلك ، ولكن لماذا ينبغي لنا أن نعتبر مثل هذه الرغبة في الانتقام إحدى المزايا ؟ هي كذلك بالتأكيد بشرط ألا تكون النية في الانتقام شيئاً غير معقول . وبين هذا الأمر الخلق الوحيد عند ثيوفراستوس الذي يصعب علينا فهمه وهو خلق الرجل الساحر . لقد تغير معنى كلمة « ساحر » تغيراً تاماً . فقد كانت « السخرية » عند الإغريق عكس التفاخر والمبالغة . والنقيض كان يعتبر نقبسة كقبيضة سواء بسواء . لأن الرجل الإغريقي كان يعرف دائماً ما علمه التاريخ السياسي الحديث للناس ، وهو أن عكس الرجل الخبيث ليس الرجل الطيب بل نوعاً آخر من الخبيثاء . فالسخرية لم تكن تعنى بحس الشيء فقط بل الافتقار إلى الصراحة أيضاً وإحفاء الدوافع الحقيقية وإظهار الدوافع الزائفة . فالرجل الساحر عند ثيوفراستوس إلى جانب ما كان ينطوى عليه من المعاني الأخرى كان هو الذي يذهب إلى أعدائه ليحدثهم بدل أن يظهر لهم الخضاء ، وهو الذي يمدح في مواجبتهم أولئك الذين كان يهاجمهم في غيبتهم ثم يظهر المظف عليهم في هزائمهم . وهو الذي يظهر الصفح عن يشمه ويعفو عما يقال في حقّه (١) ، ويمكننا أن نؤكد تماماً من أن الذي يعترض عليه ثيوفراستوس ليس أن الصفح مجرد من الصدق . فكيف أن المعجب بنفسه يدعى أنه ألطف بكثير مما هو عليه ، فكذلك عكسه وهو الرجل الساحر يدعى أنه أخط بكثير مما هو عليه ( فصلاً عن غير ذلك من الأمور ) وكيف يستطيع الإنسان أن

(١) قلاص ترجمه . ج ١

يظهر حقارة العقيلة بوصف أشد من تكلفه الصبح عن أعدائه ؛ وحتى ادعاء القيام بذلك مثير للاشمئزاز ، أما القيام به حقاً فهو شر من ذلك .

هذا مطلق إغريقي صميم ، أحب أصدقاءك وأكره أعدائك . هذه حكمة لم يفكر أحد قبل سقراط في تحديها . أما نموذج النبيل عبد أرسطو فهو الرجل ذو العقل الكبير ، أو ذو النفس العظيمة ، ( والمرادف الحرفي اللاتيني لذلك وهو magnanimous قد اكتسب معنى مخالفاً يعتبر أبعد ما يكون عما كان يعنيه أرسطو ) فهو ليس كالرجل الساخر بل هو الصريح في صداقته وعداوته معاً لأن الإخفاء هو علامة الضعف .

في إمكاننا أن نفهم أن عدم الإخلاص أمر منكر ، والذي علينا أن نفهمه هو أن الصبح عن الأعداء أمر منكر كذلك ، أما انثار منهم فواجب واضح .

هذه الأخلاق الغير المسيحية على الإطلاق قد نمت من جهة طبيعة المجتمع الإغريقي الذي تعتبر فيه الجماعة ذات أهمية أكبر مما عندنا ويعتبر الفرد ذا أهمية أقل من الوجهة الاجتماعية . فالفرد عضوي أسرته وأولاً ثم في دولته ، فأية إساءة إليه تعتبر إساءة إما إلى أسرته أو إلى دولته طبقاً للحالة ، ويجب عليه أن يثار لها لصالح أسرته أو دولته ، ولدينا نحن أنفسنا مثل بريد على ذلك في الدقة والبراهنة التي على أمين الصندوق أن يتبعها في إدارة الأموال ، فليس له أن يسخر بأموال غيره من الناس .

غير أن ما هو أهم من ذلك كان تأثير معنى التعظيم (التكريم) عند الإغريق ، فقد كان الإغريق حساساً جداً بالنسبة لمكائنه بين رملاته . فقد كان منحمساً وكان ينتظر منه أن يكون منحمساً في المطالبة عما هو واجب له فالتواضع لم يكن ينظر إليه بعين الاعتبار الكبير . أما أن العذبة ، هي جراؤه فقد

كانت نظرية يعتقد الإغريق أنها حق محض ، خزانة العصبية ( الأريثي arete أو الامتياز البار ) هو ثناء رملاء الإنسان ودرسته عليه . وهذا أمر ملحوظ خلال الحياة والتاريخ الإغريق بأكمله . مد اللحظة التي تأثر بها البطل الهومييري ذلك التأثير الفريد من أجل جأشته وإليك ملاحظة نموذجية :

لو أنك تمنعت في طموح الناس لمجبت لما ينطوى عليه من عدم التنقل ، لا إذا أدركت مبلغ تعطشهم إلى الشهرة ، كي يتركوا وراءهم ذكراً للعصور التالية جميعاً ، كما قال الشاعر ، فهم على استعداد من أجلها لمواجهة أى خطر ولو كان خطراً أشد من الذى يواجهونه من أجل أولادهم ولبنل أنفسهم وتحمل أنة مشقة مادية والتضحية بحياتهم من أجلها . فلهذا لعمري تتصور أن الكيستيس Alceus كانت على استعداد لتضحي بحياتها من أجل أدميوس Admetus أو كان أخيليس على استعداد لبذل حياته ليشارك لباروكليس Patroclus لو لم يعتقد أن امتيازهما ( أريثي ) يبقى خالداً كما خلد بالفعل ؟ أجل إنه كلما ازداد نبى الإنسان كانت شهرته الباقية وامتيازها الخالد مصدراً لكل عمل بعمله .

هذا كلام ديونيا الحكيم وهو يرمى سقراط في مادة أفلاطون . إنها نظرية إغريقية طبيعية ونحن نجد لها عند الفلاسفة والشعراء والخطباء السياسيين كما نجد لها مثلاً في كتاب ، الأخلاق ، لأرسطو .

فلو طلب منا نحن أن نعرف عظمة النفس لكنا نشترط أن تظهر صفات معينة في العمل باستمرار ، وإن كنا لا نطلب من صاحب النفس الكبيرة أن يكون مدركاً لهذه الصفات ، كما لا يرى أنه ينبغي عليه أن يطلب الاعتراف العام بهذه الصفات ، ولكن ما الذى يقوله أرسطو ؟ إنه يقول إن صاحب

النفس الكبيرة ، ( أو العقل الكبير أو كليهما ) هو الذى يعتبر نفسه جديراً  
بأمور سامية ، وأنه حقاً جدير بها - أما الذى يقدر نفسه فوق قدرها فهو  
مغرور فى الحقيقة والذى يقدرها دون قدرها فهو ذو عقل وصيغ والرجل  
الجدير بصعائر الأمور ولكنه يصع نفسه فيما ياسبها يكون معقولا ولو أنه  
لا يكون ذا عقل كبير ، أما ذو العقل الكبير فالهدف الذى يحمله نصب عينيه هو  
أسمى شيء نعرفه وهو ما تقدمه للآلهة أى ، التكريم ، وعنده بطبيعة الحال كل  
الفضائل وإلا لما استحق أعظم تكريم ، غير أنه لا يقدر حتى التكريم ذاته  
بأكثر من قيمته . أما تقديره للثروة والقوة السياسية فهو أقل لأنهما دون  
التكريم لأن رغبة الناس فيهما هي من أجل التكريم وإذا أريد شيء من  
أجل شيء آخر فإنه يكون بالضرورة أقل من ذلك الشيء الآخر . وذو العقل  
الكبير يركب الأخطار من أجل غايات صغيرة ولا يجهد نفسه فى الصفات لأنه  
يحتقرها ولكنه يعرض نفسه للخطر الكبير ، وهو فى وقت الخطر الكبير  
لا يكثر بجباته لاعتقاده بأن الحياة لا تستحق أن يحياها دون تكريم  
وليس من عادته الإعجاب بالأشياء فليس ثمة شيء يراه عظيماً . (١) وهو  
لا يحمل حقداً لأحد ويفضل أن يتجاوز عن الإساءات ولا يرميه أن يمدحه  
أحد أو أن يمدح أحداً ، وهو لا ينكلم بطبيعة الحال عن ذم من الناس من  
وجهة شخصية كما لا يتكلم عن الفرد بسوء حتى ولا عن أعدائه إلا إن كان  
يقصد أن يهينهم . عمداً هذا هو متان الرجل العظيم ، عند هذا الفيلسوف .  
وعظمته تظهر من ناحية فى عدم اكتراثه بالمديح ، وهو الوازع الطبيعى  
للعمل ( فسقراط يقول مثلاً إن القائد الكفء هو الذى يصح فى طبيعة  
الصوف ، الطموحين الذين هم على استعداد لمواجهة الخطر من أجل المديح )

(١) كما قال مفلور مرة ، ليس ثمة شيء عظيم الأهمية فى الأمور سوى ما أيقنه على  
الإصلاح فسيبته حتماً

وتقوم عظمته على تقديره العادل لنفسه وللأمور الخارجية معاً . والتواضع الخالي من التكلف ليس من بين فضائله ، هو يعتبر الكرامة فوق كل شيء ( وحتى عندما يعتبرها كذلك دون معالاه ) . وما هي هذه « الكرامة » ؟ إنها ليست ذلك الإرغام الذي تعب به « الكرامة » . صدنا . إن أقرب كلمة إغريقية إليها هي كلمة ايدوس dos ، أى الخجل . والكلمة التي يستخدمها أرسطو هنا هي « تيمى » Time ، وما له مغزى أن هذه الكلمة هي أيضاً الكلمة الإغريقية العادية لكلمة « ثمن ، أو « قيمة » . وكلمة « estimate » في الإنجليزية مشتقة منها في الحقيقة ، وهذا يشير إلى الأهمية التي كان يعلقها الإغريق على الاعتراف العام بصفاته وخدماته .

على أن من الخطأ أن نفترض أن الإغريق العادي كان ينظر منه أن يكون إعجاب بالضرورة بهذا الخلق بقدر إعجاب الفيلسوف . فلأن الفيلسوف كان يفكر مثلاً بفكر بقية الناس لما كان فيلسوفاً قديراً ، وبالرغم من ذلك ومع التسليم بوجود التجريدات والإتقان الفلسفي في الصورة فإننا نجدها إغريقية محضة صميمة ولو أنها مبالغ فيها ، كما أن بعض تعاضلها تشير إلى بريكليس ( فقد عاد بريكليس من وليمة إلى بيته ليلاً ومعه شعلة يحملها عبده له كان في حراسته ، وكان يتبعه رجل يكبل له الساب والإهانات طوال الطريق ولكن بريكليس لم يعرف التفاتاً ، ولكنه عندما وصل إلى بيته النفث إلى عبده وقال « رافق هذا الرجل ليدي الطريق إلى منزله » . أما الأمر المشترك بين « صاحب النفس الكريمة » الذي عاه أرسطو وبين الإغريق العادي فهو شعوره القوي بقيمته ورعته في « الكرامة » حتى يلقى من الناس ما يستحق هذا إلى حد بعيد هو الذي يفسر لنا الرغبة في الانتقام التي لا يشوبها الخجل ، فالإنسان يرى لزماً عليه أن يثار لنفسه فتحمل الإساءة فيه معنى أن المسيء أفضل منك



والخلق الذى يدعو إليه أرسطو غير عادى فى كون صاحبه لا يحمل حقداً لأحد ، ولكن لم لا ؟ ليس ذلك لأنه يعتقد أن الحقد خطأ من الوجهة الخلقية بل لأنه يرى أن الحقد حقير لا يليق بالإنسان فهو لا يفتخر ولكنه يحقر وبس ، أما الإغريق العادى فلم يكن يفعل كلا من الأمرين .

لاحظنا كيف أن الإغريق كان مهتماً بالحصول على التقدير أو التكرام ، *time* ، أى ما يستحقه من الثناء ، فقد كان وما زال مهتماً بأن يلعب دوره ( وما لم ندرك ذلك نجد السياسة الإغريقية الحديثة غير مفهومة لنا ) ولهذا فإننا نقابل عندهم فكرة « النضال أو المنافسة » *agon* ، فى كل مناسبة . وهذه الأشياء التى ترجمها ترجمة ضعيفة بكلمة « الألعاب » كانت تسمى فى الإغريقية *agones* ( مباريات ) فالحفلات المسرحية كانت *agones* ، أى ألوانا من النضال بنافس فيها الشاعر شاعراً أو الممثل ممثلاً أو المتعهد بإعداد فريق للرقص فى الحفلات المسرحية من بعد آخر . وكلمة ألم *agon* فى الإنجليزية مأخوذة مباشرة من *agon* ، الإغريقية . فإن الألم الشديد فى النضال هو الذى يكشف حقيقة الرجل .

وإلى جانب هذا كله كان هناك الطموح الشخصى الذى كثيراً ما كان يحمد الإغريق ذو الموهبة العالية أن من الهمال التحكم فيه ، وأحسن تعليق على ذلك هو وصف ثوكودديدز للقائدين الإغريقين فى « الحرب الفارسية » وهما ثيموستوكليس الآثينى الذى نظم معركة سلاميس ، وباسنياس Pausanias القائد الإسبرطى فى بلاتايا . فقد أرسل باوسنياس بعد بلاتايا بقليل ومعه أسطول متحالف لتحرير الجزر ولكنه أخذ يعمل بعصب روع الحلفاء إلى الحد الذى جعلهم ينتمسون من الآثينيين أن ينسلخوا القيادة منه . فاستدعى الإسبرطيون باوسنياس ليحسب على الاتهامات الموجهة إليه بظلم الأفراد والتأمر مع العرس . فقد كان بدوأنه يتصرف كحاكم مستبد أكثر من تصرفه كقائد ( ثوكودديدز —

الكتاب الأول فصل ٩٥) وحيث أن الإسبرطيين لم يرسلوا من محلعه فقد انتقلت القيادة إلى الآثينيين بحكم عيابه ، غير أنه أصر ثانية سبعة واحدة وسرعان ما ظهر في سهل طروادة وهو متأمر مع فارس فاستدعي ثامة إلى إسبرطة وأطاع الأمر لاعتناقه على منصبه الملكي وثروته . ولم يوجد دليل ضده غير أن احتفاره للقوانين واستخدامه الآداب العامة الفارسية كان بلوح أنها تثير الريبة في أمره ، وفضلا عن ذلك فإنه كان قد تجاسر على كتابة اسمه على القربان الذي قدمه الإغريق لدلفوى تحقيقاً لنذرهم وشكراً لها على الانتصار . كما أن بعض الرقيق من الإسبرطيين أكدوا أنه كان يتأمر سرراً معهم للقيام بحركة تمرد . وفي نهاية الأمر استدرجه القضاة الإسبرطيون حتى اعترف بمعاملاته مع الفرس . وقد انتجأ إلى معدلينغادى القرض عليه فترك فيه حتى مات جوعاً .

غير أن الدليل ضد باوسنباس أشرك ثيمستوكليس في الجريمة ، فقد تعالى هو الآخر وتكرر وكان متطرفاً وانتهازياً بحيث لم يكن من الميسور قياده بالعمل مع أرستائديس ، ولهذا فقد استخدم الآثينيون حمام الأمان أي النفي من المجتمع ، ففى ثيمستوكليس وذهب إلى أرجوس عدوة إسبرطة التي لم تكن تقبل أن نصالحها قط . وقد مر الإسبرطيون جداً بلاريب حين استطاعوا أن ينقلوا هذا الخبر إلى أثينا ، فأرسل الآثينيون جماعة للقض عابه ولكنه وجد من يحذره . ولم يأنف ثوكوديديز ( هذه المرة ) من ذكر قصة معامرات روماتيقه ذلك أن ثيمستوكليس مر أولاً إلى كوركورا في كورفو ومنها إلى أدراسنوس Adrasus ملك الملوسيين ولو أن علاقتهما بهما بعضهما بعض لم تكن طيبة وقد تصادف أن أدراسنوس كان عائداً عن بينه فتقدم ثيمستوكليس إلى روجة أدراسنوس متوسلاً فأشارت إليه أن يحبس على الأرض إلى جوار المدفأة وأعطته طفلاً ليحمله فلما عاد أدراسنوس استطاع ثيمستوكليس أن يشرح قصيته بصعته متوسلاً فقال : لقد أسأت

إليك، وصاحب المروءة بثأرم أنداده فحسب أما في حالتي الراحة فإيه لا حول لي، وفضلاً عن ذلك فإن عارضتك فقط في طلب قدمته على حين أن التماسي الخالي منك هو أمر حياة أو موت، إن مما يحرق في نفس الإنسان أن يجده هذا السياسي الداهية في مثل هذا الوضع الموهوميري، وقد حماه أدرستوس حتى سافر إلى آسيا بمحض رغبته. وقد أرسل خطاباً إلى ابن كرسيس الذي خلف أباه قال فيه: «لقد ألحقت بأهلك عندما هاجمنا ضرراً أكثر مما ألحقه أي إغريق آخر ولكنني قدمت له كذلك خدمة عظيمة بتعريض الإغريق على ألا يعرفوا تفهمه. إنني صديقكم ويمكن أن تكون خدمتي لكم عظيمة. وإنني أريد أن أنتظر عاماً ثم أفد عليكم، فوافق الملك. وتعلم ثيمستوكليس خلال العام كل ما استطاع من لغة الفرس ونظمهم ونادى الخطوة لدى الملك وأصبح حاكم مغيبسيا في آسيا حيث مات في النهاية بسبب المرض، وكوفي، إقامة ثمثال له. «ولو أن ابرمض يقول إنه تعاطى السم عندما وجد أنه وعد الملك بأكثر مما يستطيع أن ينجز، وهذه الإشارة الخبيثة لإغريقية صبيحة ولكن يبدو من غير المحتمل على الإطلاق أن رجلاً بارعاً مثل ثيمستوكليس يمكن أن يكون قد حفر لنفسه مثل هذه الحفرة. «هكذا كانت نهاية باوسيباس الإسبرطى وثيرمستوكليس الآثيني اللذين كانا أبرز رجلين في زمانهما، (١) إن المآسي الإغريقية وهي تتكلم عن (التكبر أو الغطرسة Hybris) لا تفعل ذلك دون سبب كما أنها كثيراً ما تمثل الأمل، على أنه شرك وإعراء

وأخيراً يجب ألا ننسى أن الإغريق كانوا من أهل الجيوب وربما كان هدوء الص الإغريق وانرا العقل الإغريق وطريقة الإغريق السبعة الخاصة

، بالوسط الذهبي ، مشجعة لفكرة أن الإغريقى كان لا يحس بالانفعال ولا يتكبر صغوه . وربما كان مما قوى هذه الفكرة لدينا الأفكار المستمدة من المذهب الكلاسى الحديث neo-classicism فى القرنين السابع عشر والثامن عشر ، وكذلك التمثيل الحديث للمسرحيات الإغريقية التى تقف فيها نساء لا تستبين العين ثيابهن على هيئة جماعات كأنهن تماثيل جامدة على المسرح ويرتلن فى وحدة مصطنعة ومربكة إلى حد ما قدراً كبيراً من الأساطير الكثيية .

هذا خطأ كله ، فأى شيء لانهزه الإثارة التى يمكن التحكم فيها لا يمت إلى الفن الإغريقى الكلاسى بسبب ، وإن كان من الجائز أنه ينتمى إلى ما بعد العصر الكلاسى . وإذا لم يترك إيسخولوس أو لم يجعل منك شخصاً أفضل فعنى ذلك أنك لم تفهم إيسخولوس (وإن كان من الجائز أن فهم إيسخولوس الآن محال بدون دراسته ، غير أن هذا موضوع آخر . ) .

دعنا نتمعن لحظة فى موضوع المسرحيات الإغريقية . إن مناظر الحوار لا نجد فيها إشكالا ففها من الفن المسرحى ما فيه الكفاية . إن ما يحدث بين المناظر بعضها وبعض ، هو الذى يبعث على الانقباض الشديد ، من أمثال جماعة الفتيات الرشقات أو الشيوخ الذين يرددون كلام سوينبرن فجأة . فعلى الذين يحدون ذلك كشيئاً ألا يلوموا الإغريق ، فما كان الإغريق ينحملونه خمس دقائق . هذه التراثيم الخاغية لم تسكن قط كلاماً يلقى بل كلاماً يفنى ، ثم هو لا يعنى فقط بل يصاحبه الرقص ، ولا يصاحبه الرقص لحسب — كما يحدث أحياناً بالمعل عند إعادة تمثيل هذه المسرحيات فى العصر الحديث — بل يدور الرقص فى حلة مستندرة قطرها تسعون قدماً تقريباً . صحيح على وجه التقريب أنه لا يعرف شيئاً فى الوقت الحاضر عن الرقص الإغريقى إلا القائمون بتعليمه ، أما محاولة إعادة تدبائه من الصور القليلة المرسومة على

الأواى فهو من أخطر صروب المعامرة ، لأن رسامى أواى الزهر لم يكونوا يعرفون شيئاً من قواعد المطور أو يهتمون بها ، فإن رسوما موكاً على شكل إفرير لم يكن ذلك يعنى إلا أن موكاً فى صورة إفرير يكون رخيفاً مانع التأثير على أحد الأواى لا أن الرقص كان هكذا غير أننا قد تركنا أوران الشعر وهى التى تضبط الإيقاع على الأقل كما تعتبر الخطط الأساسية للموسيقى والرقص إن جازلنا أن نقول ذلك ، ومن كل ذلك يتضح تماماً أن الرقصات كانت قوية التعبير متنوعة وصاخبة كلها كان ذلك ضرورياً . ومن ذلك نستطيع أن نرى مثلاً أن أوضاع الرقص عند إيسخولوس كانت مؤسسة على فكرة معمارية أما عند سوفوكليس فقد كانت تشكيلة للغاية ، وقصة جوقة إلهات الانتقام فى مسرحية (اليومسيديس) Eumenides (ص ٣٠٦) ولولأنها مخيفة لكنها تشهد بأن إيسخولوس لم تكن تتحكم فيه أفكار الوقار الكلاسى الحديث . وليس من الصعب أن نعثر على دليل من نوع آخر ، فمثلاً فى مسرحية سبعة ضد طيبة التى تمتاز بالعظمة الهائلة والإثارة تمثل الجوقة نساء أصحاب العدو الذى يهاجم البلدة بذعر قاتل . وهنا ينسب إيسخولوس أن شخصيات المأساة الإغريقية لا سيما التى يكتبها إيسخولوس تتحكم فى مشاعرهما ، كما ينسب أن الجوقة تتبع دائماً الإيقاع المنتظم ذى الثلاثة مقاطع وذى الخطوات ٤ - ٤ ثم ينظم هذه الجوقة بحيث تسير على موسيقى ذات فترات زمنية يمكن التعبير عنها بالأرقام  $2^+$  وإذا حاول أى معلم للرقص أن يمثل الضجة والاضطراب على المسرح فدعه يجرب هذه الحطة ( فإذا كانت هواية الموسيقى معدومة تماماً عند القارئ . ودعه يكرر تنويعات ١ - ٢ - ٣ - ١ - ٢ - ٣ - ٢ - ٣ - ٥ ، ويحاول أن يمشى خطوات متفقة مع العد ، على أن يحطو خطوة عند الطق بكل رقم - ١ - ) إن المأساة الإغريقية فى الحقيقة تشبه الأوبرا الحديثة فيما تجمع من الحوار الدرامى والشعر والموسيقى والباليه فى دائرة قطرها تسعون قدماً . وهى لاتشبه الأوبرا من حيث أنها تدور حول ناحية

أساسية هامة ولا يقتصر فيها على استماع الكلمات بل أيضاً على ما نطوى عليه من معنى .

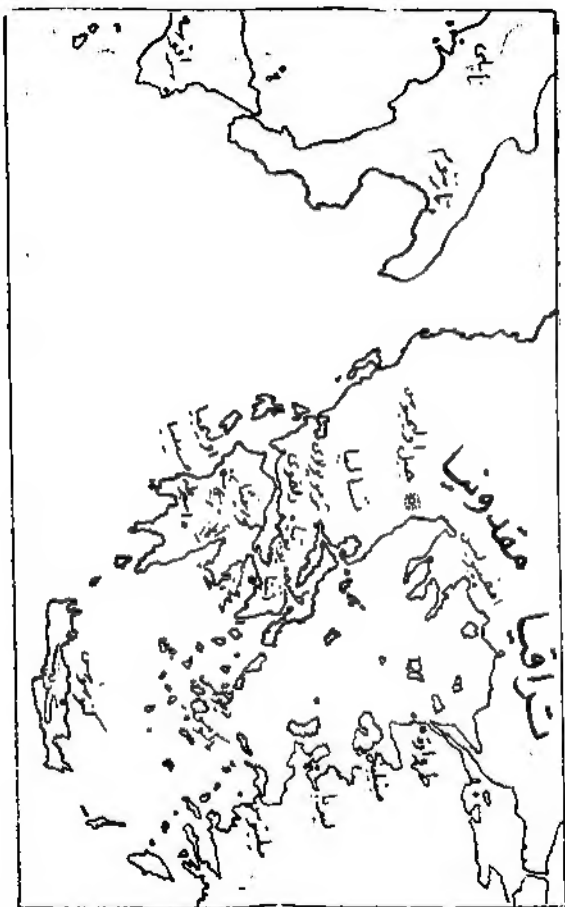
لعل هذا البحث القصير يبين أن الإغريق لم يقصدوا أن يطهروا بمظهر قلة الدوق بل على النقيض من ذلك كانوا يطلبون الحياة والحركة واللون ، فقد لونوا تماثيلهم بالفعل ، وقد كان هذا الاكتشاف صدمة لكثير من العلماء الحديثين .

دعنا نأخذ مثلاً آخر على طبيعة الإغريق السريعة الانفعال بصفة جوهرية . كلنا نعرف أن كلمة حب باللغة الإغريقية هي « إيروس » eros ، وإيروس هو الذى يضئ الرقة على ميدان يكادلى وهو إله الحب كما أنه المقابل الإغريق لكوبيد . ولكن إلى أى حد تعتبر هذه المقابلة مضبوطة . إن « كوبيد » معناها الرضة . والصفة المشتقة منها وهى كيوبيدوس Cupidus لا تحمل معنى أكثر من الطامع . ولكن لفظة « إيروس » تقرن فى الذهن بأشياء مختلفة ، فهى تعبر عما يقرب من الفرح المشبع بالشهوة . ويمكن استعمالها عادة فى مقام لا علاقة له بالحب . فمثلاً أجاكس . Ajax فى مسرحية سوفوكليس قد أصيب بالحزى الشديد وأخذ يهدد بالانتحار ، وكانت امرأته تكميسا . Tecmessa فى حالة يأس كما كان رجال أجاكس ، إذ كانوا سيتركون دون أى دفاع أمام أعداء أجاكس الذين يضمرون لهم الشر ، غير أن أجاكس ادعى أن نوسلاتهم قد فتت فى عنقه فقرر أن ينحمل العار ويعيش ، وعدت رقصت الحوقة وعنت نشداً بدأ عبارة « إن الشهوة ( إيروس ) تهزنى وسرورى الطامع يمدنى بالأحقة » ، وإيروس ليس إلها للحب بل هو شئ يهز الأعصاب والمشاعر .

« وإراستيس . erastes » الإغريقية معناها العاشق كما أن بريكليس

الوقور أو الأولمبي كما كان يدعو أرسطوفانيس قال للأنبيين في حطته التأنيبة ، يجب أن تكونوا إراستاي *erastae* أي عشاقا معاميد لأنبياء ، أي ، لتكن آثينا بالنسبة لكم شيئاً يهز منكم شعاف القلوب ، وهذه العبارة لا تصدر من رجل بارد الطبع .

إن النظرية الخاصة ، بالحد الأوسط ، هي من خصائص الإغريق ، ولكنها لا ينبغي أن تفريتنا بأن نطن أن الإغريق رجل لا يكاد يشعر بالانفعالات النفسية كأنه شخص مسلم محذر لا ينحرف عن جادة الطريق ، إذ هو على النقيض من ذلك كان يقدر ، أوسط الأمور ، تقديرأ بالغا لأنه كان ميالا إلى التطرف . فإننا نحن أهل الشمال أميل إلى الكسل كما أننا نحن إعجابأ خفياً للتطرف . إن العيب الذي يمتاز به الشعر الإنجليزي الرديء — كما في بعض المسرحيات الضعيفة التي تنتمي إلى عصر البصابت مثلأ أو الشعر الثاقف الذي كتبه درايدن ليبرسل . *Purce* شعر أجوف طنان كأنما يحاول الشاعر أن يبحث في نفسه شيئأ أشبه بثورة المشاعر . أما العيب الذي يلزم الإغريق فهو ميلهم إلى الصقل الذي لا حياة فيه . فلم يكن للإغريق حاجة كبيرة إلى التظاهر بالانفعال بل كان ينشد ضبط النفس والاتزان لأنه كان في حاجة إليهما . أما التطرف فقد كان يعرفه أكثر مما ينبغي . وعندما كان يتكلم عن ، أوسط الأمور ، لم تكن فكرة الوتر الرنان بعيدة قط عن ذهنه . ، فالوسط ، لم يكن يعنى الاقتدار إلى الشد والانفعال بل كان يعنى لإحكام الشد الذي يطلق العمة الصحيحة الواضحة .







## محتويات الكتاب

صفحة	
١	١ — مقدمة .....
٨	٢ — تكوين الشعب الإغريق .....
٣٩	٣ — البلاد .....
٥٢	٤ — هومر .....
٨٠	٥ — البوليس ( دولة المدينة ) .....
١٠١	٦ — بلاد الإغريق الكلاسيك ، العصر القديم .....
١٠٧	أيونيا .....
١١٢	إسبرطة .....
١٢٢	أثينا .....
١٤١	٧ — بلاد الإغريق الكلاسيك ، القرن الخامس .....
١٧٧	٨ — الإغريق في الحرب .....
١٩٨	٩ — إضمحلال ( البوليس ) .....
٢٢١	١٠ — العقل الإغريق .....
٢٥٥	١١ — الأساطير والدين .....
٢٦٨	١٢ — الحياة والأخلاق .....

مطبعة الاستقلال الكبرى

٨ ش نجيب الريحاني ت : ٧٤٨٦